تراث الإسلام

٢

أدب الدنيا والدين

لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى

المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

حققه وعلق عليه

مصطفى السقا

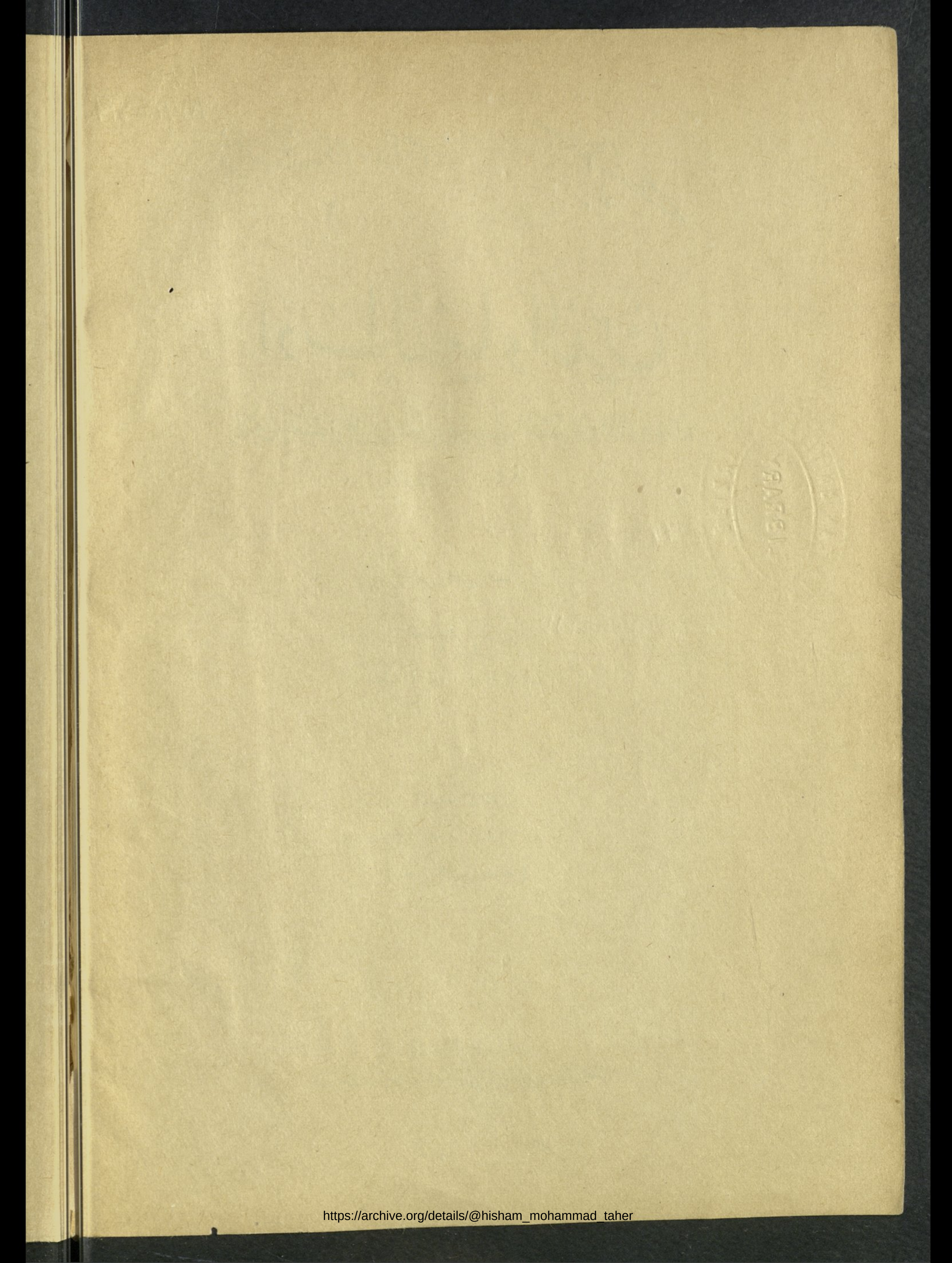
بكلية الآداب ، بجامعة القاهرة

الطبعة الثالثة

١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر



مقدمة الطبعة الثالثة

١

[مقدمة] مؤلف هذا الكتاب أبو الحسَن علىّ بن محمد بن حَبيب المَاوَرْدِىّ البَصْرِىّ : عَلَم من أعلام الفكر الإسلامىّ ، وفقيه حافظ من أكبر فُقَهاء الشافعية ، ورجل من أبرز رجال السياسة فى الدولة العباسيّة ، وأديب متفنِّن ، ناضج الفكر ، واضح الأُسلوب ، وَرَّثَ المسلمين كثيرا من التآليف الممتازة ، فى فروع الثقافة الإسلاميّة .

[حياته] امتدت حياته بين سنتى (٣٦٤ و ٤٥٠ هـ) ، وقد عاصرَ الثقافة الإسلامية فى أزهى عصورها ، حين بلغت الدولة العباسية درجة عالية من الرقى العلمىّ ، وظهر فيها كثير من العلماء البارعين ، الذين جمعوا ثمار الثقافات المختلفة ، ومزجوا بين العناصر الإسلامية ، وما صار إلى المسلمين من تراث الأمم القديمة .

[ثقافته] تعلم الماوردىّ أوّلا فى بلده البصرة ؛ سمع الحديث فيها عن جماعة ، منهم الحسن ابن علىّ بن محمد الجبلىّ ، صاحب أبى خليفة الفضل بن الُحباب الجمحىّ ، المحدّث اللغوىّ ، ومحمد بن عدىّ بن زُحَر المقرى ، ومحمد بن المَعَلَّى الأزدىّ ، وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادىّ . وأخذ الفقه فيها عن أبى القاسم عبد الواحد بن محمد الصَّيْمرىّ القاضى . ثم رحل إلى بغداد فى طلب العلم ، فلقى بها الشيخ أبا حامد : أحمد بن أبى طاهر الإسفراينىّ ، المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، فأخذ عنه الفقه ، حتى ارتوى من علمه ، وتخرّج به .

ولم تذكر كتب التراجم التى بأيدينا ، جميع ماحواه الماوردىّ من موادّ الثقافة فى البصرة ولا فى بغداد ، غير الحديث والفقه ، لأنهما كانا أرفع مواد الدراسة شأنا ، وربما كانا أساس الثقافة العامة ، لمن يريدون التخصُّص فى جميع العلوم الإسلامية والعربية . ولم نعرف من أساتذته غير من ذكرنا ، ولكن كتبه تدل على أنه كان رَيَّانَ من الأدب ، والشعر ، والنحو ، والفلسفة ، وعلوم الاجتماع ، فلابد أنه قرأ تلك العلوم ، وأخذها عن الأساتذة ، وإن لم

تشر إليهم كتب التراجم . وكان له افتنان عجيب ، وابتكار فى التأليف ، يشهد له بالسبْق والتقدم فى المعرفة بالعلوم الإسلامية وغير الإسلامية .

[توليته القضاء] وعَلِمنا من سيرته أنه اختير للقضاء فى بلدان كثيرة ، وكان رئيس القضاة فى كورة « أُسْتوا » من نواحى نيسابور ، وتشتمل ، كما يقول ياقوت فى المعجم ، على ثلاث وتسعين قرية ، وقصبتها خَبُوشان . و بعد أن طوّف بآفاق كثيرة ، عاد إلى بغداد ، فدرّس بها عدّة سنين : حدَّث بها عن شيوخه البَصْريين ، وفسّر القرآن ، ودرّس الفقه ، وأصوله ، والأدب ، وألف فيها تآليفه الكثيرة .

ثم اختير سفيرا بين رجالات الدولة فى بغداد ، و بنى بويه ، من سنة (٣٨١—٤٢٢ هـ) فكانت له منزلة كريمة عند الخليفة القادر ، وعند آل بويه كذلك .

[عدم انقياده للملوك] ولما سأل جلال الدولة بن بويه سنة ٤٢٩ هـ الخليفة أن يزيد فى ألقابه لقب «شاهنشاه» : أى ملك الملوك ، اختلف فقهاء بغداد فى جواز التلقُّب بهذا اللقب ، فأفتى فريق منهم بجوازه ، كالقاضى أبى الطيب الطبرىّ ، وأفتى الماوردىّ بأنه لا يجوز ، وقطع ما كان بينه و بين جَلال الدولة من علائق المودة والصداقة ، فطلبه جلال الدولة ، وخاطبه بقوله : « أنا أتحقّق أنك لو حابيت أحدا لحابيتنى ، لما بينى و بينك ، وما حملك إلّا الدّين ، فزاد بذلك مَحِلُّك عندى » .

[تلاميذه] ولم تذكر كتب التراجم من تلاميذه الكثيرين إلا رجلين اثنين ، أولهما وهو أشهرهما ، كبير المحدّثين فى زمانه ، خطيب بغداد ، صاحب التاريخ الكبير ، أحمد ابن على بن ثابت (٣٩٢ — ٤٦٣ هـ) . وثانيهما : أبو العز أحمد بن عُبيد الله بن كادش .

[توثيق الخطيب البغدادى للمؤلف] ومما يُبين منزلة الماوردىّ فى نظر تلاميذه ، ماقاله الخطيب فى تاريخ بغداد (١٣ : ١٠٢) ونصُّه :

« على بن محمد بن حبيب أبو الحسن البصْرىّ ، المعروف بالماوردىّ ، كان من وجوه الفقهاء الشافعيِّين ، وله تصانيف عِدّة ، فى أصول الفقه وفروعه ، وفى غير ذلك ، جُعل إليه ولاية القضاء ببلدان كثيرة ، وسكن ببغداد فى درب الزّعفرانىّ ، وحدّث بها عن الحسن بن علىّ

ابن محمد الجَبَلىّ ، صاحب أبى خليفة الجُمحِىّ ، وعن محمد بن عدىّ بن زُحَر المقرى ، ومحمد ابن المعلّى الأزدىّ ، وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادى . كَتَبْتُ عنه ، وكان ثقة . مات فى يوم الثلاثاء سَلْخ شهر ربيع الأول ، من سنة خمسين وأربع مئة ، ودُفن من الغد فى مقبرة باب حرب ، وصليت عليه فى جامع المدينة ، وكان قد بلغ ستا وثمانين سنة » . اهـ .

٢

[كتبه وتآليفه] ولم يبق لنا من كتب أبى الحسن الماوردىّ إلا القليل ، نحو اثنى عشر كتابا ، ويمكن تصنيفها فى ثلاث مجموعات : الأولى : الكتب الدينية . والثانية : الكتب السياسية والاجتماعية . والثالثة : الكتب اللغوية والأدبية .

فأما المجموعة الأولى فمنها :

١ — كتاب التفسير ، ويعرف بكتاب : النُّكَت والعُيون ، ولم يطبع ، ومنه نسخة فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، ونسخة أخرى فى القسطنطينية ، بمكتبة قليج على . ونسخة فى مكتبة كوبريلى ، وأخرى فى رامبور بالهند .

[اتهام ابن الصلاح إياه بالاعتزال]

وفى طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكىّ (٣ : ٣٠٣ — ٣١٤) بحث عما رُمى به الماوردىّ من الاعتزال . قال ابن الصلاح مانصه :

« هذا الماوردىّ — عفا الله عنه — يُتَّهَم بالاعتزال . وقد كنت لا أتحقَّق ذلك عليه ، وأتأوّل له ، وأعتذر عنه فى كونه يورد فى تفسيره ، فى الآيات التى يختلف فيها أهل التفسير ، تفسير أهل السنة ، وتفسير المعتزلة ، غير متعرِّض لبيان ماهو الحقّ منها ، وأقول : لعل قصده إيرادُ كلّ ماقيل من حقّ و باطل ، ولهذا يورد من أقوال « المُشَبِّهَة » أشياء ، مثل هذا الإيراد ، حتى وجدته يختار فى بعض المواضع قول المعتزلة ، وما بنَوْه على أصولهم الفاسدة . وتفسيره عظيم الضرر ، لكونه مشحونا بتأويلات أهل الباطل ، تلبيسا وتدسيسا ، على وجه لا يَفْطُن له غيرُ أهل العلم والتحقيق ، مع أنه تأليف رجل لايتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة ، بل يجتهد فى كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق .

ثم هو ليس معتزليا مطلقا ، فإنه لا يوافقهم فى جميع أصولهم ، مثل

خَلْق القرآن ، كما دل عليه تفسيره ، فى قوله عز وجل : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محْدَث » . وغير ذلك ، و يوافقهم فى القَدَر ، وهى البلية التى غلبت على البصريين ، وعِيبوا بها قديما » . انتهى .

[الدفاع عن الماوردى] ولا يمكننا أن نقرِّر رأيا قاطعا فى هذا التفسير ، إلا إذا وُجِد بين أيدينا ، ودرسه المختصون دراسة علمية خالصة .

غير أننا نقول: إن اتهام المحدّثين للعلماء بالاعتزال و بالتشيع ، و بما هو أكبر من ذلك ، قد كثر وشاع ؛ ولعل هذا الذى ذكره ابن الصلاح ، كان نوعا من اجتهاد الماوردى ، وترجيحه بين الآراء العلمية ترجيحا عقليا ، يوافق بعض آراء المعتزلة أحيانا ، وهو برىء من الاعتزال جملة ، وكل ما فى الأمر أنه غلبت عليه صفة الفقيه العالم ، الذى يوازن بين الآراء ، ويرجح بعضها على بعض ، دون نظر إلى القائل بهذا الرأى أو ذاك ، وكان يطرِّح عنه رداء الكسل والتقليد ، ومن هنا رُمِى بالاعتزال فى موافقة آرائه لبعض آراء المعتزلة ، ولم يكن معتزليا فى حقيقة الأمر .

على أن مايقوله الإمام ابن الصلاح ، يخالف ماصرح به كثير من علماء الحديث المتقدمين فى توثيق الماوردىّ ، والثناء على علمه ودينه . هذا الخطيب أحمد بن علىّ بن ثابت البغدادىّ ، صاحب التاريخ ، وهو من أكبر تلاميذ الماوردىّ ، وأقرب إليه من ابن الصلاح ، يقول فى حقّ الماوردىّ : « وكان ثقة » ، وكفى بهذه شهادة للماوردىّ ، من عالم كبير ، ومحدِّث عالم بتاريخ الرجال وأحوالهم ، وسيرهم ؛ لايقل فى علمه بالرجال عن ابن الصلاح ، وكان مُطَّلِعًا على أحوال أستاذه وشئونه ؛ ولم يكن الماوردىّ مجهولا ، ولا نائى المحلّ عن بغداد ، فليست حاله بخافية على أهل عصره ، من نُقَّاد المحدّثين ، الذين بلغوا بهذه الصناعة أوْجَها فى حياته ؛ فلو كانت تهمة الاعتزال حقيقية ، لم يخف ذلك على الخطيب ولا غيره من أهل ذلك العصر .

[ماقيل من أنه لم يظهر كتبه فى حياته] وقد يقال إن بعض الروايات التاريخية يشير إلى أنّ الماوردىّ لم يُذِع كتبه على الناس فى حياته ، و إنما أذاعها أحد تلاميذه بعد وفاته ، على

ماحكاه ابن خلكان والسبكى . ولكن فى النفس شيئا كثيرا من الشك فى هذه الرواية ، لأنها مسندة إلى شخص مجهول غير واضح ؛ وما نظن أن كتب الماوردى استمرت محبوسة مجهولة إلى بعد وفاته ؛ يؤيد هذا أن بعض العلماء صرح بسماع كتبه عليه فى حياته ، وأن الخطيب يقول : « كتبت عنه ، وكان ثقة » . وقد تكون تلك الرواية المزعومة صادقة ببعض كتب الماوردى ، وهو كتاب «الحاوى» وحده ، ولعل ضخامة حجمه ، جعلت المؤلف ينتظر فراغه من بعض الأعمال ، ليعيد نظره فيه منقحا مهذبا ، فأخره حينا من الدهر ، إلى أن تتاح له تلك الفرصة ، ولكنها لم تقدر له .

٢ — كتاب الحاوى الكبير : وهو موسوعة ضخمة فى أكثر من عشرين جزءا ، فى فقه الشافعية . وقد قدره مؤلفه بأربعة آلاف ورقة . وأجزاؤه المخطوطة مُفرّقة فى نواح من الشرق والغرب ؛ وتعمل الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية لجمع ماتشتت منه ، بتصوير أجزائه من مظانها فى أفلام .

ولا نفهم فائدة لتسمية هذا الكتاب بالحاوى الكبير ، إلا إذا كان للمؤلف كتاب آخر يسمى الحاوى ، أوالحاوى الصغير ، وإلا فهو وصف لغو لاقيمة له . وربما كان ذلك إشارة إلى التفرقة بينه وبين مجموع له فى الفقه ، مختصر من الحاوى ، يعرف بكتاب « الإقناع » فى فقه الشافعية ، فإنه على اختصاره ، يحوى مافى أصله من أبواب .

٣ — كتاب الإقناع : هو مختصر من الحاوى ، قدره مؤلفه بأربعين ورقة ، ألفه بطلب من الخليفة القادر ، ونال به تقديره ، وحسن ثنائه عليه . قال ياقوت (فى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب طبعة دار المأمون ١٥ : ٥٣ — ٥٤) مانصه :

« حدث محمد بن عبد الملك الهمذانى ، حدثنى أبى ، قال : سمعت الماوردى يقول : « بسطت الفقه فى أربعة آلاف ورقة ، واختصرته فى أربعين . يريد بالمبسوط كتاب الحاوى ، وبالمختصر كتاب الإقناع » .

وفى المرجع السابق ص ٥٤ مانصه : «وقرأت فى مجموع لبعض أهل البصرة : تقدم[1] القادر بالله ، إلى أربعة من أئمة المسلمين فى أيامه ، فى المذاهب الأربعة ، أن يصنف له كل واحد

(١) تقدم إليه : أمره .

منهم مختصراً على مذهبه ، فصنَّف له المـاوردىّ الإقناع ؛ وصنف له أبو الحسين القدُورىّ مختصره المعروف ، على مذهب أبى حنيفة ؛ وصنف له القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن محمـد ابن نصر المالـكىّ مختصرا آخر ؛ ولا أدرى مَن صنّف له على مذهب أحمد ، وعُرِضَت عليه ، فخرج الخادم إلى أقضى القضاة الماوردىّ ، وقال له : يقول لك أمير المؤمنين : حفظ الله عليك دينكَ ، كما حفظتَ علينا دينَنا » .

وكان الماوردىّ من مجتهدى المذهب ؛ روى صاحب المجموع المشار إليه آنفا فى كلام ياقوت ، قال : « كان أقضى القضاة رحمه الله قد سلك طريقة فى ذوى الأرحام : يورّث القريب والبعيد بالسَّوية ، وهو مذهب لبعض المتقدمين ، فجاءه يوما الشِّيشيزى فى أصحاب القماقم ، فصعد إليه المسجد ، وصلّى ركعتين ، والتفت إليه ، فقال له : أيُّها الشيخ ، اتبعْ ، ولا تبتدعْ . فقال : بل أَجْتهد ، ولا أُقلِّد . فلبس نعله وانصرف » .

[تلقيبه بأقضى القضاة] ولتبحّر المـاوردىّ فى الفقه ، لقَّبوه : « أقضى القضاة » . قال ياقوت فى صدر ترجمته له : « الماوردىّ البصْرىّ ، يكنى أبا الحسن ، ويلقب أقضى القضاة ، لُقِّب به فى سنة تسع وعشرين وأربع مئة ، وجرى من الفقهاء ، كأبى الطيب الطبرىّ ، والصَّيمَرىّ ، إنكار لهذه التسمية ، وقالوا : لايجوز أن يُسمى به أحد ؛ هذا بعد أن كتبوا خطوطهم بجواز تلقيب « جلال الدولة بن بهاء الدولة بن عضـد الدولة » ، بملك الملوك ، فلم يُلْتَفت إليهم ، واستمر له هذا اللَّقب إلى أن مات . ثم تلقب به القضاة إلى أيامنا هذه » .

ثم قال : « وشرط الملقَّب بهذا اللقب : أن يكون دون منزلة من تلقب بقاضى القضاة ، على سبيل الاصطلاح ؛ وإلا فالأَوْلى أن يكون « أقضى القضاة » أعلى منزلة » .

[ثناء العلماء على علمه وفقهه] وقد أثنى العلماء على أبى الحسن الماوردىّ الفقيه العالم ، ثناء عظيما ، يقول فيـه أبو بكر الخطيب البغدادىّ صاحب التاريخ (١٣ : ١٠٢) : « كان من وجوه فقهاء الشافعيين ، وله تصانيف عدة فى أصول الفقه وفروعه ، وفى غـير ذلك . وكان ثقة » .

ويقول أبو إسحاق الشيرازىّ ، وهو عالم جليل من فقهاء الشافعية : « دَرَّس بالبصرة

و بغداد سنين كثيرة ، فى الفقه ، والتفسير ، وأصول الفقه ، والأدب ، وكان حافظا للمذهب » .

ويقول ابن خلكان ، فى وفيات الأعيان (طبع الميمنية سنة ١٣١٠ هـ ١ : ٣٢٦) :
« كان من وجوه الفقهاء الشافعية وكبارهم ، وكان حافظا للمذهب ، وله فيه كتاب الحاوى ، الذى لم يطالعه أحد ، إلا شَهِدَ له بالتبحُّر ، والمعرفة التامة بالمذهب » .

ويقول تاج الدين السُّبكىّ فى (طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ٣٠٣ — ٣١٤ طبعة الحسينية بالقاهرة) :

« علىّ بن محمد بن حبيب ، الإمام الجليل القدر ، الرفيع المقدار والشأن ، أبو الحسن المعروف بالماوردىّ . كان إماما جليلا ، له اليد الباسطة فى المذهب ، والتفنن التام فى سائر العلوم » .

٤ — كتاب « أدب القاضى » : لم يطبع ، ومنه نسخة فى القسطنطينية بالسُّليمانية .

٥ — كتاب « أعلام النبوة » أى دلائلها ، منه نسخة مخطوطة محفوظة فى دار الكتب المصرية برقم ٦ ش علم الكلام .

ب — [وأما كتبه فى السياسة والإدارة والاجتماع ، فمنها ما يأتى] :

١ — كتاب « الأحكام السلطانية » وهو أشهرها أشبه بدستور عام للدولة ، يحوى الأسس التى تقوم عليها الدولة ، من حيث استحقاق الخلافة ، وشروط من يختار لها ، والولايات التى يتصرف فيها الخليفة ، ويتكلم عن نظُم الدولة ، كالوزارة وأنواعها ، والقضاء والإمارة ، وعن العقوبات ، والحدود ، والجزية ، والحِسْبة ، وما إلى ذلك كله من تفريعات إدارية خاصة ، لها أصل فى الدين وقد طبع فى مصر عدة طبعات ، وطبع من قبل فى أوربة ، ومنه نسخ مخطوطة كثيرة فى الشرق والغرب ومصر . وهذا الكتاب من ابتكار الماوردىّ . ولعل أحدا لم يَخُصّ شئون الدولة السياسية والإدارية بتأليف خاصّ قبله ، وإن كان كثير من هذه الأحكام الواردة فى الكتاب ، مَبْثُوثا فى أبواب من كتب الفقه ؛ ولعل الذى نبهه إلى

تخصيص كتاب لتلك الأحكام ، اتساع المادة التى جمعها لكتابه : « الحاوى الكبير » فى فقه الشافعية ، الذى سبق الكلام عليه . وللمستشرقين والباحثين الأوربيين وَلوع ببحث النظريات والنظم الإدارية للدولة الإسلامية ، التى بينها الماوردىّ فى كتابه ؛ وقد أشار بروكلمان إلى أسمائهم وبحوثهم فى تاريخ أدب اللغة العربية ، وفى مقاله عن الماوردىّ فى دائرة المعارف الإسلامية ، ولعل آخر من كتب منهم فى ذلك الأستاذ المستشرق « جب » عضو « مجمع اللغة العربية » المصرىّ ، فقد نشر مقالا بالإنجليزية فى مجلة « إسلامك كلشر » الهندية ، فى يولية سنة ١٩٣٧) عن « نظرية أبى الحسن الماوردىّ فى الخلافة الإسلامية » .

[الماوردى وأبو يعلى الحنبلى] ويعتبر الماوردىّ بهذا الكتاب من أوائل المؤلفين فى العلوم السياسية والإدارية من المسلمين ، ويشاركه فى التأليف فى هذا الميدان معاصره القاضى أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء ، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . فقد ألف كتابا باسم : « الأحكام السلطانية » أيضا ، ذكر فيه الأحكام على مذهب الإمام أحمد بن حنبل . وقد طبع الكتاب بتاريخ ٨ من ديسمبر سنة ١٩٣٨ ، فى مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة ، وصححه وعلق عليه الأستاذ العالم الشيخ حامد الفقى ، من علماء الأزهر الشريف ، ورئيس جماعة أنصار السنة المحمدية . وقد أبدى الأستاذ المحقق فى مقدمته للكتاب عجبه من اتحاد الكتابين فى الاسم ، ثم قال : « ويزداد الإنسان عجبا حين يجد عبارة المؤلفين واحدة ، لولا أن أبا يعلى يذكر فروع مذهب الإمام أحمد ورواياته » . اهـ .

على أن كتاب أبى يَعْلَى فى ٢٩٢ صفحة من الحجم الكبير ، وكتاب الماوردىّ فى ٢٢٤ صفحة من الحجم المتوسط ، ولكن الذى يرجح أن الماوردىّ سبق إلى موضوع التأليف ، أن له كتبا أخرى فى السياسة ، نذكر منها :

٢ — كتاب « نصيحة الملوك » ، لم يطبع حتى الآن ، ومنه نسخة مخطوطة فى باريس .

٣ — كتاب « تسهيل النظر ، وتعجيل الظفر » فى السياسة وأنواع الحكومات .

وهو مخطوط لم يطبع ، ومنه نسخة فى مدينة غوطة .

٤ — كتاب « قوانين الوزارة ، وسياسة الملك » : طبع فى دار العصور بمصر سنة ١٩٢٩ م بعنوان : « أدب الوزير » . وهذه الكتب الأربعة ترفع أبا الحسن الماوردىّ مكانا عاليا ، بين علماء السياسة والاجتماع ، فوق مكانته الممتازة فى العلم الدينى فى شتى فروعه . وقد ترجمت هذه الكتب إلى الألمانية والفرنسية ، وبعضها إلى اللاتينية ، ودرسها العلماء الأوربيون دراسة حسنة .

[الماوردى وابن خلدون] ويلوح لى من مباحث الماوردىّ فى كتبه السياسية والإدارية أنه كان أحد الرُّواد الأوائل ، الذين مَهَّدوا لابن خلدون فيلسوف الاجتماع والتاريخ ، سبيل القول فى كثير من الأبواب والفصول المشتركة التى وضعها فى مقدمته لتاريخه الكبير . وهذه ملاحظة ألاحظها . لكنّ إثباتها يحتاج إلى بحث مستقل ، فى غير هذه المقدمة .

أما تآليف الماوردى فى الأدب ، فمنها :

١ — كتاب فى النحو : ذكره ياقوت فى ترجمته للمؤلف ، قال : « وله تصانيف حسان فى كل فنّ ، منها كتاب فى النحو ، رأيته فى حجم الإيضاح أو أكبر ؛ والإيضاح كتاب متوسط فى النحو لأبى على الفارسىّ المتوفَّى سنة ٣٧٧ هـ » . ولا نعلم عن هذا الكتاب شيئا .

٢ — كتاب « الأمثال والحكم » جمع فيه مختارات فى عشرة فصول ، تتضمن ثلاث مئة حديث ، وثلاث مئة حكمة ، وثلاث مئة بيت شعر . ومنه نسخة مخطوطة فى مدينة ليدن .

٣ — كتاب « البغية العليا ، فى أدب الدين والدنيا » وهو الذى ذاع وانتشر ، ولا يزال الناس يقبلون عليه حتى أيامنا هذه ، واسمه الذى يعرف به الآن ، هو كتاب : « أدب الدنيا والدين » .

٣

كتاب أدب الدنيا والدين

[تاريخ الكتاب] طبع هذا الكتاب بمصر عدة طبعات ، وطبعت منه المطبعة الأميرية طبعات خاصة لتلاميذ المدارس الثانوية ، حذف منها بعض عبارات وفصول لاتلائم أولئك الذين كانوا يتمرنون فيه على القراءة والمطالعة . وطبع قبل ذلك فى أوربة عدة طبعات . ومنه نسخ مخطوطة فى برلين ، والمتحف البريطانى ، ومصر ، باسم : « أدب الدنيا والدين » ، ونسخ أخرى منه مخطوطة فى مصر والإسكوريال وجامع القرويين بفاس ، وبالموصل ، ورامبور بالهند ، باسم : « البغية العليا ، فى أدب الدين والدنيا » ، ولعل هذا الاسم الثانى هو الاسم الذى وضعه المؤلف لكتابه ؛ أما الاسم الأول « أدب الدنيا والدين » ، فالمرجّح أنه من وضع بعض الوراقين القدماء ، ثم ذاع واشتهر .

[موضوع الكتاب ووصفه] وموضوع هذا الكتاب الأخلاق والفضائل الدينية ، من الناحية العلمية الخالصة ، وبعضه فى الآداب الاجتماعية ، وهى التى سماها المؤلف : « آداب المواضعة » . وهو لايتعرض لأصول الأخلاق من الوجهة النظرية العلمية ، كالوراثة والبيئة والغرائز والأمزجة والعادة وما إليها ، وإنما يعول على مافى القرآن والسنة النبوية المحمدية ، من آيات وأحاديث تحث على الفضائل ، وتنهى عن الرذائل ، ثم يعول بعد ذلك على التراث الأدبىّ العربىّ والتراث الأجنبى القديم ، الذى امتزج بآداب العرب والإسلام بعد الفتح العربي ، فيتخذ من هذا وذاك حكما وعظات ، وأمثالا وأشعارا ... الخ ؛ وصاحبه من هذه النواحى يشبه كثيرا من المؤلفين الإسلاميين فى الأخلاق ، وأخصهم به شبها ابن حِبّان البستى ، صاحب « روضة العقلاء » ، وكان ابن حبان من أئمة رجال الحديث ، وكان الماوردىّ من أئمة الفقهاء ، فبينهما قدر مشترك من المعرفة بالقرآن والسنة والاطلاع على الآداب العربية وغيرها ، إلّا أن الماوردىّ يمتاز عن سلفه البُستى بميزة ظاهرة ، هى أنه لايورد النصوص الدينية ولا الحكم والأمثال والأشعار ، مقصودة لذاتها أولا ، ثم يعقب عليها بالشرح والتفسير والاستشهاد ، ولكنه يتصور الموضوع الأخلاقىّ تصورا عاما ، ويضع له الحدود والفصول والمسائل ، ويستخلص الأسس والقواعد ، ثم يحشو هذه الأبواب والفصول بكلامه وبحثه الخاصّ ، ثم يأتى بالنصوص من الأحاديث والحكم وما إليها ، مؤيدا بها صحة مايذهب

منهج

إليه من فكرة ، وصنيعه هذا شبيه بصنيع الفقهاء الذين يقسّمون البحث فى الموضوع الفقهىّ إلى أبواب وفصول ومسائل ، و يستشهدون أحيانا بالأدلة المؤيدة ، والحجج الناطقة . فطريق المؤلف وسَط بين طريق أهل الرواية من المحدّثين واللغويين والأدباء ، وطريق الباحثين النظريين ، الذين لا يعولون فى بحثهم على النصوص مطلقا ، واعتمادهم فى البحث قائم على المنطق والتجربة والمشاهدة .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى خمسة أبواب ، وكلامه فى الباب الأول : فضل العقل وذم الهوى ، لا يخلو من نظرات فلسفية قديمة غير إسلامية ؛ وكلامه فى الباب الرابع : «أدب الدنيا» لا يخلو من نظرات اقتصادية واجتماعية ، على نحو مباحث ابن خلدون فى مقدمته .

وأما الباب الثانى « أدب العلم » فإنه من الموضوعات الإسلامية الخالصة ، التى تمتّ إلى الحديث و إلى الآداب التى تواضع عليها المسلمون فى أجيالهم العلمية ، منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حياة المؤلف ، وقد أفرده جماعة بالتأليف . وكذلك الباب الثالث : «أدب الدين » والخامس : « أدب النفس » هما من صميم الأخلاق الدينية الإسلامية ، القائمة على الكتاب والسنة .

[ما فيه من الأشعار] ونلاحظ هنا أيضا ما لاحظناه فى كتاب « روضة العقلاء لابن حبان البستى » أن الأشعار التى أوردها المؤلفان مقدار ضخم ، ولكنها فى الغالب ليست فى درجة عالية من الفصاحة ، لأن معظمها من إنتاج العلماء والمتصوفين ، و بعضها لشعراء مغمورين ، و بعضها لشعراء مجهولين ، ولكنها مع ضعفها البلاغىّ ، لا تخلو من حكمة أو تجربة خلقية ، وهذا وحده هو الذى هيأ لها موضعا فى هذين الكتابين .

[الماوردى عالم عامل بعلمه] وقد كان المؤلف أبو الحسن الماوردىّ من الخُلُقيين الذين يقرُنون القول بالعمل ، كان شجاعا حين خالف الفقهاء فى الفتوى بجواز منح جلال الدولة البويهىّ لقب « ملك الملوك » ، فتعرض بذلك لغضب هذا السلطان الجبار ، وقطع ما كان بينه و بينه من أواصر المودة . وكان شجاعا حين ذكر فى كتابه « الأحكام السلطانية . شروط الخلافة والوزارة والولاية ، محررة من وجهة نظر الدين ، دون أن يخشى

بطش أصحاب السلطان من الخلفاء والوزراء والقادة والولاة ... الخ ، فى عصر كان الظلم فيه شائعا ، لم ينج منه أحد . وكان متواضعا حين استفتاه أعرابيان فى بيع عقداه فى البادية على شروط خاصة ، فلم يعرف لسؤالهما أىّ جواب ، فانصرفا إلى رجل أقل علما من بعض تلاميذ الماوردىّ ، فأفتاهما بما أرادا مسرعا ، ولم تمر الحادثة دون أن يستخرج منها العبرة ، والموعظة الحسنة[1] .

[أدب الدنيا والدين كتاب نافع] وكتاب « أدب الدنيا والدين » عظيم النفع لأوساط الناس ، وخاصة الشُّداة من طُلّاب العلم بالمدارس الثانوية والجامعة الأزهرية ؛ وقد كانت وزارة المعارف المصرية قررته للمطالعة بالمدارس الثانوية منذ أكثر من ثلاثين سنة ، حين لم تكن هناك تآليف حديثة ، ومع كثرة المؤلفات الحديثة التى يقرؤها الطلاب الثانويون الآن ، فإن هذا اللون من التأليف ، ينبغى ألا يُحرم الاطلاع عليه أولئك الطلاب ، كما ينبغى أن يقرأه كل فتى وفتاة ، وكل رجل وامرأة ، من غير طلاب المدارس .

[الرغبة فى تجديد طبع الكتاب] ومن أجل هذا رغبت إلىّ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، أن أعِدّ لها نسخة محققة على الأصول القديمة المخطوطة من هذا الكتاب ، لطبعها طبعة أنيقة ، مضبوطة مشروحة مرقمة ، يرغب فيها كل من يحب القراءة فى كتب الأخلاق والتربية ، على القواعد الإسلامية الخالصة .

[وصف الأصول التى عورض بها الكتاب] وقد عارضت هذه النسخة على المخطوطة رقم (١١٨ تصوف م) بدار الكتب المصرية ، و بآخرها ما نصه بخط كاتبها :

« تم الكتاب بحمد الله وَمَنِّه ، وحسن توفيقه . وفَرغ من نسخه لنفسه ، العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى وعفوه « سعيد بن عبد المنعم بن هبة الله بن على بن الثقفىّ » ، العامرىّ النسب ، الشافعىّ المذهب ، نفع الله به » ولجميع المسلمين ، يوم الثلاثاء ثانى صفر ، من شهور سنة خمس وثمانين وخمس مئة ، بمدينة حماة المحروسة ، غفر الله له ولوالديه ، ولمن قرأ فيه ودعا له ، ولجميع المسلمين .

---

(١) انظر هذا الخبر فى (ص ٦٥ — ٦٦) من هذه الطبعة .

والحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد النبى الأمىّ خير خلقه ، وسلَّم تسليما ، وعلى آله وصحبه وسلم .

قُوبل على أصله بحسب الإمكان ، والحمد لله ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم .

واسم الكتاب فى هذه النسخة هو « أدب الدنيا والدين » . والنسخة بين الحجم الصغير والمتوسط ، وخطها واضح جَهير جميل ، وهى مضبوطة بالقلم ضبطا كاملا .

ووجدت بدار الكتب المصرية نسخة أخرى فى التيمورية رقم (٧٧٨ أدب) ، وهى من الحجم الكبير ، وخطها أقل جمالا من تلك ، وهى فى الصحة أيضا أقل قيمة من النسخة السابقة ، وقد عاثت الأرضة فيها فى أواسط صفحاتها ، وبأولها مانصه : « هذه النسخة هى : « المراتب العليا » وقد تسمى « البغية » أفاده بعض العلماء » . وفى آخرها خاتمة للناسخ أكلت الأرضة كثيرا من كلماتها ، وهذا نصها ، مع الإشارة إلى العبارات الساقطة بأصفار .

« فرغ من تحريره قبل الظهر من يوم ا ... ... تاسع شهر رجب الحرام من شهور سنة خمس ... ... بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بعناية الأخ فى الله تعالى ، نقيب الأشراف ، تولى الله إعانته فى الدارين ، وأنا له أسْنى ماتقرّ به العين ، وختم لنا وله بالحسنى . آمين » .

وقد شرح كتاب « أدب الدنيا والدين » عالم تركى ، اسمه أويس وفا بن محمد بن أحمد ابن خليل بن داود الأرزنجانىّ ، العريف بخان زاده ، وطبعه بالآستانة سنة ١٣٢٨ هجرية ، وعنى فيه بتخريج الأحاديث ، وترجمة الأعلام ، مع قليل من شرح المعانى والألفاظ الغامضة . ونسخة الأصل التى شرحها كاملة كالأصلين السابقين ، لم يحذف منها شىء مما حذف فى طبعة بولاق المدرسية . وهذه النسخة تعتبر كمخطوطة ثالثة ، لأنها مخالفة لمطبوعات مصر ، ومطابقة للمخطوطتين اللتين بدار الكتب ، واسم هذا الشرح : « مِنهاج اليقين ، شرح أدب الدنيا والدين » .

[عمل الناشر] أما عملى فى هذه الطبعة من الكتاب فهو :

١ — مقابلة الكتاب بالنسختين المخطوطتين ، وبمنهاج اليقين ، وتصحيح الأخطاء

التى كانت فاشية فى الطبعات المصرية السابقة، وتكملة النقص الذى فى طبعة بولاق.

٢ — شرح الغامض من المعانى والألفاظ فى مَتن الكتاب .

٣ — ضبط المشكل من العبارات ، مما تمس إليه حاجة القارئ ، فى هذا الزمان .

٤ — وضع الفواصل بين الْجُمل ، مما يعين القارئ على سرعة القراءة والفهم .

٥ — وضع عناوين بطريقة جديدة ، فى أول كل فقرة جديدة ، محصورة بين معقفين هكذا[ ] ، وهذه العناوين بخط الرقعة ، حتى تتميز عن العناوين التى كانت فى أصل الكتاب ، من وضع مؤلفه ، والعناوين الجديدة ضرورية فى مثل هذا الكتاب ، لأنها تنبه القارئ من أول الأمر على موضوع مايقرأ ، وقد ترك المؤلف ذلك ، فاتصلت فِقَر الكتاب بعضها ببعض اتصالا وثيقا ، حتى لايَدْرِى قارئ الكتاب حدودا لما يقرأ ينتهى إليها . وفى العناوين التى وضعناها بخط الرقعة ، هداية واطمئنان ، وراحة للقارئ ، ودفع للسأم والمَلَل يعتريانه ، لاتصال أجزاء الفصول اتصالا متعبا للعقل ، جالبا للمَلَل .

٦ — وضع فهرس تفصيلى لمادة الكتاب ، يعين القارئ الحديث على الوصول إلى بغيته من الفِقَر التى يبحث عنها ، دون أن يكلف نفسه عناء قراءة الباب أو الفصل بأجمعه ، ليستخرج منه نصا أو فِقْرة خاصة .

٧ — [مزايا هذه الطبعة] وهذه الطبعة تمتاز بتلك المزايا التى وضحناها فى الفقرة السابقة، تمتاز بجمال طبعها، وجودة حروفها وورقها، والعناية بتصحيحها، وهو مما تُعْنَى به «شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة» ، وهى من أقدم الشركات التى تعمل فى ميدان الطباعة ، ولأصحابها فى هذا الفن ذوق وخبرة حسنة ، وقد سبقت فى هذا المضمار كثيرا من منافسيها ، فى طبع الكتب العربية والإسلامية ، فإلى أصحاب هذه الشركة يُسْدِى المؤلفون والعلماء والقراء أجزل الشكر على عنايتهم بشأن الكتاب العربى ، ورفعه إلى المستوى اللائق به فى العصر الحديث .

القاهرة فى { ١٦ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٥
١ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ }

مصطفى السقا
أستاذ بكلية الآداب
جامعة القاهرة

فهرس تفصيلىّ لموضوعات الكتاب

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال القاضى أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى رحمه الله تعالى :

الحمد لله ذى الطَّول والآلاء[١] ، وصلَّى الله على سيدنا محمد خاتمِ الرسل والأنبياء ، وعلى آله وأصحابه الأتقياء .

أما بعد : فإن شرف المطلوب بشرف نتائجه ، وعِظَم خَطَره[٢] بكثرة منافعه ، وبحسَب منافعه ، تجب العناية به ، وعلى قدر العناية به ، يكون اجتناء ثمرته .

وأعظم الأمور خَطَرا وقَدْرا ، وأعمها نفعا ورِفْدا[٣] ، ما استقام به الدين والدنيا ، وانتظم به صلاح الآخرة والأولى ، لأنّ باستقامة الدين تصحّ العبادة ، وبصلاح الدنيا تتمّ السعادة .

وقد توَخَّيت[٤] بهذا الكتاب ، الإشارة إلى آدابهما ، وتفصيل ما أُجْمِل من أحوالهما ، على أعدل الأمرين : من إيجاز وبسْط ، أجمع فيه بين تحقيق الفقُهاء ، وترقيق[٥] الأُدباء ، فلا ينبو[٦] عن فهم ، ولا يدِقّ فى وَهْم[٧] ، مستشهِدا من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ، ومن سُنَن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه[٨] ، ثم مُتْبعا ذلك بأمثال الحكماء ، وآداب البلغاء ، وأقوال الشعراء ، لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة ، وتسأم من الفنّ الواحد ،

---

(١) الطول : الفضل والغنى . والآلاء : النعم ، مفرده بوزن : حمل ، وبيت ، وسبب .
(٢) خطره : شرفه وقدره . (٣) الرفد : العطاء . (٤) توخيت : تحريت .
(٥) ترقيق الأدباء : إفادة المعانى بألفاظ عذبة متخيرة ، لايخالطها لبس أو غموض .
(٦) لاينبو : لايبعد . (٧) يدق : يغمض ويخفى . والوهم : الظن والتقدير .
(٨) أى يشبهه .

وقد قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إن القلوب تملّ كما تملّ الأبدان ، فأهدوا إليها طرائفَ الحِكمة ؛ فكأنّ هذا الأسلوب ، يحبّ التنقُّل فى المطلوب ، من مكان إلى مكان . وكان المأمون رحمه الله تعالى ، يتنقل كثيرا فى داره ، من مكان إلى مكان ، وينشد قول أبى العتاهية رحمه الله :

لايُصْلِحُ النفسَ إذ كانتْ مُدَبِّرةً إلا التنقلُ من حالٍ إلى حالِ

وجعلتُ ماتضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب :

الباب الأول : فى فضل العقل ، وذم الهوى .

الباب الثانى : فى أدب العلم .

الباب الثالث : فى أدب الدين .

الباب الرابع : فى أدب الدنيا .

الباب الخامس : فى أدب النفس .

وإنّما أستمدّ من الله تعالى حسن مَعُونته ، وأستودعه حِفاظ مَوْهِبَته ، بحوله ومَشيئته . وهو حَسْبى من مُعِينٍ وحَفيظ .

الباب الأول

فى فضل العقل ، وذم الهوى

[العقل أس الفضائل] اعلم أن لكل فضيلة أُسًّا(١) ، ولكل أدب يَنْبوعا(٢) . وأس الفضائل ، وينبوع الآداب ، هو العقل ، الذى جعله الله تعالى للدين أصلا ، وللدنيا عِمادا ، فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مُدَبَّرة بأحكامه ، وألَّف به بين خلقه ، مع اختلاف هِمَمهم ومآربهم(٣) ، وتباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تَعَبَّدَهُم(٤) به قسمين : قسما وجب بالعقل ، فوكَّده الشرع ، وقسما جاز فى العقل ، فأوجبه الشرع ؛ فكان العقل لهما عِمادا . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما اكتسب المرء مثلَ عقل يَهدِى صاحبه إلى هُدًى ، أو يرُدُّه عن رَدًى . ورُوِىَ عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «لكل شىء عَمِلَ(٥) دِعامة ، ودعامة عمل المرء عقله» فبقدر عقله تكون عبادته لربه ، أما سمعتم قول الفُجَّار : «لو كنا نسمعُ أو نَعقِل ما كنا فى أصحاب السعير» . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أصل الرجل عقله ، وحَسَبه دينه ، ومُروءته خُلقه . وقال الحسن البصرىّ رحمه الله : ما استَوْدَع الله أحدا عقلا ، إلا استنقذه(٦) به يوما مّا . وقال بعض الحكماء : العقل أفضلُ مَرجُوّ ، والجهل أنكى(٧) عدوّ . وقال بعض الأدباء : صديق كل امرئ عقله ، وعدوه جهله . وقال بعض البلغاء : خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء ، وهو إبراهيم ابن حسان :

---

(١) أسا : أصلا تقوم عليه ، كأساس البناء (٢) الينبوع · العين المتفجرة بالماء .
(٣) المآرب جمع مأربة ، بضم الراء وفتحها : وهى الحاجة . (٤) تعبدهم : ذللهم وكلفهم .
(٥) زيادة عن « منهاج اليقين، شرح أدب الدنيا والدين » لأويس وفا بن محمد بن أحمد بن خليل بن داود الأرزنجانى ، العريف بخان زاده ، طبعة الآستانة سنة ١٣٢٨ هجرية . والدعامة : عماد البيت وأسه .
(٦) استنقذه : خلصه ونجاه . (٧) أنكى : من النكاية ، وهى الضرر البليغ .

يَزِينُ الفتى فى الناس صحةُ عقلِهِ   وإن كانَ محظورًا عليه مكاسبُهُ
يَشينُ الفتى فى الناس قلةُ عقلِهِ   وإن كَرُمت أعراقُهُ ومَناسِبُهُ(١)
يعيشُ الفتى بالعقل فى الناس إنهُ   على العقلِ يجرى علمُهُ وتجاربُهُ
وأفضلُ قَسْمِ الله للمرء عقلُه   فليس من الأشياء شىء يقاربُهُ(٢)
إذا أكمل الرحمنُ للمرء عقله   فقد كَمَلَتْ أخلاقُه ومآربُهُ

واعلم أنّ بالعقل تُعرف حقائقُ الأمور ، ويُفصَل بين الحسنات والسيئات . وقد ينقسم قسمين : غريزىّ ومكتسب(٣) .

فالغريزىّ هو العقل الحقيقىّ ، وله حدّ يتعلق به التكليف ، لايجاوزه إلى زيادة ، ولا يقصِّر عنه إلى نقصان ، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فإذا تم فى الإنسان سمى عاقلا ، وخرج به إلى حدّ الكمال ، كما قال صالح بن عبد القدُّوس :

إذا تم عقل المرء تمت أمورهُ   وتمت أمانيــه وتم بناؤُهُ

ورَوَى الضحاك(٤) فى قوله تعالى : «لينذر من كان حيًّا» : أى من كان عاقلا .

[حد العقل ومحله] واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى . فقال قوم : هو جوهر لطيف(٥) ، يُفصَل به بين حقائق المعلومات . ومن قال بهذا القول اختلفوا فى محله ؛ فقالت طائفة منهم: محله الدماغ ، لأن الدِّماغ محل الحسّ . وقالت طائفة أخرى منهم: محلُّه القلب، لأن القلب

---

(١) قلة عقله ؛ فساد رأيه . وأعراقه : جمع عرق ، والمراد الأصل . والمناسب : الأنساب ، والنسب ما ينتمى إليه الإنسان من الآباء الأشراف .

(٢) القسم بفتح فسكون : ما يقسمه الله بين الناس من الحظوظ والمواهب .

(٣) الغريزى : مايكون فى الجبلة ، وينتقل بالوراثة . والمكتسب : الذى ينال بالتجربة ، والتثقيف ، والتمرس بالحياة .

(٤) هو الضحاك بن مزاحم الهلالى الخراسانى ، من المحدثين . يروى عن أبى هريرة وابن عباس وابن عمر وأنس ابن مالك . وعنه خلق ، وثقه أحمد بن حنبل ، وابن معين . وضعفه شعبة بن الحجاج . توفى سنة خمس ومئة .

(٥) أى روحانى لايشاهد بالأبصار . وجوهر الشىء : أصله الذى ينشأ ذلك الشىء منه . وهو المتحيز بالذات ؛ ويقابله العرض : وهو ما لا يقوم بذاته ، بل يحتاج فى وجوده إلى محل يقوم به ، كالألوان المحتاجة فى وجودها إلى أجسام تحل بها .

مَعْدِنِ الحياة ، ومادة الحواسّ . وهذا القول فى العقل بأنه جوهر لطيف ، فاسد من وجهين : أحدهما : أن الجواهر متماثلة ، فلا يصح أن يوجِبَ بعضها ما لا يُوجب سائرُها ؛ ولو أوجب سائرها مايوجبه بعضُها ، لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله . والثانى : أن الجوهر يصح قيامه بذاته ، فلو كان العقل جوهرا ، لجاز أن يكون عقل بغير عاقل ، كما جاز أن يكون جسم بغير عقل ، فامتنع بهذين أن يكون العقل جَوْهرا . وقال آخرون : العقل هو المُدْرِك للأشياء على ماهى عليه من حقائق المعنى . وهذا القول و إن كان أقرب مما قبله ، فبعيد من الصواب من وجه واحد ، وهو أن الإدراك من صفات الحىّ ، والعقل عَرَض ، يستحيل ذلك منه ، كما يستحيل أن يكون متلذذا أو آلِما أو مشتهيا . وقال آخرون من المتكلمين : العقل هو جملة علوم ضرورية . وهذا الحد غير محصور ، لما تضمنه من الإجمال ، وتناوله من الاحتمال ، والحدُّ إنما هو بيان المحدود ، بما ينفى عنه الإجمال والاحتمال . وقال آخرون ، وهو القول الصحيح : إن العقل هو العلم بالمدرَكات الضرورية . وذلك نوعان : أحدهما : ما وقع عن دَرْك الحواس ، والثانى ما كان مبتدَأً فى النفوس . فأما ما كان واقعا عن درك الحواسّ ، فمثل المرئيات المدركة بالنظر ، والأصوات المدركة بالسمع ، والطعوم المدركة بالذوق ، والروائح المدركة بالشم ، والأجسام المدركة باللمس ، فإذا كان الإنسان ممن لو أدرك بحواسّه هذه الأشياء ، لعلم ، ثبت له هذا النوع من العلم ، لأن خروجه فى حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويَعْلَمَ ، لايخرجه من أن يكون كامل العقل ، من حيث عُلم من حاله أنه لو أدرك لعلِم .

[العقل الغريزى] وأما ما كان مبتدَأً فى النفوس ، فكالعلم بأن الشىء لا يخلو من وجود أو عدم ، وأن الموجود لايخلو من حدوث أو قِدَم ، وأن من المحال اجتماعَ الضدّين ، وأن الواحد أقل من الاثنين . وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفى عن العاقل ، مع سلامة حاله ، وكمال عقله ، فإذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين ، فهو كامل العقل .

وسمّى بذلك تشبيها بعقْل الناقة ، لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا

قبحت ، كما يمنع العِقال الناقة من الشرود إذا نفَرَت ، ولذلك قال عامر بن عبد القيس : إذا عقَلك عقْلك عما لا ينبغى ، فأنت عاقل .

وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول فى العقل ، وهو ما رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « العقل نور فى القلب ، يَفرِق بين الحق والباطل » . وكل من نفى أن يكون العقل جوهرا ، أثبَت مَحَلّه فى القلب ، لأن القلب محل العلوم كلها . قال الله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض، فتكون لهم قلوب يعقِلون بها » ؟ فدلت هذه الآية على أمرين : أحدهما : أن العقل علم، والثانى: أن محله القلب . وفى قوله تعالى: «يعقلون بها» تأويلان : أحدهما: يعلمون بها ، والثانى : يعتبرون بها . فهذه جملة القول فى العقل الغريزىّ .

[نمو العقل المكتسب بالتجارب وحنكة الشيوخ] وأما العقل المكتسب ، فهو نتيجة العقل الغريزىّ ، وهو نهاية المعرفة ، وصحة السياسة ، وإصابة الفكرة ، وليس لهذا حدّ ، لأنه ينمو إن استُعمل ، وينقص إن أُهمِل ، ونماؤه يكون بأحد وجهين : إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ، ولا صادّ من شهوة ، كالذى يحصل لذوى الأسنان من الحُنْكة ، وصحة الرويّة ، بكثرة التجارب ، وممارسة الأمور ، ولذلك حَمِدت العرب آراء الشيوخ ، حتى قال بعضهم: المشايخ أشجار الوقار، ومنابع الأخبار ، لا يَطيش لهم سهم[١] ، ولا يسقط لهم وْهم[٢] ، إن رأوك فى قبيح صدّوك ، وإن أبصروك على جميل أمدّوك . وقيل : عليكم بآراء الشيوخ ، فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع، فقد مرّت على عيونهم وجوه العِبَر، وتصدّت لأسماعهم آثار الغِيَر[٣] . وقيل فى منثور الحكم : مَن طال عمره ، نقصت قوة بدنه ، وزادت قوة عقله . وقيل فيه : لا تَدَعُ الأيام جاهلا إلا أدّبتْه . وقال بعض الحكماء : كفى بالتجارب تأديبا ، وبتقلب الأيام عِظَة . وقال بعض البلغاء : التجربة مِرآة العقل ، والغِرّة[٤] ثمرة الجهل .

---

(١) طاش السهم عن الهدف : حاد عنه ولم يصب .
(٢) الوهم : إدراك المعنى الجزئى المتعلق بالمحسوس .
(٣) الغير : اسم من التغير : أى الأحداث المغيرة لأحوال الناس .
(٤) الغرة : الغفلة والانخداع بالأمانى الباطلة ، أو بالرأى الفطير الذى لم ينضج .

وقال بعض الأدباء : كفى مُخْبرا عما بَقِىَ ما مضى ، وكفى عِبَرًا لأولى الألباب ما جرّبوا .

وقال بعض الشعراء :

ألم تر أن العقلَ زَيْنٌ لأهله ... ولكنْ تمامُ العقل طولُ التجاربِ

وقال آخر :

إذا طالَ عمر المرء فى غير آفةٍ ... أفادتْ له الأيامُ فى كرّها عقلا

[حدس الشباب] وأما الوجه الثانى فقد يكون بفَرْط الذكاء ، وحسن الفطنة ، وذلك جَوْدة الحَدْس ، فى زمان غير مُمْهِل[1] للحدس ، فإذا امتزج بالعقل الغريزىّ ، صارت نتيجتهما نموّ العقل المكتسب ، كالذى يكون فى الأحداث من وُفور العقل ، وَجودة الرأى ، حتى قال هَرِم بن قُطْبة[2] ، حين تنافر إليه عامر بن الطُّفَيل[3] ، وعلقمة بن عُلاثة : عليكم بالحديث السنّ ، الحديد الذهن . ولعل هَرِما أراد أن يدفعهما عن نفسه ، فاعتذر بما قال ، لكن لم ينكرا قوله ، إذعانا للحق ، فصارا إلى أبى جهل ، لحداثة سنه ، وحدّة ذهنه ، فأبى أن يحكم بينهما ، فرجعا إلى هَرِم ، فحكم بينهما ، وفيه قال لَبيد :

ياهَرِمَ ابنَ الأكرمينَ مَنْصِبًا ... إنكَ قد أوتيتَ حُكْمًا مُعْجِبا

وقد قالت العرب : عليكم بمشاورة الشباب : فإنهم يُنْتِجون رأيا لم ينله طول القِدَم[4] ، ولا استولت عليه رطوبة الهَرَم . وقد قال الشاعر :

رأيت العقلَ لم يكن انتهابًا ... ولم يُقسَمْ على عدد السنينَا

ولو أن السنينَ تقاسمتْهُ ... حوَى الآباء أنصبةَ البنينَا

---

(١) كذا فى منهاج اليقين ، وهو الصواب . وفى النسخ المطبوعة : مهمل . وهو تحريف . والحدس : هو الظن المؤكد فى سرعة . وقد يعبر عنه بالبديهة أو الارتجال .

(٢) هرم بن قطبة بن سنان الفزارى : أحد حكام العرب بين السادات ، لايردون قضاءه ، أدرك الإسلام وله صحبة .

(٣) عامر بن الطفيل بن مالك بن الأحوص ، وعلقمة بن علاثة بن جعفر من بنى عامر بن صعصعة . فهما من قبيلة واحدة ، وكل منهما سيد من سادات قومه ، فارس شاعر . والمنافرة : أن يجتمع رجلان عظيمان فى مجلس فيه أحد الرجال العقلاء ، ليقضى بينهما فى أيهما أعز نفرا ، وهى من نظام الجاهلية الذى أبطله الإسلام.

(٤) أى رأيا جديدا ، لم يعرفه القدماء ، مع طول الزمن ، وكثرة العقلاء فيهم .

وحكى الأصمعى[١] رحمه الله قال : قلت لغلام حَدَث[٢] من أولاد العرب كان يحادثنى ، فأمتعنى بفصاحة وملاحة : أيسُرك أن يكون لك مِئة ألف درهم وأنت أحمق ؟ قال : لا والله . قال : فقلت : ولم ؟ قال : أخاف أن يجنىَ علىّ حمقى جناية تذهب بمالى ، و يبقى علىّ حُمْقِى . فانظرْ إلى هذا الصبىّ كيف استخرج بفَرْط ذكائه ، واستنبط بجودة قريحته ، ما لعله يدِقّ على من هو أكبر منه سنا ، وَأكثر تجربة .

وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ، ما حَكى ابن قُتيبة : أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون ، وفيهم عبدُ الله بن الزبير[٣] ، فهربوا منه إلا عبدَ الله ، فقال له عمر رضى الله عنه : مالكَ؟ لِمَ لاتهربُ مع أصحابك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين : لم أكن على رِيبةٍ فأخافَك ، وَلم يكن الطريق ضيقا فأوسعَ لك . فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفِطنة ، وقوة المُنّة ، وحسن البديهة ، كيف نفى عنه اللوم ، وأثبت له الحجة ؛ فليس للذكاء غاية ، ولا لجودة القريحة نهاية .

[حدس الفرزدق وجرير] وُحكى أن سليمان بن عبدالملك أمر الفرَزْدَق[٤] بضرب أعناق أُسارَى من الروم ، فاستعفاه الفرزدق ، فلم يفعل ، وأعطاه سيفا لايقطع شيئا ، فقال الفرزدق : بل أضربهم بسيف أبى رَغوانَ مُجاشِع ، يعنى سيف نفسه ، فقام فضرب به عنق رومىّ منهم ، فنبا السيف عنه ، فضحك سليمانُ ومَن حولَه ، فقال الفرزدق :

أيعجَبُ الناسُ أن أضحكتُ سيدَهمْ خليفــةَ اللهِ يُستسقى به المطرُ

---

(١) الأصمعى : أبوسعيد عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع ، كان حافظا للغة و الأدب ، عارفا بتاريخ العرب . توفى بالبصرة سنة ١١٤ أو ١١٦ هـ .

(٢) الحدث : الحديث السن .

(٣) عبد الله بن الزبير بن العوام : أمه أسماء بنت أبى بكر . وهو أول مولود فى المدينة للمهاجرين المسلمين ، بويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية ، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان وبعض أهل الشام ، مات سنة اثنتين وسبعين للهجرة ، لما حاصر الحجاج مكة ، وضرب الكعبة بالمنجنيقات .

(٤) الفرزدق : اسمه همام بن غالب بن صعصعة التميمى ، أحد ثلاثة الشعراء الكبار فى عصر بنى أمية ، لقب الفرزدق لضخامة وجهه وغلظه ، تشبيها له بقطع العجين الضخمة . وكان ينافس جريرا فى الشعر ، ولذلك تهاجيا زمناً طويلا ، وعرفت أهاجيهما بالنقائض . وماتا سنة عشر ومئة للهجرة .

لم ينبُ سيفيَ من رُعْب ولا دَهَشٍ عن الأسيرِ ولكن أُخِّرَ القَدَرُ[١]

ولَنْ يُقَدّم نفسا قبلَ مِيتتها جمعُ اليدين ولا الصَّمْصامةُ الذكَرُ[٢]

ثم أغمد سيفه وهو يقول :

ما إنْ يعابُ سيدٌ إذا صَبَا ولا يُعابُ صارمٌ إذا نَبَا

ولا يُعابُ شاعر إذا كَبَا[٣]

ثم جلس وهو يقول : كأنى بابن المَرَاغة[٤] قد هجانى ، فقال :

بسيفِ أبى رَغوانَ سيفِ مُجاشعٍ ضربتَ ولم تضربْ بسيفِ ابن ظالِمِ

ثم قام فانصرف ، وحضر جرير ، وخُبّر بالخبر ، ولم ينشَد له الشعر ، فأنشأ يقول :

بسيفِ أبى رَغْوان سيفِ مجاشعٍ ضربتَ ولم تضربْ بسيف ابن ظالِمِ[٥]

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، كأنى بابن القَيْن[٦] وقد أجابنى ، فقال :

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نَفُكُّهمْ إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارِمِ

فاستحسن سليمان حَدْسَ الفرزدقِ على جرير[٧] ، ثم أُخبر الفرزدق بشعر جرير ، ولم يخبر بحدْسه ، فقال الفرزدق :

---

(١) دهش الرجل دهشا ، من باب فرح : تحير وذهب عقله .

(٢) الصمصامة : السيف الذى لا ينثنى . والذكر : الحديد الصلب ، وهو الفولاذ .

(٣) كبا الرجل والفرس : انكب على وجهه .

(٤) المراغة : الأتان التى لا تمنع الفحولة بل تطلبها . وابن المراغة : كنية كنى بها الفرزدق أو الأخطل جريرا ، تحقيرا له ، بتسمية أمه بالأتان .

(٥) أبو رغوان : كنية مجاشع جد الفرزدق . والمراد بسيف ابن ظالم : سيف المهلب بن أبى صفرة ، وأبوصفرة : هو ظالم بن سراقة بن كندى : وكان المهلب وبنوه من أكبر القواد فى الدولة الأموية ، مات سنة ثلاث وثمانين .

(٦) ابن القين : يريد به الفرزدق ، لأن بعض آبائه كانوا قيونا : أى صاغة فى البصرة .

(٧) أى فضل حدس الفرزدق على حدس جرير ، والظاهر : أن الفرزدق كان أميل إلى بنى أمية من قرنه . وأما جرير فقد جود مدائحه فى الحجاج خاصة ، ولذلك حقد عليه بنو أمية ، ولم يجزلوا له العطايا .

كذاكَ سيوفُ الهِند تنبو ظُبَاتُها وتقطع أحيــانًا مَنَاطَ التمــائِمِ(١)

ولن نقتلَ الأسرَى ولــكن نفــكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارم

وهل ضَربةُ الرومىِّ جاعلةٌ لــكم أباً عن كليبٍ أو أخاً مثل دارِمِ(٢)

فشاع حديث الفرزدق بهذا، حتى حُـكِى أن المهدى أُتِى بأسرى من الروم ، فأمر بقتلهم ، وكان عنده شبيب بن شَيْبةَ ، فقال له : اضرب عنق هذا العِلْج . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد علمتَ ما ابتُلِى به الفَرَزدَق ، فعُيِّر به قومُه إلى اليوم ، فقال : إنما أردت تشريفَك ، وقد أعفيتك . وكان أبُو الهولِ الشاعر حاضرا ، فقال :

جزِعتَ من الرومىِّ وهْوَ مقَيَّدٌ فــكيفَ ولو لاقيته وهْوَ مُطْلَقُ

دعاكَ أمــيرُ المؤمنينَ لقتــلِهِ فــكاد شبيب عند ذلك يَفرَقُ

فنحِّ شَــبيبا عن قِراع كتيبةٍ وأدْنِ شبيبا من كلام يُلَفَّقُ

وليس العَجَب من كلام الفرزدق إن صح ، من جودة القريحتين(٣) ، ولــكن من اتفاق الخاطرين(٤) . ولمثل ذلك قالت الحــكماء : آية العقل سرعة الفهم ، وغايته إصابة الوَهْم .

[سرعة الخاطر] وليس لمن مُنح جَودة القريحة ، وسرعة الخاطر ، عَجْز عن جواب وإن أعضل(٥) ، كما قيل لعلىّ رضى الله عنه : كيف يحاسبُ الله العباد على كثرة عَدَدهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرة عَدَدهم . وقيل لعبد الله بن عباس : أين تذهَب الأرواح إذا فارقت الأجساد ؟ فقال : أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان . وهذان الجوابان جوابا إسكات ،

---

(١) الظبة : حد السيف الذى يقطع به . والتمائم : الخرزات تعلق على الصبى ، لتقيه من العين . ومناطها : موضع تعليقها فى الرقبة .

(٢) كليب بن ربيعة : أخو مهلهل الشاعر ، وخال امرئ القيس الشاعر ، وكان أعز الناس فى العرب . ودارم : هو ابن مالك بن حنظلة التميمى ، وهو أبو مجاشع ، وبيته من أكبر بيوت بنى تميم ، وفيه الشرف على دعوى الفرزدق .

(٣) لأن إصابة الحق بعد التفكر والتأمل من لوازم الجودة .

(٤) لأنهما لم يتأملا ، ولــكن قالا ما قالا بداهة وارتجالا . وانظر قصة جرير والفرزدق هذه فى شرح الصفدى للامية العجم ، فلها وجه آخر .

(٥) أعضل : اشتبه وأشكل .

تضمنا دليلى إذْعان ، وحجَّتى قَهْر . ومن غير هذا الفن و إن كان مُسكتا ، ما حُكى عن إبليس لعنه الله : أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام ، قال : ألست تقول إنه لن يصيبَك إلا ما كتبه الله عليك ؟ قال : نعم . قال : فارم نفسك من ذِرْوة هذا الجبل ، فإنه إن يُقدَّر لك السلامةُ تسلم ؛ فقال له : ياملعون ، إن لله أن يختبر عباده ، وليس للعبد أن يختبر ربه . ومثل هذا الجواب لايُستغرَب من أنبياء الله تعالى ، الذين أمدّهم بوحيه ، وأيدهم بنصرة ، و إنما يُستغرب ممن يلجأ إلى خاطره ، ويعوّل على بديهته . وَرَوَى قُثَمُ بن العباس رضى الله عنهما ، قال : قيل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : كم بين السماء والأرض ؟ قال : دعوة مستجابة . قيل فكم بين المشرق والمغرب ؟ قال : مَسِيرة يوم للشمس . فكان هذا السؤال من سائله : إما اختبارا و إما استبصارا ، فصدر عنه من الجواب ما أسكت .

[اكتمال العقل] فأما إذا اجتمع هذان الوجهان فى العقل المكتسَب ، وهو ما ينميه فَرْط الذكاء ، بجودة الحَدْس ، وصحة القريحة بحسن البديهة ، مع ماينميه الاستعمال بطول التجارب ، ومرور الزمان بكثرة الاختبار ، فهو[١] العقل الكامل على الإطلاق ، فى الرجل الفاضل بالاستحقاق . رَوَى أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : أُثْنِىَ على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يارسول الله : إن من عبادته ... إن من خُلُقه ... إن من فضله ... إن من أدبه ...[٢] فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يا رسول الله : نُثْنِى عليه بالعبادة وأصناف الخير ، وتسألنا عن عقله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يَقْرُب الناس من ربهم بالزُّلَف[٣] ، على قدر عقولهم .

[زيادة العقل المكتسب] واختلف الناس فى العقل المكتسب إذا تناهى وزاد ، هل يكون فضيلة أم لا ؟ فقال قوم : لايكون فضيلة ، لأن الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين ،

(١) أى مجموع هذه الصفات .

(٢) كناية عن المبالغة فى الثناء عليه . وقد حذف الخبر ، لادعاء أن ذلك مما لايحيط به الحصر والبيان .

(٣) الزلف : جمع زلفة ، وهى القربة .

كما أن الخير متوسط بين رذيلتين ، فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة . وقد قالت الحكماء للإسكندر: أيها الملك، عليك بالاعتدال فى كل الأمور ، فإن الزيادة عَيب ، والنقصان عجز . هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « خير الأمور أوساطُها» . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : خير الأمور النمطَ[١] الأوسط ، إليه يرجع العالى ، و به يلحق التالى . وقال الشاعر :

لا تَذْهَبَنّ فى الأمور فَرَطا[٢] لا تسألنّ إن سألتَ شَطَطَا[٣]
وكُنْ من الناس جميعا وسَطَا

قالوا : لأن زيادة العقل تُفْضى بصاحبها إلى الدهاء والمكر ، وذلك مذموم ، وصاحبه مَلوم ، وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعرىّ[٤] أن يعزل زيادا عن ولايته ، فقال زياد : ياأمير المؤمنين ، أعن مَوْجِدة أو خيانة ؟ فقال : لا عن واحدة منهما ، ولكن خفتُ أن أحمل على الناس فضلَ عقلك .

ولأجل هذا المحكىّ عن عُمر، ماقيل قديما : إفراط العقل مُضِرٌّ بالجسد[٥] . وقال بعض الحكماء : كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رُشْدك . وقال بعض البلغاء : قليل يكفى خير من كثير يُطغِى . وقال آخرون ، وهو أصح القولين : زيادة العقل فضيلة ؛ لأن المكتسب غير محدود ؛ و إنما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصا مذموما ، لأن ما جاوز الحدّ لا يسمّى فضيلة ، كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة ، نسب إلى التهوُّر[٦] ؛ والسخىّ إذا زاد على حد السخاء ، نُسِب إلى التبذير ، وليس كذلك حال العقل المكتسب ، لأن الزيادة فيه زيادة علم بالأمور ، وحسن إصابة بالظنون ، ومعرفة مالم يكن إلى مايكون ، وذلك فضيلة لانقص .

---

(١) النمط : الأسلوب والطريقة .
(٢) الفرط : بالتحريك : السابق المقدم . رجل فرط ، وقوم فرط .
(٣) الشطط : مجاوزة الحق والعدل ، كمن يسأل إعناتا وتبكيتا .
(٤) هو عبد الله بن قيس ، صحابى جليل ، توفى سنة خمس وأربعين .
(٥) إذ به يقتحم عظائم الأمور ، وكثيرا مايهلك دون الوصول إليها .
(٦) التهور : الإقدام على أمور لاينبغى الإقدام عليها ، لأن فيها هلكة .

وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أفضل الناس أعقل الناس». وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العقل حيث كان أُلوف مألوف[(١)]». وقد قيل فى تأويل قوله تعالى: «قل كل يعمل على شاكلته»: أى بحسب عقله. وقال القاسم بن محمد: كانت العرب تقول: من لم يكن عقله أغلبَ خصال الخير عليه، كان حَتْفه[(٢)] فى أغلب خِصال الخير عليه. وقيل فى منثور الحكم: كل شىء إذا كثر رَخُص إلّا العقل، فإنه إذا كثر غلا. وقال بعض البلغاء: إن العاقل مِنْ عقله فى إرشاد، ومِنْ رأيه فى إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد؛ والجاهل من جهله فى إغواء، ومِن هواه فى إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم. وأنشدنى ابن لَنْكَكَ[(٣)] لأبيه:

من لم يكن أكثَرَهُ عقلُه　　　أهلكه أكثرُ مافيه

فأما الدهاء والمكر فهو مذموم، لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر، ولو صرفه إلى الخير لكان محمودا. وقد ذَكَر المغيرةُ بن شُعْبة[(٤)] عمر بن الخطاب، فقال: كان والله أفضلَ من أن يَخْدَع، وأعقَل من أن يُخدع. وقال عمر: لست بالخَبّ، ولا يخدعنى الخَبُّ.

واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله إلى الشر، كزياد وأشباهه من الدُّهاة: هل يسمى الداهية منهم عاقلا أم لا؟ فقال بعضهم: أسميه عاقلا، لوجود العقل فيه؛ وقال آخرون: لا أسميه عاقلا، حتى يكون خيّرا ديّنا، لأن الخير والدين من مُوجبات[(٥)] العقل؛ فأما الشرير فلا أسميه عاقلا، وإنما أسميه صاحب رَوِية وفكر. وقد قيل: العاقل من عَقَل عن الله أمره ونهيه، حتى قال أصحاب الشافعىّ رضى الله عنه، فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس: إنه يكون مصروفا فى الزُّهاد، لأنهم انقادوا للعقل، ولم يغترُّوا بالأمَل. وروى لُقمان بن أبى عامر، عن أبى الدَّرداء[(٦)]: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ياعُوَيمر، ازدد عقلا تزدد

---

(١) ألوف: ساقطة من منهاج اليقين، شرح أدب الدنيا والدين، طبعة الآستانة ص ٢٧

(٢) حتفه: هلاكه وموته. (٣) هو أبو الحسين إبراهيم بن لنكك البصرى، شاعر عباسى، مقدم فى الأشعار والعربية والأدب.

(٤) المغيرة بن شعبة: أبو عبد الله بن عامر الثقفى، أحد دهاة العرب. توفى سنة خمسين للهجرة.

(٥) أى ما يوجبه العقل.

(٦) هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصارى، صحابى جليل مات فى دمشق سنة ٣٢ هـ.

من ربك قربا . قلت : بأبى أنت وأمّى ! ومن لى بالعقل[1] ؟ قال : اجتنب محارم الله ، وأدِّ فرائض الله تكن عاقلا ، ثم تنفَّل[2] بصالحات الأعمال ، تزدد فى الدنيا عقلا ، وتزدد من ربك قربا ، وبه عِزًّا » .

وأنشدنى بعض أهل الأدب هذه الأبيات ، وذكر أنها لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه :

إنّ المكارم أخلاقٌ مطهرة	فالعقل أولها ، والدين ثانيها
والعلم ثالثها ، والحلم رابعُها	والجود خامسها ، والعُرف سادِيها
والبرّ سابعها ، والصبر ثامنُها	والشكر تاسعها واللين عاشِيها
والنفسُ تعلم أنى لا أصدّقها	ولست أرْشُدُ إلا حين أعصيها
والعين تعلم فى عينىْ محدّثها	مَنْ كان من حزبها أو من أعاديها[3]
عيناكَ قد دلتا عينىّ منك على	أشياء لولاهما ما كنتَ تُبديها

[لا ينفك العقل المكتسب عن الغريزى] واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزىّ، لأنه نتيجة منه، وقد ينفك العقل الغريزىّ عن العقل المكتسب، فيكون صاحبه مسلوب الفضائل ، موفور الرذائل ، كالأنوك[4] الذى لا تجد له فضيلة ، والأحمق الذى قلما[5] يخلو من رذيلة . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأحمق كالفَخّار : لا يُرْقَع ولا يُشْعَب» . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأحمق أبغض خلق الله إليه ، إذ حرمه أعز الأشياء عليه» . وقال بعض الحكماء : الحاجة إلى العقل ، أقبحُ من الحاجة إلى المال . وقال بعض البلغاء : دولة الجاهل ، عِبْرة العاقل .

---

(١) استفهام للاستبعاد ، أى من يتكفل ويضمن لى ؟
(٢) النفل : الزيادة مطلقا فى أى شىء . وفى الشرع : اسم لما شرع زيادة على الفرائض والواجبات ، وقد يسمى : المندوب ، والمستحب ، والتطوع .
(٣) كذا رواية البيت فى منهاج اليقين . وفى طبعة بلاق : « تعلم من » ... « إن كان » ... الخ .
(٤) الأنوك : مثل الأحمق : لفظا ومعنى .
(٥) «ما» فى قلما : كافة عن عمل الرفع ، ولا تتصل إلا بقل ، وكثر ، وطال ، ولا يدخلن حينئذ إلا على جملة فعلية ، صرح بفعليتها .

وقال أنوشِرْوان[١] لبُزُرْجَمِهْر : أى الأشياء خير للمرء ؟ قال : عقل يعيش به ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فإخوان يستُرون عيبه . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فمال يتحبّب به إلى الناس . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فعِيّ صامت[٢] . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فموت جارف .

وقال سابور[٣] بن أرْدَشير : العقل نوعان : أحدهما مطبوع ، والآخر مسموع[٤] ، ولا يصلُح واحد منهما إلا بصاحبه ، فأخذ ذلك بعض الشعراء ، فقال :

رأيت العقلَ نوعينِ ... فمسموعٌ ومطبوعُ

ولا ينفع مسموع ... إذا لم يكُ مطبوعُ

كما لاتنفع الشمسُ ... وضوء العين ممنوعُ

[صفة العاقل والأحمق] وقد وصف بعض الأدباء العاقل ، بما فيه من الفضائل ، والأحمق بما فيه من الرذائل ، فقال : العاقل إذا والى بذل فى المودة نَصْره ، و إذا عادى رفع عن الظلم قدره ، فيسعد مُواليه بعقله ، و يعتصِم معاديه بعدله ، إن أَحْسَن إلى أحد، تَرك المطالبة بالشكر، و إن أساء إليه مسىء، سبب له أسباب العُذْر، أو منحه الصفح والعفو ، والأحمق ضالّ مُضلّ ، إن أُونِس تكبّر ، وإن أُوحِش تكدَّر ، و إن استُنطِق تخلَّف ، وإن تُرِك تكلَّف ، مجالسته مَهْنة[٥] ، ومعاتبته مِحنة ، ومحاورته تَغُرّ ، وموالاته تضُر ، ومقاربته عَمًى ، ومقارنته شقًا . وكانت ملوك الفرس إذا غضِبت على عاقل حبسته مع جاهل . والأحمق يُسىء إلى غيره ، ويظن أنه قد أحسن إليه ، فيطالبه بالشكر ، ويحسِنُ إليه ، فيظن أنه قد أساء إليه ،

---

(١) أنوشروان بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد من بهرام ، الملقب بالملك العادل ، ولد النبى صلى الله عليه وسلم لاثنتين وأربعين سنة مضت من ملكه ، وملك تسعا وأربعين سنة . وبزرجمهر كان وزيره ، وهو من أكثر الفرس حكما ومواعظ . وقد تردد ذكره كثيرا فى كتب العرب .

(٢) صامت : صفة لعى ، أى مصمت مسكت . والعى : عدم الاهتداء إلى التكلم .

(٣) سابور : اسم ملك من ملوك الفرس ، معرب شابور ، مخفف عن شاه بور . وهو سابور بن أردشير ابن بابك ، من أولاد بهمن الأكبر .

(٤) يلوح لى أن تقسيم العقل إلى مسموع ومطبوع ؛ أو غريزى ومكتسب : من المعانى التى أفادها المسلمون من الفلسفة الفارسية واليونانية ؛ لأن العرب لم تعرف مثل هذا التقسيم والتفصيل .

(٥) نوع من الحقارة .

فيطالبه بالوتر[١] ، فمَسَاوى الأحمق لاتنقضى ، وعيوبه لاتتناهى ، ولا يقف النظر منها إلى غاية إلا لَوّحت[٢] ما وراءها ، بما هو أدنى منها وأردى ، وأمرّ وأدهى ، فما أكثر العِبَر ، لمن نظر ، وأنفعها لمن اعتبر !

وقال الأحنف بن قيس[٣] : من كل شىء يُحْفظ الأحمق ، إلا من نفسه . وقال بعض البلغاء : إن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق ، وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق ، فإن أتتك منها سُهْمة مع جهل ، أو فاتتك منها بُغْية مع عقل ، فلا يحملنَّك ذلك على الرغبة فى الجهل ، والزهد فى العقل ، فدولة الجاهل من الممكنات ، ودولة العاقل من الواجبات . وليس من أمكنه شىء من ذاته ، كمن استوجبه بآلته وأدواته . وبَعْدُ ، فدولة الجاهل كالغريب ، الذى يحنّ إلى النُّقْلة ، ودولة العاقل كالنسيب الذى يحن إلى الوُصْلة ، فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل ، أو منزلة رفيعة حَلَّها بغير فضل ، فإن الجهل يُنزله منها ، ويزيله عنها ، ويَحُطّه إلى رتبته ، ويردّه إلى قيمته ، بعد أن تظهر عيوبه ، وتكثُر ذنوبه ، ويصير مادحه هاجيا ، ووليه معاديا .

واعلم أنه بحسب ما ينتشر من فضائل العاقل ، كذلك يظهر من رذائل الجاهل ، حتى يصير مَثَلا فى الغابرين ، وحديثا فى الآخرين ، مع هَتْكه فى عصره ، وقبح ذكره فى دهره ، كالذى رواه عطاء عن جابر ، قال : كان فى بنى إسرائيل رجل له حِمار ، فقال : يارب ، لو كان لك حمار لعلفتهُ مع حمارى ! فهمّ[٤] به نبىّ من أنبياء الله ، فأوحى الله إليه : إنما أُثيب كل إنسان على قدر عقله .

واستعمل معاوية رجلا من كلْب[٥] ، فذكر المجوس يوما عنده ، فقال : لعن الله المجوسَ

---

(١) الحقد والبغض والعداوة .
(٢) لوحت : أى لمعت بما وراءها ، ليراه الناس .
(٣) اسمه الضحاك أو صخر بن قيس بن معاوية ، بن حصن السعدى ، سيد بنى تميم وزعيمهم فى الكوفة ، أدرك النبى ولم يره ، وكان معروفا بالحلم وجودة الرأى . مات فى الكوفة سنة سبع وستين .
(٤) أى هم وشرع فى تأديبه ، لأنه نسب إلى الله ما لا يليق أن ينسب إليه .
(٥) قبيلة كلب من عرب اليمن ، كانت تسكن أرض السماوة بين الشام والعراق ، تزوج منهم معاوية ميسون بنت بحدل الكلبية أم ولده يزيد ، وأخت حسان بن بحدل الكلبى من كبرائهم وزعمائهم ، وبهم استظهر معاوية على أعدائه ومنافسيه .

ينكِحون أمهاتهم ، والله لو أعطيتُ عشرة آلاف درهم ما نـكحت أمى . فبلغ ذلك معاوية، فقال : قَبَحه الله ! أتُرونه لو زادوه فَعَل ، وعزله وولّى الربيع العامرىّ - وكان من النوّكَى - سائرَ اليمامة ، فأقاد(١) كلبا بكلب ، فقال فيه الشاعر :

شَهِدت بأن الله حقٌّ لقاؤه ... وأن الربيع العامرىَّ رَقيعُ

أقاد لنا كلبا بكلب ولم يَدَعْ ... دماء كلاب المسلمين تضيعُ

وليس لمعارّ(٢) الجهل غاية ، ولا لمضارّ الحمق نهاية ، قال الشاعر :

لـكل داء دواء يُستطَبُّ بهِ ... إلا الحماقةَ أعيتْ من يُداويها

فصــــل

[العقل والهوى] وأما الهوى فهو عن الخير صادّ(٣) ، وللعقل مضاد، لأنه يُنتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل سِتر المروءة مهتوكا ، ومدخَل الشر مسلوكا .

قال عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما : الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » . وقال عِكْرمة(٤) فى قوله تعالى : « ولـكنكم فَتنتمْ أنفسكم »: يعنى بالشهوات ، « وترَبَّصْتُمْ » : يعنى بالتوبة ، «وارتَبْتُم» يعنى فى أمر الله ، « وغرّتـكم الأمانىُّ » يعنى بالتسويف ، « حتى جاء أمرُ الله » : يعنى الموت ، « وغرّكم بالله الغَرور »: يعنى الشيطان .

ورُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «طاعة الشهوة داء ، وعصيانها دواء »

---

(١) أى قتل كلبا قصاصا لكلب . (٢) المعار : جمع معرة . والمعرة: الضرر والعار .

(٣) مانع وصارف . (٤) عكرمة أبو عبد الله المدنى البربرى من أهل المغرب مولى ابن عباس ، كان من فقهاء المسلمين وعلمائهم، أخذ عن مولاه وعن ابن عمر. وكان يرى رأى الخوارج مات بالمدينة سنة سبع ومئة للهجرة .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اقدَعوا[١] هذه النفوس عن شَهَواتها ، فإنها طُلَعَة[٢] ، تنزِع[٣] إلى شر غاية ، إن هذا الحقَّ[٤] ثقيل مُرِّىٌّ[٥] ، وإن الباطل خفيف وَبِىٌّ[٦] ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أخاف عليكم اثنين : اتباعَ الهوى ، وطول الأمل ، فإن اتباع الهوى يصدّ عن الحق ، وطولَ الأمل ينسى الآخرة . وقال الشعبىّ : إنما سمى الهوى هوًى لأنه يَهْوِى بصاحبه . وقال أعرابىّ : الهوى هَوان[٧] ، ولكن غُلِط باسمه[٨] ، فأخذه الشاعر ، وقال :

إن الهوانَ هو الهوى قُلِبَ اسمُهُ ... فإذا هَوِيتَ فقد لقيت هَوَانا

وقيل فى منثور الحكم : من أطاع هواه ، أَعْطَى عدوه مُناه : وقال بعض الحكماء : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدوّ متبوع . وقال بعض البلغاء : أفضل الناس من عصى هواه ، وأفضل منه من رفض دنياه . وقال هشام[٩] بن عبد الملك بن مروان :

---

(١) اقدعوا : مثل امنعوا : لفظا ومعنى .

(٢) طلعة : هكذا فى منهاج اليقين ، وهو الأشبه بكلام العرب . وفى مطبوعة بلاق : « طلاعة » وهو من تغيير المصححين للكتب . (٣) تنزع : أى تميل وتسرع .

(٤) قديكون المراد بالحق : جنسه فى أى صورة كان . وقد تكون الإشارة إلى القدع المذكور قبله ، وهو كف النفس ، ومنعها عن الشهوات .

(٥) مرى، بالياء المشددة : أى كالمرى فى إصلاح البدن ، أى إن منع النفس عن شهواتها ، وإن كان ثقيلا عليها فقد يحفظ صحة الروح ، كما يحفظ المرى صحة البدن . أفاده الشارح فى منهاج اليقين . والمرى دواء قديم معروف عند الأطباء ، استنبطه الكلدانيون ، ذكروا من فوائده أشياء كثيرة . قال الشيخ داود الأنطاكى فى التذكرة : من الأدوية القديمة التى استخرجها الكلدانيون والقبط . . . يستأصل شأفة البلغم بقوة ، والأخلاط اللزجة ، ويغسل اللفائف والبطن من الديدان والحيات والأخلاط الفاسدة ، غسلا لا يعدله غيره ، ويدر الفضلات ، ويشهى ، ويمنع التخم ، وفساد الأطعمة ... الخ .

(٦) وبى : بالياء المشددة : أصلها وبىء ، بالهمز فى آخره ، ولكن الحجازيين ، ومنهم سيدنا عمر ، يخففون الهمز كثيرا . والوبىء : الوخيم ، يقال : كلأ وبىء ، أى مستوخم ، يمرض آكله .

(٧) الهوان : الذل والخزى .

(٨) يريد أن الهوى وهو العشق ، كان حقه أن يسمى الهوان ، لما يلازمه من ذل وخزى وليطابق لفظه معناه ، ولكن الأوائل تلعبوا بذلك الاسم ، اختصارا من الهوان ، ليخدعوا الناس به ، مع بقاء المسمى وهو الهوان فى محله . وقد وضحت علامة مكرهم الخفى فى ذلك الاسم ، فلا تخفى على ذى بصر أوذى بصيرة (انظر منهاج اليقين) .

(٩) هو عاشر الخلفاء الأمويين . توفى سنة خمس وعشرين ومئة .

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادكَ الهوَى   إلى كل مافيه عليكَ مقالُ

قال ابن المعتز رحمه الله : لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال الشاعر :

إذا ما رأيت المرءَ يقتادُه[١] الهوى   فقد ثكِلته[٢] عند ذاكَ ثواكلُهْ

وقد أشمت الأعداءَ جهلًا بنفسهِ   وقد وَجَدَتْ فيه مَقالًا عواذلُهْ

ومايَرْدَعُ النفسَ اللَّجوجَ عن الهوى   من الناس إلا حازمُ الرأى كاملُهْ

ولما كان الهوى غالبا ، وإلى سبيل المهالك مُورِدا ، جُعل العقل عليه رقيبا مجاهدا ، يلاحظ عثرة غفلته ، ويدفع بادرة سطوته ، ويدفع خِداع حيلته ، لأن سلطان الهوى قوىّ ، ومدخَل مكره خفىّ ، ومن هذين الوجهين يُؤْتَى العاقل ، حتى تنفُذ أحكام الهوى عليه ؛ أعنى بأحد الوجهين : قوة سلطانه ، وبالآخر : خفاء مكره ؛ فأما الوجه الأول : فهو أن يَقْوَى سلطان الهوى ، بكثرة دواعيه ، حتى تستولىَ عليه غَلَبَةُ الهوى والشهوات ، فيكِلّ العقل عن دفعها ، ويضعف عن منعها ، مع وضوح قبحها فى العقل المقهور بها ، وهذا يكون فى الأحداث أكثر ، وعلى الشباب ، أغلب ، لقوة شهواتهم ، وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم ، وأنهم ربما جعلوا الشبابَ[٣] عذرا لهم ، كما قال محمد بن بشير :

كلٌّ يرى أن الشبابَ له   فى كل مبلغ لَذَّةٍ عُذْرُ

ولذلك قال بعض الحكماء : الهوى ملك غَشوم ، ومتسلِّط ظَلوم . وقال بعض الأدباء : الهوى عَسوف ، والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء :

يا عاقلا أردَى الهوى عَقْلَهُ   مالكَ قد سُدَّتْ عليك الأمورْ

أتجعلُ العقلَ أسيرَ الهوى   وإنما العقلُ عليهِ أميرْ

وحسْم ذلك : أن يستعين العقلُ بالنفس النفُّور ، فيُشعرَها مافى عواقب الهوى ، من

---

(١) اقتاد الدابة : سحبها من أمامها . وساقها : دفعها من خلفها .

(٢) ثكلته : فقدته .

(٣) في منهاج اليقين : الشبابة ، بالتاء ، ولم أجده في المعاجم :

شدة الضَّرَر ، وقبح الأثَر ، وكثرة الأجرام ، وتراكُمُ الآثام . فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : «حُفَّتِ[١] الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النار بالشهوات[٢]» : أخبر أن الطريق إلى الجنة: باحتمال المكاره ، والطريق إلى النار : باتباع الشهوات .

قال علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه : إياكم وتحكيمَ الشهواتِ على أنفسكم ، فإنّ عاجلها ذميم ، وآجلها وَخيم ، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب ، فسوّفها بالتأميل والإرغاب، فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعتا على النفس ، ذَلّت لهما وانقادت . وقد قال ابن السَّماك[٣] : كن لهواك مُسوِّفا ، ولعقلك مُسعِفا ، وانظر ماتسوء عاقبته ، فوطِّن نفسك على مجانبته ، فإن ترك النفس وما تهوى داؤها ، وترك ماتَهوى دواؤها ، فاصبر على الدواء ، كما تخاف من الداء . وقال الشاعر :

صَبَرْتُ على الأيام حتى تولَّتِ ... وألزمت نفسى صبرَها فاستمرَّتِ
وما النفس إلا حيثُ يجعلها الفتى ... فإن أُطْمِعتْ تاقتْ وإلَّا تَسلَّتِ[٤]

فإذا انقادت النفس للعقل ، بما قد أُشعِرَت من عواقب الهوى ، لم يلبَث الهوى أن يصير بالعقل مدحورا ، و بالنفس مقهورا ، ثم له الحظ الأوفى فى ثواب الخالق ، وثناء المخلوقين ، قال الله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقَامَ رَبِّهِ ونهى النفسَ عن الهوى، فإن الجنة هى المَأْوَى » . وقال الحسن البصرىّ : أفضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء : أعزّ العِز الامتناع من تملّك الهوى . وقال بعض البلغاء : خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه ، وعصى هواه فى طاعة ربه . وقال بعض الأدباء : من أمات شهوته، فقد أحيا مُروءته . وقال بعض العلماء : ركَّب الله الملائكة من عقل بلا شَهوة ، وركّب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما؛ فمن غلب عقله على شهوته، فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله ، فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء : من أشجع الناس وأحراهم بالظفر فى مجاهدته ؟قال :

---

(١) حفت : أحيطت بها . (٢) أى بما يستلذ من أمور الدنيا .

(٣) أبو العباس محمد بن صبيح العجلي ، كان من الزهاد ، وذا قدر عند الرشيد . توفى سنة ثلاث وثمانين ومئة بالكوفة . (٤) نسيت هواجسها .

من جاهد الهوى طاعة لربه ، واحترس فى مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء :

قديدركُ الحازم ذوالرأى المُنَى بطاعة الحزم وعِصيان الهوَى

وأما الوجه الثانى : فهو أن يَخْفِيَ الهوى مكرَه ، حتى تُمَوَّه[1] أفعاله على العقل، فيتصوّر القبيح حسنا ، والضرر نفعا ، وهذا يدعو إليه أحد شيئين : إما أن يكون للنفس ميل إلى ذلك الشىء ، فيَخْفَى عنها القبيح، لحسن ظنها ، وتتصوّره حسنا ، لشدة ميلها ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: «حُبُّك الشىء يُعْمِى ويُصِمّ» : أى يُعْمِى عن الرُّشْد، ويصمّ عن الموعظة . وقال علىّ رضى الله عنه : الهوى عمًى . قال الشاعر :

حَسَنٌ فى كلّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدّ[2]

وقال عبد الله[3] بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه :

ولستُ براءٍ عيبَ ذى الوُدّ كلّه ولا بعضَ مافيه إذا كنتُ راضياَ

فعينُ الرضا عن كل عيب كليلةٌ ولكنّ عينَ السخط تبدِى المساوياَ

وأما السبب الثانى : فهو استثقال الفكر فى تمييز ما اشتبه ، وطلب الراحة فى اتباع مايسهُل ، حتى يظنَّ أن ذلك أوفقُ أمريه ، وأحمدُ حالَيه ، اغترارا بأن الأسهل محمود ، والأعسر مذموم ، فلن يعدَم أن يتورّطَ بخُدَع الهوى ، وزينة[4] المكر فى كل مخوف حَذِر ،

---

(١) تشتبه ، يقال موه النحاس : إذا طلاه بفضة أو ذهب ، ليخفى جوهره .

(٢) هذا عجز بيت لعمر بن أبى ربيعة المخزومى ، وصدره : « فتضاحكن وقد قلن لها » من قصة شعرية لطيفة، مطلعها : « ليت هندا أنجزتنا ماتعد » .

(٣) من فتيان بنى هاشم وأجوادهم و فصحائهم ، كان صديقا للحسين بن عبد الله بن العباس ، ثم وقع بينهما أمر ، فتهاجرا ، فقال عبد الله :

إن حسينا كان شيئا ملفقا فحصه التكشيف حتى بدا ليا

وأنت أخى ما لم تكن لى حاجة فإن عرضت أيقنت أن لا أخاليا

ولست براء . . . الخ . . . البيتين (عن منهاج اليقين) .

(٤) كذا فى مطبوعة بلاق . وفى منهاج اليقين : ريبة .

ومكروه عَسِر؛ ولذلك قال عامر بن الظَّرِب[١] : الهوى يقظان، والعقل راقد، فمن ثم غلِب. وقال سليمان بن وهب: الهوى أمتع، والرأى أنفع. وقيل فى المثل: العقل وزير ناصح، والهوى وكيل فاضح. وقال الشاعر:

إذا المرء أعطَى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ولم يَنهها تاقتْ إلى كلِّ باطلِ
وساقت إليه الإثمَ والعار بالذى دعته إليه من حلاوة عاجلِ

وحَسْم السبب الأول: أن يجعل فكر قلبه، حَكَمًا على نظر عينه، فإن العين رائد[٢] الشهوة، والشهوة من دواعى الهوى، والقلب رائد الحقّ، والحقّ من دواعى العقل. وقال بعض الحكماء: نظرُ الجاهل بعينه وناظره، ونظر العاقل بقلبه وخاطره. ثم يتهم نفسه فى صواب ما أحبتْ، وتحسين ما اشتهتْ، ليصحّ له الصواب، ويتبين له الحق، فإن الحق أثقل مَحمِلا، وأصعب مَرْكبا، فإن أشكل عليه أمران، اجتنب أحبَّهما إليه، وترك أسهلهما عليه، فإن النفس عن الحق أنفر، وللهوى آثر. وقد قال العباس بن عبد المطلب: إذا اشتبه عليك أمران، فدع أحبَّهما إليك، وخذ أثقلهما عليك. وعلة هذا القول: هو أن الثقيل تبطئ النفس عن التسرع إليه، فيصحّ مع الإبطاء، وتطاول الزمان، صوابُ ما استعجم، وظهور ما استبهَمَ[٣]. وقد قال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: من تفكر أبصر، والمحبوب السهل تسرع النفس إليه، وتُعَجِّل بالإقدام عليه، فيقصر الزمان عن تصفحه، ويفوت استدراكه، ليقضىّ فعله، فلا ينفع التصفح[٤] بعد العمل، والاستدراك بعد الفوت. وقال بعض الحكماء: ما كان عنك مُعرِضا، فلا تكن له متعرِّضا. وقال الشاعر:

أليسَ طِلابُ ما قد فات جَهْلاً وذكر المرء ما لا يستطيعُ

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى، وما يقارنه من مِحَن الدنيا، فقال: الهوى مَطيّة

---

(١) عامر بن الظرب العدوانى: أحد حكام العرب المشهورين فى الجاهلية، كان يقضى بينهم فى المسائل المشكلة، إلى أن كبر وضعف.

(٢) الرائد: هو الذى يتقدم القوم، يطلب لهم مرعى ومنزلا.

(٣) استبهم واستعجم: أشكل وغمض.

(٤) التصفح: إمعان النظر، وطول التأمل فى صفحات الشىء ووجوهه.

الفتنة ، والدنيا دار المِحْنة ، فاترك الهوى تسلَم ، وأعرض عن الدنيا تَغنَم ، ولا يغرَّنَّك هواك بطيب الملاهى ، ولاتفتننك دُنياك بحسن العوارى ، فمدة اللهو تنقطع ، وعارية الدهر تُرْتجع[(١)]، ويبقى عليك ماترتكبه من المحارم ، وتكتسبه من المآثم . وقال علىّ بن عبد الله الجعفرىّ[(٢)] : سمعتنى أمرأة فى الطواف وأنا أنشد :

أهوَى هوى الدين واللذاتُ تُعجبنى ... فكيف لى بهوى اللذات والدين !

فقالت : هما ضَرَّتان ، فذَرْ أيَّتهُما شئت ، وخذالأخرى .

[الهوى والشهوة] فأما فرق مابين الهوى والشهوة،مع اجتماعهما فى العلة والمعلول ،واتفاقهما فى الدلالة والمدلول، فهو أن الهوى مختص بالآراء والاعتقادات ، والشهوةَ مختصة بنيل المستلذّات، فصارت الشهوة من نتائج الهوى ، وهى أخصّ ، والهوى أصل، هو أعمّ . ونحن نسأل الله أن يكفينَا دواعىَ الهوى ، ويصْرِفَ عنا سُبُل الرّدى ، ويجعلَ التوفيق لنا قائدا ، والعقل لنا مُرْشِدا ؛ فقد رُوِى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام : عظْ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحْيِ منّى . وقال محمد بن كُناسة :

مامَنْ رَوَى أدَبا ولم يعملْ به ... ويكفَّ عن زَيغ الهوى بأديبِ
حتى يكونَ بما تعلَّم عاملا ... من صالح فيكون غير مَعيبِ
ولقلما تُغْنى إصابة قائل ... أفعالُه أفعالُ غير مصيبِ

وقال آخر[(٣)] :

يأيُّها الرجلُ المعلِّمُ غيرَه ... هَلَّا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصفُ الدواء لذى السَّقام وذى الضَّنَى ... كيما يصحَّ به وأنت سقيمُ
ابدأ بنفسِك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

---

(١) ترتجع : كذا فى منهاج اليقين . وفى طبعة بلاق : ترجع .

(٢) هو المشهور بابن المدينى، الإمام المبرز فى علوم الحديث . قال البخاري : ما استصغرت نفسى عند أحد قط ، إلا عند ابن المدينى . وهو شيخ شيوخ المحدثين الكبار . ولد بسامرا ، ومات بالعسكر سنة أربع وثلاثين ومئتين .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلى . وقيل الأخطل ، والأبيات فى أشعارهما كليهما .

فهناك تُعْذَر إن وَعَظت ويُقتدَى بالقول منك ، ويُقْبَل التعليمُ
لا تنه عن خلق وتأتىَ مثله عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

حكى أبوفروة[١] أن طارقا صاحب شرطة خالد[٢] بن عبد الله القَسْرىّ ، مرّ بابن شُبْرُمَة[٣] وطارق فى مَوكبِه ، فقال ابن شُبْرُمة :

أرَاها وإن كانت تُحَبُّ كأنها سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تَقَشَّعُ[٤]

اللهم لى دينى ، ولهم دنياهم . فاستُعْمِل[٥] ابن شُبْرُمة بعد ذلك على القضاء ، فقال له ابنه أبو بكر: أتذكر قولك يوم كذا إذْ مَرَّ بك طارق فى موكبه ؟ فقال : يا بُنىّ ، إنهم يجدون مثل أبيك، ولا يجد أبوك مثلَهم[٦] ؛ إن أباك أكل من حَلْوائهم، فحُطَّ[٧] فى أهوائهم .

أما ترى هذا الدّيِّن الفاضل كيف عُوجل بالتقريع ، وقوبل بالتوبيخ ، من أخصّ ذويه، ولعله من أبرّ بنيه ! فكيف بنا ونحن أطلق منه عِنانا ، وأقلق جَنانا ، إذا رَمَقتنا أعين المتتبعين ، وتناولتنا ألسن المتعنِّتين : هل نجد غير توفيق الله تعالى مَلاذا ، وسوى عصمته مَعاذا ؟

---

(١) أبوفروة : هو عدى بن عدى الجزرى الكندى التابعى ، قال البخارى : هو سيد أهل الجزيرة . وكان عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة والموصل . توفى سنة عشرين ومئة .

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد القسرى البجلى ، كان من أمراء الدولة الأموية ، وأخا هشام من الرضاعة ، ولاه هشام العراق بعد عمر بن هبيرة . وكان خالد جوادا عظيم الهمة ، وله أخبار ومكايد . مات بالشام سنة ست وعشرين ومئة .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة الكوفى القاضى ، فقيه أهل الكوفة ، وكان راوية شاعرا خطيبا ناسبا ، حاضر الجواب ، وكان يشبه بعامر الشعبى ، والبيت الذى تمثل به لعمران بن حطان .

(٤) تقشع : تنكشف وتضمحل.

(٥) أى ولى من طرف أبى جعفر المنصور .

(٦) أى يعرفون قدره وينوهون بذكره .

(٧) فحط : كذا فى منهاج اليقين ، أى سقط فيما سقطوا فيه . وفى طبعة بلاق : فخبط .

الباب الثاني

باب أدب العلم

[شرف العلم وفضله] اعلم أن العلم أشرف مارغب فيه الراغب ، وأفضل ما طُلِب وجدّ فيه الطالب ، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب ، لأن شرفه يُثْمر[1] على صاحبه ، وفضله يَنْمِي[2] عند طالبه ؛ قال الله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » ؟ فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل ، لما قد خُصّ به العالم من فضيلة العلم . وقال تعالى : « وما يعقِلها إلا العالِمون » ، فنفى أن يكون غير العالم يعقِل عنه أمرا ، أو يفهَم منه زَجْرا .

ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام : إنى عليم ، أحبُّ كلَّ عليم» . وروى أبو أمامةَ قال : سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين : أحدهما عالِم ، والآخر عابد، فقال صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد ، كفضلى على أدناكم[3] رَجُلا» . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الناس أبناء مايُحْسِنون . وقال مصعَب[4] بن الزُّبير لابنه : تعلم العلم ، فإن يكن لك مال ، كان لك جمالا ، وإن لم يكن لك مال ، كان لك مالا . وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : يابَنِيّ تعلموا العلم ، فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وَسَطاً سُدتم ، وإن كنتم سُوقَةً[5] عشتم . وقال بعض الحكماء : العلم شرَف من لاقَدْرَ له ، والأدب مالٌ لاخوف عليه . وقال بعض الأدباء : العلم أفضل خَلَف ، والعمل به أكملُ شَرَف . وقال بعض البلغاء : تعلَّم العلم ، فإنه يقوِّمك ويسدّدُك[6] صغيرا ، ويقدّمك ويسوّدك كبيرا ، ويُصْلِح زَيْفك[7] وفاسدك ، ويرغم[8] عدوَّك وحاسدَك ،

---

(١) كذا فى منهاج اليقين . وفى طبعة بلاق : ينم .
(٢) ينمى : يكثر ويزيد . (٣) أدناكم : أقلكم منزلة .
(٤) هو ابن الزبير بن العوام ، كان أبوه من كبار الصحابة وقتل هو سنة ٧٢ للهجرة وسنه ٣٥ سنة عند دير الجاثليق ، على شاطئ نهر دجيل.
(٥) السوقة : كل من عدا الحكام والأمراء . (٦) يسددك : يرشدك إلى السداد.
(٧) أصل الزيف : الدرهم المغشوش . وفى الأصل زيغك ، بالغين .
(٨) يرغمه : يلصق أنفه بالرغام ، وهو التراب، ليذله .

ويقوّم عِوَجك وَمَيَلك ، ويصحح همتك وأَمَلَك . وقال علىّ رضى الله تعالى عنه : قِيمة كل امرئ مايُحسِن . فأخذه الخليل[١] ، فنظمه شعرا ، فقال :

لا يكونُ العلىُّ مثلَ الدنىّ ✽ لا ولا ذوالذكاء مثلُ الغبىّ
قيمةُ المرء قدْرُ مايُحسِنَ المرْ ✽ ءُ قضاءٌ من الإمام علىٍّ

وليس يجهل فضلَ العلم إلّا أهل الجهل ؛ لأن فضل العلم إنما يُعرف بالعلم ، وهذا أبلغ فى فضله ، لأن فضله لايعلم إلّا به ، فلما عَدِم الجهالُ العلم الذى به يتوصّلون إلى فضل العلم ، جهلوا فضله ، واسترذلوا أهله ، وتوهّموا أن ماتميل إليه نفوسُهم من الأموال المقتناة ، والطرَفِ المشتهاة ، أولَى أن يكون إقبالُهم عليها ، وأحرى أن يكون اشتغالُهم بها . وقد قال ابن المعتزّ[٢] فى منثور الحِكَم : العالِم يعرف الجاهل ، لأنه كان جاهلا ، والجاهل لايعرف العالم ، لأنه لم يكن عالما . وهذا صحيح ، ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله ، انصراف الزاهدين ، وانحرفوا عنه وعنهم ، انحرافَ المعاندين ، لأن من جهل شيئا عاداه . وأنشدنى ابن لَنْكَكَ لأبى بكر ابن دُريد[٣] :

جهِلتَ فعاديتَ العلومَ وأهلَها ✽ كذاك يعادى العلمَ من هو جاهلُهْ
ومن كان يهوى أن يُرى متصدّرًا ✽ ويكره «لاأدرى» أصيبت مقاتِلُهْ

وقيل لبُزُرْجَمِهْر : العلم أفضل أم المال ؟ فقال : بل العلم . قيل : فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء ، ولانكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء ؟ فقال : ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال ، وجهل الأغنياء بفضل العلم . وقيل لبعض الحكماء لم لايجتمع العلم والمال ؟ فقال : لعز الكمال . وأُنشِدت لبعض أهل هذا العصر :

---

(١) أبوعبد الرحمن : الخليل بن أحمد البصرى الأزدى الفراهيدى ، أذكى العرب فى عصره ، وأكبر علماء النحو ، ومخترع العروض ، ومؤلف أول معجم عربى مرتب على الحروف. توفى سنة ١٧٥ هـ .

(٢) ابن المعتز : عبد الله الشاعر العباسى المعروف . برع فى الشعر وخاصة فى الوصف . تولى الخلافة يوما وليلة ، ثم قتل سنة ٢٩٦ هـ .

(٣) أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد : من كبار علماء العربية ، وهو صاحب كتاب الجمهرة فى اللغة . توفى سنة ٣٢١ هـ .

وفى الجهل قبلَ الموت موتٌ لأهله   فأجسامُهم قبلَ القبورِ قُبورُ
وإنَّ امرأً لم يَحْيَ بالعلم ميتٌ   فليس له حتى النشورِ نشورُ

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ، ثم نادى : تصدقوا علينا بما لايتعب ضِرْسا ، ولا يُسْقِم نفسا ؛ فأُخرج له طعام ونفقة . فقال : فاقتى إلى كلامكم ، أشد من حاجتى إلى طعامكم ؛ إنى طالب هُدًى ، لاسائل ندًى[1] . فأَذِن له العالم ، وأفاده عن كل ما سأل عنه ، فخرج جَذِلا فرحا ، وهو يقول : علم أوضح لَبْسا ، خير من مال أغنى نَفْسًا .

[لانهاية للعلم] واعلم أن كل العلوم شريفة ، ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محالٌ . قيل لبعض الحكماء : من يعرف كل العلوم ؟ فقال : كلُّ الناس . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ظن أن للعلم غاية ، فقد بَخسه حقه ، ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها ، حيث يقول : « وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلا »[2] . وقال بعض العلماء : لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته ، لكنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ، ولكنا نطلبه لننقُص فى كل يوم من الجهل ، ونزداد فى كل يوم من العلم .

وقال بعض العلماء : المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر : ليس يرى أرضا ، ولايعرف طولا ولاعَرْضا . وقيل لحماد الراوية[3] : أما تشبَع من هذه العلوم ؟ فقال : استفرغنا فيها المجهود ، فلم نبلغ منها المحدود ، فنحن كما قال الشاعر :

إذا قطعْنا علمًا بدا عَلَم[4]

وأنشد الرشيد عن المهدىّ بيتين ، وقال أظنهما له :

يانفس خوضِى بحار العلم أوغوصِى   فالناس ما بين معموم ومخصوصِ

---

(١) الندى : الكرم .

(٢) مصداق هذا أن الله لا يزال يفيض على عقول العلماء من إلهامه وتسديده ، ما ملأ الدنيا من المخترعات النفيسة فى السلم والحرب ، ولا تزال الحياة بفضل العلم تنتقل من حسن إلى أحسن . والله يهدى عباده إلى سواء السبيل .

(٣) حماد بن ميسرة الشيبانى من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، لقب بالراوية لحفظه كثيرا من أشعار العرب ، والتاء للمبالغة . توفى سنة ١٦٥ هـ .

(٤) العلم : بالتحريك : الجبل .

لاشىء فى هذه الدنيا يحيطُ به   إلّا إحاطةَ منقوص بمنقوصِ

[أفضل العلوم علوم الدين] وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل، وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولاها وأفضلها. وأولَى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يَرْشُدُون، وبجهله يَضِلُّون؛ إذ لايصح أداء عبادةٍ جهِل فاعلها صفاتِ أدائها، ولم يعلم شروط إجزائها؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضل العلم خير من فضل العبادة». وإنما كان كذلك، لأن العلم يبعث على فعل العبادة، والعبادة مع خلوّ فاعلها من العلم بها، قد لاتكون عبادة، فلزم علمُ الدين كلَّ مكلَّف. ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: «طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم». وفيه تأويلان: أحدهما: علم مالا يسعُ جهلُه من العبادات. والثانى: جملة العلم إذا لم يَقُم بطلبه مَنْ فيه كِفاية. وإذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الأعيان، وفرض جميعِه على الكفاية، كان أولَى مما لم يجب فرضه على الأعيان، ولا على الكفاية. قال الله تعالى: «فلولا نَفَرَ[1] من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقهوا فى الدين، ولِيُنْذِروا[2] قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذَرون[3]». وروَى عبد الله بن عُمر رضى الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد، فإذا هو بمجلسين: أحدهما يذكرون الله تعالى، والآخر يتفقَّهون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أحبُّ إلىَّ من صاحبه؛ أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم؛ وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه، ويعلمون الجاهل، وإنما بُعِثْتُ معلِّما؛ وجلس إلى أهل الفقه». وروى مَرْوان بن جَناح، عن يونُس بن مَيْسرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «الخير عادة، والشر لَجاجة، ومن يرد الله به خيرا يفقهْه فى الدين». ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خِيار أمتى علماؤها، وخيار علمائها فقهاؤها». وَرَوى مُعاذ بن رفاعة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العَدَوِىّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدُولُه[4]، ينفُون عنه تحريف الغالين[5]،

(١) نفر: تفرق فى طلب العلم. (٢) ليرشدوا وينصحوا. (٣) يحذرون: يتقون الأخطار التى تحدق بهم بجهلهم. (٤) العدول: جمع عدل، وهم أهل التقوى والورع.
(٥) الغالين: المتشددين الذين جاوزوا الحد. وأدخلوا فى الدين ما ليس منه تشددا.

وانتحال المُبْطِلين[1] ، وتأويل الجاهلين[2] » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « علىّ بخلفائى[3] . قالوا : ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يُحْيُون سنتى ، يعلمونها عباد الله » . وروَى حُميد عن أنس : أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال : « الفقه فى الدين فرض على كل مسلم ، ألا فتعلَّموا وعلِّموا ، وتفقهوا ، ولا تموتوا جُهَّالا » . وروَى سليمان بن يسار ، عن أبى هُرَيرة ، أنّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلم قال : « ما عُبِد الله بشىء أفضلَ من فقه فى الدين ، ولَفقيهٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شىء عماد ، وعماد الدين الفقه » .

[الدين ينظم المجتمع] وربما مال بعض المتهاونين بالدين إلى العلوم العقلية ، ورأى أنها أحقّ بالفضيلة ، وأولى بالتقدمة ، استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف ، واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبُّد والتوقيف . والكلام مع مثل هذا فى أصل لا يتسع له هذا الفصل ، ولن ترى ذلك فيمن سلمت فِطنته ، وصحت رَوِيته ، لأن العقل يمنع من أن يكون الناس هَمَلا أو سُدًى[4] ، يعتمدون على آرائهم المختلفة ، وينقادون لأهوائهم المتشعِّبة ، لما تئُول إليه[5] أمورهم من الاختلاف والتنازع ، وتُفْضِى إليه[6] أحوالهم ، من التباين والتقاطع ، فلم يستغنوا عن دين يتألفون[7] به ، ويتفقون عليه . ثم العقل موجب له ، أو تابع له ، ولو تصوّر هذا المختلّ التصوّر ، أن الدين ضرورة فى العقل ، وأن العقل للدين أصل ، لقصَّر عن التقصير ، وأذعن[8] للحق ، ولكن أهمل نفسه فضلّ وأضلّ .

[ما يتعلق بعلم الدين من العلوم] وقد يتعلق بالدين علوم ، قد بيّن الشافعىّ رحمه الله فضيلة كل واحد منها ، فقال : من تعلّم القرآن عظمت قيمته ، ومن تعلم الفقه نَبُل مقداره ،

---

(١) انتحال المبطلين : ادعاء المبطلين بعض ما فى الدين .

(٢) تأويل الجاهلين : العدول بنصوص الدين عن ظواهرها المفهومة ، إلى ما يتفق مع أهوائهم وجهالتهم ، من غير أصل يبنى عليه ذلك التأويل ، ويقاس به .

(٣) على بخلفائى : ائتونى بهم .

(٤) يقال إبل همل وسدى : متروكة ليلا ونهارا بغير قيد أو راع يرعاها .

(٥) تئول إليه : ترجع وتصير إليه . (٦) تفضى إليه : تنتهى وتؤدى إليه .

(٧) يتألفون به : يتجمعون ويتعاونون .

(٨) أذعن : انقاد واستسلم .

ومن كتبَ الحديث قويتْ حُجته ، ومن تعلّم الحساب جَزُلَ[١] رأيه ، ومن تعلم اللغـة رقّ طبعه ، ومن لم يصُن نفسه ، لم ينفعه علمه .

ولعمرى، إن صِيانة النفس أصل الفضائل، لأن من أهمل صيانة نفسه ، ثقة بما مَنَحَه العلم من فضيلته ، وتوكلا على مايلزم الناسَ من صيانته ، سلبوه فضيلة علمه ، ووسموه بقبيح تبذّله[٢] ، فلم يف ما أعطاه العلم ، بما سلبه التبذّل ، لأن القبيح أَنَمُّ[٣] من الجميل ، والرذيلة أشهر من الفضيلة ، إذ الناسُ لما فى طبائعهم من البِغضة والحسد ونزاع المنافسة ، تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوى ، فلا ينصفون محسنا ، ولايحابُون مسيئا ، لاسيما من كان بالعلم موسوما ، و إليه منسوبا ، فإن زَلَته لاتُقال[٤] ، وهفوته لا تُعذَر ، إمّا لقبح أثرها ، واغترار كثير من الناس بها ؛ وقد قيل فى منثور الحكم : زَلَّة العالم كالسفينة ، تَغْرق ويَغرق معها خلق كثير ؛ وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلة العالم، إذا زلّ هلك بزَلته عالَم كثير ؛ فهذا وجه . و إما لأن الجهال بذمه أغْرَى[٥] ، وعلى تنقيصه أحْرَى[٦] ، ليسلبوه فضيلة التقدم ، ويمنعوه مباينة التخصيص[٧] ، عنادا لما جهلوه ، ومقتا[٨] لما باينوه ، لأن الجاهل يرى العلم تكلّفا ولَوْما[٩] ، كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذمّا . وأُنْشِدْت عن الربيع للشافعىّ رضى الله عنه :

ومنزلةُ السفيهِ من الفقيهِ … كمنزلة الفقيهِ من السفيهِ
فهذا زاهدٌ فى قرب هـذا … وهذا فيه أزهدُ منـه فيهِ
إذا غلبَ الشقاء على سفيهٍ … تنطَّع فى مخالفة الفقيهِ[١٠]

---

(١) جزل : قوى وحسن . (٢) تبذله : عدم الصيانة للنفس . (٣) أنم : أشيع .
(٤) لا تقال : لا يعفى عنها ولا تغفر. (٥) أغرى : أحرص وأولع .
(٦) أحرى : أجدر ، كذا فى منهاج اليقين . وفى الأصل : أجرأ، من الجرأة وهى الاندفاع بشجاعة .
(٧) مباينة التخصيص : أى تميزه عنهم بخصوصية العلم . (٨) مقتا : بغضا .
(٩) لوما : كذا فى منهاج اليقين ، أى يلومون صاحبه، لزعمهم أنه يستوعب جزءا من العمر؛ مع قلة جدواه وفى غيره : لؤماً . تحريف .
(١٠) تنطع : كذا فى الأميرية وغيرها : أى بالغ وتعمق . وفى منهاج اليقين: تقطع ، أى بالغ فى مخالفته ومعاداته ، ولو ذهبت نفسه قطعاً .

وقال يحيى بن خالد لابنه : عليك بكل نوع من العلم ، فخذ منه ، فإن المرء عدوّ ماجهِل ، وأنا أكره أن تكون عدوّ شَىْءٍ من العلم . وأنشد :

تَفَنَّنْ وخذ من كل علم فإنما يفوق امرؤ فى كل فنّ له علمُ
فأنت عدوّ للذى أنت جاهلٌ به ولعلم أنت تُتْقِنه سَـلْمُ

و إذا صان ذوالعلم نفسه حقّ صيانتها ، ولازم فعل مايلزمها ، أمِن تعيير المُوَالى ، وتنقيص المُعَادى ، وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة ، وعزة النزاهة ، فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله . وروَى أبوالدرداء أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : العلماء ورثة الأنبياء ، لأن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ، و إنما ورّثوا العلم . ورَوَى أبو هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : للأنبياء على العلماء فضل درجتين ، وللعلماء على الشهداء فضـل درجة . وقال بعض البلغاء : إن من الشريعة أن تجِلّ أهل الشريعة ، ومن الصنيعة أن ترُبَّ حسن الصنيعة ؛ فينبغى لمن استدلّ بفطنته على استحسان الفضائل ، واستقباح الرذائل ، أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل ، بفضائل العلم ، وغفلةَ الإهمال ، باستيقاظ المعاناة[(١)] ، ويرغب فى العـلم رغبة متحقق لفضائله ، واثق بمنافعه ، ولايلهيه عن طلبه كثرةُ مال وجِدَة[(٢)] ، ولانفوذ أمر وعلوّ منزلة ، فإن من نفذ أمره فهو إلى العلم أحوج ، ومن علت منزلته فهو بالعلم أحقّ . وروَى أنس بن مالك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الحكمة تزيد الشريف شرفا ، وترفع العبد المملوك ، حتى تُجلسه مجالس الملوك . وقد قال بعض الأدباء : كل عزّ لايوطِّده[(٣)] علم : مَذَلَّة ، وكلّ علم لايؤيده عقل : مَضَلَّة . وقال بعض علماء السلف : إذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم ، والملك فى علمائهم . وقال بعض البلغاء : العلم عِصْمة[(٤)] الملوك ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردّهم إلى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطِفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حَقّه ، ويستبطنوا أهله[(٥)] ؛ فأما المال فظل زائل ، وعاريَّة مسترجَعَة ، وليس فى كثرته فضيلة ، ولو كانت فيـه

---

(١) المعاناة : الممارسة للشىء .

(٢) وجدة : كذا فى الأميرية ، أى المال الموجود . وفى منهاج اليقين : وجده ، بصيغة الفعل الماضى ، أى أحرزه .   (٣) يوطده : يثبته ويثقله .   (٤) أى يحفظهم كعصام القربة فى المزادة ونحوها ، وهو الحبل يشد على فمها .   (٥) أى يتخذوهم بطانة لهم ، وأعوانا على الرأى والعمل .

فضيلة خَصَّ الله به من اصطفاه لرسالته ، واجتباه لنبوّته ، وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ماخصَّهم الله به من كرامته ، وفضّلهم على سائر خلقه ، فقراء لايجدون بُلْغة[١] ، ولا يقدرون على شيء ، حتى صاروا فى الفقر مثلا ؛ قال البحتريّ :

فقر كفقر الأنبياء وغُرْبةٌ وصَبابة ليس البلاء بواحدِ[٢]

ولعدم الفضيلة فى المال منحه الله الكافر ، وحرمَهُ المؤمن . قال الشاعر :

كم كافرٍ بالله أموالُهُ تزداد أضعافا على كُفْرِهِ

ومؤمنٍ ليس له درهم يزداد إيمانا على فقرِهِ

يالائم الدهر وأفعالِهِ مشتغلا يُزْرى على دهرِهِ[٣]

الدهر مأمور له آمر ينصرفُ الدهرعلى أمرِهِ

وقد بيّن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فضلَ مابين العلم والمال ، فقال : العلم خير من المال : العلم يحرُسك وأنت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه . مات خُزَّان الأموال ، و بقى خُزَّان العلم ، أعيانهم مفقودة ، وأشخاصهم فى القلوب موجودة . وسئل بعض العلماء : أيُّما أفضل : المالُ أم العلم ؟ فقال : الجواب عن هذا: أيُّما أفضل : المالُ أم العقل . وقال صالح ابن عبد القدوس :

لاخيرَ فيمن كان خيرُ ثنائه فى الناس قولُهُمُ غنىٌّ واجِدُ[٤]

ور بما امتنع الإنسان من طلب العلم لكبر سنه ، واستحيائه من تقصيره فى صغره ، أن يتعلم فى كبره ؛ فرضِىَ بالجهل أن يكون موسوما به ، وآثره على العلم ، أن يصير مبتدِئا به . وهذا من خُدَع الجهل ، وغُرور الكسل ، لأن العلم إذا كان فضيلة ، فرغبة ذوى الأسنان فيه أولى ، والابتداء بالفضيلة فضيلة ، ولأن يكون شيخا متعلما ، أولى من أن يكون شيخا جاهلا .

---

(١) البلغة : مايتبلغ به من قليل الزاد .

(٢) الصبابة : شوق العاشق ، كذا فى منهاج اليقين ، وفى النسخ المطبوعة : وصيانته بالياء بعد الصاد . تحريف (انظر الديوان طبعة هندية ١ : ١٦٩) وقبله :

من كان يحمد أو يذم زمانه هذا فما أنا للزمان بحامد

(٣) يعاتب الدهر مشتغلا بلومه .

(٤) أى غني مقتدر . يريد أن الغنى وحده لا قيمة له إذا لم يكن معه كرم .

حُكى أن بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر فى العلم ويستحيي ، فقال له : ياهذا ، أتستحيي أن تكون فى آخر عمرك ، أفضلَ مما كنت فى أوله ؟ وذُكِر أن إبراهيم بن المهدىّ دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه ، فقال : ياعمّ ، ماعندك فيما يقول هؤلاء ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، شغلونا فى الصغر ، واشتغلنا فى الكبر . فقال : لم لاتتعلمه اليوم ؟ قال : أَوَيَحْسُن بمثلى طلبُ العلم ؟ قال : نعم ، والله لأن تموت طالبا للعلم ، خير من أن تعيش قانعا بالجهل . قال : وإلى متى يحسن بى طلب العلم؟ قال : ماحَسُنَتْ بك الحياة ، لأن الصغير أعذر ، وإن لم يكن فى الجهل عُذْر ، لأنه لم تطُل به مدة التفريط ، ولا استمرت عليه أيام الإهمال . وقد قيل فى منثور الحكم : جهلُ الصغير معذور ، وعلمه محقور[1] . فأما الكبير فالجهل به أقبح ، ونقصه عليه أفضح ، لأن علوّ السن إذا لم يكسبه فضلا ، ولم يفده علما ، وكانت أيامه فى الجهل ماضية ، ومن الفضل خالية ، كان الصغير أفضل منه ، لأن الرجاء له أكثر ، والأمل فيه أظهر ، وحسبك نقصا فى رجل يكون الصغير المساوى له فى الجهل أفضل منه .

وأُنشدت لبعض أهل الأدب :

إذا لم يكن مَرُّ السنينَ مُتَرْجِمًا ... عن الفضل فى الإنسان سَمَّيتَه طِفلَا

وما تنفع الأعوامُ حين تعدّها ... ولم تستفدْ فيهنّ علما ولا فَضلَا

أرى الدهر من سوء التصرف مائلا ... إلى كل ذى جهل ، كأنّ به جهلَا

وربّما امْتَنَع من طلب العلم لتعذر المادّة ، وشَغَله اكتسابها عن التماس العلم . وهذا وإن كان أعذر من غيره ، مع أنه قلما يكون ذلك إلا عند ذى شَرَه وعيب ، وشهوة مستعبِدة . فينبغى أن يَصرِف للعلم حظا من زمانه ، فليس كل الزمان زمان اكتساب ، ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة ، وأيام عُطْلة ، ومن صَرَف كل نفسه إلى الكسب ، حتى لم يترك لها فراغا إلى غيره ، فهو من عبيد الدنيا ، وأُسَراء الحِرص . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل شىء فَتْرة[2] ، فمن كانت فترته إلى العلم فقد نجا . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : كونوا علماء صالحين ، فإن لم تكونوا علماء صالحين ، فجالسوا

---

(١) أى محقور عند العوام . (٢) فترة : زمان سكون . فتر الشىء يفتر : سكن بعد نشاط .

العلماء ، واسمعوا علما يدلكم على الهدى ، ويردكم عن الرَّدَى[1] . وقال بعض العلماء : من أحب العلم أحاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء : من صاحب العلماء وُقِّر ، ومن جالس السفهاء حُقِّر . وربما منعه من طلب العلم مايظنه من صعوبته ، وبعد غايته ، ويخشى من قلة ذهنه ، وبعد فطنته ، وهذا الظن اعتذار ذوى النقص ، وخِيفة أهل العجز ، لأن الإخبار قبل الاختبار جهل ، والخشية قبل الابتلاء عجز ، وقد قال الشاعر :

لاتكونَنَّ للأمور هَيوبًا ... فإلى خيبة يصيرُ الهيوبُ[2]

وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم العلم ، وأخاف أن أضيعه . فقال : كفى بترك العلم إضاعة . وليس وإن تفاضلت الأذهان ، وتفاوتت الفطن ، ينبغى لمن قلَّ منها حظه ، أن ييأس من نيل القليل ، وإدراك اليسير ، الذى يَخْرج به من حدّ الجهالة ، إلى أَدْنَى مراتب التخصيص ، فإن الماء مع لينه ، يؤثر فى صُمِّ الصخور ، فكيف لايؤثّر العلم الزكىّ ، فى نفس راغب شهىّ[3] ، وطالب خَلِىّ[4] ، لاسيَّا وطالب العلم مُعان . قال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضعُ أجنحتها[5] لطالب العلم ، رِضًا بما يطلب » .

[نفرة الجهال من العلم وأهله] وربما منعَ ذا السفاهة من طلب العلم ، أن يصوِّر فى نفسه حِرفة[6] أهله ، وتضايُق الأمور مع الاشتغال به ، حتى يسَمهم بالإدبار ، ويتوسَّمهم بالحرمان ، فإن رأى مَحْبَرَة[7] تطيَّر منها ، وإن وجد كتابا أعرض عنه ، وإن رأى متحلِّيا بالعلم هرب منه ، كأنه لم ير عالما مقبلا ، وجاهلا مُدْبِرا . ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال ، كنت أُخفِى عنهم مايصحبنى من مَحبرة وكتاب ، لئلا أكون عندهم مستثقلا ، وإن كان البعد عنهم مؤْنسا ومصلحا ، والقرب منهم مُوحشا ومفسدا . فقد قال بُزُرْجَمْهْر : الجهل فى القلب ، كالنزّ[8] فى الأرض ، يفسد ماحوله . لكن اتبعت فيهم الحديث المروىّ

---

(١) أى الضلال والهلاك . (٢) الهيوب : الجبان ، ضعيف النفس .
(٣) شهى : ذى شهوة ورغبة فيه . (٤) خلى : أى خال من التردد ومن الموانع والصوارف .
(٥) كناية عن توقيره وتعظيمه . (٦) الحرفة بضم الحاء وكسرها : الحرمان .
(٧) المحبرة ، بفتح الميم وكسرها : الظرف الذى يوضع فيه الحبر ، وهو المداد يكتب به .
(٨) النز ، بفتح النون : ما يتحلب ويترشح من الأرض من ماء .

عن أبى الأشعث ، عن أبى عثمان ، عن ثوبان ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خالطوا الناس بأخلاقهم ، وخالفوهم[1] فى أعمالهم » . ولذلك قال بعض البلغاء : رُبَّ جهلٍ وقيتُ به علما ، وسفه حَمَيت به حلما . وهذه الطبقة مما لا يُرجى لها صلاح ، ولا يُؤَمَّل لها فلاح ، لأن من اعتقد أن العلم شَيْن ، وأن تركه زَيْن ، وأن للجهل إقبالا مُجْدِيا ، وللعلم إدبارا مُكْدِيا[2] ، كان ضلاله مستحكما ، ورشاده مستبعَدا ، وكان هو الخامس الهالك ، الذى قال فيه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : اُغدُ عالما أومتعلما ، أومستمعا أومحبّا ، ولاتكن الخامس فتهلكْ . وقد رواه خالد الحذّاء ، عن عبد الرحمن بن أبى بَكْرة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مُسْنَدًا . وليس لمن هذه حاله فى العذل نفع ، ولا فى الاستصلاح مَطْمَع . وقد قيل لبزرجمهر : مالكم لاتعاتبون الجهال ؟ فقال : إنا لانكلف العُمْىَ أن يبصروا ، ولا الصُّمَّ أن يسمعوا .

[معاداة الجهال لذوى العقول] وهذه الطائفة التى تنفِر من العلم هذا النفور ، وتعانِد أهله هذا العناد ، ترى العقل بهذه المثابة ، وتنفر من العقلاء هذا النفور ، وتعتقد أن العاقل مُحارَف[3] ، وأن الأحمق محظوظ ؛ وناهيك بضلال[4] من هذا اعتقاده فى العقل والعلم ، هل يكون لخير أهلا ، أو لفضيلة موضعا ؟

وقد قال بعض البلغاء : أخبثُ الناس المُساوِى ، بين المحَاسن والمساوِى[5] . وعلة هذا : أنهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ ، وعالما غير مرزوق ، فظنوا أن العلم والعقل هما السبب فى قلة حظه ورزقه ، وقد انصرفت عيونهم عن حِرمان أكثر النوكَى ، وإدبار أكثر الجهّال ، لأن فى العقلاء والعلماء قِلّة ، وعليهم من فضلهم سِمَة ، ولذلك قيل : العلماء غرباء ، لكثرة الجهال ، فإذا ظهرت سِمَة[6] فضلهم ، وصادف ذلك قلة حظ بعضهم ، تنوَّهوا بالتمييز[7] ، واشتهروا بالتعيين ، فصاروا مقصودين بإشارة المتعنتّين ، ملحوظين بإيماء الشامتين . والجهال والحمقَى لما كثُروا ولم يتخصصوا ، انصرفت عنهم النفوس ، فلم يُلحَظ المحروم منهم بطَرْفِ شامت ،

---

(١) خالفوهم ، بالفاء : كذا فى منهاج اليقين . وفى النسخ المطبوعة : خالقوهم . تحريف .

(٢) مكديا : مانعا من المال . (٣) محارف : محروم ، كأنه مصروف عن جهة الرزق .

(٤) أى يكفيك ضلالهم . (٥) المساوى جمع سوء ، شاذ . (٦) سمة : أمارة وعلامة .

(٧) تنوه : مطاوع نوه فلانا : إذا رفع قدره بالتعريف .

ولا قُصِد المَحْدود[1] منهم بإشارة عائب[2] ؛ فلذلك ظن الجاهل المرزوق : أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل ، دون الجهل والحمق ؛ ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم ، لوجدت الإقبال فى أكثرهم ؛ ولو اختبرت أمور الجهال والحمقَى مع كثرتهم ، لوجدت الحرمان فى أكثرهم ، وإنما يصير ذوالحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهِرًا ، لأن حظه عَجَب ، وإقباله مستغرب ؛ كما أن حرمان العاقل العالم غريب ، وإقلاله عجيب . ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين ، وبه معتبرين ، حتى قيل لِبزُرْجَمهر : ما أعجبُ الأشياء ؟ فقال : نُجح الجاهل ، وإكداء[3] العاقل . لكن الرزق بالحظ والجدّ ، لا بالعلم والعقل ، حكمة منه تعالى يدلّ بها على قدرته ، وإجراء الأمور على مشيئته . وقد قالت الحكماء : لو جرت الأقسام على قدر العقول ، لم تعش البهائم ، فنظمه أبو تمام الطائىّ ، فقال :

يَنالُ الفتى من عيشه وهْوَ جاهلٌ وُيكْدِى الفتى من دهرِهِ وهْوَ عالِمُ
ولو كانت الأرزاقُ تجرى على الحِجا هلكنَ إذن من جَهلهنّ البهائمُ

وقال كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى :

لو كنت أعجبُ من شىءٍ لأعجبنى سعى الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يدركُها والنفسُ واحدة ، والهم منتشرُ

[السعادة بالعلم والعقل] على[4] أن العلم والعقل سعادة وإقبال ، وإن قل معهما المال ، وضاقت معهما الحال . والجهل والحمق حرمان وإدبار ، وإن كثر معهما المال ، واتسعت معهما الحال ، لأن السعادة ليست بكثرة المال ، فكم من مكثرٍ شقىّ ، ومُقِلّ سعيد ، وكيف يكون الجاهل الغنىّ سعيدًا والجهل يضعه ، أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه ؟ وقد قيل فى منثور الحكم : كم من ذليل أعزه علمه ، ومن عزيز أذله جهله . وقال عبد الله بن المعتزّ : نِعمة الجاهل كروضة على[5] مَزْبَلة . وقال بعض الحكماء : كلما حَسُنت نعمة الجاهل ، ازداد

---

(١) المحدود بالحاء : المحروم . وفى المطبوعة : المجدود . تحريف .
(٢) كذا فى منهاج اليقين . وفى النسخ المطبوعة : عانت . تحريف . (٣) إكداؤه : خيبته وفقره .
(٤) على : حرف جر معناه هنا : الاستدراك . (٥) على : ساقطة من النسخ غير منهج اليقين .

قبحا . وقال بعض العلماء لبنيه : يا بَنىّ ، تعلّموا العلم ، فإن لم تنالوا به من الدنيا حظا ، فلأن يُذَم الزمان لكم ، أحبُّ إلىَّ من أن يُذَمّ الزمان بكم . وقال بعض الأدباء : من لم يُفِد[1] بالعلم مالا ، كسب به جمالا . وأنشد بعض أهل الأدب لابن طَباطَبا[2] :

حسودٌ مريضُ القلب يخفِى أنينَهُ ... ويُضحِى كئيبَ البالِ عندى حزينه

يلُوم على أن رُحْت للعلم طالبا ... أجَمِّع من عند الرُّواة فُنونَهُ

فأعرِفُ أبكار الكلام وعُونَه ... وأحفظ مما أستفيدُ عُيونَهُ

ويزعم أن العلم لا يَكْسِب الغنى ... ويُحْسِن بالجهل الذميم ظنونَهُ

فيالائمى دعــنِى أغالِي بقيمتى ... فقيمة كلِّ الناسِ مايحسنونَهُ

وأنا أستعيذ بالله من خُدَع الجهل المُذِلّة ، وبوادر الحمق المُضِلّة ، وأسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زَلّ ، وعلم نافع يستهدى به من ضَلّ . فقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا استرذَلَ الله عبدًا حَظَر عليه العِلم » .

[الترغيب فى طلب العلم ، وإخلاص النية فيه] فينبغى لمن زَهِد فى العلم أن يكون فيه راغبا ، ولمن رغب فيه ، أن يكون له طالبا ، ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرا ، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ، ولا يطلب لتركه احتجاجا ، ولا للتقصير فيه عُذْرا . وقد قال الشاعر :

فلا تعذِرانى فى الإساءة إنه ... شرار الرجال مَن يُسىء فيُعذَرُ

ولايسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبة ، ويُمَنِّيها[3] بانقطاع الأشغال المتصلة ، فإن لكل وقت شغلا ، ولكل زمان عُذرا . وقال الشاعر[4] :

نَروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجةُ من عاش لاتنقضِى

تموت مع المرء حاجاتُهُ ... وتبقَى له حاجةٌ مَا بَقِى

---

(١) يفد : يستفد . (٢) هو أبو القاسم أحمد بن إبراهيم طباطبا بن الحسن بن الحسين بن على ابن أبى طالب . توفى بمصر سنة ٣٤٥ هـ وكان أديبا شاعرا .

(٣) يمنيها : يجعل لها أمنية . (٤) هو الصلتان العبدى ، واسمه قثم بن حبيبة بن عبد القيس من معاصرى جرير والفرزدق .

ويقصِد طلبَ العلم واثقا بتيسير الله ، قاصدًا وجه الله تعالى ، بنية خالصة ، وعزيمة صادقة . فقد رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تعلم علما لغير الله ، وأراد به غير الله ، فليتبوّأ مقعدَه من النار » . ورَوى أبو هريرة رضى الله عنه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « تعلّموا العلم قبل أن يُرْفع ، ورفعه ذهاب أهله ، فإن أحد كم لايدرى متى يُحتاج إليه ، أومتى يُحتاج إلى ماعنده ؟ » . وليْحذر أن يطلبه لِمراء[1] أو رياء ؛ فإن المارىَ به مهجور لاينتفع ، والمرائى به محقور لايرتفع . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تَعَلَّموا العلم لتُماروا به السفهاء ، ولا تعلّموا العلم لتجادلوا به العلماء ، فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه[2] » .

وليس المارى به ، هو المناظر فيه ، طالبا للصواب منه ، ولـكنه القاصد لدفع مايرد عليه من فاسد أو صحيح . وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لايجادِلُ إلا منافق أو مرتاب» . وقال الأوزاعىّ[3] : إذا أراد الله بقوم شرًّا أعطاهم الجَدَل ، ومنعهم العمل .

وأنشد الرياشىّ[4] لمصعب بن عبد الله[5] :

أجادلُ كل معترض ظَنينٍ ... فأجعلُ دِينه غرَضا لدينى

وأترك ماعلمت لرأى غيرى ... وليس الرأى كالعلم اليقين

وما أنا والخصومةَ وهى شىء ... يُصَرَّف فى الشِّمال وفى اليمين

فأما ماعلمتُ فقد كفانى ... وأما ما جهلت فجنِّبُونى

وقد بين ذلك بعض العلماء ، فقال لصاحبه : لايمنعنك حذَرُ المِراء من حسن المناظرة ، فإن المارىَ هو الذى لايريد أن يتعلم منه أحد ، ولايرجو أن يتعلم من أحد .

[الباعث على طلب العلم رغبة أورهبة] واعلم أن لكل مطلوب باعثا ، والباعث على المطلوب شيئان : رغبة أورهبة . فليكن طالب العلم راغبا راهبا . أما الرغبة ففى ثواب الله

---

(١) المراء : الجدال والمنازعة ، طلبا للرياسة . لا طلبا للصواب . (٢) مثواه : مقره ومنتهاه .

(٣) الأوزاعى : أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو ، أحد أتباع التابعين ، وإمام أهل الشام . ولد ببعلبك سنة ٨٠ للهجرة . (٤) هو عباس بن الفرج ، أخذ عنه المبرد وابن دريد ، وقتل بالبصرة سنة ٢٥٧ هـ .

(٥) مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيرى الحافظ ، أحد رواة الإمام مالك ، ويروى عنه الشيخان : البخارى ومسلم ، وغيرهما .

تعالى لطالبي مَرْضاته ، وحافظي مفترَضاته . وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ، ومهملي زواجره ، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة ، أدّتا إلى كُنه[1] العلم ، وحقيقة الزهد ، لأن الرغبة أقوى الباعثَين على العلم ، والرهبة أقوى السببين فى الزهد . وقد قالت الحكماء : أصل العلم الرغبة ، وثمرته السعادة ، وأصل الزهد الرهبة ، وثمرته العبادة . فإذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة ، وعمت الفضيلة ، و إن افترقا فياويحَ[2] مُفترِقين ، ما أضرّ افتراقَهما ، وأقبحَ انفرادَهما . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ازداد فى العلم رشدا ، ولم يزدد فى الدنيا زهدا ، لم يزدد من الله إلا بعدا » . وقال مالك بن دينار[3] : من لم يؤتَ من العلم ما يَقْمَعُهُ[4] ، فما أوتى منه لاينفعه . وقال بعض الحكماء : الفقيه بغير ورع ، كالسراج : يضىء البيت و يحرق نفسه .

فصـــل

[التدرج فى طلب العلوم] واعلم أن للعلوم أوائلَ تؤدى إلى أواخرها ، ومداخلَ تفضى إلى حقائقها ، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها ، لينتهىَ إلى أواخرها ، وبمداخلها ليفضىَ إلى حقائقها ، ولا يطلب الآخرَ قبل الأول ، ولا الحقيقة قبل المدخل ، فلا يدرك الآخِر ، ولا يعرف الحقيقة ، لأن البناء على غير أُسّ لا يُبْنى ، والثمر من غير غرس لا يُجْنَى .

[أُسباب التقصير فى طلب العلم] ولذلك أسباب فاسدة ، ودواع واهية :

فمنها أن يكون فى النفس أغراض تختص بنوع من العلمَ ، فيدعوه الغرض إلى قصد ذلك النوع ، و يعدل عن مقدماته ، كرجل يؤثِر القضاء ، و يتصدّى للحكم ، فيقصد من علم الفقه إلى أدب القاضى ، ومايتعلق به من الدعوى والبينات . أو يحب الاتّسام بالشهادة ، فيتعلم كتاب الشهادات ، لئلا يصير موسوما بجهل مايعانى ، فإذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جُمهوره ، وأدرك منه مشهوره ، ولم ير مابقىَ إلا غامضا طَلَبُهُ عناء ، وعويصا استخراجه فَنَاء ،

---

(١) كنه الشىء : حقيقته وذاته . (٢) و يح : كلمة رحمة وشفقة وتعجب .
(٣) مالك بن دينار ، أبو يحيى البصرى ، العالم النقى ، والزاهد التقى ، توفى سنة ١٣١ هـ .
(٤) يقمعه : يصرفه عن الدنيا .

لقصور همته على ما أدرك ، وانصرافها عما ترك ، ولو نصح نفسه ، لعلم أن ماترك أهمُّ مما أدرك ، لأن بعض العلم مُرتبط ببعض ، ولكل باب منه تعلُّق بما قبله ، فلا تقوم الأواخر إلا بأوائلها ، وقد يصحّ قيام الأوائل بأنفسها ، فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل ، تركا للأوائل والأواخر ، فإذن ليس يعْرَى من لَوْم ، وإن كان تارك الكلّ ألوم .

ومنها أن يحِب الاشتهار بالعلم ، إما لتكسُّب أولتجمُّل ، فيقصد من العلم مااشتهر من مسائل الجدل ، وطريق النظر ، ويتعاطى علم ما اختُلِفَ فيه ، دون ما اتفِق عليه ، ليناظر على الخلاف ، وهو لايعرف الوِفاق ، ويجادل الخصوم ، وهو لايعرف مذهبا مخصوصا . ولقد رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا[1] بالعلم تحقق المتكلمين ، واشتهروا به اشتهار المتبحِّرين إذا أخذوا فى مناظرة الخصوم ، ظهر كلامهم ، و إذا سئلوا عن واضح مذهبهم ، ضلت أفهامهم ، حتى إنهم ليخبِطون فى الجواب ، خبط[2] عَشْواء ، فلايظهر لهم صواب ، ولايتقرّر لهم جواب ، ثم لايرون ذلك نقصا ، إذا نمَّقوا فى المجالس كلاما مرصوفا ، ولفقّوا[3] على المخالف حِجاجا مألوفا ، وقد جهلوا من المذاهب مايعلمه المبتدئ ، ويتداوله الناشئ ، فهم دائما فى لَغَطٍ[4] مضلّ ، أوغلط مُذلّ . ورأيت قوما منهم يرَون الاشتغال بالمذاهب تكلفا ، والاستكثار منه تخلفا ، وحاجَّنى[5] بعضهم عليه ، فقال : كيف يكون علم حافظ المذاهب مستورا ، وعلم المناظر علما مشهورا ؟ فقلت : كيف يكون علم حافظ المذاهب مستورا وهو سريع الجواب ، كثير الصواب ؟ لأنه إن لم يُسأل سكت ، فلم يعرِف ، والمناظر إن لم يُسأل سَأل فعرف . وقلتُ : أليس إذا سئل الحافظ فأصاب بان فضله ؟ قال : نعم . قلت : أفليس إذا سئل المناظر فأخطأ بان نقصه . وقد قيل : عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان ؟ فأمسك عن جوابى ، لأنه إن أنكر كابر المعقول ، ولو اعترف لزمته الحجة ، والإمساك إذعان ، والسكوت رضا . ولَأَن ينقادَ إلى الحق ، أولَى من أن يستفزّه الباطل . وهذه طريقة من يقول : اعرفونى وهو غير

---

(١) تحققوا : رسخوا وتمهروا . (٢) الخبط : ى الظلام . والعشواء : الناقة الضعيفة الأبصار ، مؤنث الأعشى ، والمراد : السير على غير هدى . (٣) لفقوا : جمعوا كلاما من هنا ومن هنا غير مؤتلف الجنس ، ليموهوا به على السامع . (٤) اللغط : الصوت والجلبة .
(٥) خصامنى بالحجة .

عَرُوف[1] ولامعروف ، و بعيدٌ ممن لايعرف العلم أن يعرِفه به . وقد قال زُهَير :

ومهما تكنْ عند امرئ من خَليقةٍ وإن خالها تخفى على الناسِ تُعْلَمِ

٣ — ومن أسباب التقصير أيضا : أن يَغْفُلَ عن التعلُّم فى الصِّغر ، ثم يشتغل به فى الكبر ، فيستحِى أن يبتدئ بما يبتدئ الصغير ، و يستنكف أن يساوِيَه الحدَث الغَرير[2] ، فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ، ويهتم بحواشيها وأكنافها ، ليتقدمَ على الصغير المبتدى ، ويساوىَ الكبير المنتهى . وهذا ممن رضى بخداع نفسه ، وقنع بمداهنة حِسّه ، لأن معقوله إن أحسّ ، ومعقول كل ذى حِسّ ، يشهد بفساد هذا التصوّر ، و ينطق باختلال هذا التخيُّل ، لأنه شىء لايقوم فى وَهْم ، ولجهل مايبتدئ به المتعلم ، أقبح من جهل ماينتهى إليه العالم . وقد قال الشاعر :

تَرَقّ إلى صغير الأمر حتَّى يُرَقيكَ الصغيرُ إلى الكبيرِ

فتعرفَ بالتفكرِ فى صغيرٍ كبيرًا بعد معرفة الصغيرِ

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلم فى الصغر أحمد . رَوَى مروان بن سالم عن إسماعيل ابن أبى الدَّرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَل الذى يتعلم فى صغره : كالنقش على الصَّخْر ، والذى يتعلم فى كبره : كالذى يكتبُ على الماء » . وقال علىّ ابن أبى طالب كرَّم الله وجهه : قلبُ الحَدَث كالأراضى الخالية ، ما أُلْقِىَ فيها من شىء قبِلته . و إنما كان كذلك ، لأن الصغير أفرغ قلبا ، وأقل شغلا ، وأيسر تبذلا ، وأكثر تواضعا .

وقد قيل فى منثور الحكم : المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علما ، كما أن المكان المنخفِض أكثر البقاع ماء . فأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير إذا عَرِىَ من هذه الموانع ، وأوعى[3] منه إذا خلا من هذه القواطع ، فلا . حُكى أن الأحنف بن قيس سمع رجلا يقول : التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر . فقال الأحنف : الكبير أكثر عقلا . ولكنه أشغل قلبا .

---

(١) عروف : عارف . (٢) الغرير : الجاهل المغرور . (٣) أوعى : أحفظ .

ولعمرى لقد فحص الأحنف عن المعنى و بيَّنه ، ونبه على العلة ، لأن قواطع الكبير كثيرة . فمنها ما ذكرنا من الاستحياء . وقد قيل فى منثور الحكم : من رَقَّ وجهُهُ رقّ علمه . وقال الخليل بن أحمد : يَرْتَع [١] الجهل بين الحياء والكِبْر فى العلم .

٤ — ومنها وفور شهواته ، وتقسُّم أفكاره . وقال الشاعر :

صَرْفُ الهوى عن ذى الهَوَى عزيزٌ [٢] إن الهَوَى ليس له تمييزُ

وقال بعض البلغاء : إنَّ القلبَ إذا [٣] عَلِقَ ، كالرهن إذا غَلِقَ [٤] .

٥ — ومنها الطوارق المزعجة ، والهموم المذهِلة . وقد قيل فى منثور الحكم . الهمّ قيد الحواسّ . وقال بعض العلماء البلغاء : من بلغ أشُدَّهُ [٥] ، لاقى من العيش أشَدَّه .

٦ — ومنها كثرة أشغاله ، وترادُف أحواله ، حتى إنها تستوعب زمانه ، وتستنفدُ أيامه ، فإذا كان ذا رياسة ألهته ، و إن كان ذا معيشة قطَعَته ، ولذلك قيل : تفقهوا قبل أن تسوَّدوا [٦] . وقال بزُرْجَمهر: الشغل مَجْهَدَة ، والفراغ مَفْسَدَة . فينبغى لطالب العلم ألَّا ينىَ فى طلبه ، وينتهز الفرصة به ، فربما شحّ الزمان بما سمح ، وضنّ بما منح ، ويبتدئ من العلم بأوله ، ويأتيه من مدخَله ، ولا يتشاغَل بطلب ما لا يضرّ جهله ، فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعُه جهله [٧] ، فإن لكل علم فضولا مُذْهلة ، وشذورا مُشغلة ، إن صرف إليها نفسه ، قطعته عما هو أهم منها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : العلم أكثر من أن يُحصى ، فخذوا من كل شئ أحسنه [٨] . وقال بعض الحكماء : بتركك ما لا يعنيك ، يتم لك ما يَغْنيك .

ولا ينبغى أن يَدْعوَه ذلك إلى ترك ما استصعب عليه ، إشعارا لنفسه أن ذلك من فضول علمه ، و إعذارا لها فى ترك الاشتغال به ، فإن ذلك مَطِية النَّوْكَى ، وعذر المقصِّرين ، ومن أخذ

---

(١) رتع يرتع رتعا ورتوعا : أكل وشرب ماشاء فى خصب وسعة . (٢) عزيز : أى نادر جدا .
(٣) علق : أى أحب شيئا وعشقه . (٤) غلق الرهن : إذا عجز الراهن عن فكه فى الوقت المشروط .
(٥) بلغ أشده : استكمل عقله ، واستحكمت قوته . وأشده : مفرد . وقيل جمع شدة .
(٦) أى تعلموا قبل أن تصيروا سادة فى قومكم ، فتمنعكم الأنفة عن التعلم ، فتعيشوا جهالا . والقائل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . (٧) ما لا يسعه جهله : ما لا يجمل ولا يليق جهله ، بل يقدم الأهم على المهم . (٨) زادت نسخة منهاج اليقين بعد كلمة ابن عباس هذه العبارة : وقال المأمون « ما لم يكن العلم بارعا ، فبطون الصحف أولى به من قلوب الرجال » .

من العلم ما تَسهل ، وترك منه ما تعذر ، كان كالقانص ، إذا امتنع عليه الصيد تركه ، فلا يرجع إلاَّ خائبا ، إذ ليس يرى الصيد إلا ممتنعا ، كذلك العلم : طلبه صعب على من جهله ، سهل على من علمه ؛ لأن معانيَه التي يتوصل إليها ، مستودعة في كلام مترجم عنها ، وكل كلام مستعمل ، فهو يجمع لفظا مسموعا ، ومعنى مفهوما ، فاللفظ كلام يُعقل بالسمع ، والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال بعض الحكماء : العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه : قلب مفكر ، ولسان معبّر ، و بيان مصوّر ؛ فإذا عقل الكلام بسمعه ، فهم معانيه بقلبه ، و إذا فهم المعانى ، سقط عنه كُلْفة استخراجها ، و بقى عليه معاناة حفظها واستقرارها ، لأن المعانى شوارد ، تَضِلُّ بالإغفال[1] ، والعلوم وحْشِية ، تنفِر بالإرسال[2] ، فإذا حفظها بعد الفهم أنست ، و إذا ذكرها بعد الأنس رَسَتْ . وقال بعض العلماء : من أكثر المذاكرة بالعلم ، لم ينس ما علم ، واستفاد مالم يعلَم . وقال الشاعر :

إذا لم يذاكِر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد علما نَسِى ما تعلَّما

فكم جامعٍ للكتْب من كل مذهبٍ يزيد مع الأيام فى جمعه عَمَى

[أسباب خفاء الألفاظ] وإن لم يفهم معانى ما سمِع ، كشف عن السبب المانع منها ، ليعلم العلة فى تعذر فهمها ، فإنه بمعرفة أسباب الأشياء وعللها ، يصل إلى تلافى ما شذَّ ، وصلاح ما فسد . وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام :

إما أن يكون لعلة فى الكلام المترجِم عنها ، و إما أن يكون لعلة فى المعنى المستودَع فيها ، و إما أن يكون لعلة فى السامع المستخرِج[3] . فإن كان السبب المانع من فهمها لعلة فى الكلام المترجِم عنها ، لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال : أحدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى ، فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى ، وهذا يكون من أحد وجهين : إما من حصَرَ[4] المتكلم وعيه ، و إما من بلادته وقلة فهمه . والحال الثانية : أن

---

(١) شوارد : نوافر ، والإغفال : الإهمال والترك . (٢) وحشية : أى غير مستأنسة . والإرسال : الإطلاق وعدم التقييد . (٣) المستخرج : المستنبط للمعانى من الألفاظ .

(٤) الحصر : العى عن الكلام .

يكون لزيادة اللفظ على المعنى ، فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه ، وهذا قد يكون من أحد وجهين : إما من هَذَر[1] المتكلم وإكثاره ، وإمّا لسوء ظنه بفهم سامعه. والحال الثالثة أن يكون لمُواضعة[2] يقصدها المتكلم بكلامه ، فإذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها . فأما تقصير اللفظ وزيادته ، فمن الأسباب الخاصة دون العامة ، لأنك لست تجد ذلك عاما فى كل كلام ، وإنما تجده فى بعضه ؛ فإن عدلت عن الكلام المقصِّر إلى الكلام المستوفِي ، وعن الزائد إلى الكافى ، أرحت نفسك من تكلف مايكدِّر خاطرك ؛ وإن أقمت على استخراجه إما لضرورة دعتك إليه ، عند إعواز غيره أو لحمية داخلتْك عند تعذر فهمه ، فانظر فى سبب الزيادة والتقصير ، فإن كان التقصير لحَصَر ، والزيادة لهذَر ، سهُل عليك استخراج المعنى منه ، لأن ماله من الكلام محصول ، لايجوز أن يكون المختلّ منه أكثر من الصحيح ، وفى الأكثرعلى الأقل دليل. وإن كانت زيادة اللفظ على المعنى دليلا لسوء ظن المتكلم بفهم السامع، كان استخراجه أسهل . وإن كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم ، فهو أصعب الأمور حالا ، وأبعدها استخراجا ، لأن مالم يفهمه مكلمك ، فأنت من فهمه أبعد ، إلا أن تكون بفَرْط ذكائك ، وجودة خاطرك ، تتنبه بإشارته ، على استنباط ماعجز عنه ، واستخراج ما قصَّر فيه ، فتكون فضيلة الاستيفاء لك ، وحق التقدم له .

وأما المواضعة فضربان : عامّة وخاصّة . فأما العامة فهى مواضعة العلماء ، فيما جعلوه ألقابا لمعان لايستغنى المتعلم عنها ، ولا يقف على معنى كلامهم إلا بها ، كما جعل المتكلمون الجواهر والأعراض والأجسام ألقابا ، وضعوها لمعان اتفقوا عليها ، ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذه ، وهذه المواضعة العامة تسمى عُرْفا .

وأما الخاصّة فمواضعة الواحد ، يقصد بباطن كلامه غير ظاهره ، فإذا كانت فى الكلام كانت رَمْزا ، وإن كانت فى الشعر كانت لُغزا . فأما الرمز فلسْت تجده فى علم معنوىّ ، ولا كلام لُغوىّ ، وإنما يختص غالبا بأحد شيئين : إما بمذهب شَنيع يخفيه معتقدُه ، ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس إليه ، واحتمال التأويل فيه ، سببا لدفع التهمة عنه . وإما لما يدَّعى أربابه أنه

---

(١) الهذر : كثرة الخطأ والتخليط فى الكلام .

(٢) المواضعة : العرف الخاص بعلم أو فن أو صناعة أو نحوها .

علم مُعوِز[١] ، وأن إدراكه بديع معجز ، كالصنعة التى وضعها أربابها اسما لعلم الكيمياء ، فرمزوا بأوصافه ، وأخفوا معانيَه ، ليوهموا الشحَّ به ، والأسف عليه ، خديعة للعقول الواهية ، والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر :

مُنِعتُ شيئا فأكثرتُ الوَلوع به وحَبُّ[٢] شىء إلى الإنسان ما مُنِعا

ثم ليكونوا بُرَآءَ[٣] من عُهْدة ما قالوه إذا جُرِّب[٤] . ولو كان ما تضمن هذين النوعين وأشباههما من الرموز معنى صحيحا ، وعلما مستفادا ، لخرج من الرمز الخفىّ إلى العلم الجلىّ ، فإن أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم ، لا تتفق على ستر سَلِيم ، وإخفاء مُفيد ، وقد قال زُهير :

السِّتر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من سِتْرِ[٥]

[قد يحسن الرمز فى الكلام] وربما استعمل الرمز من الكلام ، فيما يراد تفخيمه من المعانى ، وتعظيمه من الألفاظ ، ليكون أحلى فى القلوب موقِعا ، وأجل فى النفوس موضِعا ، فيصير بالرمز سائرا ، وفى الصحف مُخَلَّدا ، كالذى حُكِى عن فِيثاغُورِسَ[٦] فى وصاياه المرموزة ، أنه قال : احفظ مِيزانك من الندى ، وأوزانك من الصَّدَا . يريد بحفظ الميزان من الندى : حفظَ اللسان من الخَنا ، وحفظِ الأوزان من الصدى[٧] حفظَ العقل من الهوى ، فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدوّنا ، ولو قاله باللفظ الصريح ، والمعنى الفصيح ، لما سار عنه ، ولا استُحْسن منه . وعلة ذلك أن المحجوب عن الأفهام ، كالمحجوب عن الأبصار ، فيما يحصل له فى النفوس من التعظيم ، وفى القلوب من التفخيم ، وما ظهر منها ولم يحتجب ، هان واستُرْذِل . وهذا إنما يصح استحلاؤه فيما قلّ ، وهو باللفظ الصريح مستقلّ . فأما العلوم المنتشرة التى تَطَلَّعُ النفوس إليها ، فقد

---

(١) معوز مشكل : من أعوز الأمر ، إذا أشكل . (٢) أصله : أحب شيء وهو أفعل تفضيل ، حذفت همزته لكثرة الاستعمال . (٣) برآء : بوزن كرماء ، جمع برىء . ويقال فيه أيضا براء ككريم وكرام . (٤) أى ولم يحصلوا بعد التجربة إلا على وسخ الأيدى وسواد الوجوه .

(٥) واعلم أن مذهب القدماء فى تحويل بعض المعادن إلى ذهب مذهب صحيح من الوجهة العلمية الخالصة ، وتؤيده البحوث العلمية والتطبيقية فى عصرنا الحاضر ، إلا أن القدماء أخفقوا فى الوصول إلي نتائجه ، لنقص وتقصير فى وسائلهم وتجاربهم العملية . (٦) عالم رياضى يونانى مشهور بنظرياته الرياضية .

(٧) أصله : الصدأ ، وهو الأكسيد الذى يعلو النحاس ونحوه إذا مسته رطوبة . والخنا : الفحش فى المنطق . وهذا الكلام مبنى على الاستعارة . ولكن العلاقة بين المشبه به والمشبه غامضة خفية ، فلذلك كان رمزا .

استغنت بقوة الباعث عليها، وشدة الداعى إليها، عن الاستدعاء إليها برمز مُسْتَحْلًى، ولفظ مستغْرَب، بل ذلك منفرٌ عنها، لما فى الاشتغال باستخراج رموزها، من الإبطاء عن درْكها، وتصوّر معانيها. فهذا حال الرمز.

[اللغز فى الكلام] وأما اللغز فهو تحدّى[1] أهل الفراغ، وشُغْل ذوى البَطالة، ليتنافسوا فى تباين قرائحهم، ويتفاخروا فى سرعة خواطرهم، فيَستكدّوا خواطر قد مُنحوا صحتها فيما لا يجدى[2] نفعا، ولا يفيد علما، فهم كأهل الصِّراع، الذين قد صرفوا ما مُنِحوه من صحة أجسامهم، إلى صِراع كَدُود[3]، يصرع عقولهم، ويَهدّ[4] أجسامهم، لا يكسِبهم حمدا، ولا يُجْدى عليهم نفعا. انظر إلى قول الشاعر:

رجلٌ مات وخَلَّفَ رَجُلا ... ابنَ أمِّ ابنِ أبى أُخْتِ أبيهِ

مَعَــه أمُّ بنى أولادِهِ ... وأبا أُخْتِ بنى عمّ أَخيهِ[5]

أخبرنى عن هذين البيتين وقد روّعك صعوبة ما تضمناه من السؤال، إذا استكدّك الفكرُ فى استخراجه. فعلمت أنه أراد: ميتا خَلَّفَ أبا وزوجة وعَمًّا، ما الذى أفادك من العلم، ونفى عنك من الجهل؟ ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله. ولو أن السائل قلب لك السؤال، فأخر ماقدّم، وقدّم ما أخر، لكنت فى الجهل به قبل استخراجه، كما كنت فى الجهل الأول، وقد كَدَدْت نفسك، وأتعبت خاطرك، ثم لا تَعدَم أن يَرِد عليك مثل هذا مما تجهله، فتكون فيه كما كنت قبله.

فاصرف نفسك، تولّى الله رُشدك عن علوم النَّوْكَى، وتكلّف البطّالين، فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من حسن إسلام المرء تَرْكُهُ مالا يَعنيه[6]». ثم اجعل مامنّ الله به عليك من صحة القريحة، وسرعة الخاطر، مصروفا إلى علمٍ ما يكون إنفاق خاطرك

---

(١) فى منهاج اليقين: تحرى، بالراء، أى تدقيق، وبالدال كما فى الأميرية: أوضح.

(٢) لا يعطى. (٣) متعب. وهو فعول من الكد، بمعنى كاد. (٤) يهد: يهدم بشدة.

(٥) يمكن حل البيتين بتعيين اسم لكل شخص مذكور فيهما، فتتبين العلاقة بين هؤلاء الأشخاص، فتسهل الإجابة. (٦) ما لا يعنى: قال الغزالى: هو الذى لو ترك لم يفت به ثواب، ولم ينجر به ضرر.

فيه مدحورا ، وكدّ فـكرك فيه مشكورا . وقد رَوَى سعيد بن أبى هند ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نِعْمتان مَغْبون[١] فيهما كثير من الناس : الصِّحة والفراغ » . ونحن نستعيذ بالله من أن نَغْبِنَ[٢] فضلَ نعمته علينا ، ونجهل نفع إحسانه إلينا ؛ وقد قيـل فى منثور الحكم : مِنَ الفراغ تـكون الصَّبوة[٣] . وقال بعض البلغاء : من أمضى يومه فى غير حقّ قضاه ، أوفرض أدّاه ، أومجد أثّله[٤] ، أوحمد حصَّله ، أو خير أسَّسه ، أوعلم اقتبسَه ، فقد عَقّه[٥] يومه ، وظلم نفسه . وقال بعض الشعراء :

لقد هاجَ الفراغُ عليكَ شُغْلاً[٦]　　　وأسـبابُ البلاءِ من الفراغِ

فهذا تعليل مافى الـكلام من الأسباب المـانعة من فهم معانيه ، حتى خرج بنا الاستيفاء إلى الإطالة ، والـكشفُ إلى الإغماض .

[أسباب غموض المعاني] وأما القسم الثانى ، وهوأن يكون السبب المانع من فهم السامع ، لعلة فى المعنى المستودَع ، فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام : إما أن يكون مستقلا بنفسه ، أو يكون مقدمة لغيره ، أو يكون نتيجة من غيره .

فأما المستقلّ بنفسه فضربان : جَلِيّ وَخَفِيّ . فأما الجلىّ فهو يسبق إلى فهم متصوّره من أول وَهْلة[٧] ، وليس هذا من أقسام ما يُشكِل على ذى تصوّر .

وأما الخفىّ فيحتاج فى إدراكه إلى زيادة تأمّل ، وفضل مُعاناة[٨] ، لينجليَ عما أخفِى ، وينكشفَ عما أُغمض ، وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به ، وبالارتياض به يسهل منه ما استصعَب ، ويقرب منه مابعُد ، فإن للرياضة جراءةً ، وللدِّراية تأثيرا . وأما ما كان مقدمة

---

(١) مغبون فيهما ... الخ : قال ابن بطال : من حصل له من ذلك (النعمتان) فليحرص علي ألا يغبن ، بألا يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فن فرط فى ذلك فهو مغبون . وهو من الغبن فى البيع والشراء ، وهو الوكس .　(٢) نغبن : ننسى .

(٣) الصبوة : جهلة الفتوة والشباب　(٤) أثله : قواه ودعمه .

(٥) عقه : أضاعه ولم يبره .　(٦) شغلا : أى بأمر تافه ، ليس فيه تأثيل مجد ، ولا تحصيل علم ، كالحب ومغازلة النساء ، ولا سيما إذا كان مع الشباب وكثرة المـال فى اليد .

(٧) الوهلة : المرة من الوهل ، وهو الفزع ، يريد من أول حركة للفكر .

(٨) المعاناة : المعالجة والتمرس بالشيء .

لغيره ضربان : أحدهما : أن تقوم المقدمة بنفسها ، وإن تعدت إلى غيرها ، فتكون كالمستقل بنفسه ، فى تصوّره وفهمه ، وإن كان مستدعيا لنتيجته . والثانى : أن يكون مفتقرا إلى نتيجته ، فيتعذر فهم المقدمة إلا بما يتبعها من النتيجة ، لأنها تكون بعضا ، وتبعيض المعنى أشكل له ، وبعضه لايغنى عن كله . وأما ما كان نتيجة لغيره ، فهو لايُدْرَك إلا بأوله ، ولايُتَصوّر على حقيقته إلا بمقدمته ، والاشتغال به قبل المقدمة عناء ، وإتعاب الفكر فى استنباطه قبل قاعدته أذًى . فهذا يوضِّح تعليل مافى المعانى من الأسباب المانعة من فهمها .

وأما القسم الثالث ، وهو أن يكون السبب المانع لعلة فى المستمع ، فذلك ضربان : أحدهما من ذاته ، والثانى من طارئ عليه ؛ فأما ما كان من ذاته فيتنوَّع نوعين : أحدهما : ما كان مانعا من تصوُّر المعنى وفهمه ؛ والثانى ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه ؛ فأما المانع من تصور المعنى وفهمه ، فهو البلادة ، وقلة الفطنة ، وهو الداء العَيَاء[1] . وقد قال بعض الحكماء : إذا فقَدَ العالم الذهن ، قلّ عن الأضداد احتجاجه ، وكثر إلى الكتب احتياجه ، وليس لمن بُلى به إلا الصبر والإقلال ، لأنه على القليل أقدر ، وبالصبر أحرى أن ينال ويَظفر . وقد قال بعض الحكماء : قدّم لحاجتك ، بعض لَجَاجتك[2] ؛ وليس يقدر على الصبر مَنْ هذه حالته ، إلّا أن يكون غالب الشهوة ، بعيد الهمة ، فيُشْعِر قلبه الصبر ، لقوّة شهوته ؛ ويكلف جسده احتمال التعب ، لبُعدهمته ؛ فإذا لاح له المعنى بمساعدة الشهوة ، أعقبه ذلك إلحاحَ الآملين ، ونشاطَ المدركين ، فقلّ عنده كل كثير ، وسهل عليه كل عسير . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتنالون ماتحبُّون ، إلّا بالصبر على ماتكرهون ؛ ولاتبلغون ماتهْوَوْن إلا بترك ماتشتهون » . وقيل فى منثور الحكم : أتعب قَدَمك ، فكم من تَعَبٍ قدّمك . وقال بعض البلغاء : إذا اشتد الكلَف ، هانت الكُلَف[3] . وأنشد بعض أهل الأدب ، لعلىّ بن أبى طالبٍ كرّم الله وجهه :

لاتَعْجَزَنَّ ولا تَدْخُلْكَ مَضْجَرَةٌ ‏ ‏ ‏ فالنُّجْحُ يَهلِكُ بين العَجْزِ والضَّجَرِ[4]

---

(١) العياء ، بوزن سحاب : الذى لا يبرأ منه ، وتعجز الأطباء عن معالجته .

(٢) لجاجتك : إصرارك وعنادك .

(٣) الكلف بوزن غرف ، جمع كلفة ، وهى المشقة .

(٤) النجح : الظفر بالحاجة . والضجر : القلق وضيق النفس .

وأما المانع من حفظه بعد تصوّره وفهمه ، فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير ، وإهمال التَّوانى . فينبغى لمن بُلِى به أن يستدرك تقصيره ، بكثرة الدرس ، ويوقظ غفلته بإدامة النظر . فقد قيل : لن يُدْرِكَ العلمَ من لا يُطِيل درسه ، ويكُدّ نفسه ، وكثرة الدرس كَدٌّ لا يصبِر عليه إلّا من يرى العلم مغنما ، والجهالة مَغرَما ، فيحتمل تعب الدرس ، ليدرك راحة العلم ، وينفى عنه مَعَرَّة الجهل ، فإن نيل العظيم ، بأمر عظيم ، وعلى قدر الرغبة يكون الطلب ، وبحسَب الراحة يكون التعب . وقد قيل : علة الراحة ، قلة الاستراحة . وقال بعض الحكماء : أ كمَلُ الراحة ما كانت عن كدّ التعب ، وأعزّ العلم ما كان عن ذلّ الطلب .

وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ ، واتكلَ بعد فهم المعانى ، على الرجوع إلى الكُتُب ، والمطالعة فيها عند الحاجة ، فلا يكون إلا كمن أطلق ماصاده ، ثِقة بالقُدرة عليه ، بعد الامتناع منه ، فلا تُعْقِبه الثقة إلاّ خجَلا ، والتفريط إلا ندَما .

وهذه حال قد يدعو إليها أحد ثلاثة أشياء : إما الضَّجَر من معاناة الحفظ ومراعاته ، وطولُ الأمل فى التوفر عليه عند نشاطه ، وفساد الرأى فى عزيمته ، وليس يعلم أن الضَّجور خائب ، وأن الطويل الأمل مغرور ، وأن الفاسد الرأى مصاب ؛ والعرب تقول فى أمثالها : حَرْف فى قلبك ، خير من ألف فى كُتبك . وقالوا : لاخير فى علم لا يعبرُ معك الوادى ، ولا يَعمُرُ بك النادى . وأُنشدت عن الربيع ، للشافعىّ رضى الله عنه :

علمى معى حيثما يَمَّمْت يَتبعُنِى ... قلبى وِعاء له لابطن صُندوقِ

إن كنتُ فى البيتِ كان العلم فيه معِى ... أو كنتُ فى السوقِ كان العلم فى السوقِ

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ ، من غير تصوّر ولافهم ، حتى يصير حافظا لألفاظ المعانى ، قيِّمًا بتلاوتها وهو لايتصوّرها ، ولا يفهم ماتضمنته ، يَرْوِى بغير رَوِيّة ، ويخبِر عن غير خِبرة ، فهو كالكتاب الذى لايَدْفع شُبهة ، ولايؤيد حُجَّة ، وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «همة السفهاء الرِّواية ، وهمة العلماء الرِّعاية» . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : كونوا للعلم رُعاة ، ولاتكونوا له رُواة ، فقد يَرْعَوِى من لايَرْوِى ، ويَرْوِى من لا يَرْعَوِى .

وحدّث الحسن البصريّ بحديث ، فقال له رجل : يا أبا سعيد ، عمن ؟ قال : ماتصنع بمَنْ ؟ أما أنت فقد نالتك عِظته ، وقامت عليك حُجته .

وربما اعتمد على حفظه وتصوّره ، وأغفل تقييد العلم فى كتبه ، ثقة بما استقرّ فى ذهنه ، وهذا خطأ منه ، لأن الشك معترِض، والنسيان طارئ . وقد روَى أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قيدوا العلم بالكِتاب». ورُوى أن رَجلا شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم النسيان ، فقال له : استعمل يدك ، أى اكتب ، حتى ترجع إذا نسيت إلى ما كتبت . وقال الخليل بن أحمد : اجعل مافى الكتب رأس المال ، وما فى قلبك النفقة . وقال مَهْبوذ[1] : لولا ماعَقَدَتْه الكتبُ من تجارب الأوّلين ، لأَنحلّ مع النسيان عقود الآخرين . وقال بعض البلغاء : إن هذه الآداب نوَافر ، تنِدّ[2] عن عُقُل[3] الأذهان ، فاجعلوا الكتب عنها حُماة[4] ، والأقلام لها رُعاة .

وأما الطارئ فنوعان :

أحدهما شُبْهة تعترض المعنى ، فتمنع من تصوّره ، وتدفع عن إدراك حقيقته . فينبغى أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ، ليصل إلى تصوّر المعنى ، و إدراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء: لاتُخْلِ قلبك من المذاكرة ، فيعودَ عقيما[5] ، ولاتُعْفِ طبعك من المناظرة ، فيصيرَ سقيما ؛ وقال بشار بن بُرد :

شِفاء العَمَى طولُ السؤال و إنما ... دوام العَمَى طول السكوت على الجهلِ

فكن سائلا عما عناك فإنما ... دُعيتَ أخا عَقل لتبحثَ بالعقلِ

والثانى : أفكار تُعارِض الخاطر ، فتُذْهِل عن تصوّر المعنى . وهذا سبب قلما يَعْرَى منه أحد ، لاسيما من انبسطت آماله ، واتسعت أمانيه ، وقد يقلّ فيمن لم يكن له فى غير العلم أرب ، ولا فيما سواه همة ، فإن طرأت على الإنسان ، لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم ، وغلبة قلبه

---

(١) مهبوذ ، بالذال المعجمة : كذا في طبعة الأميرية . وفى منهاج اليقين بالدال المهملة . ولم أقف عليه .
(٢) ند البعير يند ندا وندودا : شرد ونفر .
(٣) جمع عقال ، بوزن كتاب .
(٤) جمع حام : أى تدفع عنها ما يؤذيها .
(٥) العقيم : المرأة التى لا تلد .

على التصور ، لأن القلب مع الإكراه أشد نفورا ، وأبعد قبولا . وقد جاء الأثر ، بأنّ القلب إذا أكره عَمِى ، ولكن يعمل فى دفع ماطرأ عليه من همٍّ مذهِل ، أومكر قاطع ، ليستجيب له القلب مُطِيعا ، وقد قال الشاعر :

وليس بمغنٍ فى المودّة شافعٌ   إذا لم يكن بين الضلوع شفيعُ

وقال بعض الحكماء : إن لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش ، فتألَّفوها بالاقتصاد فى التعليم ، والتوسط فى التقديم ، لتحسن طاعتها ، ويدوم نشاطها .

فهذا تعليل مافى المستمِع من الأسباب المانعة من فهم المعانى .

وهاهنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام ، وفهم معانيه ، ولكنه قد يَعْرَى من بعض الكلام ، فلذلك لم يَدْخُل فى جملة أقسامه ، ولم نَستجز الإخلال بذكره ، وهو الخط ، لأن من الكلام ما كان مسموعا ، لايحتاج فى فهمه إلى تأمل الخطّ به ، والمانع من فهمه هو على ماذكرنا من أقسامه ؛ ومنه ما كان مُسْتَوْدَعا بالخط ، محفوظا بالكتابة ، مأخوذا بالاستخراج ، فكان الخطُّ حافظا له ، ومعبِّرًا عنه . وقد رُوِى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : «أو أثارة من علم » ، قال : يعنى الخطّ . وعن مجاهد فى قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أُوتى خيرا كثيراً » : يعنى الخط ؛ والعرب تقول : الخطُّ أحد اللسانين ، وحُسْنه إحدى الفصاحتين ؛ وقال جعفر بن يحيي : الخط سِمطُ الحِكمة ، به يُفصَّل شُذورها ، ويُنْظَمُ منثورُها ؛ وقال ابن المقفّع : اللسان مقصور على القريب الحاضر ، والقلم على الشاهد والغائب ، وهو للغابِر والدّاثِر ، مثله للقائم الدّاهر[1] . وقال حكيم الروم : الخط هندسة رُوحانية ، وإن ظهرت بآلة جُسمانية ؛ وقال حكيم العرب : الخط أصيل فى الروح ، وإن ظهر بحواسِّ الجسَد .

[أول من كتب الخط] واختلف فى أول من كتب الخَطَّ ، فذكر كعبُ الأحبار أن أول من كتب آدم عليه السلام ، كتب سائر الكتب ، قبل موته بثلاث مئة سنة فى طين ، ثم طبخه ، فلما غرقت الأرض فى أيام نوح على نبينا وعليه السلام ، بقيت الكتابة ، فأصاب كلُّ

---

(١) هذه العبارة « وهو للغابر والداثر ، مثله للقائم الداهر » : ساقطة من النسخ المتداولة فى مصر . وهى ثابتة فى (منهاج اليقين ص ٩١) والغابر : الماضى والآتى . والداثر : البائد ، والداهر : المعاصر .

قوم كتابهم ، وبقى الكتاب العربىّ ، إلى أن خص الله تعالى به إسماعيل ، فأصابه وتعلمها .

وحكى ابنُ قُتَيبة : أن أوّل من كتب إدريس ، على نبينا وعليه السلام .

وكانت العرب تعظّم قدر الخطّ ، وتَعُدّه من أجَلّ نافع ، حتى قال عكرمة : بلغ فِداء أهل بدر أربعة آلاف ، حتى إن الرجل ليفادِى على أنه يَعْلَم الخط ، لما هو مستقر فى نفوسهم من عظم خَطَره ، وجلالة قدره ، وظهور نفعه وأثره . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « اقرأ وربك الأكرم ، الذى عَلَّم بالقلم » فوصف نفسه بأن علّم بالقلَم ، كما وصف نفسه بالكرم ، وعدّ ذلك من نعمه العظام ، ومن آياته الجسام ، حتى أقسم به فى كتابه ، فقال سبحانه وتعالى : « نٓ . والقلمِ وما يسطُرون » ؛ فأقسم بالقلم ، كما أقسم بما يُخَط بالقلم .

[أول من كتب بالعربية] واختُلِف فى أوّل من كتب بالعربية ، فذكر كعب الأحبار أن أوّل من كتب بها آدم عليه السلام ، ثم وجدها بعد الطوفان إسماعيل على نبينا وعليه السلام .

وحكى ابن عباس رضى الله عنهما ، أن أول من كتب بها ووضعها ، إسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه . وحكى عُرْوة بن الزُّبير رضى الله عنه ، أن أول من كتب بها قوم من الأوائل ، أسماؤهم : أبجد ، وهوّز ، وحُطِّى ، وكلَمن ، وسَعَفص ، وقَرَشَت ، وكانوا ملوك مَدْين .

وحكى ابن قُتيبة فى المعارف : أن أوّل من كتب بالعربىّ مُرامِر بن مُرّة ، من أهل الأنبار ، ومن الأنبار انتشرت .

وحكى المَدائنىّ : أن أوّل من كتب بها مُرَامِر بن مرة ، وأسلم بن سِدْرة ، وعامر بن جَدْرة ؛ فمرامر وضع الصُّوَر ، وأسْلَم فصَل ووصَل ، وعامر وضع الإعجام .

ولما كان الخط بهذه الحال ، وجب على من أراد حفظ العلم ، أن يعنى بأمرين : أحدهما تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها ؛ والثانى ضبط ما اشتبه منها بالنقط والأشكال المميزة لها ، ثم مازاد على هذين من تحسين الخط ، وملاحة نظمه ، فإنما هو زيادة حِذق بصنعته ، وليس بشرط فى صحته . وقد قال علىُّ بن عُبيدة : حسن الخط لسان اليد ، وبهجة الضمير ،

وقال أبو العباس المبرد : رداءة الخط زمانة الأدَب . وقال عبدالحميد : البيان : فى اللسان، والخط[1] فى البنان . وأنشدنى بعض أهل العلم ، لأحد شعراء البصرة :

اِعْذِرِ أخاكَ على رداءة[2] خطِّهِ ... واغفر نذالتــه لجودة ضبطِهِ
واعـلم بأن الخط ليس يُراد من ... تركيبـه إلّا تبيُّنُ سِمْطِهِ[3]
فإذا أبان عن المعـانى لم يكن ... تحسينُهُ إلّا زيادَةَ شرطِهِ

ومحلُّ مازاد على الخط المفهوم ، من تصحيح الحروف ، وحسن الصورة ، محل مازاد على الكلام المفهوم ، من فصاحة الألفاظ ، وصحة الإعراب ، ولذلك قالت العرب : حسنُ الخط إحدى الفصاحتين ، وكما أنه لايعذر من أراد التقدم فى الـكلام ، أن يطرَحَ الفصاحـة والإعراب ، و إن فُهِمَ وَأَفْهَمَ ، كذلك لايُعذر من أراد التقدم فى الَخط ، أن يَطْرَحَ تصحيح الحروف ، وتحسين الصُّور ، و إن فُهِمَ وأفهم ، ور بما تقدّم بالخط من كان الخط أجلّ فضائله ، وأشرف خصائله ، حتى صار عَلَمًا مشهورا ، وسيدا مذكورا ، غير أن العلماء أُطّرحوا صرف الهمة إلى تحسين الخط ، لأنه يشغلهم عن العلم ، و يقطعهم عن التوفرُّ عليه ، ولذلك تجد خطوط العلماء فى الأغلب رديئة ، لايخط إلا من أسعده القضاء؛ وقد قال الفضل بن سهل: من سعادة المرء أن يكون ردىء الخط ، لأن الزمان الذى يُفنيه بالـكتابة يشغَلُه بالحفظ والنظر . وليست رداءة الخط هى السعادة ، و إنما السعادة ألَّا يكون له صارف عن العلم . وعادة ذى الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم ، فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيدا ، و إن لم تـكن رداءة الخط سعادة .

و إذا كان ذلك كذلك ، فقد يعرِض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته ، كما يعرض للـكلام أسباب تمنع من فهمه وصحته .

والأسباب المانعة من قراءة الخط ، وفهم ماتضمنه ، قد تـكون من ثمانية أوجه :

---

(١) والخط : عن منهاج اليقين ، وهى ساقطة من الطبعات المتداولة .

(٢) فى منهاج اليقين : « نذالة » فى موضع « رداءة » .

(٣) أى إلا ظهور الـكلمات المركبة من الحروف ، كأنها منظومة فى سلك .

الوجه الأول : إسقاطه ألفاظا من أثناء الكلام ، يصير الباقى منها مبتورا ، لايعرف استخراجه ، ولا يُفهَمُ معناه . وهذا يكون إما من سهو الكاتب ، أومن فساد نقله ، وهذا يَسْهُل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع ، فيستدل بحواشى الكلام وما سلم منه ، على ماسقط أوفسد ، لاسيما إذا قلّ ، لأن الكلمة تستدعى مايليها ، ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجَم عنه ، فأما من كان قليل الارتياض بذلك النوع ، فإنه يصعب عليه استنباط المعنى منه ، لاسيما إذا كان كثيرا ، لأنه يحتاج فى فهم المعانى ، إلى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة ، فإذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى ، قصَّر فهمه عن إدراكه ، وضَلّ فكره من استنباطه .

والوجه الثانى : زيادة ألفاظ فى أثناء الكلام ، يُشْكِل بها معرفة الصحيح غير الزائد ، من معرفة السقيم الزائد ، فيصير الكل مشكلا ، وهذا لايكاد يوجد كثيرا ، إلا أن يقصد الكاتب تَعْمية كلامه ، فيُدْخل فى أثنائه مايمنع من فهمه ، فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة . فأما وقوعه سهوا ، فقد يكون بالكلمة والكلمتين ، وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره .

والوجه الثالث : إسقاط حروف من أثناء الكلمة ، تمنع من استخراجها على الصحة ؛ وقد يكون هذا تارة من السهو ، فيقلّ ، وتارة من ضعف الهجاء ، فيكثر ، والقول فيه كالقول فى الوجه الأول .

والوجه الرابع : زيادة حروف فى أثناء الكلمة ، يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها ، وهذا يكون تارة من سهو الكاتب ، فيقلّ ، ولايمنع من استخراج الصحيح ؛ ويكون تارة لتعمية ومواضعة ، يقصِد بها الكاتب إخفاء غرضه ، فيكثر ، كالتراجم ، ويكون القول فيه كالقول فى الوجه الثانى .

والوجه الخامس : وصل الحروف المفصولة ، وفصل الحروف الموصولة ، فيدعو ذلك إلى الإشكال ، لأن الكلمة ينبِّه عليها وصلُ حروفها ، ويمنع فصلُها من مشاركة غيرها ، فإن كان ذلك من سهو ، قلّ فسهل استخراجه ، وإن كان ذلك من قلة معرفة بالخط ،

أو مَشْقًا[1] تسبِق به اليد ، كَثُر فصعُب استخراجه ، إلاّ على المرتاض به ؛ ولذلك قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : شرُّ الكتابة المشْق ، كما أن شر القراءة الهَذْرمة[2] ، و إن كان للتعمية والرمز ، لا يُعرف بالمواضعة .

والوجه السادس : تغيير الحروف عن أشكالها ، و إبدالها بأغيارها ، حتى يكتب الحاء على شكل الباء ، والصاد على شكل الراء ، وهذا يكون فى رموز التراجم ، ولا يوقف عليه إلا بالمواضعة ، إلا لمن قد زاد فيه الذكاء ، فيقدرُ على استخراج المعمَّى[3] .

والوجه السابع : ضعف الخط عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة ، و إثباتها على الأوصاف الحقيقية ، حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن أغيارها ، حتى تصير العين الموصولة كالفاء ، والمفصولة كالحاء ؛ وهذا يكون من رداءة الخط ، وضعف اليد ، واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة ، وشدة التأمل ، و إن كان ربما أضجر قارئه ، وأوهى معانيَه ، ولذلك قيل : إن الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا .

والوجه الثامن : إغفال النقط والأشكال التى تتميز بها الحروف المشتبهة ، وهذا أيسر أمرا ، وأخفّ حالا ، لأن من كان متميزا بصحة الاستخراج ، ومعرفة الخط ، لم تخف عليه معرفة الخط ، وفهم ماتضمنه ، مع إغفال النقط والأشكال .

[استقباح النقط والشكل فيما يكتب للخاصة والمثقفين] بل قد استقبح الكتّاب ذلك فى المكاتبات ، ورأوه من تقصير الكاتب ، أوسوء ظنه بفهم المكاتَب ، وكان استقباحهم له فى مكاتبة الرؤساء أكثر .

حكى قُدامة بن جعفر : أن بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا ، فشكا العامل منه إلى عُبيد الله بن سليمان ، وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ، ووضوح شكواه ، فوقَّع فيها عبيد الله بن سليمان : هذا هذا ، فأخذها العامل وقرأها ، فظن أن عبيد الله أراد

---

(١) لعل المراد من لفظة المشق : الكتابة السريعة التى لا تبين فيها صور الحروف لقارئها . وقد سمعنا من أهل العصر من يستعمل المشق فى تحسين الخط ، مضاهاة لنسخة أستاذ ذى خط حسن . ولعله اصطلاح متأخر ، كأنه ضد للمعنى الأول . (٢) الهذرمة : السرعة فى القراءة ، بحيث لاتبين أحرف الكلمة بيانا واضحا .

(٣) المعمى : اللغز فى الكلام .

بهذا هذا، إثباتا لصحة دعواه، وصدق قوله ، كما يقال فى إثبات الشىء هو هو ، فحمل الرقعة إلى كاتب الديوان ، وأراه خط عُبيد الله ، وقال له : إن عبيد الله قد صدّق قولى ، وصحّح ماذكرت ؛ فخفى على الكاتب ذلك ، وأُطيف به على كتاب الدواوين ، فلم يقفوا على مراد عُبيد الله ، فرُدّ إليه ، ليُسأل عن مراده به ، فشدّد عُبيد الله الكلمة الثانية ، وكتب تحتها : والله المستعان ؛ استعظاما منه لتقصيرهم فى استخراج مراده ، حتى احتاج إلى إبانته بالشكل . فهذه حال الكُتاب فى استقباحهم إعجام المكاتبات بالنقط والأشكال . فأما غير المكاتبات من سائر العلوم ، فلم يروه قبيحا ، بل استحسنوه ، لاسيما فى كتب الأدب ، التى يقصد بها معرفة صيغة الألفاظ ، وكيفية مخارجها ، مثل كتب النحو واللغة والشعر والغريب ، فإن الحاجة إلى ضبطها بالشكل والإعجام أكثر ، وهى فيما سواه من العلوم أيسر ، وقد قال الثَّوْرِىّ : الخطوط المعجَمة ، كالبرود المعلَمة . وقال بعض البلغاء : إعجام الخط يمنع من استعجامه ، وشكله يُؤْمِن مِن إشكالِه . وقال بعض الأدباء : رب علم لم تُعْجَم فصوله ، فاستعجم محصوله .

وكما استقبح الكتاب الشكل والإعجام فى المكاتبات ، وإن كان فى كتب العلوم مستحسنا، فكذلك استحسنوا مَشْق الخط فى المكاتبات ، وإن كان فى كتب العلوم مستقبحا . وسبب ذلك أنهم لفرط إدلالهم بالصنعة ، وتقدمهم فى الكتابة ، يكتفون بالإشارة ، ويقتصرون على التلويح ، ويرون الحاجة إلى استيفاء شروط الإبانة تقصيرا ، ولفضل مايعتقدونه من التقدم بهذا الحال ، رأوا مانَبَّه عليه من سواد المداد أثرا جميلا ، وعلى الفضل والتخصيص دليلا .

حُكى أن عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صُفْرة ، فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ، ثم قال : المداد بنا أحسن من الزّعفران ، وأنشد :

إنما الزعفرانُ عِطْرُ العذَارَى ومِداد الدُّوِىّ عِطْرُ الرِّجالِ

فهذه جملة كافية فى الإبانة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام ، ومعرفة معانيه ، لفظا كان أوخطا ، والله ولىّ التوفيق .

[كشف الأسباب المانعة من الفهم] فينبغى لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة من فهم المعنى ، ليسهل عليه الوصول إليه ، ثم يكون بعد ذلك سائسا لنفسه ، مدبرا لها فى حال

تعلمه ، فإن للنفس نفورا يُفْضى إلى تقصير ، ووفورا يئول إلى سَرَف ، وقيادها عسر . ولها أحوال ثلاث : فحال عدل و إنصاف ، وحال غلوّ و إسراف ، وحال تقصير و إجحاف :

فأما حال العدل والإنصاف بلا تقصير، فهى أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين: طاعة مسعدة، وشفقة كافة، فطاعتها تمنع التقصير، وشفقتها تردّ عن السرف والتبذير؛ وهذه أحمد الأحوال، لأن ما منع من التقصير نامٍ[1] ، وما صدّ عن السرف مستديم ، والنموّ إذا استدام فأخلِقْ به أن يُسْتكمل . وقال بعض الحكماء : إياك ومفارقة الاعتدال ، فإن المسرف مثل المقصِّر فى الخروج عن الحدّ .

وأما حال الغلوّ والإسراف : فهى أن تختص النفس بقوى الطاعة ، وتعدم قوى الشفقة ، فيبعثها اختصاص الطاعة على إفراغ الجهد ، ويُفْضِى بها إفراغ الجهد إلى عجز الكَلال[2] ، فيؤدّيها عجز الكَلال ، إلى التَّرك والإهمال ، فتصير الزيادة نقصانا ، والربح خسرانا . وقد قالت الحكماء : طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام : إن أخذ منه قوتا عَصَمه ، و إن أسرف فيه أبشَمه ، وربما كان فيه منيَّته ، كأَخذ الأدوية التى القصد فيها شفاء ، ومجاوزة الحد فيها السّم المميت .

وأما حال التقصير والإجحاف : فهى أن تختص النفس بقوى الشَّفَقَة ، وتعدم قوى الطاعة ، فيدعوها الإشفاق إلى المعصية ، وتمنعها المعصية من الإجابة ، فلا تطلب شاردا ، ولا تقبل عائدا ، ولا تحفظ مستودَعا ؛ ومن لم يطلب الشارد ، و يقبل العائد ، و يحفظ المستودع ، فقدَ الموجود ، ولم يجد المفقود ؛ ومن فقد ماوجد فهو مصاب محزون ، ومن لم يجد مافقد ، فهو خائب مغبون : وقد قال بعض الحكماء : العجز مع الوانى ، والفَوْت مع التوانى .

وقد يكون للنفس مع الأحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوّتين، فيكون للنفس طاعة و إشفاق ، و إحداهما أغلب من الأخرى ، فإن كانت الطاعة أغلب ، كانت إلى الوفور المجاوز أميل ، و إن كان الاشفاق أغلب ، كانت إلى التقصير أقرب ؛ فإذا عرف من نفسه

---

(١) كذا فى منهاج اليقين . وفى طبعة الأميرية وغيرها : نماء . تحريف .

(٢) كذا فى منهاج اليقين ، وهو الصواب . وفى النسخ المتداولة : الكلام، تحريف .

قدر طاعتها ، وخَبَر منها كُنْهَ إشفاقها ، راض نفسه ، ليلبث على أحمد حالاتها ؛ وقد أشار إلى ماوصفنا من حال النفس ، الفرزدق فى قوله :

لكل امرئ نفسان : نفسٌ كريمة ... وأخرى يعاصيها الفتى ويُطيعها
ونفسُك من نفسيك تشفع للندَى ... إذا قلّ من أحرارهنّ شفيعُها

فإن أهمل سياستها ، وأغفل رياضتها ، ورام أن يأخذها بالعنف ، ويقهرَها بالعَسْف ، استشاطت نافرة ، ولجت معاندة ، فلم تنقد إلى طاعة ، ولم تنكفّ عن معصية . وقال سابقٌ البربرىّ :

إذا زَجرتَ لَجوجًا زدته عَلَقا ... ولجَّت النفسُ منه فى تماديها
فعُدْ عليه إذا ما نفسُه جمَحَتْ ... باللّين منك فإنّ اللّينَ يَثْنِيها

فإذا استصعب عليه قياد نفسه ، ودام منه نفور قلبه ، مع سياستها ، ومعاناة رياضتها ، تركها ترك راحة ، ثم عاودها بعد الاستراحة ، فإنّ إجابتَها تَسرَع ، وطاعتَها ترجع . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن القلب يموت ويحيا ، ولو بعد حين » . وقال ابن مسعود : للقلوب شهوة وإقبال ، وفترة وإدبار ، فأْتوها من قِبَل شهوتها ، ولا تأتوها من قبل فَتْرتها . وقال الشاعر :

وما سُمِّىَ الإنسانَ إلّا لأُنْسِهِ[1] ... ولا القلبَ إلا أنه يتقلبُ

[الشروط التى يتوفر بها علم الطالب] وأما الشروط التى يتوفّر بها علم الطالب ، وينتهى معها كمال الراغب مع ما يُلاحظ به من التوفيق ، ويُمدّ به من المعونة ، فتسعة شروط :

الأوّل : العقل الذى يدرك به حقائق الأمور .

والثانى : الفطنة التى يتصوّر بها غوامض العلوم .

والثالث : الذكاء الذى يستقرّ به حفظ ماتصوّره ، وفهم ماعلمه .

والرابع : الشهوة التى يدوم بها الطلب ، ولا يسرع إليها المَلَل .

والخامس : الاكتفاء بمادة تغنيه عن كُلَف الطّلَب .

والسادس : الفراغ الذى يكون معه التوفر ، ويحصل به الاستكثار .

والسابع : عدم القواطع المذهِلة ، من هموم ، وأشغال ، وأمراض .

(١) كذا فى منهاج اليقين . وفى النسخ المتداولة : لنسيه .

والثامن : طول العمر ، واتساع المدة ، لينتهى بالاستكثار ، إلى مراتب الكمال .

والتاسع : الظفر بعالم سَمْح بعلمه ، متأنٍّ فى تعليمه .

فإذا استكمل هذه الشروط التسعة ، فهو أسعد طالب ، وأنجح متعلم . وقد قال الإسكندر : يحتاج طالب العلم إلى أربع : مدة ، وَجِدة ، وقريحة ، وشهوة ، وتمامها فى الخامسة : معلم ناصح .

فصل

[طرف من أدب المتعلم] وسأذكر طَرَفا مما يتأدب به المتعلم ، ويكون عليه العالِم .

اعلم أن للمتعلم فى زمان تعلمه تملقا وتذَلُّلا ، إن استعملهما غَنِم ، وإن تركهما حُرِم ؛ لأن التملق للعالِم يظهر مكنون علمه ، والتذلل له سبب لإدامة صبره ، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة ، وباستدامة صبره يكون الإكثار وقد رَوَى مُعاذُ[1] عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس من أخلاق المؤمن المَلَق إلا فى طلب العلم » وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : ذَلَلت طالبا ، فعزَزْت مطلوبا . وقال بعض الحكماء : من لم يحتمل ذُلّ التعلم ساعة ، بقِيَ فى ذل الجهل أبدا . وقال بعض حكماء الفرس : إذا قعدتَ وأنت صغير حيث تُحِبّ ، قعدت وأنت كبير حيث لاتحبّ . ثم ليعرفْ له فضل علمه ، وليشكر له جميل فعله . فقد روَت عائشة رضى الله عنها ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ وَقَّرَ عالما فقد وقَّر ربه » . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لايعرف فضل أهل العلم[2] ، إلا أهل الفضل . وقال بعض الشعراء :

إن المعلمَ والطبيب كلاهما   لايَنْصحان إذا هما لم يُكْرَمَا
فاصبر لدائك إن أهنْتَ طبيبَه   واصبر لجهلك إن جفوتَ معلِّما

ولا يمنعه من ذلك علوّ منزلته إن كانت له ، وإن كان العالم خاملا ، فإن العلماء بعلمهم قد استحقُّوا التعظيم ، لابالقدرة والمال . وأنشدنى بعض أهل الأدب لأبى بكر بن دُريد :

---

(١) معاذ بن جبل الأنصارى ، من كبار الصحابة وعظمائهم وعلمائهم ، توفى سنة ثمانى عشرة للهجرة ، وعمره ثلاث وثلاثون أو ثمان وثلاثون سنة .

(٢) ويروى : أهل الفضل (منهاج اليقين) .

لا تَحقِرنْ عالما و إن خَلقَتْ ... أثوابُه فى عيون رامقــهِ

وانظر إليه بعين ذى أدبٍ ... مُهذَّبِ الرأىِ فى طرائقه

فالمسك بينا تراه ممتهنا ... بفهر عطاره وساحقهِ [١]

حتى تراه فى عارضَىْ مَلِكٍ ... وموضعَ التاج من مفارقهِ [٢]

ولْيكنْ مقتديا بهم فى رَضِىِّ أخلاقهم ، متشبّها بهم فى جميع أفعالهم ، ليصير لهم آلفا ، وعليها ناشئا ، ولما خالفها مجانبا . فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « خيار شبّانِكم [٣] المتشبِّهون بشيوخكم ، وشِرَار شيوخكم المتشبهون بشُبانِكم » . وروى ابن عمر رضى الله عنهما : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « من تشبَّهَ بقوم فهو منهم [٤] » ؛ وأنشدنى بعض أهل الأدب ، لأبي بكر بن دُرَيد :

العالم العاقل ابن نفسـهِ ... أغناه جنس علمه عن جِنسهِ [٥]

كن ابن من شئتَ وكن مؤدبا ... فإنمـا المرء بفضل كَيْسِه [٦]

وليسَ مَن تـكرمهُ لغيرهِ ... مثلَ الذى تـكرمُهُ لنفسه

ـ وليحذر المتعلم البسْطَ [٧] على من يعلِّمه و إن آنسه ، والإدلالَ عليه و إن تقدمت صحبته . فقد قيل لبعض الحـكماء : من أذلُّ الناس ؟ فقال : عالم يجرى عليه حكم جاهل . وكلَّمتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبْى [٨] ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : بنت الرجل الجواد حاتم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ارحموا عزيز قوم ذَلّ ، ارحموا غنيا افتقر ، ارحموا عالما ضاع بين الجهال » . ولا يُظْهِر له الاستكفاء منه ، والاستغناء عنه ، فإن فى ذلك كفرًا لنعمته ، واستخفافا بحقه ، وربمـا وجد بعض المتعلمين قوة فى نفسه ، لجودة ذكائه ، وحدّة

---

(١) الفهر : حجر يملأ الـكف . و السحق : الدق . (٢) فى (منهاج اليقين ص ١٠٢) : سوف فى موضع : حتى . و العارضان : صفحتا الوجه . (٣) فى طبعة الأميرية : شبابكم فى الموضعين.

(٤) أى فى زيهم وأفعالهم . (٥) أى أغناه شرف العلم عن شرف الحسب والنسب .

(٦) الـكيس ، بفتح الـكاف : الذكاء و الفطنة . (٧) كذا فى منهاج اليقين ، أى التسلط والاستيلاء عليه ، على طريق الإدلال . وفى الأميرية : التبسط .

(٨) هى سفانة بنت حاتم الطائى .

خاطره ، فقصد من يعلمه بالإعنات[١] له ، والاعتراض عليه ، ازدراء[٢] به ، وتبكيتا[٣] له ، فيكون كمن تقدم به المثل السائر لأبي البَطْحاء[٤] :

أعلمهُ الرمايةَ كل يومٍ فلما اشتدَّ ساعدُه رماني

وهذه من مصائب العلماء ، وانعكاس حظوظهم ، أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهَلين ، وعند من قدموه مسترذَلين . وقال صالح بن عبد القدوس :

وإن عَناءً أن تعلِّم جاهلاً فيحسِب جهلا أنه منك أعلمُ

متى يبلغُ البنيانُ يوما تمامَه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدِمُ ؟

متى ينتهي عن سيئٍ من أتى به إذا لم يكن منه عليه تندُّم ؟

وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم ، على حق الوالد ، حتى قال بعضهم :

يا فاخرا للسَّفاه بالسلَفِ وتاركا للعَلاء والشرفِ

آباء أجسادنا همُ سببٌ لأن جُعِلْنا عَرائضَ التلَفِ

من علم الناس كان خيرَ أبٍ ذاك أبو الرُّوح لا أبو النُّطَفِ[٥]

ولا ينبغي أن يبعثه معرفة الحق له ، على قبول الشبْهة منه ، ولا يدعوه ترك الإعنات له ، على التقليد[٦] فيما أخذ عنه ، فإنه ربما غالى بعض الأتباع في عالمهم ، حتى يروا أن قوله دليل ،

---

(١) أعنته إعناتا : أوقعه فى العنت ، وهو المشقة . (٢) الازد اء : العيب للشىء .

(٣) التبكيت : مصدر بكته إذا غلبه بالحجة حتى أسكته .

(٤) هذا البيت مختلف فى قائله ، أنشده صاحب اللسان فى (سدد) قال ابن برى هذا البيت ينسب إلى معن ابن أوس ، قاله فى ابن أخت له . وقال ابن دريد هو لمالك بن فهم الأزدى ، وكان اسم ابنه سليمة (مصغرا) رماه بسهم فقتله ، فقال هذا البيت . قال ابن برى : ورأيته فى شعر عقيل بن علفة ، يقوله فى ابنه عميس حين رماه بسهم . وبعده :

فلا ظفرت يمينك حين ترمى وشلت منك حاملة البنان

وفى طبعة الأميرية : اشتد ، بالشين ، وليست بشىء . قاله الأصمعى .

(٥) كذا فى منهاج اليقين . وفى الأميرية : الجيف . قال : وكون المعلم خير الآباء : لأن حياة الروح بالعلم ، كما أن حياة الجسد بالروح . فالعلم مادة الروح الإنسانى ، كما أن النطفة مادة الجسد والروح الحيوانى . والروح الإنسانى أفضل الأرواح ، فالمعلم خير الآباء .

(٦) التقليد : قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل ، واتباعه فيما يقول أو يفعل معتقدا الحقيقة فيه ، من غير نظر وتأمل فى الدليل . كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة فى عنقه .

وإن لم يستدل ، وأن اعتقاده حُجة ، وإن لم يحتج ، فيفضى به الأمر إلى التسليم له ، فيما أخذ عنه ، ويئول به ذلك إلى التقصير فيما يصدر منه ، لأنه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه ، فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة إن انفردت ، أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت ، لأنه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ، ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه ، فيطالبهم بما قصروا فيه ، فيضعفوا عن إبانته ، ويعجزوا عن نُصْرته ، فيذهبوا ضائعين ، ويصيروا عجزة مضعوفين .

ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا يناظر فى مجلسِ حَفْل[١] ، وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة ، فكان جوابه عنها أن قال : إن هذه دلالة فاسدة ، ووجه فسادها أن شيخى لم يذكرها ، وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه ، فأمسك عنه المستدلّ تعجبا ، ولأن شيخه كان محتشما[٢] ؛ وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ، ثم أقبل المستدلّ عَلَىَّ وقال لى : والله لقد أفحمنى بجهله ، وصار سائر الناس المبرَّئين من هذه الجهالة ، من بين مستهزئ ومتعجب ، ومستعيذ بالله من جهل مُغْرِب[٣] ، فهل رأيت كذلك عالما أَوْغَلَ[٤] فى الجهل ، وأدلّ على قلة العقل .

وإذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه ، متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه ، حتى لا يحمِلَهُ الإعنات على اعتراض المبكِّتين ، ولا يبعثه الغلوّ على تسليم المقلِّدين ، برئ المتعلم من المذمّتين[٥] ، وسلم العالم من الجهتين[٦] ؛ وليس كثرة السؤال فيما اُلتبس إعناتا ، ولا قبول ما صح فى النفس تقليدا . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العلم خزائن ، ومفتاحه السؤال ، فاسألوا رحمكم الله ، فإنما يُؤجَرَ فى العلم ثلاثة : القائل ، والمستمع ، والآخذ » . وقال عليه الصلاة والسلام : « هلا سألوا إذا لم يَعْلَمُوا ، فإنما شفاء العَمَى[٧] السؤال » ؛ فأمرَ بالسؤال وحثَّ عليه . ونهى آخرين عن السؤال ، وزجرَ عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) حفل بالإضافة : أى جمع كثير .
(٢) محتشما : ذا حشمة ، وهى الحياء والانقباض .
(٣) يأتى بالغرائب فى الجهالة .
(٤) أوغل : أدخل وأكثر إمعانا .
(٥) الإعنات والتقليد .
(٦) الجهتان : كونه مستجهلا عند متعلميه ، وخروج أتباعه من عداد العلماء . وفى الأميرية : المجنتين ؛ بتقديم الهاء .
(٧) الجهل . وفى الأميرية : العى .

« أنهاكم عن قيلٍ وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال[١] » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إياكم وكثرةَ السؤال ، فإنما هلك من قَبْلكم بكثرة السؤال » . وليس هذا مخالفا للأوّل ، وإنما أمر بالسؤال مَن قصد به علم ماجهل ، ونهى عنه مَن قصد به إعنات ماسمع ، وإذا كان السؤال فى موضعه ، أزال الشكوك ، ونفَى الشُّبهة . وقد قيل لابن عباس[٢] رضى الله عنهما : بمَ نلتَ هذا العلم ؟ قال : بلسان سئُول ، وقلب عقول . وروَى نافع[٣] عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « حسن السؤال نصفُ العلم » . وأنشد المبردُ عن أبى سليمان الغَنَوىّ :

فسل الفقيه تكن فقيها مثلَه ... لاخيرَ فى علم بغير تدَبُّرِ
وإذاتعسَّرَتِ الأمورُفأَرْجِها ... وعليكَ بالأمرِ الذى لم يَعْسُرِ[٤]

وليأخذِ المتعلمُ حَظَّه ممن وجدَ طَلِبته عنده ، من نبيهٍ وخامل ، ولايطلب الصيت وحسن الذكر ، باتباع أهل المنازل من العلماء ، إذا كان النفع بغيرهم أعم ، إلا أن يستوى النفعان ، فيكون الأخذ عمن اشتهر ذكره ، وارتفع قدره أولى ، لأن الانتساب إليه أجمل ، والأخذ عنه أشهر ، وقد قال الشاعر :

إذا أنت لم يَشْهَرْكَ علمُكَ لم تجدْ ... لعلمك مخلوقا من الناس يَقْبلُهْ
وإن صانك العلمُ الذى قد حملتَهُ ... أتاكَ له مَنْ يجتنيه ويَحْمِلُهْ[٥]

وإذا قرب منك العلم ، فلا تطلب مابعُد ، وإذا سهُل من وجه ، فلا تطلب ماصعُب ، وإذا حَمِدت مَن خَبَرْتَه ، فلا تطلب من لم تختبره ، فإن العدول عن القريب إلى البعيد عَناء ، وترك الأسهل بالأصعب بَلاء ، والانتقال من المخبور إلى غيره خَطَر ، وقد قال علىّ بن أبى طالب

---

(١) المراد بالسؤال هنا : السؤال عن أحوال الناس ، أو عما لا يعنى ، أوعن المسائل العلمية امتحانا وفخرا وتعاظما ، أو السؤال من غير ضرورة . وإضاعة المال : صرفه فيما لا يحل ، أو تعريفه للفساد ، أو التوسع فى الإنفاق مع الاقتراض وعدم القدرة على الوفاء .

(٢) ابن عباس : هو حبر الأمة . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكثر الصحابة علما وحديثا . مات بالطائف سنة ثمان وستين وهو ابن إحدى وسبعين سنة .

(٣) نافع مولى عبد الله بن عمر أصله من البربر من المغرب . مات بالمدينة سنة سبع عشرة ومئة .

(٤) فأرجها : فأخرها ، وأصله : أرجئها .

(٥) أى صانك عن المطامع الدنية ، والوقوف فى مواقف الريب .

رضى الله عنه : عُقْبى الأخرق مَضَرَّة ، والمتعسِّف لا تدوم له مَسَرَّة ، وقال بعض الحكماء : القصد أسهل من التعسُّف ، والكف أودَع من التكلّف ، وربما تتبّع نفس الإنسان مَن بعُد عنه ، استهانة بمن قرب منه ، وطلَبَ ما صعب ، احتقارا لما سَهُل عليه ، وانتقل إلى من لم يخبُرْه ، مَلَلا لمن خبره ، فلا يدرك محبوبا ، ولا يظفر بطائل ، وقد قالت العرب فى أمثالها : العالِم كالكعبة ، يأتيها البُعَداء ، ويزهد فيها القُرَباء ، وأنشدنى بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم :

لا ترى عالما يحِلّ بقومٍ   فيُحِلُّوه غيرَ دار الهوانِ
قَلّما توجد السلامةُ والصحةُ مجموعتين فى إنسانِ
فإذا حلتا مكانا سحيقًا   فهما فى النفوس مَعْشوقتانِ
هذه مكةُ المنيعة بيتُ الله يسعَى لحجها الثَّقَلانِ
وترى أزهد البرية فى الحجِّ لها أهلُها لقرب المكانِ

فصل

[ما يجب أن تكون عليه أخلاق العلماء] فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق ، [هى] التى بهم أليق ، ولهم ألزم ، فالتواضع ، ومجانبة العُجْب ، لأن التواضع عَطُوف ، والعجب مُنَفِّر ، وهو بكل أحد قبيح ، وبالعلماء أقبح ، لأن الناس بهم يقتدون ، وكثيرا ما يداخلهم الإعجاب ، لتوحدهم بفضيلة العلم ، ولو أنهم نظروا حق النظر ، وعملوا بموجب العلم ، لكان التواضع بهم أولى ، ومجانبة العُجْب بهم أحرى ، لأن العُجْب نقص ينافى الفضل ، لاسيما مع قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إن العُجْب ليأكل الحسناتِ كما تأكل النار الحطب » ، فلا يفى ما أدركوه من فضيلة العلم ، بما لحقهم من نقص العُجْب . وقد رَوَى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قليل العلم خير من كثير العبادة » . وكفى بالمرء علما إذا عبد الله عز وجلّ ، وكفى بالمرء جهلا إذا أُعجب برأيه . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : تعلّموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلّمون منه ، ليتواضع لكم من تعلمونه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف : من تكبّر بعلمه وترفع ، وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه ، رفعه الله به .

وعلة إعجابهم انصراف نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال ، وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء ، فإنه ليس متناه فى العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه ، إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر . قال الله تعالى : « نرفعُ درجاتٍ من نشاء ، وفوقَ كلِّ ذى علمٍ عَليم » ، يعنى فى العلم . قال أهل التأويل : يعنى فوق كل ذى علم مَنْ هو أعلم منه ، حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى . وقيل لبعض الحكماء : من يعرفُ كل العلم ؟ قال : كلُّ الناس . وقال الشعبىّ : مارأيت مثلى ، وما أشاء أن ألقَى رجلا أعلم منى إلا لقيته . لم يذكر الشعبىّ هذا القول تفضيلا لنفسه ، فيُستقبح منه ، وإنما ذكره تعظيما للعلم عن أن يحاط به . فينبغى لمن عَلِم ، أن ينظر إلى نفسه ، بتقصير ما قصر فيه ، ليسلم من عُجْب ما أدرك منه . وقد قيل فى منثور الحكم : إذا علمتَ فلا تفكر فى كثرة من دُونك من الجهال ، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء .

وأُنشِدْت لابن العميد :

من شاء عيشا هنيئا يستفيدُ به فى دينـِه ثم فى دنياه إقبالَا
فلْينظرَنَّ إلى من فوقه أدَبا ولْينظُرَنَّ إلى من دونه مالَا

وقلما تجد بالعلم مُعْجَبا ، وبما أدركه منه مفتخرا ، إلا من كان فيه مُقِلاّ ومقصِّرا ، لأنه قد يُجهل قدره ، ويُحْسَب أنه نال بالدخول فيه أكثره ، فأما من كان فيه متوجِّها ، ومنه مستكثرا ، فهو يعلم من بعد غايته ، والعجز عن إدراك نهايته ، مايصدُّه عن العُجْب به . وقد قال الشعبىّ : العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه ، وظن أنه ناله . ومن نال الشِّبر الثانى صغرت إليه نفسه ، وعلم أنه لم ينله ؛ وأما الشبر الثالث فهيهات ، لايناله أحد أبدا .

ومما أُنذرك به من حالى ، أننى صنفت فى البيوع كتابا ، جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسى ، وكَدَدت فيه خاطرى ، حتى إذا تهذَّب واستكمل ، وكِدْت أُعْجَب به ، وتصوَّرت أننى أشد الناس اضطلاعا بعلمه ، حضرنى وأنا فى مجلسى أعرابيان ، فسألانى عن بيعٍ عقَداه فى البادية ، على شروط تضمنت أربع مسائل ، لم أعرف لواحدة منهن جوابا ؛ فأطرقت مفكرا ، وبحالى وحالهما معتبرا . فقالا : ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا . فقالا : واهاً لك ، وانصرفا ، ثم أتيا من يتقدمه فى العلم كثير من أصحابى ، فسألاه ، فأجابهما مسرعا بما أقنعهما ، وانصرفا عنه راضيين بجوابه ، حامدين

لعلمه ، فبقيت مرتبكا ، وبحالهما وحالى معتبرا . وإنى لعلى ما كنت عليه فى تلك المسائل إلى وقتى ، فكان ذلك زاجرَ نصيحة ، ونذيرَ عِظَة ، تذَلَّلَ بهما قياد النفس ، وانخفض لهما جناح العُجْب ، توفيقا مُنِحتُه ، ورُشْدا أوتيتُه . وحُقَّ على من ترك العُجْب بما يُحْسِن ، أن يدع التكلف لما لا يُحْسِن ، فقد نهى الناس عنهما ، واستعاذوا بالله منهما .

ومن أوضح ذلك بيانا، استعاذة الجاحظ فى كتاب البيان[1] ، حيث يقول: «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نُحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ونعوذ بك من شر السلاطة والهذَر[2] ، كما نعوذ بك من شر العيّ والحَصَر[3] » . ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل ما استعاذ ، فليس لمن تكلف مالا يُحسن غاية ينتهى إليها ، ولا حدٌّ يقف عنده ؛ ومن كان تكلفه غير محدود ، فأخلق به أن يَضِلَّ ويُضِلَّ . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ سُئِل فأفتى بغير علم ، فقد ضلّ وأضل » . وقال بعض الحكماء : من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم ، بكلام من يعلم ، فحسبك جهلا من عقلك ، أن تنطق بما لا تفهم ؛ ولقد أحسن زِيَادَةُ بن زيد حيث يقول :

إذا ماانتهى علمى تناهيتُ عندَهُ ... أطال فأملى ، أو تناهى فأقصَرَا[4]

ويُخْبِرنى عن غائب المرءِ فِعلهُ ... كفى الفعل عما غَيَّبَ المرء مُخْبِرَا

فإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل ، فلا عار أن يجهل بعضه ، وإذا لم يكن فى جهل بعضه عار ، لم يقبح به أن يقول لا أعلم ، فيما ليس يعلم .

ورُوِى أن رجلا قال : يارسول الله ، أىّ البقاع خير ، وأىّ البقاع شرّ ؟ فقال: لا أدرى ، حتى أسأل جبريل . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : وما أبردَها على القلب ! إذا سُئل أحدكم فيما لا يعلم ، أن يقول الله أعلم ، وإن العالم مَنْ عرف أن مايعلم فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : إذا ترك العالم قول لا أدرى ، أصيبت مقاتله . وقال

(١) مفتتح الجزء الأول من البيان والتبيين .

(٢) السلاطة : حدة اللسان . والهذر : إكثار الكلام بغير فائدة .

(٣) الحصر : العى ، وعدم القدرة على البيان ؛ حياء أو خوفا أو ضعفا .

(٤) أملى : أملا اتسع . أو أصله ل من الإملال : وهو الإضجار بكثرة الكلام .

بعض العلماء : هلك من ترك لاأدرى / وقال بعض الحكماء : ليس لى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست أعلم ./ وقال بعض البلغاء : مَنْ قال لاأدرى عُلِّمَ فَدَرَى ، ومن انتحل[1] مالايدرى ، أُهمِلَ فهوَى . ولاينبغى للرجل وإن صار فى طبقة العلماء الأفاضل ، أن يستنكف من تعلم ماليس عنده ، ليسلم من التكلف له . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : ياصاحب العلم ، تعلم من العلم ماجَهِلت ، وعلم الجهال ما علمت . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : خمسٌ خذوهن عنى ، فلو ركبتم الفُلك ماوجدتموهن إلاّ عندى : ألا لايَرْجُوَنَّ أحدٌ إلّا ربَّه ، ولا يخافنّ إلّا ذنبه ، ولا يستنكِف العالِمُ[2] أن يتعلم ماليس عنده ، وإذا سُئِل أحَدُكم[2] عما لا يعلم ، فليقل لاأعلم ، ومنزلة الصبر من الإيمان ، بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما : لو كان أحد يكتفِى[3] من العلم ، لا كتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ، ولَمَّا قال : هل أتبعك على أن تعلمنِ مما عُلِّمتَ رُشْدا . وقيل للخليل بن أحمد : بم أدركت هذا العلم ؟ قال : كنت إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته . وقال بُزُرْجَمِهْر : منَ العلم ألّا تحقِر شيئا من العلم ، ومن العلم أن تفضِّل[4] جميع العلم . وقال المنصور لشريك[5] : أنَّى لك هذا العلم ؟ قال : لم أرغب عن قليل أستفيده ، ولم أبخل بكثير أُفيدُه . على أن العلم يقتضى ما بقِى منه ، ويستدعى ما تأخر عنه ، وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . ورَوَى عون ابن عبد الله ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أنه قال : « مَنْهومان[6] لايَشبَعان : طالب علم وطالب دُنيا » ؛ أما طالب العلم فإنه يزداد من الرحمن قربا ، ثم قرأ : « إنما يخشَى اللهَ من عباده العلماء » . وأما طالب الدنيا ، فإنه يزداد طغيانا ، ثم قرأ : « كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » . وليكن مستقلا للفضيلة منه ، ليزداد منها ، ومستكثرا للنقيصة فيه ، لينتهى عنها ، ولايقنعَ من العلم بما أدرك ، لأن القناعة فيه زهد ، والزهد فيه ترك ، والترك له جهل . وقد قال بعض الحكماء : عليك بالعلم والإكثار منه ، فإن قليله أشبه شىء بقليل الخير ،

---

(١) انتحل : ادعى . (٢) ساقطة من الطبعة الأميرية .

(٣) فى الأميرية : مكتفيا . (٤) فى الأميرية : تفضيل .

(٥) المنصور هو أبو جعفر بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، استخلف بعد أخيه أبي العباس السفاح . ولد سنة خمس وتسعين ، وتوفى سنة ١٥٨ هـ . وشريك : هو أبوعبد الله بن عبد الله النخعى ، كان من الفقهاء والمحدثين (٩٥ – ١٧٧ هـ) . (٦) المنهوم : شديد الشهوة المكب على الشىء طلبا لحيازته .

وكثيره أشبه شئ بكثيره ، ولن يعيب الخيرَ إلا القِلة ، فأما كثرته فإنها أُمنية . وقال بعض البلغاء : من فضل علمك ، استقلالك لعلمك ، ومن كمال عقلك ، استظهارك على عقلك .

ولا ينبغى أن يجهل من نفسه مَبلغَ علمها ، ولا أن يتجاوز بها قدرَ حقها ، ولَأن يكون بها مقصِّرًا ، فيـذعنَ بالانقياد ، أولى من أن يكون بها مجاوزا ، فيكفّ عن الازدياد ، لأن من جهل حال نفسه ، كان لغيرها أجهل . وقد قالت عائشـة رضى الله عنها : يارسول الله ، متى يعرف الإنسان ربه ؟ قال : إذا عرف نفسه . وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما عَلِموه أو جهلوه أربعة أقسام متقابلة ، لايخلو حال الإنسان منها ، فقال :

الرجال أربعة : رجل يدرى ، ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاسألوه ؛ ورجل يدرى ، ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك ناس فذكِّروه ؛ ورجل لايدرى ، ويدرى أنه لايدرى ، فذلك مسترشِد فارشدوه ؛ ورجل لايدرى ، ولايدرى أنه لايدرى ، فذلك جاهل فارفضوه .

وأنشد أبو القاسم الآمِدىّ :

إذا كنت لا تدرِى ولم تكُ بالذى ... يسائلُ من يدرى فكيف إذنْ تدرى ؟
جهلتَ ولم تعـلمْ بأنك جاهلٌ ... فمن لى بأن تدرِى بأنك لاتدرى ؟
إذا جئت فى كل الأمور بغُمَّة[1] ... فكن هكذا أرضاً يَطَأْكَ الذى يدرى[2]
ومن أعجب الأشياء أنك لا تدرى ... وأنك لاتدرى بأنك لا تدرى

[شيمة العالم العمل بما علم] وليكن من شيمته العمل بعلمه ، وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ، ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم : « مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها كمثل الحمارِ يحمل أسفارا » . وقد قال قتادة[3] فى قوله تعالى : « وإنه لذو عِلْم لما علمناه » إنهُ العامل بما علم . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ويل لِجُمّاع القول ! ويل للمُصِرِّين » ! يريد الذين يستمعون القول ولايعملون به . ورَوَى عبد الله بن وهب[4] عن سفيان ، أن الخَضِر

---

(١) الغمة : الأمر المبهم الملتبس . (٢) فى طبعة الأميرية : يدسك .

(٣) قتادة : هو بن دعامة السدوسى البصرى التابعى من كبار رجال الحديث توفى بواسط سنة (١١٧هـ) عن (٥٦ سنة) . (٤) عبد الله بن وهب : هو بن مسلم البصرى ، كان من كبار المحدثين . توفى بمصر (سنة ١٩٧ هـ) .

على نبينا وعليه السلام ، قال لموسى عليه السلام : يا بن عمران ، تعلَّم العلمَ لتعمل به ، ولا تتعلمه لتحدّث به ، فيكون عليك بُورُه[(١)] ، ولغيرك نورُه[(٢)] . وقال عليّ بن أبي طالب : إنما زهد الناس فى طلب العلم ، لما يرون من قلة انتفاع من عَلِم بما عَلِم . وقال أبو الدرداء : أخوف ما أخاف إذا وقفتُ بين يدى الله ، أن يقول : قد عَلِمت فماذا عَمِلت ؟ وكان يقال : خير من القول فاعله ، وخير من الصواب قائله ، وخير من العلم حامله . وقيل فى منثور الحكم : لم ينتفع بعلمه ، من ترك العمل به . وقال بعض العلماء : ثمرة العلم أن يُعمل به ، وثمرة العمل أن يُؤْجَر عليه . وقال بعض الصلحاء : العلم يهتِف[(٣)] بالعمل ، فإن أجابه وإلاّ ارتحل . وقال بعض الحكماء : خير العلم ما نفع ، وخير القول ما ردَع . وقال بعض الأدباء : ثمرة العلوم العمل بالمعلوم . وقال بعض البلغاء : من تمام العلم استعماله ، ومن تمام العمل استقلاله ، فمن استعمل علمه ، لم يخل من رشاد ، ومن استقل عمله ، لم يُقصِّر عن مُراد . وقال أبو تمام الطائىّ :

ولم يَحْمَدوا من عالم غير عاملٍ ... خِلافا ولا من عامل غير عالمِ[(٤)]

رأوا طُرُقات المجد عُوجًا فظيعةً ... وأفظع عجزٍ عندهم عجزُ حازمِ

لأنه لما كان علمه حُجة على من أَخَذَ عنه ، واقتبسه منه ، حتى يلزمه العمل به ، والمصير إليه ، كان عليه أحجّ ، وله ألزم ، لأن مرتبة العلم قبل مرتبة القول ، كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل . وقد قال أبو العتاهية رحمه الله :

اسمعْ إلى الأحكام تَحْـملها الرواةُ إليكَ عنكا

واُعلم هُدِيتَ بأنها حُجَجٌ تكون عليكَ مِنكا

---

(١) بوره : إثمه وفساده . وأصله مصدر ، ولذلك يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث ، والمفرد وغيره . يقال رجل وامرأة بور : أى فاسد وهالك لا خير فيه .

(٢) نوره : صلاحه ونجاحه . (٣) يهتف به : يدعوه ليدفع وحشة الوحدة .

(٤) البيتان لأبى تمام (ديوانه ص ٢٨٣ طبع بيروت) ونسبهما منهاج اليقين إلى حاتم الطائى خطأ . وقوله خلافا : هو بالفاء ، لا بالقاف كما فى الديوان خلافا للأميرية . يريد أن الناس لم يحمدوا مخالفة عمل العالم لعلمه ، وإن يكن علمه كبيرا . وفى منهاج اليقين أيضا : خلاقا بالقاف ، أى أن الناس لم يحمدوا أى فضيلة فى العالم إذا كان عمله مخالفا لقوله .

[على العالم ألا يقول مالا يفعل] ثم ليتجنب أن يقول مالا يفعل ، وأن يأمر بما لايأتمر ، وأن يُسِرَّ غير مايظهر ، ولايجعل قول الشاعر هذا :

اعمل بقولي وإن قصَّرتُ في عَمَلِي ... ينفعْكَ قولي ولا يَضْرُرْكَ تقصيرِي

عُذرا له في تقصيره ، فيضرَّه ، وإن لم يضر غيره ، فإن إصْرار[1] النفس يغريها ، ويحسّن لها مساويها ، فإن من قال ما لا يفعل ، فقد مكر ، ومن أمر بما لايأتمر فقد خَدَع ، ومن أسرَّ غير مايظهر ، فقد نافق . وقد رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «المكر والخديعة وصاحباها في النار» . على أن أمره بما لايأتمر مُطَّرَح ، وإنكاره مالا ينكره من نفسه مستقبح ، بل ربما كان ذلك سببا لإغراء المأمور بترك ما أمر به عنادا ، وارتكاب مانُهِي عنه كيادا[2] . وحُكِي أن أعرابيا أتَى ابنَ أبي ذِئب[3] ، فسأله عن مسألة طلاق ، فأفتاه بطلاق امرأته ، فقال : انظر حسنا ، قال : نظرت وقد بانت منك ، فولَّى الأعرابيّ وهو يقول :

أتيتُ ابن ذئب أبتغي الفقه عنده ... فطلَّق حتى البتِّ تَبَّتْ أناملُه
أُطلِّق في فَتْوى ابن ذئبٍ حليلتِي ... وعند ابن ذئبٍ أهلُه وحَلائلُه ؟!

فظن بجهله ، أنه لايلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق ؛ فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور ، كيف يكون مقبولا منه ، وهو غير عامل به ، ولا قابل له ؟ كَلاَّ . وقال أحمد بن يوسف[4] :

وعاملٍ بالفجورِ يأمر بالـبِرِّ كهاد يخوضُ في الظُّلَمِ
أو كطبيب قد شفَّه سَقَمٌ ... وهو يداوِي من ذلك السَّقَمِ[5]
ياواعظ الناس غيرَ مُتَّعِظٍ ... ثَوْبَكَ طَهِّرْ أوْلاَ فلا تَلُمِ

---

(١) إصرار : كذا في منهاج اليقين . وفي طبعة الأميرية « إعذار » ، ولكل وجه .

(٢) كيادا : بغضا له .

(٣) ابن أبي ذئب : محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشي العامري المدني ، قدم بغداد وحدث بها ومات بالكوفة سنة ١٥٩ هـ .

(٤) من أفاضل كتاب المأمون وأفطنهم وأذكاهم .

(٥) يقال : شفه الهرم أو السقم : أي هزله .

وقال آخر :

عوّدْ لسانك قلةَ اللفظِ   واحفظ كلامك أيّما حِفْظِ
إياكَ أن تعظَ الرجالَ وقد   أصبحتَ محتاجا إلى الوعظِ

[أى أفضل : الانقطاع إلى العلم أو إلى العمل] وأما الانقطاع عن العلم إلى العمل ، أو الانقطاع عن العمل إلى العلم ، إذا عمل بموجب العلم ، فقد حُكِىَ عن الزُّهْرِىّ فيه ما يُغْنِى عن تكلف غيره ، وهو أنه قال : العلم أفضل من العمل به لمن جَهِل ، والعمل أفضل من العلم لمن عَلِم . وأما فضل مابين العلم والعبادة ، إذا لم يُخِلّ بواجب ، ولم يقصر فى فرض ، فقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يُبعث العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : اتئد حتى تشفعَ للناس »

[من آداب العلماء بذل العلم لطالبه] ومن آداب العلماء أن لايبخلوا بتعليم مايحسنون ، ولا يمتنعوا من إفادة مايعلمون ، فإن البخل به لؤم وظلم ، والمنع منه حسد وإثم . وكيف يسوغ لهم البخل بما مُنِحوه جودا من غير بخل ، وأوتوه عفوا[1] من غير بذل ؟ أم كيف يجوز لهم الشُّحّ بما إن بذلوه زاد ونما ، وإن كتموه تناقص ووَهَى . ولو اُستن بذلك من تقدّمهم ، لما وصل العلم إليهم ، ولاُنقرض عنهم بانقراضهم ، ولصاروا على مرور الأيام جهالا ، وبتقلب الأحوال وتناقصها أرذالا . وقد قال الله تعالى : « وإذ أخذ اللهُ مِيثاق الذين أُوتوا الكتابَ لَتبيننُنَّهُ للناس ولا تكتمونه » . وَرُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتمنعوا العلمَ أهله ، فإن فى ذلك فسادَ دينكم والتباسَ بصائركم[2] » ، ثم قرأ : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيناتِ والهدَى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يَلعنهمُ الله ويلعنهم اللاعنون » . ورُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كتم علما يُحْسنه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار » . ورُوِى عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : ماأخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا ، حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلِّموا . وقال بعض الحكماء : إذا كان من قواعد الحكمة بذل ماينقصه البذل ، فأحرى أن يكون من قواعدها

(١) عفوا : مجانا ، بلا بذل .   (٢) أى اشتباه الباطل بالحق .

بذل ما يزيده البذْل . وقال بعض العلماء : كما أن الاستفادة نافلة(١) للمتعلم ، كذلك الإفادة فريضة على المعلم . وقد قيل فى منثور الحكم : من كتَمَ علما فكأنه جاهله . وقال خالد ابن صفوان(٢) إنى لأفرح بإفادتى المتعلِّم ، أكثر من فرحى باستفادتى من المُعلِم(٣) .

ثم له بالتعليم نفعان :

أحدهما : مايرجوه من ثواب الله تعالى ، فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة ، فقال : « تصدقوا على أخيكم بعلم يُرشدُه ، ورأى يسدّده » . وروى ابن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعلموا وعلموا ، فإن أجر العالم والمتعلم سواء ، قيل : وما أجرهما ؟ قال : مِئة مغفرة ، ومِئة درجة فى الجنة » .

والنفع الثانى : زيادة العلم ، وإتقان الحفظ ، فقد قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دِراسة لعلمك ، واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ماليس عندك . وقال ابن المعتزّ فى منثور الحكم : النار لاينقصُها ما أُخذ منها ، ولكن يُخمدها ألّا تجد حطبا ، كذلك العلم لايفنيه الاقتباس ، ولكن فقدُ الحاملين له سبب عدمه ، فإياكَ والبخلَ بما تعلم . وقال بعض العلماء : عَلِّمْ علمك ، وتعلم علْمَ غيرك ، فإذا أنت قد عَلِمت ما جَهلت ، وحفِظت ماعلمت .

[المتعلمون ضربان] واعلم أن المتعلمين ضَرْبان : مُسْتَدْعًى وطالب ؛ فأما المستدعَى إلى العلم ، فهو من استدعاهُ العالِم إلى التعليم ، لما ظهر له من جَودة ذكائه ، وبان له من قوّة خاطره ، فإذا وافق استدعاء العالم شهوةَ المتعلم ، كانت نتيجتها دَرْكَ النُّجَباء ، وظفرَ السُّعَداء ، لأن العالِم باستدعائه متوفِّر ، والمتعلم بشهوته وذكائه مستكثر ؛ وأما طالب العلم لداع يدعوه ، وباعث يحدُوه(٤) ، فإن كان الداعى دينيّا ، وكان المتعلم فطنا ذكيا ، وجب على العالم أن يكون عليه مُقْبلا ، وعلى تعليمه متوفِّرا ، لايخفى عليه مكنونا ، ولا يَطْوِى عنه مَخزونا ، وإن كان

---

(١) أى غنيمة . والنفل فى اللغة : اسم للزيادة .

(٢) خالد بن صفوان الأهتمى من أشهر خطباء العرب كان من سمار أبى العباس السفاح مؤسس دولة بنى العباس ، وذوى المنزلة عنده ، وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشىء وذمه .

(٣) كذا فى منهاج اليقين ، وهو الصواب ؛ وفى طبعة الأميرية : العلم .

(٤) يحدوه : أى يدفعه ويشوقه إلى طلب العلم .

بليدا بعيد الفِطْنة ؛ فينبغى ألّا يُمنع من اليسير فيُحْرَم ، ولا يُحْمَلَ عليه بالكثير فيُظْلَمَ ، ولا يجعل بلادته ذريعة لحِرمانه ، فإن الشهوة باعثة ، والصبر مؤثِّر . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لاتمنعوا العلمَ أهلَه ، فتظلموا ، ولا تضعوه فى غير أهله ، فتأثَموا » .

وقال بعض الحكماء : لاتمنعوا العلم أحدا ، فإن العلم أمنع لجانبه . فأما إن لم يكن الداعى دينيّا نظر فيه ، فإن كان مباحا ، كرجل دعاه إلى طلب العلم حبّ النباهة ، وطلب الرياسة ؛ فالقول فيه يقارب القول الأوّل فى تعليم مَنْ قَبله ، لأن العلم يعطفه إلى الدين فى ثانى الحال ، وإن لم يكن مبتدِئا به فى أوّل حال . وقد حُكى عن سفيان الثورىّ أنه قال : تعلمنا العلم لغير الله تعالى ، فأبى أن يكون إلّا لله . وقال عبد الله بن المبارك : طلبنا العلم للدنيا ، فدلّنا على ترك الدنيا . وإن كان الداعى محظورا ، كرجل دعاه إلى طلبِ العلم شرّ كامن ، ومكرٌ باطن ، يريد أن يستعملهما فى شُبَه دينية ، وحِيَل فقهية ، لاتجد أهل السلامة منهما مَخْلَصا ، ولاعنهما مَدْفعا ، كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أهلكَ أُمَّتى رجلان : عالم فاجر ، وجاهل متعبد . فقيل : يا رسول الله ، أىّ الناس شر ؟ فقال : العلماء إذا فسدوا » . فينبغى للعالم إذا رأى مَنْ هذه حاله ، أن يمنعه من طَلِبَته ، ويصرفه عن بُغيته ، ولا يعينه على إمضاء مكره ، وإكمال شرّه . فقد روَى أنس بن مالك ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « واضع العلم فى غير أهله ، كمقلِّد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب » . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : لاتعلّقوا الجوهر للخنزير ؛ فالعلم أفضل من اللؤلؤ ، ومن لايستحقه شرّ من الخنزير .

وحُكى أن تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم ، فلم يُفِدْه ، فقيل له : لم منعته ؟ فقال : لكل تُربة غَرْس ، ولكل بناء أُسّ . وقال بعض البلغاء : لكل ثوب لابس ، ولكل علم قابس . وقال بعض الأدباء : ارثِ لروضةٍ توسَّطها خنزير ، وابكِ لعلمٍ حواه شرِّير .

[فراسة العلماء] وينبغى أن يكون للعالم فراسة يتوسَّم بها المتعلم ، ليعرف مبلغ طاقته ، وقدر استحقاقه ، ليعطيه مايتحمله بذكائه ، أو يضعف عنه ببلادته ، فإنه أروح[1] للعالم ،

---

(١) أكثر راحة .

وأنجح للمتعلم . وقد رَوَى ثابت عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسُّم » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا أنا لم أعلم مالم أرَ ، فلا عَلِمت مارأيت . وقال عبد الله بن الزُّبير : لاعاش بخير من لم يرَ برأيه ، مالم ير بعينيه . وقال ابن الروميّ :

أَلْمَعيّ يرى بأوّل رأيٍ آخرَ الأمر من وراء المغيبِ
لَوْذَعيّ له فؤاد ذكيّ ماله فى ذكائه من ضريبِ[1]
لايُرَوِّى ولا يقلِّب طَرْفا وأكفّ الرجال فى تقليبِ[2]

وإذا كان العالم فى توسّم المتعلمين بهذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيرا ، لم يَضِع له عَناء ، ولم يَخِب على يديه صاحب ، وإن لم يتوسَّمهم ، وخفيت عليه أحوالهم ، ومَبْلَغ استحقاقهم ، كانوا وإياه فى عناء مُكْدٍ[3] ، وتعب غير مُجْدٍ[4] ، لأنه لايعدم أن يكون فيهم ذكيّ محتاج إلى الزيادة ، وبليد يكتفى بالقليل ، فيضجَر الذكيّ منه ، ويعجِز البليد عنه ، ومن يردد أصحابه بين عجز وضَجَر مَلوه ومَلَّهم . وقد حَكىَ عبد الله بن وهب ، أن سفيان بن عبد الله قال : قال الخِضر[5] لموسى عليهما السلام : ياطالب العلم ، إن القائل أقلُّ مَلالةً من المستمع ، فلا تُمِلَّ جلساءك إذا حدّثتهم ياموسى . واعلم أن قلبك وِعاء ، فانظر ما تحشو فى وِعائك . وقال بعض الحكماء : خير العلماء من لا يُقِلّ ولا يُمِلّ . وقال بعض العلماء : كل علم كَثُر على المستمع ، ولم يطاوعه الفهم ، ازداد القلب به عمًى ؛ وإنما ينفع سمع الآذان ، إذا قوى فهم القلوب فى الأبدان .

[أدب العالم مع السلطان] وربما كان لبعض السلاطين رغبة فى العلم ، لفضيلة نفسه ، وكرم طبعه ، فلايجعل ذلك ذريعة فى الانبساط عنده ، والإدلال عليه ، بل يعطيه ما يستحقه

---

(١) اللوذعى : الخفيف الذكى الظريف الحديد الفؤاد .
(٢) فى تقليب من حيرتهم وفزعهم . (٣) مكد : اسم فاعل من أكدى الرجل : أى قل خيره . يعنى فى مشقة وتعب ، ولا يفيد فائدة . (٤) مجد : مغن .
(٥) الخضر : لقب نبى من بنى إسرائيل ، واختلف فى اسمه .

بسلطانه ؛ وعلوّ يده ، فإن للسلطان حقّ الطاعة والإعظام ، وللعالم حقّ القبول والإكرام .
ثم لا ينبغى أن يبتدئه إلّا بعد الاستدعاء ، ولا يزيدَه عَلَى قدر الاكتفاء ، فربما أحب بعض العلماء إظهار علمه للسلطان فأكثره ، فصار ذلك ذريعة إلى مَلَلِه ، ومفضيا إلى بعده ، فإن السلطان مُتَقَسَّم الأفكار ، مُستوعَب الزمان ، فليس له فى العلم فراغ المنقطعين إليه ، ولا صبر المنفردين به . وقد حكى الأصمعىّ رحمه الله ، قال : قال لى الرشيد : ياعبد الملك ، أنت أعلم منا ، ونحن أعقل منك ، فلا تعلمْنا فى مَلَا ، ولا تسرع إلى تذكيرنا فى خَلَا[1] ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ، فإذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد ، إلا أن نستدْعىَ ذلك منك . وانظر إلى ماهو ألطف فى التأديب ، وأنصف فى التعليم ، وأَبلُغ بأوجز لفظ غاية التقويم .

ولْيخرج تعليمه مُخْرج المذاكَرة والمحاضَرة ، لا مخرج التعليم والإفادة ، لأن لتأخير التعلّم خَجْلة تقصير ، يجلّ السلطان عنها ، فإن ظهر منه خطأ أو زَلَل ، فى قول أو عمـل ، لم يجاهره بالردّ ، وعرّض باستدراك زلله ، وإصلاح خَلَله . وحكى أن عبد الملك بن مروان . قال للشعبى : كم عطاءك ؟ قال : ألفـين قال : لَحَنتَ قال : لما ترك أمير المؤمنين الإعراب ، كرهتُ أن أُعرِب كلامى عليه .

ثم ليحذر اتّباعَه فيما يجانب الدين ، ويضادّ الحق ، موافقة لرأيه ، ومتابعة لهواه ، فربما زلت أقدام العلماء فى ذلك ، رغبة أورهبة ، فضلوا وأضلوا ، مع سوء العاقبة ، وقبح الآثار . وقد رَوَى الحسن البصرىّ رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله ، وفى كنفه ، مالم يمالِ[2] قرّاؤها أمراءها ، ولم يزكِّ صلحاؤها فجارَها ، ولم يَمارِ أخيارُها أشرارَها ؛ فإذا فعلوا ذلك ، رفع عنهم يده ، ثم سلط عليهم جبابرتهم ، فساموهم سوء العذاب ، وضربهم بالفاقة والفقر ، وملأ قلوبهم رعبا» .

[تنزه العلماء عن شبه المكاسب] ومن آدابهم نزاهة النفس عن شُبَه المكاسِب ، والقناعة

---

(١) كذا وردا ملا وخلا بدون همز فى النسخ ، وأصلهما : ملأ وخلاء ، بالهمز .

(٢) الذى فى منهاج اليقين : ما لم يمار . من الممارة ، يقال مار فلانا إذا مرمعه ، والمراد المماشاة فى الهوى والذى أثبتناه عن طبعة الأميرية . وأصله يمالئ من الممالأة ، أى الموافقة .

بالميسور عن كَدّ المطالب ، فإن شُبَهَ المكتَسَب إثم ، وكدّ الطالب ذلّ ، والأجر أجدر به من الإثم ، والعزّ أليق به من الذلّ .

وأنشدنى بعض أهل الأدب لعلىّ بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى :

يقولونَ لى فيكَ انْقباضٌ وإنما ... رأَوْا رَجُلا عن موقف الذلِّ أحجَما [1]

أرى الناسَ مَنْ داناهُمُ هان عندهمْ ... ومن أكرمتْهُ عزةُ النفسِ أُكْرِمَا

ولم أقضِ حقّ العلمِ إن كان كلّما ... بدا طَمَعٌ صَيَّرْتُه لِىَ سلما

وما كلُّ بَرْق لاحَ لى يَسْتَفِزُّنى ... ولا كلُّ من لاقيتُ أرضاه مُنْعِما [2]

إذا قيل هذا مَنهَلٌ قلتُ قد أرَى ... ولكنّ نفسَ الحُرّ تحتمِلُ الظّما [3]

أُنَهْنِهُها عن بعض ما لا يَشِينُها ... مخافةَ أقوالِ العِدَا فيمَ أو لِمَا ؟ [4]

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأَخدُمَ من لاقيت لكن لأُخْدَما

أأشقَى به غرْسًا وأجنيه ذِلةً ... إذنْ فاتباعُ الجهلِ قد كان أحزَما

ولو أنّ أهلَ العلمِ صانوهُ صانهمْ ... ولو عظموه فى النفوس لَعَظَّمَا

ولكن أهانوه فهان ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاه بالأطماع حتى تجهَّما [5]

[لذة العلم فوق كل لذة] على أن العلم عِوض من كل لذة ، ومغنٍ عن كل شهوة ، ومن كان صادق النية فيه ، لم يكن له همة فيما يجد بدّا منه . وقال بعض البلغاء : من تفرّد بالعلم ، لم تُوحشه خَلوة ، ومن تَسَلَّى بالكتب ، لم تفته سَلْوة ، ومن آنسه قراءة القرآن ، لم توحشه مفارقة الإخوان . وقال بعض العلماء : لاسميرَ كالعلم ، ولاظهيرَ كالحلم .

[تعليم العلم بلا أجر] ومن آدابهم أن يقصدوا وجْهَ الله بتعليم من علموا ، ويطلبوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا ، من غير أن يعتاضوا عليه عوضا ، ولا يلتمسوا عليه رزقا ؛ فقد قال الله تعالى : «ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا». قال أبو العالية : لا تأخذوا عليه أجرا ، وهو مكتوب

---

(١) انقباض : تباعد عن الناس وتصون عن دنى الأمور .

(٢) البرق : المطمع ، ويستفزني : يستخفنى . (٣) المنهل : مورد الماء .

(٤) أكفها وأزجرها . (٥) تجهم : صار جهما ، وهو الكريه المنظر .

عندهم فى الكتاب الأول : يابن آدم علِّم مجانا ، كما عُلِّمت مجَّانا . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أجر المعلم كأجر الصائم القائم » . وحسب من هذا أجره أن يلتمس أجرا .

[نصح العالم للمتعلم] ومن آدابهم نصح من علموه ، والرفق بهم ، وتسهيل السبيل عليهم ، و بذل المجهود فى رِفْدهم ومَعُونتهم ، فإن ذلك أعظم لأجرهم ، وأسنى لذكرهم ، وأنشر لعلومهم ، وأرسخ لمعلومهم . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلىّ كرم الله وجهه : ياعلىّ « لَأَن يَهدىَ الله بك رجلا ، خير مما طلعت عليه الشمس » .

[الرفق بالمتعلمين] ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما ، ولا يُحقِّروا ناشئا ، ولا يستصغروا مُبتدئا ، فإن ذلك أدعى إليهم ، وأعطف عليهم ، وأحث على الرغبة فيما لديهم . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « علموا ولا تعَنِّفوا ، فإن المعلم خير من المعنِّف[1] » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وقّروا من تتعلمون منه ، ووقروا من تعلمونه » .

[تحبيب المتعلمين فى العلم] ومن آدابهم ألاّ يمنعوا طالبا ، ولا ينفرِّوا راغبا ، ولا يُؤْيِسُوا متعلما ، لما فى ذلك من قطع الرغبة فيهم ، والزهد فيما لديهم ، واستمرار ذلك مُفْضٍ إلى انقراض العلم بانقراضهم . فقد رُوى عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من لم يُقنِطِ الناسَ من رحمة الله تعالى ، ولا يُؤْيِسْهم من روح الله ، ولا يدع القرآن ، رغبة إلى ماسواه ، ألَا لا خيرَ فى عبادة ليس فيها تفقه ، ولا علم ليس فيه تفهم ، ولا قراءة ليس فيها تدبر » .

فهذه جملة كافية ، والله ولى التوفيق .

---

(١) التعنيف : اللوم بشدة .

باب أدب الدين

[حكمة التكليف] اعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما كلَّف الخلقَ مُتَعَبَّداته ، وألزمهم مُفترَضاته ، وبعث إليهم رُسُلَه ، وشرع لهم دينه ، لغير حاجة دعته إلى تكليفهم ، ولا ضرورة قادته إلى تعبُّدهم ، وإنما قصد نفعهم ، تفضلا منه عليهم ، كما تفضل بما لا يحصى عدًّا من نعمه ، بل النعمة فيما تعبَّدهم به أعظم ، لأن نفعَ ماسوى المتعبَّدات مختص بالدنيا العاجلة ، ونفع المتعبَّدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة ، وما جمع نفعَيِ الدنيا والآخرة ، كان أعظم نعمة ، وأكثر تفضلا .

[أساس التكليف] وجعل ماتعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع ، وشرع مسموع . فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع ، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل ، لأن الشرع لا يَرِد بما يمنع منه العقل ، والعقل لا يُتَّبَع فيما يمنع منه الشرع ؛ فلذلك توجه التكليف إلى من كَمُل عقله .

[تبليغ الرسول رسالته] فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فبلغهم رسالته ، وألزمهم حُجَّتَه ، وبين لهم شريعته ، وتلا عليهم كتابه ، فيما أحلَّهُ وحرَّمه ، وأباحه وحَظَره ، واستحبه وكرهه ، وأمر به ونهى عنه ، وما وعد به من الثواب لمن أطاعه ، وأوعد به من العقاب لمن عصاه ، فكان وعدُه ترغيبا ، ووعيده ترهيبا ، لأن الرغبة تبعث على الطاعة ، والرهبة تكفّ عن المعصية ، والتكليف يجمع أمرا بطاعة ، ونهيا عن معصية ، ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة ، وكان ما تخلّل كتابه من قصص الأنبياء السالفة ، وأخبار القرون الخالية ، عظة واعتبارا ، تقوى معهما الرغبة ، وتزداد بهما الرهبة ، وكان ذلك من لطفه بنا ، وتفضُّله علينا ، فالحمد لله الذى نعمهُ لا تُحْصَى ، وشكره لا يُؤَدَّى .

[بيان المجمل، وتفسير المشكل] ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، بيانَ ما كان مجملا ، وتفسيرَ ما كان مشكلا ، وتحقيقَ ما كان محتملا ، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور

الاختصاص به ، ومنزلة التفويض إليه . قال الله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون » .

[استنباط العلماء] ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استنباطَ مانبه على معانيه ، وأشار إلى أصوله ، ليتوصلوا بالاجتهاد فيه ، إلى علم المراد به ، فيمتازوا بذلك عن غيرهم ، ويختصوا بثواب اجتهادهم ، قال الله تعالى : « يرفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات » ، وقال الله تعالى : « ومايعلم تأويله إلا اللهُ والراسخون فى العلم » .

[أصول الدين] فصار الكتاب أصلا ، والسنة فرعا ، واستنباط العلماء إيضاحا وكشفا . ورُوِىَ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « القرآن أصل علم الشريعة ، نصه دليله ، والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمة المجتمعة حُجة على من شذَّ عنها » .

[رفع الحرج عن العباد] وكان من رأفته بخلقه ، وتفضله عَلَى عباده ، أن أقدرهم على ما كلفهم ، ورفع الحرَج عنهم فيما تعبدَّهم ، ليكونوا مع ماقد أعدهُ لهم ، ناهضين بفعل الطاعات ، ومجانبة المعاصى . قال الله تعالى : « لايكلِّف الله نفسا إلا وُسعها » . وقال : « وما جعل عليكم فى الدين من حَرَج » .

[أقسام التكليف] وجعل ما كلفهم به ثلاثة أقسام : قسما أمرهم باعتقاده ، وقسما أمرهم بفعله ، وقسما أمرهم بالكف عنه ، ليكون اختلاف جهات التكليف ، أبعثَ عَلَى قبوله ، وأعونَ على فعله ، حكمة منه ولطفا ، وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين : قسما إثباتا ، وقسما نفيا . فأما الإثبات فإثبات توحيده وصفاته ، وإثبات بعثته رسله ، وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به . وأما النفى فنفى الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع . وهذان القسمان أول ما كلِّفه العاقل . وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام : قسما على أبدانهم ، كالصلاة والصيام . وقسما فى أموالهم كالزكاة والكفارة . وقسما على أبدانهم وفى أموالهم ، كالحج والجهاد ، ليسهل عليهم فعله ، ويخفّ عنهم أداؤه ، نظرا منه تعالى لهم ، وتفضلا منه عليهم . وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام : قسما لإحياء نفوسهم ، وصلاح أبدانهم ، كنهيه عن القتل ، وأكل الخبائث ، وشرب الخمور المؤدية إلى فساد العقل وزواله . وقسما لائتلافهم

وإصلاح ذات بينهم ، كنهيه عن الغضب والغَلَبة والظلم ، والسَّرَف المفضى إلى القطيعة والبغضاء . وقسما لحفظ أنسابهم ، وتعظيم محارمهم ، كنهيه عن الزنا ، ونكاح ذوات المحارم ، فكانت نعمته فيما حظَره علينا ، كنعمته فيما أباحه لنا ، وتفضله فيما كفنا عنه ، كتفضله فيما أمرنا به . فهل يجد العاقل فى رويته مَساغا أن يقصِّر فيما أُمر به ، وهو نعمة عليه . أو يرى فسحة فى ارتكاب مانُهى عنه وهو تفضُّل عليه ؟ وهل يكون من أنعم عليه بنعمة فأهملها مع شدة فاقته إليها ، إلا مذموما فى العقل ، مع ماجاء من وعيد الشرع .

[التخفيف عن الضعفاء وتيسير التكاليف] ثم من لطفه بخلقه ، وتفضله على عباده ، أن جعل لهم من جنس كل فريضة نَفْلا ، وجعل لهم من الثواب قِسْطا ، وندبهم إليه نَدْبا ، وجعل لهم بالحسنة عشرا ، ليضاعف ثواب فاعله ، ويضع العقاب عن تاركه . ومن لطيف حكمته ، أن جعل لكل عبادة حالين : حالَ كمال ، وحالَ جواز ، رفقا منه بخلقه ، لما سبق فى علمه ، أن فيهم العَجِل المبادر ، والبطىء المتثاقل ، ومَنْ لا صبر له على أداء الأكمل ، ليكون ما أخلّ به من هيئات عبادته ، غير قادح فى فرض ، ولا مانع من أجر ، فكان ذلك من نعمه علينا ، وحسن نظره إلينا .

[أول الفرائض بعد الإيمان الصلاة] فكان أول مافُرِض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الأبدان ، وقد قدمها على مايتعلق بالأموال ، لأن النفوس على الأموال أشح ، وبما يتعلق بالأبدان أسمح ، وذلك الصلاة والصّيام ، فقدّم الصلاة على الصيام ، لأن الصلاة أسهل فعلا ، وأيسر عملا ، وجعلها مشتملة على خضوع له ، وابتهال إليه ، فالخضوع له رهبة منه ، والابتهال إليه رغبة فيه ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدكم إلى صلاته ، فإنّما يناجى ربه ، فلينظر بم يناجيه » ؟ وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان كلما دخل عليه وقت الصلاة أصفرّ مرة ، وأحمرّ أخرى ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : أتتنى الأمانة التى عُرِضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملتُها ولا أدرى : أُسِىءُ فيها أم أحسن .

ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث ، وإزالة نجس ، ليستديم النظافة للقاء ربه ،

والطهارة لأداء فرضه ، ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ، ليتدبر مافيه، من أوامره ونواهيه ، ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه ، ثم علقها بأوقات راتبة[1] ، وأزمان مترادفة ، ليكون ترادف أزمانها ، وتتابع أوقاتها ، سببا لاستدامة الخضوع له والابتهال إليه . فلا تنقطع الرهبة منه ، ولا الرغبة فيه ؛ وإذا لم تنقطع الرغبة والرهبة ، استدام صلاح الخَلْق ، وبحسب قوّة الرغبة والرهبة ، يكون استيفاؤها على الكمال والتقصير فيها عن حال الجواز ، وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الصلاة مِكيال ، فمن وَفَّى وُفِّىَ له ، ومن طَفَّفَ[2] فقد علمتم ما قال الله فى المطَفِّفين » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من هانت عليه صلاته ، كان على الله عز وجل أهْون » .

وأُنشِدت لبعض الفصحاء فى ذلك :

أقْبل على صلواتك الخمْسِ ... كم مصبحٍ وعساهُ لا يُمسِى
واستقبلِ اليومَ الجديد بتوبةٍ ... تمحو ذنوبَ صحيفةِ الأمسِ
فَلَيَفعلن بوجهك الغضِّ البِلَى ... فعلَ الظلام بصورة الشمسِ

[حكمة فرض الصيام] ثم فرض الله تعالى الصيام ، وقدمه على زكاة الأموال ، لتعلق الصيام بالأبدان ، وكان فى إيجابه حثّ على رحمة الفقراء وإطعامهم ، وسدّ جَوْعاتهم ، لما عانَوْه من شدة المجاعة فى صومهم . وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام : أتجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ فقال: إنى أخاف أن أشبعَ ، فأنسى الجائع . ثم لما فى الصوم من قهر النفس وإذلالها ، وكسر الشهوة المستولية عليها ، وإشعار النفس ماهى عليه من الحاجة إلى يسير الطعام والشراب ، والمحتاج إلى الشىء ذليل به ، وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمّه إلهين من دونه ، فقال : « ما المسيحُ بن مريمَ إلا رسول قد خلت من قبله الرسُل وأمّه صِدّيقة كانا يأكلان الطعام » ، فجعل احتياجهما إلى الطعام نقصا فيهما عن أن يكونا إلهين . وقد وصف الحسن البصرىّ رحمه الله تعالى نقص الإنسان بالطعام وغيره ، فقال : مسكينٌ ابن آدم . محتوم الأجل ، مكتوم الأمل ، مستور العِلل ، يتكلم بلحم ، وينظر بشحم ، ويسمع بعظم ، أسير جَوْعَة ، صريع شَبْعَة ، تؤذيه البقة ، وتُنتنه العَرْقة ، وتقتله الشَّرْقة ، لايملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولاموتا ولاحياة ولا نُشورا . فانظر إلى لطفه بنا ،

(١) راتبة : يعقب بعضها بعضا . (٢) التطفيف هنا : النقص .

فيما أوجبه من الصيام علينا ، كيف أيقظ العقول له ، وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة ، ونفع النفوس به ، ولم تكن لولاه منتفعة ولا نافعة .

[حكمة فرض الزكاة] ثم فرض زكاة الأموال ، وقدّمها على فرض الحج ، لأن فى الحجّ مع إنفاق المال سفرا شاقا ، فكانت النفس إلى الزكاة أسرع إجابة ، منها إلى الحج ؛ فكان فى إيجابها مواساة للفقراء ، ومعونة لذوى الحاجات ، تكفهم عن البغضاء ، وتمنعهم من التقاطع ، وتبعثهم على التواصل ، لأن الآمل وَصول ، والراجى هائب ، وإذا زال الأمل ، وانقطع الرجاء ، واشتدت الحاجة ، وقعت البغضاء ، واشتد الحسد ، فحدث التقاطع بين أرباب الأموال والفقراء ، ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والأغنياء ، حتى تُفضىَ إلى التغالب على الأموال ، والتغرير بالنفوس . هذا مع مافى أداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ، ومجانبة الشح المذموم ، لأن السماحة تبعث على أداء الحقوق ، والشحّ يصدّ عنها ، وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمدا ، وماصدّ عنها فأخلق به ذما . وقد رَوَى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « شر ما أعطى العبد شح هالع ، وجبن خالع »(١) . فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته ، وأخفى عن فطنتنا جزيل نعمته ، حتى استوجب من الشكر بإخفائها ، أعظم مما استوجبه بإبدائها .

[حكمة فرض الحج] ثم فرض الحجّ ، فكان آخر فروضه ، لأنه يجمع عملا على بدَن ، وحقا فى مال ، فجعل فرضه بعد استقرار فروض الأبدان ، وفروض الأموال ، ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ، ذريعة إلى تسهيل ما جمع بين النوعين ، فكان فى إيجابه تذكير ليوم الحشر ، بمفارقة المال والأهل ، وخضوع العزيز والذليل ، فى الوقوف بين يديه ، واجتماع المطيع والعاصى ، فى الرهبة منه ، والرغبة إليه ، وإقلاع أهل المعاصى عما اجترحوه ، وندم المذنبين على ما أسلفوه ، فقلّ من حَجّ إلّا وأحدث توبة من ذنب ، وإقلاعا من معصية ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «من علامة الحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها» . وهذا صحيح ، لأن الندم على الذنوب مانع من الإقدام عليها ، والتوبة مكفرة لما سلف منها ، فإذا كفّ عما كان يُقْدِم عليه ، أنبأ عن صحة توبته ، وصحة التوبة تقتضى قبول حجته ، ثم

(١) هالع : أى خائف فزع من الإنفاق . وجبن خالع : يخلع العقل من فرط الجبانة .

نبه بما يعانى فيه من مشاقّ السفر المؤدِّى إليه ، على موضع النعمة برفاهة الإقامة ، وأَنَسَة[1] الأوطان ، ليحنو على من سُلِب هذه النعمة من أبناء السبيل .

ثم أعلم بمشاهدة حَرَمه الذى أنشأ منه دينه ، و بعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بمشاهدة دار الهجرة ، التى أعزّ الله بها أهل طاعته ، وأذلّ بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أهل معصيته ، حتى خضع له عظماء المتجبرين ، وتذلَّلَ له زعماء المتكبرين ، أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ، ولا قَوِى بعد الضعف البيِّن ، حتى طَبَّق الأرض شرقا وغربا ، إلّا بمعجزة ظاهرة ، ونصر عزيز .

[شكر الله على نعمة الدين] فاعتبرْ ألهمك الله الشكر ، ووفقك للتقوى ، إنعامه عليك ، فيما كلفك ، و إحسانه إليك ، فيما تَعَبَّدَك ، فقد وكلتُك إلى فطنتك ، وأحلتُك على بصيرتك ، بعد أن كنتُ لك رائدا صدوقا ، وناصحا شفيقا ، هل تُحْسن نهوضا بشكره ، إذا فعلت ما أمرك ، وتقبلتَ ما كلفك ؛ كَلَّا ، إنه لايُوليك نعمة توجب الشكر ، إلا وصلها قبل شكر ماسلف ، بنعمة توجب الشكر فى المؤتَنَف[2] . وقال الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : نعم الله أكثر من أن تشترى ، إلّا ما أعان عليه ، وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر ، إلّا ماعفا عنه .

وأنشدت لمنصور بن إسماعيل الفقيه المصرى[3] رحمه الله تعالى :

شكرُ الإلهِ نِعْمَةٌ مُوجبةٌ لشكرِهِ
فكيفَ شكرِى بِرَّهُ وشكرُهُ مِنْ بِرِّهِ

و إذا كنتَ عن شكر نعمه عاجزا ، فكيف بك إذا قصرتَ فيما أمرك ، أو فرطت فيما كلفك ، ونفعه أعودُ عليك لو فعلته ، هل تكون لسوابغ نعمه إلّا كَفورا ، و ببدائه العقول إلّا مزجورا ، وقد قال الله تعالى : « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » . قال مجاهد : أى يعرفون ماعدّد الله عليهم من نعمه ، و ينكرونها بقولهم إنهم ورثوها عن آبائهم ، أوا كتسبوها بأفعالهم . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله : يابن آدم ، ما أنصفتنى . أَتحبَّب إليك بالنعم ، وتتمقّت إلىّ بالمعاصى ، خيرى إليك نازل ، وشرّك إلىّ صاعد ،

(١) الأنسة : ضد الوحشة . (٢) المؤتنف : الجديد . (٣) من الشافعية توفى سنة ٣٠٦ بمصر .

كم من مَلَك كريم يصْعَد إلىّ منك بعمل قَبيح » . وقال بعض صلحاء السلف : قد أصبح بنا من نعم الله تعالى مالا نُحصيه ، مع كثرة ما نَعْصِيه ، فلا ندرى أيَّهما نشكر : أجميل ماينشُر ، أم قبيح مايَستُر ؟

فحقٌّ على من عرف موقع النعمة ، أن يقبلها ممتثلا لما كلِّف منها ، وقبولها يكون بأدائها ، ثم بشكر الله تعالى على ما أنعم به من إسدائها ، فإن بنا من الحاجة إلى نعمه ، أكثرَ مما كلفنا من شكر نعمه ، فإن نحن أدّينا حقّ النعمة فى التكليف ؛ تفضل بإسداء النعمة من غير جهة التكليف ، فلزمت النعمتان ، ومن لزمته النعمتان ، فقد أوتى حظ الدنيا والآخرة ، وهذا هو السعيد على الإطلاق . و إن قصرنا فى أداء ما كُلِّفنا من شكره ، قَصَّر عنا مالا تكليف فيه من نعمته ، فنفرت النعمتان ، ومن نفرت عنه النعْمتان ، فقد سُلِب حظ الدنيا والآخرة ، فلم يكن له فى الحياة حظ ، ولا فى الموت راحة ، وهذا هو الشقىّ بالاستحقاق ، وليس يختار الشِّقوة على السعادة ذولبّ صحيح ، ولاعقل سليم . وقد قال الله تعالى : « ليس بأمانيّكم ولاأمانىّ أهلِ الكتاب ، من يعمل سُوءا يُجْزَ به » . وروى الأعمش عن مسلم قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يارسول الله ، ما أشدّ هذه الآية « من يعمل سوءا يجز به » . فقال : ياأبا بكر إن المصيبة فى الدنيا جزاء . واختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى : « سنعذّبهم مرتين » ، فقال بعضهم : أحد العذابين : الفضيحة فى الدنيا ، والثانى : عذاب القبر . وقال عبد الرحمن بن زيد : أحد العذابين : مصائبهم فى الدنيا ، فى أموالهم وأولادهم ، والثانى : عذاب الآخرة فى النار .

[الاستدراج بالنعم] وليس و إن نال أهل المعاصى لذة من عيش ، أو أدركوا أمنية من الدنيا ، كانت عليهم نعمة ، بل قد يكون ذلك استدراجًا ونِقمة . وروى ابن لَهيعة عن عُقبة ابن مسلم ، عن عقبة بن عامر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله تعالى يعطى العبادَ مايشاءون على معاصيهم إياه ، فإنما ذلك استدراج منه لهم ، ثم تلا : « فلما نَسُوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بَغتة ، فإذا هم مُبْلِسُون » .

[أقسام المحرمات] فأما المحرمات التى يمنع الشرع منها، واستقر التكليف عقلا أوشرعا بالنهى عنها، فتنقسم قسمين : منها ماتكون النفوس داعية إليها، والشهوات باعثة عليها، كالسِّفاح وشرب الخمر، فقد زجر الله عنها، لقوّة الباعث عليها، وشدة الميل إليها، بنوعين من الزجر : أحدهما : حدّ عاجل، يرتدع به الجرئ؛ والثانى : وَعيد آجل يزدجر به التقىّ.

ومنها ماتكون النفوس نافرة منها، والشهوات مصروفة عنها، كأكل الخبائث والمستقذرات، وشرب السُّموم المتلفات، فاقتصر الله فى الزجر عنها بالوعيد وحده، دون الحد، لأن النفوس مستعدة فى الزجر عنها، والشهوات مصروفة عنها، وعن ركوب المحظور منها.

[الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر] ثم أكد الله زواجره بإنكار المنكرين لها، فأوجب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ليكون الأمر بالمعروف تأكيدا لأوامره، والنهى عن المنكر تأييدا لزواجره، لأن النفوس الأشِرة قد ألهتها الصَّبْوة عن اتباع الأوامر، وأذهلتها الشهوات عن تذكار الزواجر، فكان إنكار المجانسين أزجر لها، وتوبيخ المخالطين أبلغ فيها، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «ما أقرّ قوم المنكرَ بين أظهرهم إلا عمهم الله بعذاب محتضر».

وإذا كان ذلك، فلايخلو حال فاعلى المنكر من أمرين : أحدهما : أن يكونوا آحادا متفرّقين، وأفرادا متبددين، لم يتحزبوا فيه، ولم يتضافروا عليه، وهم رَعِيّة مقهورون، وأفذاذ مستضعفون، فلاخلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، مع المُكْنة[1] وظهور القدرة، واجب على من شاهد ذلك من فاعليه، وسمعه من قائليه؛ وإنما اختلفوا فى وجوب ذلك على منكريه، هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع، فذهب بعض المتكلمين إلى وجوب ذلك بالعقل، لأنه لما وجب بالعقل أن يمتنع من القبيح، وجب أيضا بالعقل أن يمنع غيره منه، لأن ذلك أدعى إلى مجانبته، وأبلغ فى مفارقته. وقد روَى عبد الله بن المبارك رحمه الله، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قوما ركبوا سفينة، فاقتسموا، فأخذ كل واحد منهم موضعا، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا : ماتصنع ؟ فقال : هو مكانى أصنع فيه ماشئت. فلم يأخذوا على يديه، فهلك وهلكوا. وذهب آخرون إلى وجوب ذلك بالشرع

---

(١) المكنة، بالضم : القدرة والاستطاعة (تاج العروس).

دون العقل ، لأن العقل لو أوجب النهى عن المنكر ، ومنع غيره من القبيح ، لوجب مثله على الله تعالى ، ولمّا جاز ورود الشرع بإقرار أهل الذمة على الكفر ، وترك التّنكير عليهم ، لأن واجبات العقول لايجوز إبطالها بالشرع ، وفى ورود الشرع بذلك دليل على أن العقل غير موجب لإنكاره . فأما إذا كان فى ترك إنكاره مَضَرّة لاحقة بمنكره ، وجب إنكاره بالعقل على القولين معا ؛ فأما إن لحق المنكر مَضَرّة من إنكاره ، ولم تلحقه من كفه وإقراره ، لم يجب عليه الإنكار بالعقل ولا بالشرع . أما العقل فلأنه يمنع من اجتلاب المضارّ ، التى لايوازيها نفع . وأما الشرع فقد روى أبوسعيد الخدرىّ رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « أنكر المنكر بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك ، وذلك أضعف الإيمان » . فإن أراد الإقدام على الإنكار مع لحوق المضرّة به ، نَظَر ؛ فإن لم يكن إظهار التنكير مما يتعلق بإعزاز دين الله ، ولا إظهار كلمة الحق ، لم يجب عليه التنكير ، إذا خشى بغالب الظن تلفا أو ضررا ، ولم يحسن منه التنكير أيضا ، وإن كان فى إظهار التنكير إعزازُ دين الله تعالى ، وإظهار كلمة الحق ، حسن منه التنكير ، مع خشية الإضرار والتلف ، وإن لم يجب عليه إذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير ، وإن انتصر أو قتل . وعلى هذا الوجه قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إن من أفضل الأعمال كلمةَ حقٍّ تقال عند سلطان جائر » . فأما إذا كان يُقْتل قبل حصول الغرض ، قبح فى العقل أن يتعرض لإنكاره ، وكذلك لو كان الإنكار يزيد المنهىّ إغراء بفعل المنكر ، ولجَاجًا فى الإكثار منه ، قَبُحَ فى العقل إنكاره .

والحالة الثانية : أن يكون فعل المنكر من جماعة قد تضافرت عليه ، وعُصْبة قد تحزبت ودعت إليه ، فقد اختلف الناس فى وجوب إنكاره على مذاهب شتى : فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار : لايجب إنكاره ، والأولى بالإنسان أن يكون كافا مُمْسكا ، وملازما لبيته وادعا ، غير منكر ولا مستفِزّ . وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظَر : لايجب إنكاره ، ولا التعرّض لإزالته ، إلا أن يظهر المنتظَر ، فيتولى إنكاره بنفسه ، ويكونوا حينئذ أعوانه . وقالت طائفة أخرى منهم الأصمّ : لايجوز للناس إنكاره ، إلا أن يجتمعوا على إمام عَدْل ، فيجب عليهم الإنكار معه . وقال جمهور المتكلمين : إنكار ذلك واجب ،

والدفع عنه لازم ، على شروطه ، من وجود أعوان يصلحون له ، فأما مع فقد الأعوان ، فعلى الإنسان الكفّ ، لأن الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض ، وذلك قبيح فى العقل أن يُتَعَرَّض له .

فهذا حكم ما أكد الله تعالى به أوامره ، وأيد به زواجره ، من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وما يختلف من أحوال الآمرين به ، والناهين عنه .

[أحوال الناس فى فعل الطاعات واجتناب المعاصى] ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ، ونهوا عنه ، من فعل الطاعات ، واجتناب المعاصى ، من أربعة أحوال : فمنهم من يستجيب إلى فعل الطاعة ، ويكفّ عن ارتكاب المعاصى ؛ وهذا أكمل أحوال أهل الدين ، وأفضل صفات المتقين ، فهذا يستحق جزاء العاملين ، وثواب المطيعين . رَوَى محمد بن عبد الملك المدائنىّ ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذنب لا يُنْسَى ، والبر لا يَبْلَى ، والدَّيان لا يموت ، فكن كما شئت ، وكما تَدِينُ تُدَان » . وقد قيل : كلٌّ يحصُد مازرع ، ويجْزَى بما يصنع ، بل قالوا : زَرْع يومك حَصاد غَدِك .

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ، ويُقْدِم على ارتكاب المعاصى ، وهى أخبث أحوال المكلَّفين ، وشر صفات المتعبَّدين ، فهذا يستحق عذابَ اللاهى عن فعل ما أُمِر به من طاعته ، وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه ، وقد قال ابن شُبْرُمة : عجبت لمن يحتمى من الطيبات مخافة الداء ، كيف لا يحتمى من المعاصى مخافة النار ؟ فأخذ ذلك بعض الشعراء ، فقال :

جسمكَ قد أفنيته بالحِمَى ... دهرا من البارد والحارِ
وكان أولى بك أن تحتمى ... من المعاصى حَذَرَ النارِ

وقال ابن ضُبَارة [١] : إنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى ، أهونَ من الصبر على عذاب الله تعالى . وقال آخر : اصبروا عباد الله على عمل لا غِنَى لكم عن ثوابه ، واصبروا عن عمل لا صبرَ لكم على عقابه . وقيل للفُضَيل بن عياض رضى الله عنه : رضىَ اللهُ عنك . فقال : كيف يرضى عنى ولم أُرضه .

---

(١) ضبارة بن عبد الله بن مالك بن أبى السليك الحضرمى الشامى ، وثقه ابن حبان (التاج) .

ومنهم من يستجيب إلى فعل الطاعات ، ويُقْدِم على ارتكاب المعاصى ، فهذا يستحق عذاب المجترئ ، لأنه تورّط بغلبة الشهوة ، على الإقدام على المعصية ، وإن سلم من التقصير فى فعل الطاعة . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أقلِعُوا عن المعاصى قبل أن يأخذكم اللهُ ، فيدعكم هَتًّا بَتًّا » (الهت : الكسر ، والبت : القطع) ، ولذلك قال بعض العلماء : أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ، ولم تنزل الشبهة يقينه . وقال حماد بن زيد : عجبت لمن يحتمى من الأطعمة لمضرّاتها ، كيف لايحتمى من الذنوب لِمَعَرّاتها . وقال بعض الصلحاء : أهل الذنوب مرضى القلوب . وقيل للفُضيل بن عياض رحمه الله: ما أعجب الأشياء؟ فقال : قلب عرف الله عزّ وجلّ ، ثم عصاه . وقال بعض الألبّاء : يُدِلّ بالطاعة العاصى ، وينسى عظيم المعاصى . وقال رجل لابن عباس رضى الله عنهما : أَيُّما أحبُّ إليك ؟ رجل قليل الذنوب ، قليل العمل ، أو رجل كثير الذنوب كثير العمل . فقال ابن عباس رضى الله عنهما : لاأعدل بالسلامة شيئا . وقيل لبعض الزهاد : ماتقول فى صلاة الليل ؟ فقال : خفِ الله بالنهار ، ونَمْ بالليل . وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم : أهلككم النوم . فقال : بل أهلكتكم اليقظة . وقيل لأبى هريرة رضى الله عنه : ما التقوى ؟ فقال : أجُزْتَ فى أرض فيها شَوك ؟ فقال : نعم . فقال : كيف كنت تصنع ؟ فقال : كنت أتوقّى . قال : فتوقّ الخطايا . وقال عبد الله بن المبارك :

أيضمَنُ لى فتًى تركَ المعاصِى ... وَارْهَنُهُ الكفالة بالخلاصِ
أطاع الله قومٌ فاستراحوا ... ولم يتجرعوا غُصَص المعاصِى

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ، ويكفّ عن ارتكاب المعاصى ، فهذا يستحق عذاب اللاهى عن دينه ، المنذِر بقلة يقينه . وروى أبو إدريسَ الخولانىّ ، عن أبى ذَرّ الغِفارىّ رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « كانت صُحُف موسى على نبينا وعليه السلام كلها عبرا : عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك ، وعجبت لمن أيقن بالقَدَر ثم يتعب ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثم يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ، ثم لايعمل » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اجتهدوا فى العمل ، فإن قصَّر بكم ضعف ، فكفوا عن المعاصى » . وهذا واضح

المعنى ؛ لأن الكف عن المعاصى ترك ، وهو أسهل ، وعمل الطاعات فعل ، وهو أثقل ؛ ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ، ولا بغير عذر ، لأنه ترك ، والترك لا يعجز المعذور عنه ، وإنما أباح ترك الأعمال بالأعذار ، لأن العمل قد يُعجِز المعذور عنه . وقال بكر بن عبد الله : رحم الله امرأ كان قويا ، فأعمل قوته فى طاعة الله تعالى ، أو كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى . وقال عبد الأعلى بن عبد الله الشامى رحمه الله تعالى :

العمر ينقُص والذنوب تزيد ... وتُقال عَثَرات الفتى فيعودُ
هل يستطيع جحود ذنب واحد ... رجل جوارحه عليه شهودُ
والمرء يُسأل عن سنيه فيشتهى ... تقليلَها وعن الممات يحيدُ

[ما يدخل على الطائعين من الآفات] واعلم أن لأعمال الطاعة ، ومجانبة المعاصى ، آفتين : إحداهما تَكْسِب الوزر ، والأخرى توهن الأجر .

فأما المكسبة للوزر ، فإعجاب بما أسلف من عمله ، وقدم من طاعته ، لأن الإعجاب به يفضى إلى حالتين مذمومتين : إحداهما أن المُعْجَب بعمله مُمتنّ به ، والممتنّ على الله تعالى جاحد لنعمه . قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوحى الله تعالى إلى نبىٍّ من أنبيائه : أما زهدك فى الدنيا ، فقد استعجلتَ به الراحة ؛ وأما انقطاعك إلىّ فهو عزٌّ لك ؛ فهذان لك ، و بقيت أنا . والثانية : أن المعجب بعمله مُدِلّ به ، والمدلّ بعمله مجترىء ، والمجترىء على الله عاص . وقال مؤرّق العجلىّ : خير من العُجْب بالطاعة ، ألّا تأتى بطاعة . وقال بعض السلف : ضاحك معترف بذنبه ، خير من باكٍ مدلّ على ربه ، و باكٍ نادم على ذنبه ، خير من ضاحك معترف بلهوه .

وأما الموهِنة للأجر ، فالثقة بما أسلف ، والركون إلى ماقدّم ، لأن الثقة تئول إلى أمرين : أحدهما يحدث اتكالا على مامضى ، وتقصيرا فيما يستقبل ، ومن قَصَّر واتكل لم يرج أجرا ، ولم يؤدّ شكرا . والثانى أن الواثق آمن ، والآمن من الله تعالى غير خائف ، ومن لم يخفِ الله تعالى هانت عليه أوامره ، وسهلت عليه زواجره . وقال الفُضيل بن عِياض : رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى . وقال مؤرّق العجلىّ : لأن أبيت نائما ،

وأصبح نادما ، أحب إلىّ من أن أبيت قائما ، وأصبح ناعما . وقال الحكماء : مابينك وبين ألّا يكون فيك خير ، إلا أن ترى أن فيك خيرا . وقيل لرابعة العدوية رحمها الله : هل عملتِ عملا قط ترَين أنه يُقبل منك ؟ قالت: إن كان شيء فخوفي من أن يردّ عليّ عملي. وقال ابن السماك رحمة الله عليه: إنا لله فيما مضى ما أعظم فيه الخطر! و إنا لله فيما بقى، ما أقل فيه الحذر! وحُكي أن بعض الزهاد وقف على جمع ، فنادى بأعلى صوته : يامعشر الأغنياء ، لكم أقول : استكثروا من الحسنات ، فإن ذنوبكم كثيرة ، يامعشر الفقراء ، لكم أقول : أقلّوا من الذنوب ، فإن حسناتكم قليلة .

[الصحة والفراغ واغتنامهما فى طاعة الله] فينبغى — أحسن الله إليك بالتوفيق — ألّا تضيع صحة جسمك ، وفراغ وقتك ، بالتقصير فى طاعة ربك ، والثقة بسالف عملك ، فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك ، والعمل فُرصة فراغك ، فليس كل الزمان مستعدا ، ولا مافات مستدركا ، وللفراغ زيغ أوندم ، وللخلوة ميل أوأسَف . وقال عمر بن الخطاب : الراحة للرجال غفلة ، وللنساء غُلْمة . وقال بُزُرْجَمِهر : إن يكن الشغل مَجهدة ، فالفراغ مَفْسدة . وقال بعض الحكماء : إياكم والخلَوات ، فإنها تفسد العقول ، وتعقِد المحلول . وقال بعض البلغاء : لا تمضِ يومك فى غير منفعة ، ولا تضع مالك فى غير صنيعة ، فالعمر أقصر من أن ينفَدَ فى غير المنافع ، والمال أقل من أن يصرف فى غير الصنائع ، والعاقل أجلّ من أن يُفْنِىَ أيامه فيما لايعود عليه نفعه وخيره ، و ينفق أمواله فيما لايحصل له ثوابه وأجره . وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم ، على نبينا وعليه السلام : البر ثلاثة : المنطِق والنظَر والصمت ، فمن كان منطقه فى غير ذكر فقد لَغَا ، ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ، ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها .

[أحوال الانسان فى القيام بالتكاليف] واعلم أن للإنسان فيما كُلّف من عباداته ثلاثَ أحوال : إحداها أن يستوفيها من غير تقصير فيها ، ولا زيادة عليها . والثانية أن يقصر فيها . والثالثة أن يزيد عليها .

فأما الحال الأولى : فهى أن يأتى بها على حال الكمال ، من غير تقصير فيها ، ولا زيادة تطوّع على راتبتها ، فهى أوسط الأحوال وأعدلها ، لأنه لم يكن منه تقصير فيذم ، ولا تكثير فيعجز . وقد رَوَى سعيد بن أبى سعيد[1] رضى الله عنه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه :

(١) هو سعيد بن كيسان المقبرى المدنى، توفى سنة ١٢٥ ﻫ .

أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «سدّدوا ، وقاربوا ، وأبشروا[1] ، واستعينوا بالغُدْوة والروحة وشيء من الدُّلْجة» . وقال الشاعر :

عليكَ بأوساطِ الأمور فإنها نجاةٌ ولا تركَبْ ذلولا ولا صَعْبا

وأما الحال الثانية : وهو أن يقصر فيها ، فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال :

إحداهما : أن يكون لعذر أعجزه عنه ، أو مرض أضعفه عن أداء ما كُلّف به ، فهذا يخرج عن حكم المقصِّرين ، ويلحق بأحوال العاملين ، لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز . وقد جاء الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض ، إلّا وكَّل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله» . والحال الثانية : أن يكون تقصيره فيه اغترارا بالمسامحة فيه ، ورجاء العفو عنه ، فهذا مخدوع العقل ، مغرور بالجهل ، فقد جعل الظنّ ذُخْرا ، والرجاء عُدّة ، فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ، ظنا بأنه سيجده فى المفاوز الجدبة ، فيفضى به الظن إلى الهلَكة ، وهلا كان الحذر أغلب عليه ، وقد ندب الله تعالى إليه .

وحكى أن إسرائيل بن محمد القاضى قال : لقِينى مجنون كان فى الخرِبات ، فقال: ياإسرائيل ، خَفِ الله خوفا يشغلك عن الرجاء ، فإن الرجاء يشغلك عن الخوف ، وفرَّ إلى الله ، ولا تفرَّ منه . وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله : ألا تبكى ؟ فقال : تلك حِلْية الآمنين .

وَحُكى أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين . فقال سليمان : أين رحمة الله ؟ قال : قريب من المحسنين . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : ماانتفعتُ ولا اتعظتُ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه إلىّ علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه :

«أما بعد ، فإن الإنسان ليسرّه دَرْك مالم يكن ليفوته ، ويسوءه فَوْت مالم يكن ليدركه ، فلاتكن بما نِلته من دنياك فرحا ، ولا لما فاتك منها ترِحا ، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة لطول الأمل ، فكأن قَدْ[2] . والسلام .

(١) فى نسخ المتن : يسروا تصحيف . (٢) أى فكأن قد اتعظت بما وعظت .

وقال محمود الوراق رحمه الله :

أخاف على المحسنِ المتَّقى ... وأرجو لذى الهفواتِ المُسِى

فذلك خوفى على مُحْسِن ... فكيف على الظالم المعتدِى ؟

على أنّ ذا الزيغ قد يستفيقُ ... ويَسْتأنفُ الزيغُ قلبَ التَّقى

والحال الثالثة : أن يكون تقصيره فيــه ، ليستوفىَ ما أخل به من بعد ، فيبدأ بالسيئة فى التقصير ، قبل الحسنة فى الاستيفاء ، اغترارا بالأمل فى إمهاله ، ورجاء لتلافى ما أسلف من تقصيره و إخلاله ، فلاينتهى به الأمل إلى غاية ، ولا يُفضِى به إلى نهاية ، لأن الأمل هو فى ثانى حال ، كهو فى أوّل حال . فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من يُؤَمِّل أن يعيش غدا ، فإنه يؤمل أن يعيش أبدا » . ولَعَمْرى ، إن هذا صحيح ، لأن لكل يوم غدا ، فإذَنْ يُفضِى به الأمل إلى الفوت من غير دَرْك ، ويؤديه الرجاء إلى الإهمال من غير تَلاف ، فيصير الأمل خيبة ، والرجاء يأسا . وقد رَوَى عمرو بن سعيد ، عن أبيه ، عن جده : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « أولُ صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين ، وفسادها بالبخل والأمل » . وقال الحسن البصرىّ رحمــه الله : ما أطال عبد الأمَل ، إلا أساء العَمَل . وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة : ألك حاجة ببغداد ؟ قال : ما أحبّ أن أبسط أملى إلى أن تذهب إلى بغداد وتجىء . وقال بعض الحكماء : الجاهل يعتمد على أمله ، والعاقل يعتمد على عمله . وقال بعض البلغاء : الأمل كالسَّراب ، غرَّ من رآه ، وخاب من رجاه . وقال محمد بن يزدان : دخلت على المأمون ، وكنت يومئذ وزيره ، فرأيته قائما و بيده رقعة ، فقال : يامحمد ، أقرأت مافيها ؟ فقلت : هى فى يد أمير المؤمنين ، فرمى بها إلىّ ، فإذا فيها مكتوب :

إنك فى دار لهــا مُدَّةٌ ... يُقْبَل فيها عملُ العاملِ

أماترى الموتَ محيطا بها ... يقطعُ فيها أمل الآمِلِ ؟

تَعْجَل بالذنب لما تشتهى ... وتأمل التوبة من قابلِ

والموت يأتى بعد ذا بغتة ... ماذاك فعل الحازم العاقلِ

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى : هذا من أحكم شعر قرأته . وقال أبو حازم الأعرج :

نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ، ونحن لا نتوب حتى نموت . وقال بعض البلغاء : زائد الإمهال ، رائد الإهمال .

والحال الرابعة : أن يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء ، وزهدا فى التمام ، واقتصارا على ماسَنح ، وقلة اكتراث بما بقى ، فهذا على ثلاثة أضرب :

أحدها : أن يكون ماأخلّ به ، وقصّر فيه ، غيرَ قادح فى فرض ، ولا مانع من عبادة ، كمن اقتصر فى العبادة على فعل واجباتها ، وعمل مفترَضاتها ، وأخلّ بمسنوناتها وهيآتها ، فهذا مسىء فيما ترك ، إساءة من لايستحق وعيدا ، ولا يستوجب عقابا ، لأن أداء الواجب يسقط عنه العقاب ، وإخلاله بالمسنون يمنع من إكمال الثواب . وقد قال بعض الحكماء : من تهاون بالدين هان ، ومن غالب الحق لان . وقال الشاعر :

ويصونُ توْبته ويتـرُكُ غير ذلك لايَصونُهْ
وأحقُّ ماصان الفتى ورعى أمانتُهُ ودينُهْ

والضرب الثانى : أن يكون ما أخلّ به من مفروض عبادته ، لكن لايقدح ترك مابقى فيما مضى ، كمن أكمل عبادات ، وأخل بغيرها ، فهذا أسوأ حالا ممن تقدمه ، لما استحقه من الوعيد ، واستوجبه من العقاب .

والضرب الثالث : أن يكون ما أخلّ به من مفروض عبادته ، وهو قادح فيما عمل منها ، كالعبادة التى يرتبط بعضها ببعض ، فيكون المقصّر فى بعضها ، تاركا لجميعها ، فلا يحتسب له ماعمل ، لإخلاله بما بقى ، فهذا أسوأ أحوال المقصِّرين ، وحاله لاحقة بأحوال التاركين ، بل قد تكلف مالايُسقط فرضا ، ولايؤدِّى حقا ، فقد ساوى التاركين فى استحقاق الوعيد ، وزاد عليهم فى تكلف مالا يفيد ، فصار من الأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ثم لعله لايفطُن لشانه ، ولايشعر بخسرانه ، وقد خسر الدنيا والآخرة ، ويفطُن لليسير من ماله إن وَهَى واختلّ .

وأنشدنى بعض أهل العلم :

أبنىّ إن من الرجال بهيمةً فى صورة الرجل السميع المبصرِ

فَطِن بكل مصيبة فى ماله وإذا يصابُ بدينه لم يشعرِ

وأما الحال الثالثة ، وهو أن يزيد فيما كُلِّف ، فهذا على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تكون الزيادة رياء للناظرين ، وتصنعا للمخلوقين ، حتى يستعطف به القلوب النافرة ، ويخدع به العقول الواهية، فيتَبهرج [١] بالصُّلَحاء وليس منهم ، ويتدلَّس [٢] فى الأخيار وهو ضدهم؛ وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرائى بعمله مثلا ، فقال : « المتشبِّع بما لايملك كلابس ثوْبَىْ زُور » : يريد بالمتشبّع بما لايملك : المتزيِّن بما ليس فيه ؛ وقوله كلابس ثوبى زور : هو الذى يلبس ثياب الصُّلحاء ، فهو بريائه محروم الأجر ، مذموم الذكر ، لأنه لم يقصِد وجه الله تعالى ، فيؤجَرَ عليه ، ولا يخفى رياؤه على الناس ، فيحمدَ به . قال الله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » . قال جميع أهل التأويل : معنى قوله « ولايشرك بعبادة ربه أحدا » : أى لايرائى بعمله أحدا ، فجعل الرياء شِرْكا ، لأنه جعل مايقصد به وجه الله تعالى ، مقصودا به غيرُ الله تعالى . وقال الحسن البصرىّ رحمه الله تعالى ، فى قوله تعالى : « ولاتجهرْ بصلاتك ، ولا تخافِت بها » قال : لا تجهر بها رياء ، ولا تخافت بها حَياء . وكان سفيان بن عُيَينة رحمه الله يتأوّل قوله تعالى: « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القرْبَى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغْى » : أن العدل استواء السريرة ، والعلانية فى العمل لله تعالى. والإحسان: أن تكون سريرته أحسن من عَلانيته، والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسنَ من سريرته. وكان غيره يقول: العدل: شهادة أن لا إلهَ إلا الله . والإحسان : الصبر على أمره ونهيه ، وطاعة الله فى سره وجهره . وإيتاء ذى القربى : صلة الأَرحام . وينهى عن الفحشاء : يعنى الزنا . والمنكر : القبائح . والبغى : الكِبر والظلم . وليس يخرج الرياء بالأَعمال من هذا التأويل أيضا ، لانه من جملة القبائح . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتى ، الرياء الظاهر ، والشهوة الخفية » . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة ، من يرى أن فيه خيرا ولا خير فيه » . وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا تعمَل شيئا من الخير رِياء ، ولا تتركه حَياء . وقال بعض العلماء : كل حسنة لم يُرَد بها وجهُ الله تعالى ، فعلَّتها قبح الرياء ، وثمرتُها سُوء الجزاء . وقد يفضِى الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به ،

(١) تبهرج : صار بهرجا ، أى زيفا رديئا بين الصلحاء . (٢) يتدلس : أى يخفى عيبه بمخالطة الأخيار .

كما حُكى أن طاهر بن الحسين ، قال لأبى عبد الله المَرْوَزِىّ : منذ كم صرتَ إلى العراق ، يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة ، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم . فقال : يا أبا عبد الله ، سألتك عن مسألة ، فأجبت عن مسألتين ! وحَكى الأصمعىُّ رحمه الله : أن أعرابيا صلّى فأطال ، وإلى جانبه قوم ، فقالوا : ما أحسن صَلاَتك . فقال : وأنا مع ذلك صائم . [1] فقال أعرابىّ كان فيهم [1] :

صلّى فأعجبنى ، وصامَ فرابنى　　نَحِّ القَلُوص عن المصلِّى الصائم

فانظر إلى هذا الرياء مع قبحه ، ما أدله على سخف عقل صاحبه . وربما ساعد الناسَ مع ظهور ريائه ، على الاستهزاء بنفسه ، كالذى حُكِى أن زاهدا نظر إلى رجل فى وجهه سَجَّادة كبيرة ، واقفا على باب السلطان ، فقال: مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا ؟ ! فقال : إنه ضرب على غير السكة . وهذا من أجوبة الخلاعة ، التى يُدْفع بها تهجين المذمة . ولقد استحسن الناس من الأشعث بن قيس قوله وقد خَفَّف صلاته مرة . فقال بعض أهل المسجد : خَفَّفت صلاتك جدا ؟ فقال : إنه لم يخالطها رياء . فتخلص من تنقيصهم بنفى الرياء عن نفسه ، ورفع التصنّع فى صلاته ، وقد كان الإنكار لولا ذلك متوجها عليه ، واللوم لاحقا به .

ومرّ أبو أُمامة ببعض المساجد ، فإذا رجل يصلّى وهو يبكى . فقال له : أنت أنت لو كان هذا فى بيتك ، فلم ير ذلك منه حسنا ، لأنه اتهمه بالرياء ، ولعله كان بريئا منه ، فكيف بمن صار الرياء أغلب صفاته ، وأشهر سِماته ، مع أنه آثِم فيما عمل ، أَنَمُّ من هُبوب النسيم بما حَمَل ، ولذلك قال عبد الله بن المبارك : أفضل الزهد إخفاء الزهد . وربما أحس ذو الفضل من نفسه ميلا إلى المراءاة ، فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراءاة ، فكان ذلك أبلغ فى فضله . [3] كالذى حُكِى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه أحسّ على المنبر بريح خرجت منه ، فقال : يأيها الناس ، إنى قد مَيَّلْتُ [2] بين أن أخافكم فى الله تعالى ، وبين أن أخاف الله فيكم ، فكان أن أخاف الله فيكم أحبّ إلىّ ، ألا وإنى قد فسوت وها أنا نازل أعيد الوضوء ، فكان ذلك منه زجرا لنفسه ، لتكف عن نزاعها إلى مثله [3] .

(١ — ١) العبارة ساقطة من بعض المتون المطبوعة ، الأميرية وغيرها .

(٢) يقال : ميلت وما يلت بين الشيئين : رجحت ووازنت بينهما .

(٣) سقطت هذه العبارة من المتون المطبوعة .

وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القُرَظِىّ : عظْنى . فقال : لا أرضى نفسى لك واعظا ، لأنى أجلس بين الغنىّ والفقير ، فأميل على الفقير ، وأوسع للغنىّ ، ولان طاعة الله تعالى فى العمل لوجهه لا لغيره . وحُكِى أن قوما أرادوا سفرا ، فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب ، فقالوا : قد ضَلَلْنا ، فكيف الطريق ؟ فقال : ههنا ، وأومأ بيده إلى السماء .

والقسم الثانى : أن يفعل الزيادة اقتداء بغيره ، وهذا قد تُثَمِّره مجالسة الأخيار الأفاضل ، وتحدثه مكاثرة الأتقياء الأماثل . ولذلك قال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدُكم من يُخالِل » . فإذا كاثرهم المجالس ، وطاولهم المؤانس ، أحبَّ أن يقتدى بهم فى أفعالهم ، ويتأسَّى بهم فى أعمالهم ، ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ، ولا أن يكون فى الخير دونهم ، فتبعثه المنافسة على مساواتهم ، وربما دعته الْحَمِيَّة إلى الزيادة عليهم ، والمكاثرة لهم ، فيصيرون سببا لسعادته ، و باعثا على استزادته ، والعرب تقول : لولا الوِئام ، لهلك الأنام ، أى لولا أن الناس يرى بعضهم بعضا ، فيقْتَدى بهم فى الخير ، لهلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء : من خير الاختيار ، صحبة الأخيار ، ومن شر الاختيار ، مودّة الأشرار ، وهذا صحيح ؛ لأن للمصاحبة تأثيرا فى اكتساب الأخلاق ، فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح ، وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر :

رأيتُ صلاح المرء يُصْلِح أهلَهُ ... ويُعْدِيهمُ داء الفساد إذا فسدْ

يُعَظَّم فى الدنيا بفضل صلاحه ... ويُحْفظ بعد الموت فى الأهل والولَدْ

وأنشدنى بعض أهل الأدب ، لأبى بكر الخوارزمىّ :

لا تصحبِ الكسلانَ فى حالاته ... كم صالحٍ بفساد آخر يَفْسُدُ

عَدْوى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ ... والجمرُ يُوضَع فى الرماد فيَخْمُدُ

والقسم الثالث : أن يفعل الزيادة ابتداء من نفسه ، التماسا لثوابها ، ورغبة فى الزلفة بها ، فهذا من نتائج النفس الزاكية ، ودواعى الرغبة الوافية ، الدالّين على خلوص الدين ، وصحة اليقين ، وذلك أفضل أحوال العاملين ، وأعلى منازل العابدين ، وقد قيل : الناس فى الخير

أربعة : منهم من يفعله ابتداء ، ومنهم من يفعله اقتداء ، ومنهم من يتركه استحسانا ، ومنهم من يتركه حرمانا . فمن فعله ابتداء فهو كريم ، ومن فعله اقتداء فهو حكيم ، ومن تركه استحسانا فهو ردىء ، ومن تركه حِرمانا فهو شقىّ .

ثم لما يفعله من الزيادة حالتان :

إحداهما : أن يكون مقتصدا فيها ، وقادرا على الدوام عليها ، فهى أفضل الحالتين ، وأعلى المنزلتين ، عليها انقرض أخيار السلف ، وتتبعهم فيها فُضَلاء الخَلَف . وقد روت عائشة رضى الله عنها : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: « أيها الناس اكْلَفُوا [1] من الأعمال ما تُطِيقون ، فإن الله لا يَمَلُّ من الثواب ، حتى تملوا من العمل ؛ وخير الأعمال ما دِيم عليه » . والعرب تقول : القصدَ والدوامَ وأنت السابقُ الجواد ؛ ولأن من كان صحيح الرغبة فى ثواب الله تعالى ، لم يكن له مسرة إلا فى طاعته . وقال عبد الله بن المبارك : قلت لراهب : متى عيدُ كم ؟ قال : كل يوم لا أعصِى الله فيه ، فهو يوم عيد . اُنظر إلى هذا القول منه ، وإن لم يكن من مقاصد الطاعة ، ما أبلغه فى حب الطاعة ، وأحثه على بذل الاستطاعة ! وخرج بعض الزهاد فى يوم عيد فى هيئة رثة ، فقيل : لم تخرج فى مثل هذا اليوم فى مثل هذه الهيئة ، والناس متزينون ؟ فقال : ما يُتزَيّن لله تعالى بمثل طاعته .

والحالة الثانية : أن يستكثر منها استكثارَ من لا ينهض بدوامها ، ولا يقدر على اتصالها ، فهذا ربما كان بالمقصّر أشبه ، لأن الاستكثار من الزيادة : إما أن يمنع من أداء اللازم ، فلا يكون إلا تقصيرا ، لأنه تطوّع بزيادة أحدثت نقصا ، وبِنَفْلٍ منعَ فرضا ؛ وإمّا أن يعجِز عن استدامة الزيادة ، ويُمنع من ملازمة الاستكثار ، من غير إخلال بلازم ، ولا تقصير فى فرض ، فهى إذن قصيرة المدى ، قليلة اللُّبث ، والقليل العمل فى طويل الزمان ، أفضل عند الله عزّ وجلّ من كثير العمل فى قليل الزمان ، لأن المستكثر من العمل فى الزمان القصير ، قد يعمل زمانا ، ويَترك زمانا ، فربما صار فى زمان تركه لاهيا أو ساهيا ، والمقلِّل فى الزمان الطويل ، مستيقظ الأفكار ، مستديم التذْكار . وقد روَى أبو صالح ، عن أبى هريرة ،

(١) كذا فى منهاج اليقين ، وفى الأميرية : افعلوا .

رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن للإسلام شِرّة ، وللشِّرة فَترة ، فمن سدّد وقاربَ فارجُوه ، ومن أشير إليه بالأصابع فلا تعدّوه » فجعل للإسلام شِرّة ، وهى الإيغال فى الإكثار ، وجعل للشِّرة فَترة ، وهى الإهمال بعد الاستكثار ، فلم يَخْلُ بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيرا أو إخلالا ، ولا خير فى واحد منهما .

[الاعتبار بغرور الدنيا ، وسرعة زوالها] واعلم جعل الله العلمَ حاكما لك وعليك ، والحقَّ قائدا لك و إليك ، أن الدنيا إذا وَصَلت فتبعات مُوبقة ، و إذا فارقت ففجَعات مُحْرِقة ، وليس لوصلها دوام ، ولا من فراقِها بدّ ، فرُضْ نفسك على قَطيعتها ، لتسلم من تَبِعاتها ، وعلى فِراقها ، لتأمن فَجَعاتها ، فقد قيل : المرء مقترض من عمره المنقرض ، مع أن العمر و إن طال قصير ، والفراغ و إن تمّ يسير .

وأُنشِدت لعلىّ بن محمد رحمه الله تعالى :

إذا كَمَلَتْ للمرء ستونَ حِجَّةً فلم يحظَ من ستينَ إلّا بسُدْسِها
ألم ترأنّ النصفَ بالليل حاصلٌ وتذهبُ أوقاتُ المَقِيلِ بخُمسها
فتأخذُ أوقاتُ الهموم بحصَّةٍ وأوقات أوجاعٍ تُميتُ بمسِّها
فحاصل مايبقى له سُدْسُ عُمرِه إذاصَدَقته النفسُ عن عَلَم حَدْسها

[رياضة النفس على ترك الدنيا] ورياضة نفسِك لذلك تترتَّب على أحوال ثلاث ، وكل حالة منها تتشعَّب ، وهى لتسهيل مايليها سببَ :

فالحالة الأولى : أن تصرف حُبَّ الدنيا عن قلبك ، فإنها تُلْهيك عن آخرتك ، ولا تجعل سعيك لها ، فتمنعَك حظَّك منها ، وتَوَقَّ الركون إليها . ولا تكن آمنا لها ؛ فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أُشرِب قلبهُ حُبَّ الدنيا ، وركن إليها ، أُلتاط منها بشغل[١] لا يفرُغ عناه[٢] ، وأمل لا يبلغ مُنتهاه ، وحرص لا يُدرِك مَداه[٣] » . وقال عيسى ابن مريمَ على نبينا وعليه السلام : الدنيا لإبليس مَزْرعة ، وأهلها له حُرّاث . وقال علىّ ابن أبى طالب : مَثَل الدنيا مَثَل الحية : لَيِّنٌ مَسُّها ، قاتل سَمُّها ؛ فأعرِض عما أعجبك منها ،

(١) أى ألزقه بنفسه واستوجبه . (٢) عناه : أى عناؤه ومشقته . (٣) مداه : غايته .

تقلة مايَصحَبك منها ، وضع(١) عنك هموَمَها ، لِمـا أيقنتَ من فراقها ، وكن أحذر ما تكون لها ، وأنت آنَسُ ما تكون بها ، فإن صاحبها كلما اطمأنّ منها إلى سرور ، أشخصه عنها مكروه ، وإن سكن منها إلى إيناس ، أزاله عنها إيحاش . وقال بعض البُلغاء : الدنيا لا تصفو لشارب ، ولا تبقى لصاحب ، ولا تخلو من فتنة ، ولا تُخْلِى من مِحنة ، فأعرِض عنها ، قبل أن تُعرِض عنك ، واستبدل بها ، قبل أن تَستبدِل بك ، فإن نعيمها يتنقل ، وأحوالَها تتبدّل ، ولذّاتِها تفنى ، وتَبِعاتِها(٢) تبقَى . وقال بعض الحكماء : انظر إلى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ، ولا تتأملْها تأمُّل العاشق الوامق بها .

وقال بعض الشعراء :

ألا إنمـا الدنيا كأحلام نائمٍ	وماخيرُ عيش لا يكون بدائمِ
تأمل إذا مانلتَ بالأمس لذةً	فأفنيتَها هل أنت إلا كحالم
فكم غافلٍ عنه وليس بغافلٍ	وكم نائمٍ عنه وليس بنائمِ

ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من هَوانِ الدنيا على الله ألّا يُعْصَى إلاّ فيها ، ولا يُنال ماعندَه إلا بتركها » . وروَى سفيان أن الخضِر قال لموسى عليهما السلام : ياموسى ، أعرِض عن الدنيا وانبِذْها وراءك ، فإنها ليست لك بدار ، ولا فيها محلُّ قرار ، وإنما جعلت الدنيا للعُبّاد ، ليتزوّدوا منها للمعاد . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : الدنيا قنطرة ، فاعبرُوها ولا تعمرُوها . وقال عليّ كرم الله وجهه يصف الدنيا : أوّلها عَناء ، وآخرها فَناء ؛ حلالها حِساب ، وحرامها عِقاب ؛ من صحّ فيها أمن ، ومن مَرِض فيها ندم ، ومن استغنى فيها فُتن ، ومن افتقر فيها حَزِن ، ومن ساعَاها(٣) فاتته ، ومن قعد عنها أتته ، ومن نظر إليها أعمته ، ومن نظر بها(٤) بَصَّرته . وقال بعض البلغاء : إن الدنيا تُقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب ، وتصل وصال المَلُول ، وتفارق فراق العَجُول(٥) ، فخيرها يسير ، وعيشها

---

(١) ضع : ألق . (٢) تبعاتها : ما يتبع اللذة المحرمة من الإثم .

(٣) ساعاها : من السعى ، أى سابقها وجاراها . (٤) نظر بها : اعتبر بها .

(٥) العجول من النساء والإبل : الواله التى فقدت ولدها ، تعجل فى جيئتها وذهابها جزعا .

قصير ، وإقبالها خديعة ، ولذاتها فانية ، وتَبِعاتها باقية ، فاغتنم غَفْوة(١) الزمان ، وانتهز(٢) فُرْصة الإمكان ، وخذ من نفسك لنفسك ، وتزوّد من يومك لغدك . وقال وهب بن منبه : مَثَل الدنيا والآخرة مَثَل ضَرَّتين: إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى . وقال عبد الحميد(٣) : الدنيا منازل ، فراحل ونازل . وقال بعض الحكماء : الدنيا إما نقمة نازلة ، وإما نِعمة زائلة . وقيل فى منثور الحِكم : من الدنيا على الدنيا دليل . وقال الشاعر :

تمتعْ من الأيام إن كنت حازما ... فإنك منها بينَ ناهٍ وآمرِ
إذا أبقتِ الدنيا على المرء دينَهُ ... فما فاته منها فليس بضائرِ
فلن تعدِلَ الدنيا جَناحَ بَعُوضة ... ولا وزن ذَرٍّ من جَناحٍ لطائرِ
فما رضِىَ الدنيا ثوابا لمؤمنٍ ... ولا رضِىَ الدنيا جزاءً لكافرِ

ورُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الدُّنيا يومان : يوم فرح ، ويوم همّ ، وكلاهما زائل عنك ، فدعوا مايزول ، وأتعبوا نفوسكم فى العمل لما لا يزول » . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : لا تُنازِعوا أهل الدنيا فى دنياهم ، فيُنازعوكم فى دينكم ، فلا دُنْياهم أصبتم ، ولا دينكم أبقيتم . وقال علىّ بن أبى طالب : لا تكُن ممن يقول فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعمل فيها عمل الراغبين ، فإن أُعْطِىَ منها لم يَشبَع ، وإن مُنِع منها لم يقنَع ، يعجِز عن شكر ما أُوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقِى ، وينهَى الناس ولا ينتهى ، ويأمرُ بما لا يأتى ، يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ، ويُبْغض الطالحين وهومنهم . وقال الحسن البصْرىّ: الدنيا كلها غمّ ، فما كان منها من سرور فهو رِبْح . وقال بعض العلماء : إن الدنيا كثيرة التغيير ، سريعة التنكير ، شديدة المكر ، دائمة الغَدْر ، فاقطع أسباب الهوى عن قلبك ، واجعل أبعدَ أمَلك بقية يومك ، وكن كأنك ترى ثواب أعمالك . وقال بعض الحكماء : الدنيا إمّا مصيبة مُوجِعة ، وإما مَنيَّة مُفْجِعة : وقال الشاعر :

---

(١) غفوة الزمان : غفلته . (٢) اغتنم .

(٣) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرى كاتب مروان ، آخر ملوك بنى أمية ، كان رأسا فى الكتابة .

خَلِّ دُنيـاكَ إنَّها   يَعْقُبُ الخيرَ شرُّها
هِيَ أمٌّ تعقّ مِنْ   نسلِها مَن يَـبرُّها
كل نفسٍ فإنها   تَبْتغى ما يسرُّها
والمنايا تسوقُهـا   والأمانى تغُـرُّها
فإذا اسْتَحْلَتِ الجَنى   أعقبَ الحلوَ مُرُّها
يستوى فى ضريحه   عبدُ أرضٍ وحُرُّها

فإذا رُضْتَ نفسك من هذه الحالة بما وصفت ، اعتضت منها بثلاث خلال :

إحداهنّ : أن تُـكْفَى إشفاقَ المُحبّ ، وحَذَر الوامق ، فليس لمشفِقٍ ثِقـة ، ولا لحاذر راحة .

والثانية : أن تأمن الاغترارَ بملاهيها ، فتسلم من عادية دواهيها ، فإن اللاهىَ بها مغرور ، والمغرور فيها مذعور .

والثالثة : أن تستريح من تعب السعى لها ، ووَصَبِ الـكدّ فيها ، فإن من أحبّ شيئا طلبه ، ومن طلب شيئا كدّ له ، والمـكدود فيها شقىّ إن ظفِر ، ومحروم إن خاب . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لـكعب : يَا كعب ، الناس غاديان ، فَمُبْتاعٌ نفسَهُ فَمُعْتِقُها ، وبائعٌ نفسَهُ فَمُوبِقُها[1] . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام : تعملون للدنيا وأنتم تُرْزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لاتُرزقون فيها إلّا بعمل . وقال بعض البلغاء : مِنْ نَـكَدِ الدنيا ألّا تبقَى على حالة ، ولا تخـلو من استحالة ، تُصْلِح جانبا بإفساد جانب ، وتسرُّ صاحبا بمَساءة صاحب ؛ فالركون إليها خطَر ، والثقة بها غَرَر . وقال بعض الحـكماء : الدنيا مُرْتَجَعة الهِبة ، والدهر حسود : لايأتى على شىء إلا غيَّره ؛ ولمن عاشَ حاجةٌ لاتنقضِى .

---

(١) كذا فى منهاج اليقين نقلا عن الطريقة للبركوى . ورواية مسلم عن أبى مالك الأشعرى : « وكل الناس يغدو : فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» . قال النووى : معناه : كل إنسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله بطاعته فيعتقها ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى ، باتباعهما ، فيوبقها . قال فى المنهاج : وفى نسخ المتون تشويش .

ولما بلغ « مَزْدَك[١] » من الدنيا أفضلَ ماسمت إليه نفسهُ نبذها ، وقال : هذا سرور ، لولا أنه غُرور ؛ ونعيم ، لولا أنه عديم ؛ ومُلْك ، لولا أنه هُلْك ؛ وغَناء ، لولا أنه فناء ؛ وجسيم ، لولا أنه ذميم ؛ ومحمود ، لولا أنه مفقود ؛ وغِنًى ، لولا أنه مُنًى[٢] ؛ وارتفاع ، لولا أنه اتضاع ؛ وعَلاء ، لولا أنه بلاء ؛ وحَسَن ، لولا أنه حَزَن ؛ وهو يوم لو وُثِق له بغَد . وقال بعض الحكماء : قد ملك الدنيا غير واحد ، من راغب وزاهد ، فلا الراغبَ فيها استبقَتْ ، ولا عن الزاهد فيها كَفّتْ . وقال أبو العتاهية :

هيَ الدارُ دارُ الأذَى والقذَى ودارُ الفَناءِ ودارُ الغِيَرْ
فلَوْ نِلتَها بحـذافيرِها لَمُتَّ ولم تقضِ منها الوطَرْ
أيَامَنْ يؤمِّلُ طولَ الخلودِ وطُولُ الخلود عليه ضَرَرْ
إذا ما كَبِرْتَ وبانَ الشَّبابُ فلا خيرَ فى العيشِ بعدَ الكِبَرْ

ورُوِىَ عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ونفس لا تشبَع ، وقلب لا يخشَع ، وعين لا تدمَع . هل يتوقعُ أحدكم إلّا غِنًى مُطغيا ، أو فقرا مُنْسِيا ، أو مرضا مُفْسدا ، أو هرَمًا مُقيِّدا ، أو الدَّجال ، فهو شر غائبٌ يُنْتظر ، أو الساعة ، والساعةُ أدهى وأمرّ » .

وحُكِىَ أن الله تعالى أوحى إلى عيسى بن مريم عليه السلام : أنْ هَبْ لى من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع ، فإنى قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خدَمنى فاخدُميه ، ومن خدَمكِ فاستخدِميه . وقال بعض البلغاء : زِدْ من طول أملك ، فى قصير عملك ، فإن الدنيا ظِلُّ الغمام ، وحُلْم النِّيام ، فمن عرفها ثم طلبها ، فقد أخطأ الطريق ، وحُرِمَ التوفيق . وقال بعض الحكماء : لا يؤمِنَنّك إقبالُ الدنيا عليك ، من إدبارها عنك ، ولا دَوْلةٌ لك ، من إدالة منك . وقال آخر : ما مضى من الدنيا كما لم يكن ، وما بقىَ منها كما قد مَضَى . وقيل لزاهد : قد خلَعْتَ الدنيا ،

---

(١) صاحب مذهب فى الفلسفة الإباحية ، وهو فارسى . (٢) يريد أن غنى الدنيا لا يلبث أن يتغير ويتحول ، فهو غنى خادع لا ثبات له .

فكيف سَخَتْ نفسُك عنها ؟ فقال : أيقنت أنى أخرج منها كارها ، فرأيت أن أخرج منها طائعا . وقيل لُحرْقَة بنت النعمان : مالك تبكين ؟ فقالت : رأيت لأهلى غَضَارة ، ولم تمتلئ دار فرحا ، إلا امتلأت ترَحا . وقال ابن السَّماك : من جرَّعته الدنيا حَلاوتها ، يـله إليها ، جَرَّعته الآخرة مَرَارتها ، لتجافيه عنها . وقال صاحب كليلة ودمنة : طالب الدنيا كشارب ماء البحر : كلما ازداد شُرْبا ازداد عطشا ، وكان عمر بن عبد العزيز يتمثَّل بهذه الأبيات :

نهارُكَ يامغرورُ سَهوٌ وغَفْلةٌ ... وليلُك نومٌ والأَسى لك لازمُ
تُسَرُّ بما يفنَى وتفرحُ بالمُنَى ... كما سُرَّ باللذات فى النوم حالِمُ
وشُغْلُك فيماسوفَ تكرهُ غِبَّه(١) ... كذلك فى الدنيا تعيشُ البهائمُ

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه : لا أراك الله مكروها . فقال : كأَنك دعوت على صاحبك بالموت ؛ إن صاحبك ماصاحبَ الدنيا فلابد أن يرى مكروها . وقال أبو العتاهية :

إنَّ الزمانَ ولو يَليـــن لأهلِه لَمُخاشِنُ
خَطَواتُه المتحرِّكا تُ كأنَّهنَّ سواكِنُ

والحالة الثانية من أحوال رياضتك لها : أن تصدّق نفسك فيما مَنَحتك من رغائبها ، وأنالتك من غرائبها ، فتعلم أن العطية فيها مرتَجعة ، والمِنحة فيها مستردّة ، بعد أن تُبقِىَ عليك ما احتقبت من أوزار وصولها إليك ، وخسران خروجها عنك ؛ فقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ » . ورُوى عن عيسى بن مريم عليه السلام ، أنه قال : فى المال ثلاث خصال . قالوا : وما هن ياروح الله ؟ قال : يَكسبه من غير حِله . قالوا : فإن كسبه من حلِه . قال : يضعه فى غير حَقّه . قالوا : فإن وضعه فى حقّه . قال : يشغَلُه عن عبادة ربه . ودخل أبوحازم على بِشْر بن مروان فقال : ياأبا حازم ، ما المَخْرج مما نحن فيه ؟ قال : تنظر ماعندك ، فلا تضعه إلا فى حقه ، ومماليس عندك فلا تأخذه إلا بحقّه . قال : ومَن يطيق هذا ياأبا حازم ؟ قال : فمن أجل ذلك مُلِئت جهنم من الجِنّة والناس أجمعين . وعَيَّرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال : من الغِنى دُهِيتم . ودخل قوم منزل عابد ،

---

(١) غبه : عاقبته .

فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه ، فقال : لو كانت الدنيا دار مُقام لاتخذنا لها أثاثا . وقيل لبعض الزهاد : ألا توصى ؟ قال : بماذا أُوصى ؟ والله مالنا شىء ، ولا لنا عند أحد شىء ، ولا لأحد عندنا شىء . أُنظر إلى هذه الراحة كيف تعجَّلها ، و إلى السلامة كيف صار إليها ؟ ولذلك قيل : الفقر مُلكٌ ليس فيه محاسبة . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام : ألا تتزوّج ؟ فقال : إنما نُحِب التكاثر فى دار البقاء . وقيل : لو دعوتَ الله تعالى أن يرزقك حِمَارا ؟ فقال : أنا أكرم على الله من أن يجعلنى خادم حِمار . وقيل لأبى حازم رضى الله عنه : ما مالك ؟ قال شيئان : الرضا عن الله ، والغنى عن الناس . وقيل له : إنك لمسكين . فقال : كيف أكون مسكينا ومولاى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثَّرَى ؟ وقال بعض الحكماء : رب مَغبوطٍ بمسرّةٍ هى داؤه ، ومرحومٍ من سَقَمٍ هو شفاؤه . وقال بعض الأدباء : الناس أشتات ، ولكل جمعٍ شَتات . وقال بعض البلغاء : الزهد بصحبة اليقين ، وصحة اليقين بنور الدين ، فمن صح يقينهُ زهد فى الثَّراء ، ومن قوى دينه ، أيقن بالجزاء ، فلا تغرَّنْك صحة نفسك ، وسلامة أمسك ، فمدّة العمر قليلة ، وصحة النفس مستحيلة . وقال بعض الشعراء :

رب مَغْروسٍ يُعَاش بهِ   عَدِمَتْه عَيْن مُغْتَرِسِهْ
وكذاكَ الدَّهْرُ مَأْتَمهُ   أقربُ الأشياءِ مِنْ عُرُسِهْ

فإذا رُضْتَ نفسَك من هذه الحال بما وصفت ، اعتضت منها ثلاث خِلال : إحداهن نصح نفسك وقد استسلمت إليك ، والنظرَ لها وقد اعتمدتْ عليك ، فإنّ غاشَّ نفسه مغبون ، والمنحرف عنها مأفون .

والثانية : الزهد فيما ليس لك ، لتكفَى تكلفَ طَلَبه ، وتسلم من تَبِعات كَسْبه .

والثالثة : انتهاز الفرصة فى مالك أن تضعَه فى حقه ، وأن تُؤْتيه لمستحقه ، ليكون لك ذُخْرا ، ولا يكون عليك وِزْرا ، فقد رُوى أن رجلا قال : يا رسول الله إنى أكره الموت . قال : ألك مال ؟ قال نعم . قال : قَدِّم مالك ، فإن قلب المؤمن عند ماله . وقالت عائشة رضى الله عنها : ذَبَحنا شاة ، فتصدّقنا بها ، فقلت : يارسول الله مابقى إلا كَتفها . قال : كلُّها بَقِىَ

إلا كَتِفَها . وحُكى أن عبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود ، باع دارا بثمانين ألفَ درهم ، فقيل له : اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا . فقال : أنا أجعل هذا المال ذخرا لى عند الله عز وجل ، وأجعل الله ذُخرًا لولدى ، وتصدّقَ بها . وعُوتب سهل بن عبد الله المَرْوَزىّ فى كثرة الصدقة . فقال : لو أن رجلا أراد أن ينتقل من دار إلى دار ، أكان يُبْقِى فى الأولى شيئا ؟ وقال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم: مالنا نكره الموت ؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم ، وعَمَرْتُم دنياكم ، فكرهتم أن تنتقلوا من العُمران إلى الخراب . وقيل لعبد الله بن عُمر : ترك زيد بن خارجة مِئة ألف درهم . فقال : لكنها لاتتركه . وقال الحسن البصرىّ رحمه الله : ما أنعم الله على عبد نعمة إلا وعليه فيها تبعة ، إلا سليمان بن داود عليه السلام فإن الله تعالى قال له : « هذا عطاؤنا فامنُن أوأمسك بغير حساب » . وقال أبو حازم : إنْ عوفينا من شرّ ما أُعطينا لم يَضرْنا فَقْدُ مازُوِىَ عنا . وقال بعض السلف : قدّموا كُلاًّ ليكون لكم، ولاتخلّفوا كَلاًّ فيكون عليكم . وقال إبراهيم : نعم القوم السُّؤَّال : يدُقُّون أبوابكم يقولون : أتوجِّهون للآخرة شيئا . وقال سعيد بن المسيب : مرّ بى صِلَة بن أُشَيْم ، فما تمالكت أن نهضت إليه فقلت : يا أبا الصَّهباء ، ادْعُ لى . فقال : رَغَّبك الله فيما يبقى ، وزهَّدَك فيما يَفْنى ، ووهب لك اليقينَ الذى لاتسكن النفس إلا إليه ، ولا يُعَوَّل فى الدين إلا عليه . ولما ثَقُل عبد الملك ابن مروان رأى غَسَّالا يلْوِى بيده ثوبا . فقال : وددت أنى كنت غَسَّالا لاأعيش إلا بما أكتسبه يوما فيوما ، فبلغ ذلك أباحازم . فقال : الحمد لله الذى جعلهم يَتَمنَّوْن عند الموت مانحن فيه ، ولانتمنى نحن عنده ماهم فيه . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يقول ابنُ آدم مالى ! مالى ! وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لَبِسْتَ فأبليت ، أوأعطيْتَ فأمضيت » . وقال خالد بن صَفوان : بتّ ليلتى أتمنَّى ، فكسبْتُ البحر الأخضر ، والذهب الأحمر ، فإذا يكفينى من ذلك رَغيفان وكُوزان وطِمران . وقال مُوَرِّق العِجْلىّ : يا ابن آدم ، تُؤْتَى كل يوم برزقك وأنت تحزن ، ويُنْقَصُ عُمُرك وأنت لاتحزن ، تطلب مايُطْغيك وعندك ما يكفيك ! وقال أبو حازم : إنما بيننا و بين الملوك يوم واحد ، أما أمس فقد مضى ، فلايجدون لذته ، و إنا وهم من غدٍ على وجل ، و إنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون ؟ وقال بعض السلف : تعزّ عن الشىء إذا مُنِعْته ، لقلة مايَصْحبك إذا أُعْطيتَه .

وقال بعض الحكماء : من ترك نصيبه من الدنيا ، استوفى حظه من الآخرة . وقال آخر : ترك التَّلبُّس بالدنيا قبل التشبُّث بها ، أهون من رفضها بعد ملابستها . وقال آخر : ليكن طلبك الدنيا اضطرارا ، وتذكُّرك فى الأمور اعتبارا ، وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال آخر : الزاهد لايَطلبُ المفقود ، حتى يفقِد الموجود . وقال آخر : من آمن بالآخرة ، لم يَحْرِص على الدنيا ، ومن أيقن بالمجازاة ، لم يُؤثِر على الحسنى . وقال آخر : من حاسب نفسه ربح ، ومن غَفَلَ عنها خَسِر . وقال أبو العتاهية :

أَرَى الدنيا لمنْ هِىَ فى يَدَيْهِ ... عذابا كلما كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِينُ المُكْرِمِينَ لها بصُغْرٍ ... وتُكْرِمُ كلَّ مَنْ هانَتْ عَلَيْهِ
إذا اسْتَغنيتَ عن شىء فَدَعْهُ ... وخذ ما أنتَ مُحتاجٌ إليهِ

وحَكى الأصمعىّ رحمه الله ، قال : دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر فى كتاب ، ودموعه تسيل على خدّه ، فلما أبصرنى قال : أرأيت ما كان منى ؟ قلت : نعم ياأمير المؤمنين . فقال : أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ، ثم رمى إلىّ بالقِرْطاس ، فإذا فيه شعر أبى العتاهية رحمه الله تعالى :

هلْ أنتَ معتبِرٌ بمن خَرِبَتْ ... منه غداةَ قَضَى دساكِرُهُ
وبمَنْ أذلَّ الدهرُ مَصْرَعَه ... فتبرَّأتْ منه عساكِرُهُ
وبمَنْ خَلَتْ منهُ أَسِرَّتُه ... وتعَطَّلتْ منهُ مَنابِرُهُ
أينَ الملوكُ وأينَ عِزُّهُمُ ؟ ... صاروا مصيرًا أنتَ صائره !
يامؤثِرَ الدنيا للذَّتِهِ ... والمستعدُّ لمن يفاخِرُهُ
نَلْ مابدا لكَ أن تنالَ من الدُّ ... نيَا فإن الموت آخِرُهُ

فقال الرشيد رحمة الله عليه : والله لكأنّى أخاطَبُ بهذا الشعر دون الناس ، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا ، حتى مات رحمه الله .

ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضتك لها : أن تكشف لنفسك حال أجَلِك ، وتصرفها عن غرور أمَلِك ، حتى لايطيل لك الأملُ أجلاً قصيرا ، ولا يُنسيك موتا ولا نُشورا .

ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه : « أيها الناس إن الأيام تُطْوَى ، والأعمارَ تفنَى ، والأبدان تبْلَى ، و إن الليل والنهار يترا كضان كترا كض البريد[1] ، يقرّبان كل بعيد ، و يخْلِقان كل جديد ، وفى ذلك عبادَ الله ، ما ألهى عن الشهوات ، ورغّب فى الباقيات الصالحات » . وقال مِسْعر : كم من مستقبِل يوما وليس يستكمله ، ومنتظر غدا وليس من أجله ، ولو رأيتم الأجل ومسيرَه ، لأبغضتم الأملَ وغرورَه . وقال رجـل من الأنصار للنبىّ صلى الله عليه وسلم : مَنْ أكيسُ الناس ؟ قال : أكثرهم ذكرا للموت ، وأشدهم استعدادا له ، أولئك الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : كما تنامون ، كذلك تموتون ؛ وكما تستيقظون ، كذلك تبعثون . وقال علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه : أيها الناس، اتقوا الله الذى إن قلتم سمع، و إن أضمرتم عَلِم ، و بادروا الموت الذى إن هرَبتم أدرككم ، و إن أقمتم أخذكم . وقال العلاء بن المسيَّب : ليس قبل الموت شىء إلا والموت أشدّ منه ، وليس بعد الموت شىء إلا والموت أيسر منه . وقال بعض الحكماء : إن للباقى بالماضى معتبَرا ، وللآخِرِ بالأول مُزْدَجَرا ، والسعيد لا يَرْكن إلى الخُدَع ، ولا يغترُّ بالطمَع . وقال بعض الصلحاء : إن بقاءك إلى فناء ، وفناءك إلى بقاء ، فخُذ من فَنائك الذى لايبقى ، لبقائك الذى لايفنَى . وقال بعض العلماء : أىُّ عيش يطِيب ، وليس للموت طبيب ؟ وقال بعض البلغاء : كل امرئ يجرى من عمره إلى غاية تنتهى إليها مدة أجله ، وتنطوى عليها صحيفة عمله ، فخذ من نفسك لنفسك ، وقس يومك بأمسك ، وكُفّ عن سيئاتك ، وزد فى حسناتك ، قبلَ أن تستوفىَ مدّة الأجَل ، وتقَصِّرَ عن الزيادة فى السعى والعمل . وقيل فى منثور الحكم : من لم يتعرّض للنوائب تعرّضَتْ له . وقال أبو العتاهية :

ما للمقـابر لا تُجيـبُ إذا دَعاهن الـكئيبُ
حُفَرٌ مُسَقَّفَةٌ عليـهن الجنادلُ والـكثيبُ[2]
فيهن وِلْدانٌ وأطْـفال وشُبان وشِيبُ
كم من حبيبٍ لم تـكنْ نفسى بفُرْقَته تطيبُ
غادرتُهُ فى بعضهنّ مجنـدَلاً وهو الحبيبُ

(١) المقصود بالبريد هنا : البغال التى كانت تحمله قديما من مرحلة إلى مرحلة. (٢) الكثيب : المجتمع من الرمل.

وسلوْتُ عنه وإنما عهدِى برؤيته قريبُ

وَوَعظ النبىّ صلى الله عليه وسلم رجلا ، فقال : « أقِلل من الدنيا تعش حُرًّا ، وأقلل من الذنوب يَهُنْ عليك الموت ، وانظر حيث تضع ولدك ، فإن العرق دَسَّاس » . وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى : عِظنى وأوجز . فقال : اعلم أنك أوّل خليفة يموت . وعزّى أعرابىّ رجلا عن ابن صغير له . فقال : الحمد لله الذى نجّاه مما ههنا من الكدَر ، وخلّصه مما بين يديه من الخطَر . وقال بعض السلف : من عَمِل للآخرة أحرزَها والدنيا ، ومن آثر الدنيا حُرِمَها والآخرة . وقال بعض الصلحاء : استغنمْ تَنَفُّسَ الأجل ، وإمكان العمل ، واقطع ذكر المعاذير والعلل ، فإنك فى أجل محدود ، ونفَس معدود ، وعُمر غير ممدود . وقال بعض الحكماء : الطبيب معذور إذا لم يقدِر على دفع المحذور . وقال بعض البلغاء : اعمل عمل المرتحل ، فإن حادىَ الموت يحدوك ، ليوم ليس يَعْدُوك . ورُوِى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

غرَّ جهولًا أمَلُهْ يموتُ مَنْ جا أجَلُهْ
ومن دنا مِنْ حَتْفِهِ لم تُغنِ عنه حِيَلُهْ
وما بَقاء آخِرٍ قد غاب عنه أوّلُهْ ؟
والمرء لا يصحبُه فى القبر إلا عمَلُهْ

وقال أبو العتاهية :

لا تأمَنِ الموتَ فى لحظٍ ولا نَفَسٍ وإن تمنَّعت بالحجَّاب والحرَسِ
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرّعٍ منها ومتّرسِ
ترجو النجاةَ ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليَبَسِ

فإذا رُضْتَ نفسك من هذه الحالة بما وصفت ، اعتضت منها ثلاث خلال :

إحداها : أن تُكْفَى تسويف أمل يُرْديك ، وتَسْويلَ محال يؤذيك ، فإن تسويف الأمل غرّار ، وتسويل المحال ضرّار .

والثانية : أن تستيقظ لعمل آخرتك ، وتغتنم بقية أجلك ، بخير عملك ، فإن من قصَّر أمله ، واستقل أجله ، حسن عمله .

والثالثة : أن يَهُون عليك نزولُ ماليس عنه محيص ، ويسهُل عليك حلول ما ليس إلى دفعه سبيل ، فإن من تحقَّق أمرًا توطَّأ لحلوله ، فهان عليه عند نزوله . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى ذَرّ : نَبّه بالتفكر قلبك ، وجاف عن النوم جَنبك ، واتق الله ربَّك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبى ذَرّ رضى الله عنه : عِظْنى ، فقال : ارضَ بالقُوت ، وخَفْ من الفَوْت ، واجعل صومك الدنيا ، وفطرك الموت . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : مارأيت يقينا لاشك فيه ، أشبه بشك لايقين فيه ، من يقين نحن فيه ، فلئن كنا مُقِرِّين ، إنا لحمقى ، ولئن كنا جاحدين ، إنا لهلكَى . وقال الحسن البصرىّ رحمة الله عليه : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بذمك ، وكذلك ليلك . وقال الجاحظ فى كتاب « البيان » وجد مكتوبا فى حُجَر : يابن آدم لو رأيتَ يسير مابقِىَ من أجلك ، لزهدت فى طويل ماترجو من أمَلِك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصَرْت من حِرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غدا ندَمُك ، لو قد زَلّت بك قدمك ، أسلمك أهلك وحَشَمُك ، وتبرأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب . ولما حضَر بشر ابن منصور الموت فرح ، فقيل له : أتفرح بالموت ؟ فقال : أتجعلون قدومى على خالق أرجوه ، كمُقامى مع مخلوق أخافه . وقيل لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه : لو أرسلت إلى الطبيب ؟ فقال : قد رآنى . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال إنى فعّال لما أريد . وقيل للربيع بن خَيْثم وقد اعتل : ندعو لك بالطبيب ؟ قال : قد أردتُ ذلك ، فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرسّ ، وقرونا بين ذلك كثيرا ، وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوِى ، فهلكوا جميعا . وسئل أنوشِرْوان : متى يكون عيش الدنيا ألذ ؟ قال : إذا كان الذى ينبغى أن يعمله فى حياته معمولا . وقال بعض الحكماء : من ذكر المنية ، نَسِى الأمْنية . وقال بعض الأدباء : عن الموت تَنَسَّلَّ ، وهو كريشة تُسَل . وقال بعض البلغاء : الأمل حجاب الأجل .

وأنشد بعض أهل الأدب ماذُكر أنه لعلىّ رضى الله عنه :

فلو كُنا إذا مُتْنا تُرِكْنا ... لكان الموتُ راحةَ كلِّ حَيِّ

ولكنا إذا مُتْنا بُعِثْنا ... ونُسألُ كلُّنا عن كلِّ شَيِّ

وقال بعض الشعراء :

ألَا إنَّما الدنيا مَقِيلٌ لراكبٍ ... قَضَى وَطرًا من مَنزلٍ ثم هَجَّرا

فراحَ ولا يدْرِى علامَ قُدُومه ؟ ... ألَا كلُّ ماقَدَّمتَ يبقَى مُوَقَّرا

ورَوَى سعيدُ بن مسعود رضى الله عنه : أنّ أبا الدرداء رضى الله عنه قال : يارسول الله : أوصنى ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « اكسِبْ طَيِّبا ، واعمل صالحا ، واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم ، واعْدُد نفسك من الموتى » . وكتبَ الربيعُ بن خَيْثَم إلى أخ له : قدّم جَهازك ، وافرُغْ من زَادِك ، وكن وصىَّ نفسك ، والسلام . وقال بعض السَّلف : أصاب الدنيا من حَذِرها ، وأصابت الدنيا من أمِنها . ومرّ محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم ، فقيل : هؤلاء زُهّاد ، فقال : ماقدْرُ الدنيا حتى يُحمَد من زَهِدَ فيها ؟

وقال بعض الحكماء : السعيد من اعتبر بأمسِه ، واستظهر لنفسه ، والشقىّ من جمع لغيره ، وبَخل على نفسه . وقال بعض البلغاء : لا تَبِتْ من غير وَصيَّة ، وإن كنت من جسمك فى صحة ، ومن عُمرك فى فُسْحَة ، فإن الدهر خائن ، وكلّ ماهو كائن كائن . وقال بعض الشعراء :

مَن كان يعلم أن الموتَ مُدْرِكُهُ ... والقبرَ مسكنُهُ والبعثَ مخرَجُهُ

وأنهُ بين جنَّاتٍ سَتبْهِجُهُ ... يومَ القيامةِ أو نارٍ ستُنْضِجُهُ

فكلُّ شىء سوى التقوَى به سَمِجٌ ... وما أقام عليه منهُ أَسمَجُهُ

ترَى الّذى اتخذَ الدنيا لهُ وَطَنًا ... لم يَدْرِ أنّ المَنايا سوْفَ تُزْعِجهُ

ورَوَى جعفر بن محمد ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أنه قال فى بعض خطبه :

« أيها الناس ، إن لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم ، وإن لكم معالمَ فانتهوا إلى مَعالمكم ،

وإن المؤمن بين مخافتين : أَجَلٍ قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه ، وأجلٍ قد بَقِى لايدرى ما الله قاض فيه ، فليتزوّدِ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومن دُنياه لآخرته ، ومن الحياة قبل الموت ، فإن الدنيا خُلِقَتْ لـكم ، وأنتم خُلقتم للآخرة ، فوالّذى نفسُ محمد بيده : مابعد الموت من مُسْتَعتَب ، ولا بعد الدنيا دار ، إلا الجنةَ أوالنار » . وقال الحسن البصرىّ رحمة الله عليه : أمسِ أجَل ، واليوم عمَل ، وغدا أمل . فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى ، فنظمه شعرا :

ليس فيما مضَى ولا فى الّذى لم   يأت من لذةٍ لمستَحْلِيهَا
إنمَّا أنت طُولَ عُمْرِكَ ماعُمِّرْت فى الساعةِ التى أنتَ فيها
قنِّعِ النفس بالـكَفاف وَإلَّا   طلبَتْ منكَ فوق مَا يَكْفيها

وقيل لزاهد : ما بالك تمشى على العصا ، ولست بكبير ولا مريض ؟ فقال : إنى أعلم أنى مسافر ، وأنها دار بُلْغة[1] ، وأن العصاَ من آلة السفر . فأخذه بعض الشعراء فقال :

حَملْتُ العصالاالضَّعْفُ أوجب حَملَها   عَلَيَّ وَلا أنى تَحَنَّيتُ من كِبَرْ
ولـكنَّنى ألزَمْتُ نفسىَ حَمْلَها   لِأُعْلِمَها أنى مُقيمٌ عَلَى سَفَرْ

وقال بعض المتصوّفة : الدنيا ساعة ، فاجعلْها طاعة . وقال ذوالقرنين عليه السلام : رَتَعْنا فى الدنيا جاهلين ، وعِشْنا فيها غافلين ، وأُخْرِجنا منها كارهين . وقال عبد الحميد : المرء أسيرُ عُمْرٍ يسير . وقيل فى بعض المواعظ : عَجَبًا لمن يخافُ العقاب ، كيف لا يكفُّ عن المعاصى ؟! وعجَبًا لمن يرجو الثواب كيف لايعمل ؟! وقال بعض الحـكماء : المسىء ميِّت وإن كان فى دار الحياة ، والمحسن حىٌّ وإن كان فى دار الأموات . وقال بعض السلف : الله المستعانُ على ألسنة تَصِف ، وقلوب تعَرِف ، وأعمال تُخالِف . وقال آخر : الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما . وقال آخر : اعملوا لآخرتكم فى هذه الأيام التى تسير كأنها تطير . وقال آخر : الموت قُصَاراك ، فخذ من دنياك لا خْراك . وقال آخر : عبادَ الله ، الحذَر الحذَر ، فوالله لقد سَتَر ، حتى كأنه قد غَفَر ، ولقد أمْهَل ، حتى كأنه قد أهمَل . وقال آخر : الأيام صحائف أعمالكم ، فخلِّدوها أجملَ أفعالِكم . وقيل فى منثور الحكم : اقبَلْ نُصْح المَشِيب وإن عَجِل . وقيل : ماطلَعَت شمس ، إلا وَعَظَتْ بأمْس .

---

(١) داربلغة : يتزود منها للآخرة بالـكفاف من القوت .

وقال محمد بن بشير رحمه الله :

مَضَى أَمْسُكَ الأدنى شهيدًا معدّلا ويومُك هذا بالفِعال شهيدُ
فإن تكُ بالأمْسِ اقترفتَ إساءةً فثنِّ بإحْسَانٍ وأنتَ حميدُ
ولا ترجُ فعلَ الخيرِ منكَ إلى غدٍ لعلَّ غدًا يأتى وأنتَ فقيدُ

وَرَوَى أبوهريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ما رأيت مثل الجنة نامَ طالبها ؟ وما رأيت مثل النار نام هاربُها » ! وقال عيسى بن مريم عليهما السلام : ألا إنّ أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، الذين نظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وإلى آجل الدنيا ، حين نظر الناس إلى عاجلها ، فأماتوا منها ماخَشُوا أن يميت قلوبهم ، وتركوا منها ماعلموا أنه سيتركهم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الناس طالبان يَطْلُبان ، فطالب يطلب الدنيا ، فارفضوها فى نحره ، فإنه ربما أدرك الذى يطلبه منها ، فهلك بما أصاب منها ، وطالب يطلب الآخرة ، فإذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها . ودخل أبو الدرداء رضى الله عنه الشام فقال : ياأهل الشام ، اسمعوا قول أخ ناصح ، فاجتمعوا عليه . فقال : مالى أراكم تَبْنُون ما لا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون ؟ إن الذين كانوا قبلكم بنَوا مَشِيدا ، وأمَّلوا بعيدا ، وجمعوا كثيرا ، فأصبح أمَلُهم غُرُورًا ، وجَمْعُهم ثبورا ، ومساكنُهم قُبورا .

وقال أبو حازم : إن الدنيا غرَّتْ أقوامًا ، فعملوا فيها بغير الحقّ ، ففاجأهم الموت ، فخلَّفوا مالهم لمن لا يحمَدُهم ، وصاروا لمن لا يعذِرهم ، وقد خَلَقَنا بعدهم ؛ فينبغى أن ننظر للذى كرهناه منهم فنجتنِبَه ، والذى غَبَطْناهم به فنستعملَه .

ومرّ بعضُ الزهاد بباب مَلِك ، فقال : باب جديد ، وموت عتيد ، ونَزْع شديد ، وسَفر بعيد . ومرّ بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : مِسكين سَرَقَ منه رَجلٌ جُبَّة ، ومرّ به آخر فأعطاه جُبَّة ، فقال : صدَق الله ، « إنَّ سَعْيَكُمْ لشتَّى » . وقال بعض الحكماء : ما أنصفَ من نفسه من أيقن بالحشر والحساب ، وزهد فى الأجر والثواب . وقال آخر : بطول الأمل تقسو القلوب ، وبإخلاص النية تقِلّ الذنوب .

وقال آخر : إياكَ والمُنَى ، فإنها من بضائع النَّوْكَى ، وتُثَبِّط(١) عن الآخرة والأُولَى وقال آخر : قَصِّرْ أَمَلَك ، فإن العمر قصير ، وأحسنْ سِيرتك ، فالبرّ يَسير . وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله :

نَسِيرُ إلى الآجالِ فى كل ساعةٍ ... وأيامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلم نَرَ مِثلَ الموتِ حقًّا كأنَّهُ ... إذا ما تَخَطَّتْهُ الأمانىُّ باطلُ
وما أقبحَ التفريطَ فى زَمَن الصبا ... فكيفَ به والشيبُ فى الرأس نَازِلُ
تَرَحَّلْ عن الدُّنيا بزادٍ من التُّقى ... فعمرُكَ أيامٌ تُعَدُّ قلائلُ

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين :

فاعمَلْ على مَهَلٍ فإنكَ مَيِّتٌ ... وَاكدَحْ لِنفسِكَ أيُّها الإنسانُ
فكأنَّ ماقدْ كانَلم يكُ إذمَضَى ... وكأنَّ ماهو كائن قد كانُ(٢)

ونظرَ سليمانُ بن عبد الملك يوما فى المرآة فقال : أنا الملك الشابّ ، فقالت له جارية له :

أنْتَ نعمَ المتاعُ لو كنتَ تبقَى ... غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسانِ
ليسَ فيما بَدَا لنا منكَ عيبٌ ... كانَ فى الناسِ غيرَ أنَّكَ فانِى

وَرَوَى عبد العزيز بن عبد الصَّمَد ، عن أبان ، عن أنس ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجَدْعاء ، فقال :

« أيها الناسُ كأنَّ الموتَ فيها على غيرِنا كتِب ، وكأنَّ الحقّ فيها على غيرنا وَجَب ، وكأنَّ الذينَ نُشَيِّع من الأموات سَفْرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نُبوِّئُهُمْ أَجْداثهم ، ونأكل تُراثَهم ، كأنا مخلَّدون بعدَهم، قد نَسينا كلّ واعظة، وأمِنَّا كلَّ جائحة(٣) ، طوبى(٤) لمن شغله عيبه عن عيب غيره ، وأنفق من مالٍ كَسبَه من غير معصية ، ورحِم أهل الذلّ وَالمسْكَنة ، وخالط أهلَ الفقه والحكمة ! طوبى لمن أدَّب نفسه وحسُنت خليقته، وصلحت سريرته ؛ طُوبى لمن عمل بعلمه، وأنفقَ الفضلَ من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السُّنَّة، ولم يعدِل عنها إلى البدْعة» . وروى عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «زُوروا القبور تذْكُروا بها الآخرة، وغسِّلُوا الموتى ، فإن معالجة الأجسادِ الخاوية موعظةٌ بليغة » . وحفَر الربيع بن خَيْثم فى داره

(١) ثبطه عن الأمر : قعد به عنه . (٢) بضم النون لضرورة القافية .
(٣) مهلكة . (٤) طوبى : اسم الجنة .

قبرا ، فكان إذا وجد فى قلبه قسوة ، جاء فاضطجع فى القبر ، فمكث فيه ماشاء الله ، ثم يقول : رَبِّ أُرجعونِ لعلِّى أعمل صالحا فيما تركْت ، ثم يردّ على نفسه فيقول : قد أرجعتكِ فجدّى . فمكث كذلك ما شاء الله . وقال أبو مُحرْز الطُّفَاوىّ : كفتك القبورُ مواعظَ الأمم السالفة . وقيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظات ؟ قال : النظر إلى مَحِلّة الأموات ، فأخذه أبو العتاهية ، فقال :

وَعَظَتْكَ أَجْدَاثٌ صُمُتْ ... وَنَعَتْكَ أَزْمِنَةٌ خُفُتْ

وتكلّمتْ عَنْ أوجهٍ ... تَبلَى وعن صُوَرٍ سُبُتْ[1]

وأرتْكَ قبرَكَ فى الحيا ... ةِ وأنتَ حَىّ لم تمُتْ

يَا شَامِتًا بمَنيَّتِى ... إنّ المنيةَ لمْ تفُتْ

فلَرُبمَّا انقلبَ الشّما ... تُ فحلّ بالقوم الشُّمُتْ

وَوُجد على قبر مكتوبا : قَهَرْنا مَن قَهَرْنا ، فصرْنا للناظرين عِبْرة . وعلى آخر : من أمّل البقاء وقد رأى مَصارِعنا فهو مغرور . وقيل فى منثور الحِكم : ما أكثَرَ مَنْ يعرِف الحقّ ولا يُعطِيه . وقال بعض الحكماء : مَنْ لم يَمُتْ لم يَفُتْ . وقال بعض الصلحاء : لنا من كل ميِّت عظة بحاله ، وعِبرة بمآله . وقال بعض العلماء : من لم يتعظ بموتِ ولد، لم يتعظ بقول أحد . وقال بعض البلغاء : ما نقصَتْ ساعة من أمْسك ، إلا ببَضْعَةٍ من نفسك . فأخذه أبو العتاهية ، فقال :

إنّ مع الدّهْرِ فاعلمنّ غدَا ... فانظرْ بما ينقضى مجىءُ غدِهْ

ما ارتدّ طرفُ امرئ بلذّته ... إلّا وشىء يموت من جسَدِه

ولما مات الإسكندر قال بعض الحكماء : كان الملك أمسِ أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظُ منه أمسِ . فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى ، فقال :

كَفَى حزَنا بدفنك ثمّ أنِّى ... نفضْتُ تُراب َقبرِك عنْ يَدَيا

وكانت فى حياتك لى عظَاتٌ ... وأنت اليوم َأوعظُ منك حيّا

(١) سبت : مقطوعة متفرقة .

وقال بعض الحكماء : لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ، ولم يتجالسوا . فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية ، فقال :

أَحْسَنَ اللهُ بنا أنَّ الخطايا لا تَفُوحُ
فإذا المستورُ مِنّا بَيْنَ ثوبيهِ فُضُوحُ

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » .
وكتب رجل إلى أبي العتاهية رحمه الله :

يا أبا إسحاق إنِّى وَاثِقٌ منكَ بوُدِّكْ
فأَعِنِّى بِأَبى أنتَ عَلَى غَيِّى بِرُشْدِكْ

فأجابه بقوله :

أَطِعِ اللهَ بجَهْدِكْ راغبا أودونَ جَهْدِكْ
أَعْطِ مولاكَ الّذى تَطْلُبُ مِن طاعة عبدِكْ

وقال بعض الحكماء : من سره بنوه ، ساءته نفسه . فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية ، فقال :

ابنُ ذى الابن كلّما زادَ منه مَشْرَعٌ زادَ فى فَنَاء أبيهِ
مابقاء الأبِ المُلِحّ عليهِ بدبيب البِلَى شَبابُ بَنيهِ

وفى معناه ما حُكِيَ عن زِرّ بن حُبَيْش ، أنه قال وقد حضرته الوفاة ، وكان قد عاش مِئة وعشرين سنة :

إذا الرجالُ وَلدَت أولادُها وارتعشتْ من كِبَرٍ أجسادُها
وجعلَتْ أسقامُها تعتادُها تلكَ زُروع قد دَنَا حَصادُها

وكتب رجل إلى صالح بن عبد القدوس :

الموتُ باب وكل الناس داخلُه فليتَ شِعْرِى بعدَ الباب ما الدارُ ؟

فأجابه بقوله :

الدارُ جَنة عدن إن عملتَ بما يرضى الإلهَ و إن فرَّطتَ فالنارُ
هما مَحِلان ما للناسِ غيرُهما فانظرْ لنفسك ماذا أنت مختارُ

باب أدب الدنيا

[الانسان مدني بطبعه] اعلم أن الله تعالى لنافذ قدرته ، وبالغ حكمته ، خلق الخلق بتدبيره ، وفطرهم بتقديره ، فكان من لطيف مادبَّر ، وبديع ماقدّر ، أن خَلَقهم محتاجين ، وفطَرَهم عاجزين ، ليكون بالغنَى منفردا ، وبالقدرة مختصّا ، حتى يُشْعِرنا بقدرته أنه خالق ، ويُعلِمَنا بغناه أنه رازق ، فنُذْعِن[1] بطاعته رغبة ورهبة ، ونقرّ بنقصنا عَجْزا وحاجة .

ثم جعل الإنسان أكثرَ حاجة من جميع الحيوان ، لأن من الحيوان مايستقلّ بنفسه عن جنسه ، والإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه ، واستعانته صفة لازمة لطبعه ، وخِلْقة قائمة فى جَوْهره ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وخُلِق الإنسانُ ضعيفا » ، يعنى: عن الصبر عما هو إليه مفتقر ، واحتمال ماهو عنه عاجز . ولما كان الإنسان أكثرَ حاجة من جميع الحيوان ، كان أظهر عجزا ، لأن الحاجة إلى الشىء افتقار إليه ، والمفتقر إلى الشىء عاجز عنه . وقال بعض الحكماء المتقدمين : استغناؤك عن الشىء ، خير من استغنائك به .

وإنما خَص الله تعالى الإنسان بكثرة الحاجة ، وظهور العجز ، نعمة عليه ، ولطفا به ، ليكون ذُلّ الحاجة ، ومَهانة العَجْز ، يمنعانه من طُغيان الغِنَى ، وبغْى القُدْرة ، لأن الطغيان مَرْكوز فى طبعه إذا استغنى ، والبغْىَ مُسْتَوْلٍ عليه إذا قَدَر ، وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه ، فقال : « كلا إن الإنسانَ ليطغَى ، أنْ رآهُ استغنَى » ، ثم ليكون أقوى الأمور شاهدا على نقصه ، وأوضحُها دليلا على عجزه .

وأنشدنى بعض أهل الأدب لابن الرومىّ رحمه الله :

أعَيَّرْتنى بالنقصِ والنقصُ شاملٌ ... ومَنْ ذا الذى يُعْطَى الكمالَ فيَكْمُلُ ؟
وأشهدُ أنى ناقصٌ غيرَ أننى ... إذا قِيس بى قومٌ كثير تقلَّلُوا
تفاضَلَ هذا الخَلْق بالفضلِ والحِجا ... ففى أيِّما هذين أنتَ مفضَّلُ ؟
ولو منحَ اللهُ الكمالَ ابنَ آدمٍ ... لخلَّدَه ، واللهُ ما شاءَ يَفْعَلُ

ولما خلَق الله الإنسان ماسَّ الحاجَة ، ظاهر العجز ، جعل لنيل حاجته أسبابا ، ولدفع

(١) نسرع إليها .

عجزه حيلا ، دله عليها بالعقل، وأرشده إليها بالفطنة . قال الله تعالى : « والذى قدّرَ فهدَى » ؛ قال مجاهد : قدّر أحوال خَلْقه ، فهدَى إلى سبيل الخير والشرّ . وقال ابن مسعود فى قوله تعالى : « وَهَدَيناه النجدين » : يعنى الطريقين : طريقَ الخير ، وطريقَ الشرّ .

[أسباب درك الحاجات] ثم لما كان العقلُ دالا على أسباب ماتدعو إليه الحاجة ، جعل الله تعالى الإدراكَ وَالظّفَر موقوفا على ماقسَمَ وَقدّر ، كيلا يعتمدوا فى الأرزاق على عقولهم ، وفى العجز على فِطَنهم ، لتدوم له الرغبة والرهبة ، ويظهر منه الغنَى والقُدْرة ، وربما عَزَب هذا المعنى على من ساءَ ظنه بخالقه ، حتى صار سبيلا لضلاله ، كما قال الشاعر(١) :

سُبْحَانَ من أنزل الأيام منزلَهَا وَصيّرَ الناسَ مرفوضا ومَرْمُوقا
فعاقلٌ فَطِنٌ أعيَتْ مَذاهبُهُ وَجاهِلٌ خَرِقٌ تلقاه مَرْزُوقا
هذا الذى تركَ الألبابَ حائرَةً وَصيّرَ العاقلَ النّحْرِيرَ زِنْدِيقَا

ولو حَسُن ظَنُّ العاقل فى صحة نظره ، لعلِمَ من عِلَل المصالح ، ماصار به صِدّيقا لازنديقا ، لأن من علل المصالح ماهو ظاهر ، ومنها ماهو غامض ، ومنها ماهو مُغَيَّب ، حكمةٌ استأثر الله بها . ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « حسنُ الظن بالله ، من عبادة الله » .

[الأخذ من الدنيا بنصيب] ثم إن الله تعالى جعل أسباب حاجاته ، وحيل عجزه ، فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل ، كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء ، فلزم لذلك أن يصرف الإنسانُ إلى دنياه حَظًّا من عنايته ، لأنه لاغنى له عن التزوّد منها لآخرته ، ولا له بُدّ من سدّ الخُلّة فيها عند حاجته ، وليس فى هذا القول نقضٌ لما ذكرنا قبل : من ترك فضولها ، وزجر النفس عن الرغبة فيها ، بل الراغب فيها ملوم ، وطالب فضولها مذموم ، والرغبة إنما تختص بما جاوز قدرَ الحاجة ، والفضول إنما ينطلق على مازاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « فإذا فرَغْتَ فانْصَبْ ، وإلى ربِّكَ فارْغَبْ » . قال أهل التأويل : فإذا فرَغْتَ من أمور دنياك ، فانْصَبْ فى عبادة ربك ، وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ، ولكن نَدَبه إلى أخذ البُلْغَة منها . وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم : « ليس خيرُكم مَنْ تركَ الدنيا للآخرة ، ولا الآخرةَ للدنيا ، ولكن خيرُكم من أخذ

(١) هو ابن الراوندى .

من هذه وهذه » . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نعم المطية الدنيا ، فارتحلوها تبلغكم الآخرة » وذم رجلٌ الدنيا عند علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه . فقال رضى الله عنه : الدنيا دار صِدْق لمن صدَقها ، ودار نجاة لمن فهِمَ عنها ، ودار غِنًى لمن تزوّد منها .

وحكى مُقاتِل : أن إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال : يارب حتى متى أتردّد فى طلب الدنيا ؟ فقيل له : أَمْسِك عن هذا ، فليس طلب المَعاش من طَلَب الدنيا . وقال سفيان الثورىّ رحمة الله عليه : مكتوب فى التوراة : إذا كان فى البيت بُرٌّ فتعبَّدْ ، و إذا لم يكن فاطلُبْ ، يابن آدم حرِّكْ يدك ، يُسَبَّبْ لك رِزقك . وقال بعض الحكماء : ليس من الرَّغبة فى الدنيا اكتسابُ مايصون العِرْض فيها . وقال بعض الأدباء : ليس من الحِرْص اجتلاب مايقوت البدَن . وقال محمود الورَّاق :

لا تُتْبِـعِ الدُّنيا وأيامَها ذمًّا وإن دارتْ بكَ الدائرهْ
مِنْ شرَفِ الدُّنيا ومن فضلِها أنّ بها تُسْتدرَكُ الآخِرَهْ

فَإِذَنْ قد لزم لما بيناه ، النظرُ فى أمور الدنيا ، فواجبٌ سَبْر أحوالها ، والكَشْف عن جهة انتظَامِهَا واختلالها ، لنعلم أسبابَ صلاحها وفسادها ، وموادّ عُمْرانها وخَرابها ، لتنتفىَ عن أهلها شُبَه الحيرة ، وتَنْجلى لهم أسباب الخِيَرَة ، فيقْصِدُوا الأمور من أبوابها ، و يعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها .

[صلاح الدنيا بشيئين] واعلم أن صلاح الدنيا مُعْتَبر من وجهين : أولُهما ماينتظم به أمور جملتها . والثانى مايصلح به حال كل واحد من أهلها ، فهما شيئان لاصلاحَ لأحدهما إلا بصاحبه ، لأن من صَلَحَتْ حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها ، لن يعدَم أن يتعدَّى إليه فسادُهَا ، و يقدَح فيه اختلالها ، لأنه منها يستمدّ ، ولها يستعدّ ، ومن فسدَت حاله مع صلاح الدنيا ، وانتظام أمورها ، لم يجد لصلاحها لذة ، ولالاستقامتها أثرا ، لأن الإنسان دُنيانفسه ، فليس يرى الصلاح إلا إذا صَلَحَتْ له ، ولايجدُ الفسادَ إلا إذا فسدَت عليه ، لأن نفسه أخصّ ، وحاله مسّ ، فصار نظره إلى مايخصّه مصروفا ، وفكره على مايمسّه موقوفا .

[الاختلاف سبب للتعاون] واعلم أن الدنيا لم تكن قطُّ لجميع أهلها مُسعدة ، ولا عن كافة ذويها مُعرِضة ، لأن إعراضها عن جميعهم عطَب ، و إسعادها لكافتهم فساد ، لائتلافهم بالاختلاف والتباين ، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون ، فإذا تساوى حينئذ جميعُهم ، لم يجد أحدُهم إلى الاستعانة بغيره سبيلا ، و بهم من الحاجة والعجز ما وصفنا ، فيذهبوا ضَيعة ، ويهلكوا عجزْا . وأما إذا تباينوا واختلفوا ، صاروا مُؤْتلفين بالمعونة ، متواصلين بالحاجة ، لأن ذا الحاجة وَصُول ، والمحتاج إليه موصول . وقد قال الله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلّا مَنْ رحمَ ربُّكَ ، ولذلك خلقَهم » . قال الحسن : مختلفين فى الرزق ، فهذا غنىٌ وهذا فقير ، ولذلك خلقهم ، يعنى للاختلاف بالغِنَى والفقر . وقال الله تعالى : « والله فضَّلَ بعضَكم على بعض فى الرزق » . غير أن الدنيا إذا صَلَحت كان إسعادها مَوفورا ، و إعراضُها ميسورا ، لأنها إذا مَنَحت هَنَّأَتْ وَأَوْدَعت ، و إذا استردّت رَفَقَتْ وأبقَتْ ؛ و إذا فسدَت الدنيا كان إسْعادها مكرا ، و إعراضها غَدْرا ، لأنها إذا مَنَحت كَدَّتْ وأتعبَتْ ، و إذا استردّت ، استأصلتْ وأجحفتْ . ومع هذا فصلاح الدنيا مُصلح لسائر أهْلها ، لوفور أماناتهم ، وظهور دياناتهم ، وفسادها مفسد لسائر أهلها ، لقلة أماناتهم ، وضعف دياناتهم ، وقد وُجد ذلك فى مَشاهِد الحال: تجربةً وعُرْفا ، كما يقتضيه دليل الحال : تعليلا وكَشْفا ، فلا شىء أنفع من صلاحها ، كما لاشىء أضرّ من فسادها ، لأن ماتقوى به دِيانات الناس ، وتتوفَّر أماناتُهم ، فلاشىء أحقّ به نفعا ، كما أن مابه تضعف دياناتهم ، وتذهَب أماناتهم ، فلاشىء أجدر به ضَرَرا .

وأُنْشِدْتُ لأبى بكر بن دُرَيد :

النَّاسُ مِثْلُ زمانِهمْ ... قدَّ الحذاءِ على مِثَالِهْ
ورجالُ دهرك مثلُ دهْـرِكَ فى تقلُّبـِهِ وحَالِهْ
وكذا إذا فسدَ الزما ... نُ جَرَى الفسادُ عَلَى رِجالِهْ

[ما تصلح به حال الدنيا] وإذْ قد بلغ بنا القولُ إلى ذلك ، فسنبدأ بذكر ما تصلُح به الدنيا ، ثم نتلوه بوصف مايصلح به حال الإنسان فيها .

اعلم أن مابه تصلح الدنيا ، حتى تصير أحوالها منتظمة ، وأمورها ملتئمة ، ستةُ أشياء ،

هى قواعدها وإن تفرعت ، وهى : دِينٌ مُتَّبع ، وسُلْطان قاهر ، وعَدْل شامل ، وأمن عامٌّ ، وخِصْبٌ دائم ، وأملٌ فسيح .

فأما القاعدة الأولى ، وهى الدِّين المتَّبع : فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها ، ويَعْطِف القلوب عن إراداتها ، حتى يصير قاهرا للسرائر ، زاجرا للضمائر ، رقيبا على النفوس فى خلواتها ، نَصوحا لها فى مُلِمَّاتها . وهذه الأمور لا يُوصَل بغير الدين إليها ، ولا يَصْلُح الناس إلّا عليها ، فكان الدِّين أقوى قاعدة فى صلاح الدنيا واستقامتها ، وأجدى الأمور نفعا فى انتظامها وسلامتها ، ولذلك لم يُخْلِ اللهُ تعالى خَلْقه مذ فَطَرهم عُقلاء من تكليف شَرْعى ، واعتقاد دِينى ، ينقادون لحكمه ، فلا تختلف بهم الآراء ، ويستسلمون لأمره ، فلا تتصرف بهم الأهواء .

[العقل والشرع أيهما سبق الآخر] : وإنما اختلف العلماء رضى الله عنهم فى العَقْل والشَّرْع : هل جاءا مجيئا واحدا ، أم سبق العقلُ ، ثم تعقبه الشرع ؟ فقالت طائفة : جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا ، لم يسبق أحدهما صاحبه .

وقالت طائفة أخرى : بل سبق العقل ، ثم تعقبه الشرع ، لأنه بكمال العقل يُسْتَدَلّ على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى : « أَيَحْسَبُ الإنسان أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » ؟ وذلك لا يوجد منه إلّا عند كمال عقله . فثبت أن الدِّين من أقوى القواعد فى صلاح الدنيا ، وهو الفَرْد الأوحد فى صلاح الآخرة ، وما كان به صلاح الدنيا والآخرة ، فحقيق بالعاقل أن يكون به متمسكا ، وعليه محافظا . وقال بعض الحكماء : الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة ؛ فأدب الشريعة : ما أدّى الفرض ، وأدب السياسة : ما عَمَرَ الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذى به سلامة السلطان ، وعِمارة البُلْدان ، لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ، ومن خَرَّبَ الأرض فقد ظلم غيرَه .

وقال سعد بن حُمَيد :

ماصِحَّةٌ أبدا بنافعـةٍ   حتى يصحَّ الدينُ والخلُقُ

وأما القاعدة الثانية : فهى سلطان قاهر ، تتألفُ برهبته الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة ، وتَنْكَفُّ بسَطْوته الأيدى المتغالبة ، وتَنْقَمع من خوفه النفوسُ التعادية ،

لأن فى طباع الناس من حُبّ المغالبة والمنافسة على ما آثروه ، والقَهْر لمن عاندوه ، مالا يَنْكَفُّون عنه ، إلا بمانع قوىّ ، ورادع مَلِىّ . وقد أفصحَ المتنبى بذلك حيث يقول :

لا يَسْلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأَذَى ... حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوانبِهِ الدَّمُ

والظلمُ مِن شِيَمِ النفوسِ فإن تجدْ ... ذَا عِفَّةٍ فلِعلّةٍ لا يَظْلِمُ

وهذه العلة المانعة من الظلم ، لا تخلو من أحد أربعة أشياء : إما عقلٍ زاجر ، أو دينٍ حاجز ، أو سلطان رادع ، أو عجْز صادّ ؛ فإذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ، ورهبة السلطان أبلغها ، لأن العقلَ والدين ربما كانا مضعوفين ، أو بداعى الهوى مغلوبين ، فتكون رهبة السلطان أشدّ زَجْرا ، وأقوى رَدْعا . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السلطانُ ظِلُّ الله فى الأرض ، يأوِى إليه كل مظلوم » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ليزَعُ بالسُّلْطان ، أكثرَ مما يَزَعُ بالقرآن » . ورُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله حُرّاسا فى السماء ، وحُرّاسا فى الأرض ، فحُرّاسه فى السماء الملائكة ، وحُرّاسه فى الأرض الذين يقبضون أرزاقهم ، ويذُبُّون عن الناس » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإمام الجائر خير من الفتنة ، وكلٌّ لا خير فيه ، وفى بعض الشر خيار » . وقال عبد الله بن مسعود : السلطان يَفسُد ، وما يُصْلِح الله به أكثر ، فإن عدل فله الأجر ، وعليكم الشكر ، وإن جار فعليه الوِزر ، وعليكم الصبر . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : سُبَّت العجم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنهى عن ذلك ، وقال : « لا تسبوها ، فإنها عَمَرت بلاد الله تعالى ، فعاش فيها عباد الله تعالى » . وقال بعض البلغاء : السلطان فى نفسه إمام متبوع ، وفى سيرته دين مشروع ، فإن ظلم لم يعدل أحد فى حكم ، وإن عدل لم يجسر أحد على ظلم . وقال بعض الأدباء : إن أقرب الدعوات من الإجابة : دعوة السلطان الصالح ، وأولى الحسنات بالأجر والثواب : أمرُه ونهيه فى وجوه المصالح . فهذه آثار السلطان فى أحوال الدنيا ، وما ينتظم به أمورها . ثم لما فى السلطان من حراسة الدين والذّب عنه ، ودفع الأهواء منه ، وحراسة التبديل فيه ، وزجر من شذّ عنه بارتداد ، أو بغى فيه بعناد ، أو سعى فيه بفساد . وهذه أمور إن لم تنحسم عن الدين بسلطان قوىّ ، ورعاية وافية ، أسرعَ فيه تبديل ذوى الأهواء ، وتحريف ذوى الآراء ، فليس دين زال سلطانه ، إلا بدّلت أحكامه ، وطمست أعلامه ،

وكان لكل زعيم فيه بدعة ، ولكل عصر فى وَهْيه أثر ، كما أن السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب ، حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا ، والتناصر عليه حتما ، لم يكن للسلطان لُبْث ، ولا لأيامه صفو ، وكان سلطان قهر ، ومفسد دهر ؛ ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت ، زعيم الأمة ، ليكون الدين محروسا بسلطانه ، والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه . وقد قال عبد الله بن المعتز :

الملكُ بالدين يبقى والدينُ بالملك يَقْوَى

واختلف الناس : هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع ؟ فقالت طائفة : وجب بالعقل ، لأنه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم ، الفزع إلى زعيم مندوب ، للنظر فى مصالحهم . وذهب آخرون إلى وجوبه بالشرع ، لأن المقصود بالإمام القيام بأمور شرعية ، كإقامة الحدود ، واستيفاء الحقوق ، وقد كان يجوز الاستغناء عنها ، بأن لا يراد التعبد بها ، فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد إلا لها أولى . وعلى هذا اختلفوا فى وجوب بعثة الأنبياء ، فمن قال بوجوب ذلك بالعقل ، قال بوجوب بعثة الأنبياء ، ومن قال بوجوب ذلك بالشرع ، منع وجوب بعثة الأنبياء ، لأنه لما كان المقصود ببعثهم تعريف المصالح الشرعية ، وكان يجوز من المكلفين أن لا تكون هذه الأمور مصلحة لهم ، لم يجب بعثة الأنبياء إليهم .

فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد ، و بلد واحد ، فلا يجوز إجماعا ، فأما فى بُلْدان شتى ، وأمصار متباعدة ، فقد ذهبت طائفة شاذة إلى جواز ذلك ، لأن الإمام مندوب للمصالح ، وإذا كان اثنان فى بلدين أو ناحيتين ، كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه ، وأضبط لما يليه ، ولأنه لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ، ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة ، كانت الإمامة أولى ، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة .

وذهب الجمهور إلى أن إقامة إمامين فى عصر واحد لا يجوز شرعا ، لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا بويع أميران ، فولوا أحدهما » . وروى : « فاقتلوا الأخير منهما » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا وليتم أبا بكر تجدوه قويا فى دين الله عزوجل ضعيفا فى بدنه . وإذا وليتم عمر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل قويا فى بدنه . وإن وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا » . فبين بظاهر هذا الكلام أن إقامة جميعهم فى عصر واحد لا يصح ،

ولو صح لأشار إليه ، ولنبه عليه . والذى يلزم سلطان الأمة من أمورها سبعة أشياء :

أحدها : حفظ الدين من تبديل فيه ، والحث على العمل به ، من غير إهمال له .

والثانى : حراسة البيضة ، والذب عن الأمة ، من عدوّ فى الدين ، أو باغى نفس أومال .

والثالث : عمارة البلدان باعتماد مصالحها ، وتهذيب سُبُلها ومسالكها .

والرابع : تقدير مايتولاه من الأموال بسنن الدين ، من غير تحريف فى أخذها و إعطائها .

والخامس : معاناة المظالم والأحكام ، بالتسوية بين أهلها ، واعتماد النصَفة فى فصلها .

والسادس : إقامة الحدود على مستحقها ، من غير تجاوز فيها ، ولا تقصير عنها .

والسابع : اختيار خلفائه فى الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها ، والأمانة عليها .

فإذا فعل من أفْضَى إليه سلطان الأمة ماذكرناه من هذه الأشياء السبعة ، كان مؤديا حق الله تعالى فيهم ، مستوجبا طاعتهم ومناصحتهم ، مستحقا صدق ميلهم ومحبتهم ؛ وإن قصر عنها ، ولم يقم بحقها وواجبها ، كان بها مُؤاخَذا ، وعليها معاقبا ، ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت ، يتربصون الفُرص لإظهارها ، ويتوقعون الدوائر لإعلانها . وقد قال الله تعالى : « قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذابا من فوقكمُ أومن تحت أرجلِكم أو يَلْبسكم شِيعا » .
وفى قوله تعالى : « عذابا من فوقكم أومن تحت أرجلكم » تأويلان :

أحدهما : أن العذاب الذى هو من فوقهم : أمراء السوء ، والذى من تحت أرجلهم : عبيد السوء . وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما .

والثانى : أن العذاب الذى هو من فوقهم : الرجْم ، والذى من تحت أرجلهم : الخَسْف . وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير . وفى قوله تعالى : « أوْيَلْبِسَكم شِيَعا » تأويلان :

أحدهما : أنه الأهواء المختلفة ، وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما .

والثانى : أنه الفِتن والاختلاط ، وهذا قول مجاهد . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن أميرٍ على عشرة إلّا وهو يجىء يوم القيامة مَغْلولةً يداه إلى عُنُقه ، حتى يكون عمله هو الذى يطلقه أو يُوبِقُه » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: « خيرأئمتكم : الذين تُحبونهم ويحبونكم . وَشرّأئمتكم: الذين تُبْغِضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم» .

وهذا صحيح ، لأنه إذا كان ذا خير أحبهم وأحبوه ، وإذا كان ذا شرّ أبغضهم وأبغضوه . وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقّاص رضى الله عنه : « إن الله تعالى إذا أحب عبدا حببه إلى خلقه ، فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله ، مثل مالله عندك » ، فكان هذا موضحا لمعنى ماذكرنا .

وأصل هذا : أن خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه ، وطاعته فى خلقه تبعث على محبته ؛ فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته ، و بغضهم دليلا على شَرِّه وقلة مراقبته . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض خلفائه : أوصيك أن تخشى الله فى الناس ، ولا تخشى الناس فى الله . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : إنى أخاف الله فيما تقلدت . فقال له : لست أخاف عليك أن تخاف الله ، و إنما أخاف عليك أن لا تخاف الله ، وهذا واضح ، لأن الخائف من الله تعالى مأمون الحَيْف ، كالذى رُوِى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لأبى مَرْيَم السّلُولِىّ ، وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب : والله إنى لا أُحِبك حتى تحبَّ الأرضُ الدم . قال : أفيمنعنى ذلك حَقّا ؟ قال : لا . قال : فلا ضَيْرَ ، إنما يأسَى عَلَى الحب النساء .

ورَوَى عبد الرحمن بن محمد قال : أصدقَ طلحة بن عُبيد الله أم كلثوم بنت أبى بكر مئة ألف درهم ، وهو أوّل من أصدق هذا القدر ، فمرّ بالمال على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : صدَاق أم كلثوم ابنة أبى بكر . فقال : أدخلوه بيت المال ، فأخبر بذلك طلحة ، وقيل له : كلِّمْهُ فى ذلك ، فقال : ما أنا بفاعل : لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يردّه لكلامى ، و إن كان لا يرى فيه حقا ليردّنه . قال : فلما أصبح عمر ، أمر بالمال فدُفِع إلى أم كلثوم .

وحكى أن الرشيد حبس أبا العتاهية ، فكتب على حائط الحبس :

أما والله إن الظلْم لوْم وما زال المسىء هو الظلومُ
إلى ديان يوم الدّين نمْضِى وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلَمَ فى المَعَادِ إذا التقينا غدا عندَ المَليكِ مَنِ الظَّلُومُ

فأخبر الرشيد بذلك ، فبكى بكاء شديدا ، ودعا أبا العتاهية فاستحله ، ووهب له ألف دينار ، وأطلقه .

وأما القاعدة الثالثة : فهى عدل شامل ، يدعو إلى الألفة ، ويبعث على الطاعة ، وتعمر به البلاد ، وتنمو به الأموال ، ويكثر معه النسل ، ويأمن به السلطان ؛ فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا : عدلت فأمنت فنمت .

وليس شىء أسرع فى خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق ، من الجَوْر ، لأنه ليس يقف على حدّ ، ولا ينتهى إلى غاية ، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . وقد رُوِى عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلم أنه قال : « بئس الزاد، إلى المعاد ، العُدْوان على العباد » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مُنْجِيات ، وثلاث مُهْلِكات : فأما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضا ، وخشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الغِنَى والفقر . وأما المهلكات : فشُحّ مُطاع ، وهوًى مُتَّبَع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وحكى أن الاسكندر قال لحكماء الهند، وقد رأى قلة الشرائع بها: لم صارت سُنَن[1] بلادكم قليلة ؟ قالوا : لإعطائنا الحق من أنفسنا ، ولعدل ملوكنا فينا . فقال لهم : أيُّما أفضل ؟ العدل أم الشجاعة ؟ قالوا : إذا استُعمل العدل أغنى عن الشجاعة . وقال بعض الحكماء : بالعدل والإنصاف تكون مدة الائتلاف . وقال بعض البلغاء : إن العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ، ونصبه للحق ، فلا تخالفه فى ميزانه ، ولا تعارضْه فى سلطانه ، واستعن على العدل بخَلَّتين : قلة الطمع ، وكثرة الورع . فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا ، التى لا انتظام لها إلا به ، ولا صلاح فيها إلا معه ، وجب أن يُبْدَأ بعدل الإنسان فى نفسه ، ثم بعدله فى غيره .

فأما عدله فى نفسه ، فيكون بحملها على المصالح ، وكفها عن القبائح ، ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الأمرين : من تجاوز أو تقصير ، فإن التجاوز فيها جَوْر ، والتقصير فيها ظلم ، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أجوَر . وقد قال بعض الحكماء : من توانى فى نفسه ضاع .

---

(١) يريد بالسنن هنا : القوانين الموضوعة للفصل بين الناس فى الخصومات .

وأما عدله مع غيره ، فقد ينقسم حال الإنسان مع غيره على ثلاثة أقسام :

فالقسم الأوّل : عدل الإنسان فيمن دونه ، كالسلطان فى رعيته ، والرئيس مع صحابته ، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء : باتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلط بالقوّة ، وابتغاء الحقّ فى السِّيرة ؛ فإن اتباع الميسور أدْوَم ، وحذفَ المعسور أسلم ، وترك التسلّط أعطف على المحبة ، وابتغاء الحق أبعث على النُّصْرة . وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبِّر ، كان الفساد بنظره أكثر ، والاختلاف بتدبيره أظهر . رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه ، فجار فى حكمه» . وقال بعض الحكماء : الملْك يبقَى على الكفر ، ولا يبقى على الظلم . وقال بعض الأدباء : ليس للجائر جار ، ولا تَعْمُرُ له دار . وقال بعض البلغاء : أقرب الأشياء صَرْعَةُ الظَّلُوم ، وأنفذ السهام دَعْوة المظلوم . وقال بعض حكماء الملوك : العَجَب من مَلِك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزّه بطاعتهم . وقال أرْدَشير بن بَابَك : إذا رغب الملك عن العدل ، رغبت الرعية عن طاعته . وعُوتب أنو شِرْوان على ترك عقاب المذنبين ، فقال : هم المرضَى ، ونحن الأطباء ، فإذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم ؟

والقسم الثانى : عدل الإنسان مع من فوقه ، كالرعية مع سلطانها ، والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة أشياء : بإخلاص الطاعة ، و بذل النصرة ، وصدق الولاء . فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل ، و بذل النصرة أدفع للوهن ، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن . وهذه أمور إن لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه ، واضطر إلى اتقاء من كان يقيه ، كما قال البُحْتُرِىّ :

مَتَى أحْوَجْتَ ذَا كَرَم تخَطَّى ... إليكَ ببعضِ أخلاقِ اللِّئام

وفى استمرار هذا حَلّ نظامٍ جامع ، وفساد صلاحٍ شامل . وقال أبرويز[1] : أطعْ من فوقَك ، يُطِعْك من دُونَك . وقال بعض الحكماء : الظلم مسلبة النعم ، والبغى مجلبة للنقم . وقال بعض الحكماء : إن الله تعالى لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه ، وحقه شكر النعمة ، ونصح الأمة ، وحسن الصنيعة ، ولزوم الشريعة .

والقسم الثالث : عدل الإنسان مع أكفائه ويكون بثلاثة أشياء : بترك الاستطالة ،

---

(١) أبرويز بن هرمز : كان من حكماء ملوك الفرس .

ومجانبة الإدلال ، وكف الأذى ، لأن ترك الاستطالة آلف ، ومجانبة الإدلال أعطف ، وكف الأذى أنصف . وهذه أمور إن لم تخلص فى الأكفاء، أسرع فيهم تقاطع الأعداء ، ففسدوا وأفسدوا . وقد رُوِى عن عمر بن عبد العزيز ، عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بشرار الناس ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : من أَكَلَ(١) وحده ، ومنع رفده، وجلد عبده . ثم قال : أفلا أنبئكم بشرّ من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شرّه ، ثم قال : ألا أنبئكم بشرّ من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : من يبغض الناس و يبغضونه» . ورُوى أن عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيبا فى بنى إسرائيل فقال : يابنى إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، ولا تكافئوا ظالما ، فيبطل فضلكم .

يابنى إسرائيل : الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلفتم فيه ، فردّوه إلى الله تعالى، وهذا الحديث جامع لآداب العدل فى الأحوال كلها . وقال بعض الحكماء : كل عقل لا يُدَارَى(٢) به الكل فليس بعقل تام .

وقال بعض الشعراء :

مادمت حيًّا فدارِ الناس كلهم   فإنما أنت فى دار المداراةِ
من يدر دارى ومن لم يدر سوف يُرَى   عما قليل نديما للندامات

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة ، يكون عدلهم فيها بالتوسط فى حالتى التقصير والسرف ، لأن العدل مأخوذ من الاعتدال ، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل . وقد قالت الحكماء : الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين(٣) . وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين . فالحكمة : واسطة بين الشرّ والجهالة . والشجاعة : واسطة بين التقحُّم والجبن . والعفة : واسطة بين الشرَه وضعف الشهوة . والسكينة : واسطة بين السخط وضعف الغضب . والغيرة : واسطة بين الحسد وسوء العادة . والظرف : واسطة بين الخلاعة والفدامة . والتواضع : واسطة بين الكبر ودناءة النفس . والسخاء : واسطة بين التبذير والتقتير . والحلم : واسطة بين

---

(١) كذا فى منهاج اليقين . وفى مطبوعة بولاق : (نزل) فى موضع (أكل) ولعلها رواية غير مشهورة .
(٢) المداراة : مستحبة ، وهى لين الكلام ، وترك الإغلاظ فى القول . وهى غير المداهنة المحرمة .
(٣) لا تطرد هذه القاعدة فى علم الأخلاق .

إفراط الغَضَب وعدمه . والمودّة : واسطة بين الخِلابة وحسن الخلق . والحياء : واسطة بين القِحَة والحصَر . والوقار : واسطة بين الهزْء والسخافة .

وإذا كان ماخرج عن الاعتدال إلى ماليس باعتدال خروجا عن العدل ، إلى ماليس بعدل ، كان ماخرج عن الأوْلى إلى ماليس بأولى ، خروجا عن العدل، إلى ماليس بعدل . وقد قال بعض البلغاء : السلطان السَّوء يخيف البرىء ، ويصطنع الدنىء ؛ والبلد السَّوء يجمع السِّفَل ، ويورث العِلَل ؛ والولد السَّوء يَشين السلَف ، وَيهدِمُ الشرَف ؛ والجار السَّوء يفشى السرّ ، ويهتك السِّتر ؛ فجعل هذه الأشياء بخروجها عن الأَوْلَى إلى ماليس بأَوْلى ، خروجا عن العدل ، إلى ماليس بعدل .

ولست تجد فسادا إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل ، إلى ماليس بعدل من حالتى الزيادة والنقصان ، فإذن لاشىءَ أنفعُ من العدل ، كما أنه لاشىءَ أضرّ مما ليس بعدل .

وأما القاعدة الرابعة : فهى أمنٌ عامّ تطمئن إليه النفوس ، وتنتشر فيه الهِمم ، ويسكن فيه البرىء ، ويأنس به الضعيف ، فليس لخائف راحة ، ولا لحاذر طمأنينة . وقد قال بعض الحكماء : الأمن أهنأ عيش ، والعدل أقوى جيش ؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويحجُزُهم عن تصرّفهم ، ويكفهم عن أسباب الموادّ التى بها قِوام أَوَدهم ، وانتظام جملتهم ؛ ولئن كان الأمن من نتائج العدل ، والجوْر من نتائج ماليس بعدل ، فقد يكون الجوْر تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل ، وتارة يكون بأسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين ، فلا تكون خارجة عن حال العدل ؛ فمن أجل ذلك لم يكن ماسبق من حال العدل ، مقنعا عن أن يكون الأمن فى انتظام الدنيا قاعدة كالعدل ، فإذا كان ذلك كذلك ، فالأمن المطلَق : ماعمّ ، والخوف قد يتنوّع تارة ويعمّ ، فتنوّعه بأن يكون تارة على النفس ، وتارة على الأهل ، وتارة على المال ؛ وعمومه : أن يستوعب جميع الأحوال ، ولكل واحد من أنواعه حظ من الوَهْن ، ونصيب من الحزن . وقد يختلف باختلاف أسبابه ، ويتفاضل بتباين جهاته ، ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه . فمن أجل ذلك لم يجُز أن يتصف حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهْن ، ونصيب من الحزن ، لاسيما والخائف على الشىء مختص الهم به ، منصرف الفكر عن غيره ، فهو يظن أن لاخوف له إلا إياه ، فيغفُل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه ،

فصار كالمريض الذى هو بمرضه متشاغل ، وعما سواه غافل ، ولعل ماصُرِفَ عنه ، أعظم مما ابتُلِىَ به .

عَلَى أنها تعفُو الكُلومُ وإنما يُوَكَّلُ بالأدنَى وإن جَلّ مايَمضِى (١)

وحكى أن رجلا قال — وأعرابىّ حاضر — ما أشدَّ وجَعَ الضِّرْس ! فقال الأعرابىّ : كل داء أشد داء . كذلك من عمه الأمن كمن استولت عليه العافية ، فهو لايعرف قَدْرَ النعمة بأمنه حتى يخاف ، كما لايَعرف المُعافَى قدر النعمة بعافيته حتى يُصاب . وقال بعض الحكماء : إنما يُعْرَف قدرُ النعمة بمقاساة ضدّها ، فأخذ ذلك أبوتمام الطائىّ ، فقال :

والحادثاتُ وإن أصابَكَ بؤسُها فهو الذى أنباكَ كيفَ نعيمُها

فالأَوْلى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه ، قدْر النعمة فيما سوى ذلك ، من عافيته وأمنه ، وما انصرف عنه ، مما هو أشد من مرضه وخوفه ، فيستبدل بالشكوى شكرا ، وبالجزَع صبرا ، فيكون فرحا مسرورا .

حُكى أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيَه : أىَّ شىء كان خبرك بعدى ؟ قال : لاتسأل عما فعله بى إخوتى ، سلنى عما صنعه بى ربِّى . وقال الشاعر :

لاتنس فى الصحة أيامَ السَّقَمْ فإن عُقْبَى تاركِ الحزمِ نَدَمْ

وأما القاعدة الخامسة : فهى خِصْب دارّ (٢) ، تتسع النفوس به فى الأحوال ، ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال ، فيقلّ فى الناس الحسد ، وينتفى عنهم تباغض العَدَم ، وتتسع النفوس فى التوسع ، وتكثر المؤاساة والتواصل ، وذلك من أقوى الدواعى لصلاح الدنيا ، وانتظام أحوالها ؛ ولأن الخصب يئول إلى الغنى ، والغنى يُورث الأمانة والسخاء .

وكَتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرىّ : لاتستقضين إلا ذا حَسب أومال ، فإن ذا الحَسَب يخاف العواقب ، وذا المال لايرغب فى مال غيره . وقال بعض السلف : إنى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقَى والغنَى ، وشر الدنيا والآخرة فى الفُجُور والفقر .

---

(١) يعنى أن الإنسان ينسى الحوادث الماضية وإن عظمت ، وإنما يهمه ما حضره منها .

(٢) أى رفاغة عيش ، وكثرة عشب .

وقال بعض الشعراء :

ولم أرَ بعد الدين خيرًا من الغنَى   ولم أرَ بعد الكفر شرًّا من الفقرِ

وبحَسَب الغِنَى يكون إقلال البخيل وإعطاؤه ، وإكثار الجواد وسخاؤه ، كما قال دِعْبِل :

لئن كنتَ لاتولِى نَدًى دون إمرةٍ   فلستَ بمولٍ نائلاً آخرَ الدهر

وأىّ إناء لم يَفِض عند مَلْئِه   وأىّ بخيل لم ينُلْ ساعةَ الوفْرِ

وإذا كان الخصب لم يُحْدِث من أسباب الصلاح ما وصفت ، كان الجدْب يحدث من أسباب الفساد ماضادّها ، وكما أن صلاح الخصب عامّ ، فكذلك فساد الجدب عامّ ، وما عَمَّ به الصلاح إن وُجِد ، عَمَّ به الفساد إن فقِد ، فأحرى أن يكون من قواعد الصلاح ، ودواعى الاستقامة .

والخِصْب يكون من وجهين : خِصْب فى المكاسب ، وخصْب فى المواد . فأما خصب المكاسب ، فقد يتفرّع من خِصب الموادّ ، وهو من نتائج الأمن المقترن بها . وأما خصب الموادّ فقد يتفرّع عن أسباب إلٰهية ، وهو من نتائج العدل المقترِن بها .

وأما القاعدة السادسة : فهى أَمَل فسيح ، يبعث على اقتناء مايقصر العمر عن استيعابه ، ويبعث على اقتناء ماليس يُؤَمَّل فى دركه بحياة أربابه ، ولولا أن الثانى يرتفق[1] بما أنشأه الأول ، حتى يصير به مستغنيا ، لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء مايحتاجون إليه من منازل السكنَى ، وأراضى الحرث ، وفى ذلك من الإعواز[2] وتعذر الإمكان ، مالا خفاء به ، فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال ، حتى عَمَّر به الدنيا ، فتم صلاحها ، وصارت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن ، فيُتم الثانى ما أبقاه الأوّل من عمارتها ، ويَرُمّ الثالث ما أحدثه الثانى من شَعَثها ، لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة ، وأمورها على مَمرّ الدهور منتظمة ، ولو قصُرَت الآمال ، ماتجاوز الواحد حاجة يومه ، ولا تعدّى ضرورة وقته ، ولكانت تنتقل إلى من بعده خرابا ، لايجد فيها بُلْغة ، ولايدرك منها حاجة ، ثم تنتقل إلى من بعدُ بأسوأ من ذلك حالا ، حتى لاينْمِىَ بها نبت ، ولا يمكن فيها لُبْث . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(١) يرتفق : ينتفع .   (٢) الإعواز : الإشكال .

« الأمل رحمة من الله لأمتى ، ولولاه ماغرس غارس شَجَرا ، ولا أرضعت أمٌّ ولدا » .

وقال الشاعر[١] :

وللنفوس وإن كانت على وَجَل من المنية آمالٌ تقوّيها

فالصبرُ يبسطُها والدهر يقبِضُها والنفس تنشرُها والموت يَطْويها

وأما حال الأمل فى أمر الآخرة ، فهو من أقوى الأسباب فى الغفلة عنها ، وقلة الاستعداد لها ، وقد أفصح لَبيد بن ربيعة مع أعرابيته بما تبين به حال الآمل فى الأمرين، فقال :

واكذِبِ النفسَ إذا حدثتَها إنّ صدقَ النفس يُزْرى بالأمل

غير أن لا تَكْذِبَنْها فى التقى واخزُها بالبرّ ، لله الأجَـلّ[٢]

وفرق مابين الآمال والأمانىّ: أن الآمالَ ماتقيدت بأسباب، والأمانىّ ماتجرّدت عنها[٣] .

فهذه القواعد الست التى تصلح بها أحوال الدنيا ، وتنتظم أمور جملتها ، فإن كَمَلَتْ فيها كَمَل صلاحها . وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا ، وأن يكون صلاحها عاما شاملا ، لأنها موضوعة على التغيُّر والفناء ، مُنْشأة على التصرّم والانقضاء . وسمع بعض الحكماء رجلا يقول : قلبَ الله الدنيا . قال : فإذن تستوى ، لأنها مقلوبة .

وقال بعض الشعراء :

ومن عادة الأيام أنَّ خطوبَها إذا سَرَّ منها جانب ساء جانبُ

وما أعرف الأيام إلا ذميمةً ولا الدهرَ إلا وهو للثأر طالبُ

وبحسب ما اختلّ من قواعدها ، يكون اختلالها وفسادها .

---

(١) هوسابق البربرى ، كما فى المنهاج . شاعر صوفى .

(٢) ديوانه طبع ليدن ١٨٩١ ص ١٢، وخزا نفسه خزوا : ملكها وكفها عن هواها (اللسان : خزا واستشهد بقول لبيد) .

(٣) وقيل : الأمل : إرادة الشخص تحصيل شىء يمكن حصوله ، فاذا فاته تمناه والرجا : تعليق القلب بمحبوب . ليحصل فى المستقبل . والتمنى يورث الكسل ، والرجاء يورث النشاط ويحفز على العمل .

فصـــل

وأما مايصلح به حال الإنسان فيها فثلاثة أشياء ، وهى قواعد أمره ، ونظام حاله ، وهى : نفس مُطيعة إلى رشدهَا ، منتهية عن غيها . وأُلفة جامعة تنعطف القلوب عليها ، ويندفع المكروه بها . ومادّة كافية تسكن نفس الإنسان إليها ، ويستقيم أَوَدُه بها .

فأما القاعدة الأولى : التى هى نفس مطيعة ، فلأنها إذا أطاعته ملكها ، وإذا عصته ملكته ولم يملكها ، ومن لم يملك نفسه ، فهو بأن لايملك غيرها أحرى ، ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى . وقال بعض الحكماء : لاينبغى للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه . وقد قال الشاعر :

أتطمعُ أن يُطيعَك قلب سُعْدَى وتزعم أن قلبك قد عصا كا ؟

وطاعة نفسه تكون من وجهين : أحدهما نصح ، والثانى انقياد . فأما النصح فهو أن ينظر إلى الأمور بحقائقها ، فيرى الرُّشْد رُشْدا ويستحسنه ، ويرى الغىّ غيا ويستقبحه ، وهذا يكون من صدق النفس إذا سلمت من دواعى الهوى ، ولذلك قيل : من تفكر أبصر . فأما الانقياد فهو أن تسرع إلى الرشد إذا أمرها ، وتنتهى عن الغىّ إذا زجرها ، وهذا يكون من قَبول النفس إذا كُفِيت منازعة الشهوات ؛ قال الله تعالى : « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلُوا ميلا عظيما » .

وللنفس آداب هى تمام طاعتها ، وكمال مصلحتها ، وقد أفردنا لها من هذا الكتاب بابا ، واقتصرنا فى هذا الموضع على ماقد اقتضاه الترتيب ، واستدعاه التقريب .

وأما القاعدة الثانية : التى هى الأُلفة الجامعة ، فلأن الإنسان مقصود بالأذية ، محسود بالنعمة ، فإذا لم يكن آلفا مألوفا ، تخطفته أيدى حاسديه ، وتحكمت فيه أهواء أعاديه ، فلم تسلم له نعمة ، ولم تصفُ له مدة ، فإذا كان آلفا مألوفا ، انتصر بالالفة على أعاديه ، وامتنع من حاسديه ، فسلمت نعمته منهم ، وصفت مدته عنهم ، وإن كان صفو الزمان عَسِرًا[1] ، وسَلْمه

(١) كذا فى منهاج اليقين : وفى المطبوعة : غرة .

خَطَرًا(١) . وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله ، عن جابر رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « المؤمن آلِف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى يرضَى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تتفرقوا ، وأن تُناصِحُوا من ولّاه الله أمركم ، ويكره لكم قِيلَ وقالَ ، وكثرة السؤال ، و إضاعة المال » ، وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة ، والعرب تقول : مَنْ قَلَّ ذَلَّ . وقال قيس بن عاصم :

إن القداحَ إذا اجتمعْنَ فرامَها ... بالكسر ذوحَنَقٍ و بَطْشٍ أَيِّدِ(٢)
عَزَّتْ فلم تُكْسَرو إن هى بُدِّدت ... فالوهْنُ والتكسيرُ للمتبدِّدِ

و إذا كانت الألفة بما أثبتَ تجمع الشمل ، وتمنع الذل ، اقتضت الحال ذكر أسبابها .
وأسباب الألفة خمسة ، وهى : الدِّين ، والنسب ، والمصاهرة ، والمودّة ، والبرّ .

فأما الدين : وهو الأوّل من أسباب الألفة ، فلأنه يبعث على التناصر ، و يمنع من التقاطع والتدابر . و بمثل ذلك وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فروى سُفيان عن الزهرىّ عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقَاطَعُوا ولا تدَابَرُوا ولا تحاسَدُوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، لا يحِل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . هذا ، و إن كان اجتماعهم فى الدين يقتضيه ، فهو على وجه التحذير من تذكر تِرَاتِ الجاهلية ، و إحَن الضلالة ، فقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشد تقاطعا وتعاديا ، وأكثر اختلافا وتماديا ، حتى إن بنى الأب الواحد كانوا يتفرقون أحزابا ، فتثور بينهم بالتحزب والافتراق أحقاد الأعداء ، و إحَن البُعَدَاء ، وكانت الأنصار أشدَّهم تقاطعا وتعاديا ، وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين ، أكثرُ من غيرهم ، إلى أن أسلموا ، فذهبت إحَنهم ، وانقطعت عداوتهم ، وصاروا بالإسلام إخوانا متواصلين ، و بألفة الدين أعوانا متناصرين ؛ قال الله تعالى :

(١) الخطر : الإشراف علي هلكة . يريد أنه لا يوثق به ، ولا يطمأن إليه .

(٢) بالجر : نعت حقيقى للبطش ، أو نعت سببى بمعنى : أيد صاحبه . أو بالرفع ، نعت لذى الحنق ويكون فى البيتين إقواء .

«واذكروا إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبِكُم، فأصبحتُمْ بنعمته إخْوانا» يعني أعداء في الجاهلية، فألف بين قلوبكم بالإسلام؛ وقال تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّا» يعني: حبا. وعلى حسب التألُّف على الدين تكون العداوة فيه، إذا اختلف أهله، فإن الإنسان قد يَقْطَع في الدين من كان به بارّا، وعليه مُشْفِقا. هذا أبوعُبيدة بن الجَرَّاح[1]، وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل، والأثَرُ المشهور في الإسلام، قتل أباه يوم بَدْر، وأتى برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، طاعة لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، حين بَقِيَ على ضلاله، وانهمك في طُغْيانه، فلم تعطِفه عليه رحمة، ولا كَفَّه عنه شفقة، وهو من أبرّ الأبناء، تغليبا للدين على النسب، ولطاعة الله تعالى على طاعة الأب. وفيه أنزل الله: «لا تَجِدُ قوما يُؤْمنون باللهِ واليومِ الآخرِ يُوَادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانَهم أوعشيرتهم». وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى، وآراء مختلفة، فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين، مثلُ ما يحدث بين المختلفين في الأديان؛ وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العَقْد الواحد فيه، لما كان أقوى أسباب الألفة، كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة، وإذا تكافأ أهل الأديان المختلفة، والمذاهب المتباينة، ولم يكن أحد الفريقين أعلى يدا، وأكثر عددا، كانت العداوة بينهم أقوى، والإِحَن فيهم أعظم، لأنه ينضم إلى عداوة الاختلاف، تحاسد الأكفاء، وتنافس النظراء.

وأما النسب: وهو الثاني من أسباب الألفة، فلأن تعاطفَ الأرحام، وحَمِيَّة القرابة، يبعثان على التناصر والألفة، ويمنعان من التخاذل والفُرْقة، أَنَفَة من استعلاء الأباعد على الأقارب، وتوقِّيا من تسلُّط الغرباء الأجانب؛ وقد رُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الرَّحِمَ إذا تماسَّت تعاطفت» ولذلك حفظت العرب أنسابها، لمَّا امتنعت عن سلطان يقهرها، ويكف الأذى عنها، لتكون به متظافرة على من ناواها، متناصرة على من شاقّها وعاداها، حتى بلغت بألفة الأنساب، تناصُرَها على القويّ الأيّد، وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطِّط، وقد أعذر نبيّ الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره. فقال لمن بُعِث إليهم: «لو أنّ لي بكم قوّةً أوآوِي إلى رُكْن شديد»، يعني: عشيرة مانعة. وروى

(١) توفي سنة ثمان عشرة في طاعون عمواس. وهو الذي لقبه رسول الله: «أمين هذه الأمة».

أبوسَلَمة عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد » يعنى اللهَ عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله تعالى من نبىّ بعده إلا فى ثروة من قومه » . وقال وَهْب : لقد رَدّت الرسل على لوط وقالوا : إن ركنك لشديد . ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لايترك المرء مُفْرَجًا حتى يضمه إلى قبيلة يكون إليها . قال الرِّياشىّ : المُفْرَج : الذى لاينتمى إلى قبيلة يكون منها ، وكل ذلك حثّ منه صلى الله عليه وسلم على الأُلفة ، وكفّ عن الفرقة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من كَثَّر سواد قوم فهو منهم » . وإذا كان النسب بهذه المنزلة من الألفة ، فقد تعرِض له عوارض تمنع منها ، وتبعث على الفرقة المنافية لها . فإذن قد لزِم أن نصف حال الأَنساب ، وما يعرض لها من الأسباب .

فجملة الأَنساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام : قسم والدون ، وقسم مولودون ، وقسم مناسِبون . ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة ، وعارض يطرأ ، فيبعث على العقوق والقطيعة . فأما الوالدون فهم الآباء والأمهات ، والأجداد والجدات ، وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخُلُقين : أحدهما لازم بالطبع ، والثانى حادث باكتساب . فأما ما كان لازما بالطبع فهو الحذَر والإشفاق ، وذلك لاينتقل عن الوالد بحال . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل شىء ثمرة ، وثمرة القلب الولد » . ورُوى عنه أنه قال : « الولد مَبْخَلَة مَجْهَلة ، مَجْبَنة مَحْزَنة » ، فأخبر أن الحذَرَ عليه يُكْسِب هذه الأوصاف ، ويحدث هذه الأخلاق . وقد كره قوم طلب الولد ، كراهة لهذه الحالة التى لا يَقْدِر على دفعها عن نفسه ، للزومها طبعا ، وحدوثها حتما . وقيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام : مابالك تكره الولد ؟ فقال : مالى وللولد ؟ إن عاش كدّنى ، وإن مات هدّنى . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام : ألا تتزوّج ؟ فقال : إنما يُحَبُّ التكاثر فى دار البقاء .

وأما ما كان حادثا بالاكتساب فهى المحبة ، التى تَنْمِى مع الأوقات ، وتتغير مع تغير الحالات . وَرُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الولد أنوط » ، يعنى أن حبه ملصَق بنياط القلب ، فإن انصرف الوالد عن حب الولد ، فليس ذلك لبغض منه ، ولكن لسَلْوة حدثت من عقوق أوتقصير ، مع بقاء الحذر والإشفاق ، الذى لايزول عنه ، ولا ينتقل منه .

فقد قال محمد بن علىّ رضى الله عنه : إن الله تعالى رضىَ الآباء للأبناء ، فحذَّرَهم فتنتهم ، ولم يوصهم بهم ، ولم يرض الأبناء للآباء ، فأوصاهم بهم ، وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق ، وشرّ الآباء من دعاه البرّ إلى الإفراط .

والأمهات أكثر إشفاقا ، وأوفر حبا ، لما باشرن من الولادة ، وعانين من التربية ، فإنهن أرقّ قلوبا ، وألين نفوسا ، وبحسَب ذلك ، وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر ، جزاء لفعلهن ، وكِفاءً لحقهنّ ، وإن كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البرّ ، وجمع بينهما فى الوصية . فقال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا » . وقد رُوِى أن رجلا أتى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : « إن لى أُمًّا أنا مَطِيَّتها ، أُقْعِدُها على ظهرى ، ولا أصرِف عنها وجهى ، وأردُّ إليها كسبى ، فهل جزيتها ؟ قال : لا ، ولا بزَفْرة واحدة . قال : ولم ؟ قال : لأنها كانت تخدُمك ،وهى تحبُّ حياتَكَ، وأنت تخدُمُها وتحِبُّ موْتها . وقال الحسن البصرىّ : حق الوالد أعظم ، وبر الوالدة ألزم . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنهاكم عن عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعَ وهات » . وروى خالد بن مَعْدان عن المِقْداد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب » .

وأما المولودون : فهم الأولاد وأولاد الأولاد ، والعرب تسمى وَلَد الولد الصَّفْوة ، وهم مختصُّون مع سلامة أحوالهم بخلُقين : أحدهما لازم ، والآخر مُنتقل . فأما اللازم فهو الأنَفَة للآباء من تهضم أوخمول، والأنفة فى الأبناء ، فى مقابلة الإشفاق فى الآباء ، وقد لَحَظ أبو تمام الطائىّ هذا المعنى فى شعره ، فقال :

فأصبحتُ يلقانى الزمان لأجله ... بإعظام مولودٍ وإشفاق والدِ

وأما المنتقل فهو الإدلال ، وهو أوّل حال الولد ، والإدلال فى الأبناء ، فى مقابلة المحبة فى الآباء ، لأن المحبة بالآباء أخص ، والإدلال بالأبناء أمسّ . وقد رُوِى عن عمر رضى الله عنه ، أنه قال: « قلت: يارسول الله ، ما بالُنا نَرِقّ على أولادنا ، ولا يَرِقُّونَ علينا ؟ قال : لأنا ولدناهمْ ولم يلدونا » .

ثم الإدلال فى الأبناء قد ينتقل مع الكِبَر إلى أحد أمرين : إما إلى البر والإعظام ، وإما إلى الجفاء والعقوق ، فإن كان الولد رشيدا ، وكان الأب بَرًّا عَطُوفا ، صار الإدلال بِرًّا وإعظاما . وقد رَوَى الزُّهْرِىّ عن عامر بن شَراحيل : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجرير ابن عبد الله : « إن حقّ الوالد على الولد أن يَخْشَع له عند الغضب ، ويؤثره على نفسه عند النَّصَبِ والسَّغَب ، فإن المكافئ ليس بالواصل، ولكن الواصل من إذا قُطِعَتْ رَحِمه وصَلَها » . وإن كان الولد غاوِيا ، أو كان الوالد جافيا ، صار الإدلال قطيعة وعُقوقا. ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « رَحم الله امرأ أعان ولده على بِرّه » . وبُشِّر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود . فقال : رَيحانة أشُمُّها ، ثم هو عن قريب ولدٌ بارٌّ ، أو عدوٌّ ضارٌّ . وقد قيل فى منثور الحكم : العُقوق ثُكْل من لم يَثْكَل . وقال بعض الحكماء : ابنك ريحانُك سَبعا ، وخادمك سبعا ، ووزيرك سبعا ، ثم هو صديق أوعدوّ .

وأما المُناسِبون : فهم مَنْ عدا الآباء والأبناء، ممن يرجع بتعصيب أورحم، والذى يختصون به الحمية الباعثة على النُّصْرَة ، وهى أدنى رُتْبة الأنَفة ، لأن الأنفة تمنع من التهضم والخمول معا ، والحمية تمنع من التهضُّم ، وليس لها فى كراهة الخمول نصيب ، إلا أن يقترن بها مايبعث على الأنَفة . وحمية المناسبين إنما تدعو إلى النصرة على البُعَداء والأجانب ، وهى مُعَرَّضة لحسد الأدانى والأقارب ، موكولة إلى منافسة الصاحب بالصاحب، فإن حُرِسَتْ بالتواصُل والتلاطُف، تأكدت أسبابُها ، واقترن بحمية النسب مصافاة المودّة ، وذلك أوكد أسباب الأُلْفة . وقد قيل لبعض قريش : أيّما أحب إليك : أخوك أو صديقك ؟ قال : أخى إذا كان صديقا . وقال مَسْلَمَة بن عبد الملك : العيش فى ثلاث : سَعَة المنزل ، وكثرة الخدَم ، وموافقة الأهل . وقال بعض الحكماء : البعيد قريب بمودّته والقريب بعيد بعداوته . وإن أُهْمِلت الحال بين المتناسبين ، ثقة بلُحْمة النسب ، واعتمادا على حمية القرابة ، غَلَب عليها مَقْتُ الحسد ، أو منازعة التنافس ، فصارت المناسبة عداوة ، والقرابة بُعْدا . وقال الكِندىّ فى بعض رسائله : الأب رَبّ ، والولد كَمَد ، والاخ فَخّ ، والعمّ غَمّ ، والخال وبال ، والأقارب عقارب .

وقال عبد الله بن المعتز :

لُحُومُهُمُ لَحْمِى وَهُمْ يأكُلُونَهُ ... وما داهياتُ المرءِ إلَّا أقارِبُهْ

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام ، وأثنى على واصلها . فقال تعالى : « والذين يَصِلون ما أمر اللهُ به أن يُوصَلَ ، ويخشون ربَّهم ، ويخافُونَ سُوءَ الحساب » . قال المفسرون : هى الرَّحِم التى أمر الله بوصلها ، ويخشَوْن ربهم فى قطعها ، ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها . ورَوَى عبدالرحمن بن عوف: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله عزّ وجل: أنا الرحمَن ، وهى الرَّحِمُ ، اشتققتُ اسمَها مِن اسمى ، فمن وصلها وصلْته ، ومن قطعها قطعته» . ورُوِى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صِلَةُ الرَّحِمِ مَنْماةٌ للعدد ، مَثْراة للمال ، محبَّـة فى الأهل ، مَنْسَأَةٌ فى الأجل » . وقال بعض الحكماء : بُلّوا أرحامَكم بالحقوق ، ولا تجفُوها بالعُقوق . وقال بعض البلغاء : صِلوا أرحامَكم ، فإنها لا تبْـلَى عليها أصولُكم ، ولا تُهْضَمُ عليها فُروعكم . وقال بعض الأدباء : من لم يَصْلُح لأهله لم يصلح لك ، ومن لم يذُبَّ عنهم لم يذبَّ عنك . وقال بعض الفصحاء : من وصل رحمه وصله الله ورحمه ، ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره . وقال محمد بن عبد الله الأزدىّ .

وحَسْبُك مِن ذُلٍّ وسوء صنيعةٍ مُناواة ذى القُرْبَى و إن قيل قاطعُ
ولـكن أُواسيه وأنسَى ذُنُوبَه لِتُرْجِعَهُ يوما إلىَّ الرَّوَاجعُ
ولا يستوى فى الحكم عبدان: واصلٌ وعبـد لأرحام القرابةِ قاطعُ

وأما المصاهرة : وهى الثالث من أسباب الأُلفة ، فلأنها استحداث مواصلة ، وتمازج مناسبة ، صدَرا عن رغبة واختيار ، وانعقدا عن خِبْرة و إيثار ، فاجتمع فيها أسباب الا لفة ، ومَوادّ المظاهرة . قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجًا لتَسْـكُنُوا إليها ، وجَعَل بينـكم مَوَدَّة ورحمة » يعنى بالمودّة المحبة ، و بالرحمة الُحنوّ والشفقة ، وهما من أوكد أسباب الألفة . وفيها تأو يل آخر ، قاله الحسن البصرىّ رحمه الله : إن المودّة النـكاح ، والرحمة الولد . وقال تعالى : « والله جَعَل لـكم من أنفسكم أزواجًا ، وجعل لـكم من أزواجكم بنينَ وَحَفَدَة » . اختلف المفسرون فى الحَفَدَة . فقال عبد الله بن مسعود : هم أَخْتَانُ الرجل على بناته . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : هم وُلْد الرجل ، وَوُلْد وُلْده . ورُوِى عنه : أنهم بنو امرأة الرجل من غيره ، وسُمُّوا حَفَدَة : لحفْدِهِمْ فى الخِدمة ، وسرعتهم فى العَمَل . ومنـه قولهم فى القُنُوت : و إليك نَسْعَى ونَحْفِد : أى نسرع إلى العمل بطاعتك .

ولم تزل العرب تجتذب البُعَداء ، وتتألف الأعداء بالمصاهرة ، حتى يرجع النافر مؤانسًا ، ويصير العدوّ مُواليا ؛ وقد يصير للصهر بين الاثنين ، أُلفة بين القبيلتين ، ومُوالاة بين العشيرتين . حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية : أنه قال : كان أبغضَ خلق الله عز وجل إلىّ آلُ الزُّبير ، حتى تزوّجت منهم « رَمْلة » ، فصاروا أحبَّ خلق الله عزّ وجل إلىّ . وفيها يقول :

أحبُّ بنى العوّام طُرًّا لأجْلها ومِن أجْلها أحْببتُ أُخوالها كلْبا
فإن تُسْلِمِى نُسْلِمْ و إن تتنصرِى يَخُطّ رجَالٌ بينَ أَعينهم صُلْبا

ولذلك قيل : المرء على دين زوجته ، لما يَسْتنزله المَيْلُ إليها من المتابعة ، و يجتذبه الحب لها من الموافقة ، فلايجد إلى المخالفة سبيلا ، ولا إلى المباينة والمشاقّة طريقا .

و إذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الألفة ، فقد ينبغى لعقدها أحد خمسة أوجه ، وهى : المال ، والجمال ، والدين ، والألفة ، والتَّعفف . وقد رَوَى سعيدُ بن أبى سَعيد ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تُنْكح المرأة لأربع : لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ، ولدينها ؛ فعليكَ بذاتِ الدينِ ، ترِبَتْ يَدَاكَ » . فإن كان عَقْد النكاح لأجل المال ، وكان أقوى الدواعى إليه ، فالمال إذن هو المنكوح ، فإن اقترن بذلك أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف ، جاز أن يلبثَ العَقْد ، وتدوم الألفة ، فإن تجرّد عن غيره من الأسباب ، وعَرِىَ عما سِواه من الموادّ ، فأخلق بالعَقْد أن ينحَلّ ، وبالألفة أن تزول ، ولاسيما إذا غلب الطمَع ، وقلَّ الوفاء ، لأن المال إن وُصِل إليه ، فقد ينقضى سببُ الألفة به ، فقد قيل : مَنْ وَدّكَ لشىء ، وَلَّى مع انقضائه ؛ وإن أعوز الوصول إليه ، وتعذرت القدرة عليه ، أعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدّة الأمل ، فحدَثت منه عَداوة الخائب بعد استحكام الطمع ، فصارت الوُصلة فُرقة ، والألفة عَداوة . وقد قيل : من ودّك طمعا فيك ، أبغضك إذا أيس منك . وقال عبد الحميد : مَن عظَّمك لإ كثارك ، استقلك عند إقلالك . فإن كان العَقد رغبة فى الجمال ، فذلك أدوم للألفة من المال ، لأن الجمال صفة لازمة ، والمال صفة زائلة . ولذلك قيل : حُسْن الصورة أوّل السعادة . وقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « أعظم

النساء بركةً أحسنهُنَّ وَجْها ، وأقلهن مَهْرًا» ، فإن سلمت الحال من الإدلال ، المفضى إلى المَلاَل، استدامت الألفة ، واستحكمت الوُصْلة . وقد كانوا يكرهون الجمال البارع : إما لِما يحدُث عنه من شدّة الإدلال ، وقد قيل : مَنْ بَسَطه الإدلال ، قبضَه الإِذْلال ؛ وإمّا لِما يُخاف من مِحْنَة الرغبة ، و بَلْوَى المنازعة .

وقد حكى أن رجلا شاور حكيما فى التزوّج ، فقال له : افعل ، و إياكَ والجمالَ البارع ، فإنه مَرْعًى أنيق . فقال الرجل : وكيف ذلك ؟ قال : كما قال الأوّل :

وَلَنْ تُصادِفَ مَرْعًى مُمْرِعًا أبدا إلّا وَجَدْتَ به آثارَ مُنْتَجِعِ

و إما لما يخافه اللبيب من شدة الصَّبْوة ، ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة ، وقد قال بعض الحكماء : إياك ومخالطةَ النساء ، فإن لحظ المرأة سَهْم ، ولفظها سَمّ . ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة . فقال : ياصياد ، احذر أن تُصاد . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه : امش وراء الأَسَد ، ولا تمش وراء المرأة . وسمع عُمرُ بن الخطاب رضى الله عنه امرأة تقول هذا البيت :

إنَّ النِّساءَ رَياحينٌ خُلِقْنَ لَكُمُ وكلُّكُمُ يَشْتَهِى شَمَّ الرَّياحِينِ

فقال رضى الله عنه :

إنَّ النساء شياطينٌ خُلِقْنَ لنا نعوذ بالله منْ شرِّ الشياطينِ

و إن كان العَقْدُ رغبة فى الدين ، فهو أوثق العقود حالا ، وأدومها أُلفة ، وأمدّها بَدْءًا وعاقبة ، لأن طالب الدين مُتّبع له ، ومن اتَّبع الدين انقاد له ، فاستقامت له حاله ، وأمِن زَلَله ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « فاظفر بذات الدين تَرِبت يداك » ! وفيه تأويلان : أحدهما : تربت يداك إن لم تظفر بذات الدين . والثانى : أنها كلمة تذكر للمبالغة ، ولا يراد بها سُوء . كقولهم : ماأشجعه ، قاتله الله !

و إن كان العَقْد رغبة فى الألفة ، فهذا يكون على أحد وجهين : إما أن يُقْصَد به المكاثرة باجتماع الفريقين ، والمظافرة بتناصر الفِئتين ، وإما أن يُقْصَد به تألُّف أعداء متسلِّطين ، استكفاء لعادَيتهم، وتسكينا لصولتهم. وهذان الوجهان قد يكونان فى الأَماثل ، وأهل المنازل ،

وداعى الوجه الأول : هو الرغبة ، وداعى الوجه الثانى : هو الرهبة ، وهما سببان فى غير المتنا كِحَيْن ، فإن استدام السبب ، دامت الألفة ، وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة ، خيف زوال الألفة ، إلا أن ينضم إليها أحد الأسباب الباعثة عليها ، والمقرّبة لها .

وإن كان العَقْد رغبة فى التعفّف ، فهو الوجه الحقيقىّ المبتغَى بعقد النكاح ، وما سوى ذلك فأسباب مُعَلّقة عليه ، ومضافة إليه . ورُوى أنه لما نزل قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « خلق الرجل من التراب فهمه فى التراب ، وخلقت المرأة من الرجل فهما فى الرجل ، وروى عطية بن بشر ، عن عكّاف بن رفاعة الهلالىّ : « أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له : يا عكّاف ، ألك زوجة ؟ قال : لا . قال : فأنت إذن من إخوان الشياطين ؛ إن كنت من رُهْبان النصارَى فالحق بهم ، وإن كنت منا فمن سُنتنا النكاح » . فكان هذا القول منه حثًّا على التعفف عن الفساد ، وباعثا على التكاثر بالأولاد . ولهذا المعنى كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول للقُفّال من غَزْوهم : « إذا أفضيتم إلى نسائكم ، فالكَيْسَ الكَيْسَ » ؛ يعنى فى طلب الولد . فلزم حينئذ فى عَقْد التعفف ، تحكيمُ الاختيار فيه ، والتماس الأدوَم من دواعيه ، وهى نوعان : نوع يمكن حصر شروطه ، ونوع لايمكن ، لاختلاف أسبابه ، وتغاير شروطه . فأما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط :

أحدها : الدينُ المفضِى إلى الستر ، والعفاف المؤدِّى إلى القناعة والكَفاف . قال أبو هريرة رضى الله عنه : لا يَفرَكُ مؤمنٌ مُؤمنة ، إن كره منها خُلقا ، رضى منها خُلُقا .

وخَطَب رجل من عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يتيمة كانت عنده . فقال : لاأرضاها لك . قال : ولِمَ وفى دارك نشأتْ ؟ قال : إنها تَتَشرّف[١] . قال : لاأبالى . فقال : الآن لَا[٢] أرضاك لها . وفى معنى هذا قول بعض العلماء : من رَضِى بصحبة من لاخير فيه ، لم يرض بصحبته من فيه خير .

---

(١) يحتمل : أنها تتشرف بك ، كناية عن أنها لا شرف لها فى ذاتها . وفى الكلام وإيجاز يقتضيه المقام.

(٢) كذا فى منهاج اليقين . بالنفى . قال : تفرس فيه أن نكاحه نكاح غلمة فرده . وفى المطبوعة بحذف « لا » .

والشرط الثانى : العقل الباعث على حسن التقدير ، والأمر بصواب التدبير . فقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العقل حيث كان ألوف ومألوف » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بالودُود الولود ، ولاتنكِحوا الحمقاء ، فإن صحبتها بلاء ، وولدها ضَيَاع » .

والشرط الثالث : الأكْفاء الذين يَنتفِى بهم العار ، ويحصل منهم الاستكثار . فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تخيروا لنُطَفِكم ، ولا تَضَعوها إلا فى الأكْفاء » . ورُوِىَ أن أكثمَ بن صَيْفِىّ قال لولده : يابنىّ ، لايحمِلنَّكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكِح الكريمة مَدْرَجة للشرف . وقال أبُو الأسود الدؤلى لبنيه : قد أحسنتُ إليكم صغارا وكبارا ، وقبل أن تُولدوا . قالوا : وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال : اخترت لكم من الأمهات من لا تُسَبُّون بها . وأنشد الرياشىّ :

فأوّلُ إحسانى إليكم تخيُّرِى   لماجدة الأَعْراقِ بادٍ عَفَافُها

[1]وقد ينضم إلى هذه الشروط من صفات الذات ، وأحوال النَّفْس ، مايلزمُ التحرز منه ، لبُعد الخير عنه ، وقلة الرُّشْد فيه ، فإن كوامن الأخلاق ، بادية فى الصُّوَر والأشكال ، كالذى رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد بن حارثة[2] : « تزَوَّجْت يازيد ؟ قال : لا . قال : تزوّجْ تَسْتَعْفِفْ مع عِفتك ، ولاتتزوج من النساء خمسة . قال : وما هُنَّ يارسول الله ؟ قال : لاتتزَوَّجَنَّ شَهْبَرَةً ، ولا لَهْبَرَةً ، ولا نَهبَرَةً ، ولاهَيذَرةً ، ولا لَفُوتًا » . قال : يارسول الله ، ما أعرفُ مما ذكرتَ شيئا . قال عليه الصلاة والسلام : أما الشَّهْبرة : فالزّرقاء البَذية ؛ وأما اللَّهبَرَة : فالطويلة المَهْزُولة ، وأما النَّهبرة : فالعجوزُ المُدْبِرة ، وأما الهَيْذَرة : فالقصيرة الدَّميمة . وأما اللَّفوت : فذات الولد من غيرك » .

---

(١) سقط قدر من الكلام ، من جميع النسخ المطبوعة فى مصر . ووجدناه فى النسخة التى شرحها صاحب منهاج اليقين طبع الآستانة فألحقناه بموضعه ، ولا شك أنه من كلام المؤلف ، ولعل بعض الناسخين أسقط سهوا أو تعمدا ، لما فيه من ذكر بعض الصفات المستقبحة فى النساء . ووجدناه أيضا فى المخطوطة رقم (١١٨ م) تصوف ، بدار الكتب المصرية ، المكتوبة سنة ٥٨٥ هـ ، بخط سعيد بن عبد المنعم بن هبة الله .

(٢) هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه ، أصله من اليمن ، وكان النبى يحبه محبة الولد .

وقال شيخ من بنى سُلَيم لابنه : يا بُنىَّ ، إياكَ والرَّقُوبَ الغَضوبَ القَطُوب . الرَّقُوب : التى تراقبه حتى يموت ، فتأخذ مالَه[١] . وأوصى بعض الأعراب ابنه فى التزويج . فقال : إياكَ والحَنّانةَ والمَنّانةَ والأنّانة . فالحنّانة : التى تحِنّ لزوجٍ كان لها ، والمنّانة : التى تمُنُّ عَلَى زوجها بمالها . والأنّانة : التى تئِنُّ كسلا وتمارُضا .

وقال أَوْفَى بن دُلْهُم : النساء أَرْبَع : فمِنْهُنَّ مَعْمَع ، لها شيئُها أجمع ، ومنهنّ تَمْنَع : تضُرّ ولا تنفع ، ومنهنّ مَصْدَع : تفرِّق ولا تجمع ، ومنهن غَيث وقَع ، فى بلد فأَمْرَع[٢] .

وقال الشاعر :

أَرَى صاحِبَ النِّسوانِ يحسِبُ أنها ... سَوَاءٌ ، وبَوْنٌ بينهُنَّ بَعيدُ

فمِنْهُنَّ جَنّاتٌ تَفِيء ظِلالُها[٣] ... ومنهنّ نِيرانٌ لَهُنَّ وُقُودُ

وأنشد أبو العَيْناء ، عن أبى زيد :

إنّ النساءَ كأشجارٍ نَبَتْنَ مَعًا ... مِنهن مُرٌّ وبعضُ المرِّ مأكولُ[٤]

إنّ النساءَ ولو صوِّرْنَ مِن ذهَبٍ ... فيهنّ من هفَوَاتِ الجهْلِ تخييلُ[٥]

إنّ النِّساء متى يُنْهَيْنَ عن خُلُقٍ ... فإنه واجب ، لابدّ مَفعُولُ

وَمَا وَعَدْنَكَ مِن شرّ وفَيْنَ بِهِ ... وَمَا وَعَدْنَكَ مِنْ خَيْرٍ فمَطُولُ[٦]

فأما النَّوْع الآخر ، وهو الذى لا يمكن حصر شروطه ، فلأنه قد يختلف باختلاف الأحوال ، ويتنقَّلُ بتنقُّل الإنسان والأزمان ، وإنه لا يُستغْنَى فيه عن موافقة النفس ، ومتابعة الشهوة ، ليكون أدومَ لحال الأُلفة ، وأمَدَّ لأسباب الوُصْلة ، فإن الرأى المعلول لا يَبقى على حاله ، والميلَ المدخول لا يدومُ على دَخَله ، فلابد أن ينتقل إلى إحدى حالتين : إمّا إلى الزيادة والكمال ، وإمّا إلى النقصان والزوال .

حُكىَ أن رجلا قال لعلىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه : إنى أُحبُّك وأُحِبُّ معاوية .

---

(١) أو تتزوج بزوج آخر . والغضوب : التى لاتنال ما كانت تؤمله من زوجها . والقطوب العابسة الوجه.

(٢) أى أعشب . (٣) تفىء ظلالها : تتحول من جانب إلى جانب ، رعاية لزوجها ، أو عطفا على ولده ، أو تدبيرا لماله ، أو تحفيا بأضيافه .

(٤) أى للتداوى أو تسهيل الهضم . (٥) سوء ظن ، أو سوء فهم . (٦) ممطول : مسوف .

فقال رضى الله عنه : أما الآن فأنتَ أعْور [١] . فإمّا أن تبْرَأ ، وإما أنْ تعْمَى .

فإذا كان كذلك ، فلابد من كشف السبب الباعث على هذا النوع [٢] ، فإنه لايخلو من ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يكون العقد لطلب الولد ؛ والاحمدُ فيه التماس الحداثة والبَكارة ، لأنها أخصُّ بالولادة [٣] ، وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بالأبكار ، فإنهن أعـذب أفواها ، وأنتَقُ أرحاما ، وأرضَى باليسير » . ومعنى قوله « أنتق أرحاما » : أى أكثر أولادا . وقال مُعاذ بن جبل رضى الله عنه : عليكم بالأبكار ، فإنهنّ أكثر حُبّا ، وأقل خَنًا . وهذه الحال هى أولى الأحوال الثلاث ، لأن النكاح موضوع لها ، والشرع وارد بها . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سَوداء ولود: خير من حسناء عاقر » . والعرب تقول فى أمثالها : من لايلد لاوُلِد . وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال نكاح البعداء الأَجانب ، ويرون أن ذلك أنجب للولد [٤] ، وأبهى [٥] للخلقة ، ويجتنبون نكاح الأَهل والأقارب ، ويرونه مُضِرّا بخلْق الولد ، بعيدا من نجابته . رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اغتربوا لا تُضْوُوا [٦] » . ورُوِى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : يابنى السائب ، قد ضَوِيتم ، فانـكحوا فى الغرائب . وقال الشاعر :

تجاوزتُ بنتَ العمِّ وَهْىَ حَبيبةٌ   مخافةَ أن يَضْوَى عَلَىَّ سَلِيلى

وكانت حكماء المتقدمين يَرَوْن أن أنجب الأولاد خَلْقا وخُلُقا من كان سن أمه بين العشرين والثلاثين ، وسنّ أبيه مابين الثلاثين والخمسين . والعرب تقول : إن ولد الغَيْرَى

---

(١) أى كالأعور ، وأراد به الأحول ، فى رؤيته الإمامة التى لا تـكون إلا واحدة : متعددة .

(٢) إلى هنا ينتهى الساقط من النسخ المطبوعة .

(٣) من قوله : والأحمد فيه إلى هنا : ساقط من النسخ المطبوعة ، وثابت فى منهاج اليقين .

(٤) من نجب الولد : إذا صار نجيبا .   (٥) بهو الغلام وبهى ، إذا حسن .

(٦) أى تزوجوا الغريبات ، لئلا تأتوا بأولاد ضاوين ، أى مهازيل .

لاينجب ، وإنّ أنجبَ النساءِ الفَرُوكُ[1] . وقالوا : إن الرجل إذا أكره المرأة وهى مَذْعورة ، ثم أذْكرتْ أنجبتْ .

والحالة الثانية : أن يكون المقصودُ به القيامَ بما يتولاه النساء من تدبير المنازل ، فهذا وإن كان مختصا بمعاناة النساء ، فليس بألزم حالتى الزَّوْجات ، لأنه قد يجوز أن يعانيَهُ غيرُهن من النساء ، ولذلك قيل: المرأة رَيحانة، وليست بقَهْرَمانة[2] . وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ، ولا قدح فى مُروءة ، والأحمد فى مثل هذا التماس ذوات الأسنان والحُنْكة ، ممن قد خَبَرن تدبيرَ المنازل ، وعرفن عادات الرجال ، فإنهن أقومُ بهذه الحال .

والحالة الثالثة : أن يكون المقصود به الاستمتاع ، وهى أذم الأحوال الثلاث ، وأوهنها للمروءة ، لأنه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ، ويتابع شهوته الذَّميمة ، وقد قال الحارث بن النضْر الأزدى : شرّ النكاح نكاح الغُلْمة[3] ، إلَّا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها ، بالإضعاف لها عند الغَلَبة ، أو تسكين النفس عند المنازعة ، حتى لا تطمح له عين لِريبة ، ولا تنازِعه نفس إلى فجور ، ولا يلحقه فى ذلك ذمّ ، ولا يناله وَصْم ، وهو بالحمد أجدر ، وبالثناء أحق . ولو تنزّه فى مثل هذه الحال عن استبذال الحرائر[4] إلى الإماء ، كان أكمل لمروءته ، وأبلغ فى صيانته . وهذه الحال تقفوُ[5] على شهوات النفوس ، لا يمكن أن يرجح فيها أوْلَى الأمور[6] ، وهى أخطر الأحوال بالمنكوحة ، لأن للشهوات غايات متناهية ، يزول بزوالها ما كان متعلقا بها ، فتصير الشهوة فى الابتداء ، كراهية فى الانتهاء ، ولذلك كرِهت العرب البنات ووأدَتْهن ، إشفاقا عليهن ، وحميةً لهن من أن يبتذلهنّ اللئام بهذه الحال ، وكان من تحوّب من قتل البنات لرقة ومحبة ، كان موتهن أحب إليه ، وآثر عنده . ولما خُطِب إلى عقيل بن عُلَّفة[7] ابنته الجرْباء قال :

(١) الفروك والفارك : المكارهة لزوجها . وولدها يكون أشبه بأبيه .
(٢) القهرمانة : المرأة المختصة بإدارة شئون المنزل . (٣) الغلمة : شدة الشهوة للجماع .
(٤) لأن الحرائر يرغبن فى الولد للشرف والحسب . (٥) أى تتبع . وفى المطبوعة تقف .
(٦) لأن الحب يعمى ويصم .
(٧) ابن الحارث المرى اليربوعى ، من شعراء الدولة الأموية ، وكان أهوج جافيا شديد الغيرة والعجرفية والبذخ بنسبه ، وهو من بيت شرف فى قومه ، من كلا طرفيه ، وكان لايرى له كفئا ، وكانت قريش ترغب فى مصاهرته ، وتزوج يزيد بن عبد الملك ابنته الجرباء . (انظر منهاج اليقين) .

إنى وإن سِيقَ إلىّ المهرُ
أَلْفٌ وعبدانِ وَذَوْدٌ عَشْرُ (١)
أَحَبّ أصهارى إلىّ القَـبْرُ

وقال عُبيدُ الله بن عبد الله بن طاهرٍ :

لكلّ أبى بنت يراعى شؤونَها ثلاثةُ أَصْهار إذا حُمِدَ الصِّهْرُ
فبعلٌ يراعيها وخِدْرٌ يُكنّها وقبرٌ يُواريها وأفضلها القبْرُ

فصـــل

وأما المؤاخاة بالمودة : وهى الرابع من أسباب الألفة ، فلأنها تَكْسِب بصادق الميل إخلاصا ومُصافاة ، وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومُحاماة ، وهذا أعلى مراتب الألفة ، ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه (٢) ؛ لتزيد أُلفتهم ، ويقوى تضافرُهم وتناصُرُهم . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بإخوان الصدق ، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعِصْمة فى البلاء » . وروَى أبو الزُّبير عن سهل بن سعد : أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال : « المرء كثير بأخيه ، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ماترى له » . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : لقاء الإخوان جِلاء الأَحزان . وقال خالد بن صفوان : إن أعجز الناس من قصر فى طلب الإخوان ، وأعجزَ منه من ضيَّع من ظفر به منهم . وقال علىّ كرم الله وجهه لابنه الحسن : يابنىّ ، الغريب من ليس له حَبيب . وقال ابن المعتزّ : من اتخذ إخوانا كانوا له أعوانا . وقال بعض الأدباء : أفضل الذخائر أخ وفىّ . وقال بعض البلغاء : صديق مساعد : عَضُد وساعد . وقال بعض الشعراء :

هُمُوم رجال فى أمورٍ كثيرةٍ وهمى من الدنيا صديقٌ مساعدُ
نكون كروح بين جسمين قُسِّمَتْ فجسماهما جسمان والروح واحدُ

---

(١) الذود : قطيع من الإبل ، من ثلاثة إلى عشرة . ويريد بالألف : ألف دينار .

(٢) قال القسطلانى : كانت المؤاخاة مرتين : الأولى بين المهاجرين بمكة ، والثانية بينهم وبين الأنصار فى المدنية .

وقيل : إنما سمى الصديق صديقا لصدقه ، والعدوّ عدوّا لعَدْوه[1] عليك. وقال ثعلب : إنما سمى الخليل خليلا ، لأن محبته تتخلّل القلب ، فلا تدَع فيه خَللا إلا مَلأته .

وأنشد الرياشىّ قول بشار :

قد تخلَّلتِ مسلكَ الرُّوح منِّى ... وبه سُمِّىَ الخليلُ خَليلاَ

والمؤاخاة فى الناس قد تكون على وجهين : أحدهما : أُخُوَّة مكتسبة بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار .

والثانية : مكتسبة بالقصد والاختيار . فأما المكتسبة بالاتفاق ، فهى أوكد حالا ، لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها ، والمكتسبة بالقصد تُعْقَد لها أسباب تنقاد إليها ، وما كان جاريا بالطبع ، فهو ألزمُ مما هو حادث بالقصد . ونحن نبدأ بالوجه الأوّل المكتسب بالاتفاق ، ثم نُعْقبه بالوجه الثانى ، المكتسب بالقصد . أما المكتسب بالاتفاق فله أسباب نبتدئ بها ، ثم ننتقل فى غاية أحواله المحدودة إلى سبع مراتب ، ربما استكملتهن ، وربما وقفت على بعضهن ، ولكل مرتبة من ذلك حكم خاصّ ، وسبب موجِب . قال الشاعر :

ماهَوًى إلا له سبَبُ ... يبتدِى منهُ وينْشَعِبُ

فأول أسباب الإخاء التجانس فى حال يجتمعان فيها ، ويأتلفان بها ، فإن قَوِىَ التجانس قوى الائتلاف به ، وإن ضعف كان ضعيفا ، ما لم تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف ، وإنما كان ذلك كذلك، لأن الائتلاف بالتشاكل، والتشاكل بالتجانس، فإذا عدم التجانس من وجه ، انتفى التشاكل من كل وجه ، ومع انْتفاء التشاكل يعدم الائتلاف ، فثبت أن التجانس وإن تنوّع: أصل الإخاء ، وقاعدة الائتلاف . وقد رَوَى يحيى بن سعيد ، عن عمرو ، عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال . « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . وهذا واضح . وهى بالتجانس متعارفة ، وبفقده متناكرة . وقيل فى منثور الحكم : الأضداد لا تتفق ، والأشكال لا تفترق .

(١) أى تجاوزه وتعديه .

وقال بعض الحكماء : بحسن تشا كل الإخوان يلبَث التواصل . ولبعضهم :

فلا تحتقرْ نفسى وأنتَ خليلُها فكلُّ امرئ يُصبو إلى مَن يشا كلُ

وقال آخر :

فقلتُ أخى قالوا أخٌ من قَرَابةٍ فقلت لهم : إن الشُّكُولَ أقاربُ

نَسيبىَ فى رأيى وعزمى وَهِمَّتى وإن فرّقَتْنا فى الأصول المَناسبُ

ثم يحدُث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين ، وهى المرتبة الثانية من مراتب الإخاء ، وسبب المواصلة بينهما ، وجود الاتفاق منهما ، فصارت المواصلة نتيجة التجانس ، والسبب فيه وجود الاتفاق ، لأن عدم الاتفاق منفِّر . وقد قال الشاعر :

الناسُ إنْ وافقتَهم عَذُبُوا أوْلَا فإنّ جَناهُمْ مُرُّ

كَمْ مِن رياضٍ لا أنيسَ بها تُرِكَتْ لأنّ طريقَها وعْرُ

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة ، وسببها الانبساط ، ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة ، وهى المصافاة ، وسببها خُلوص النّية ، ورتبة خامسة ، وهى المودّة ، وسببها الثقة ؛ وهذه الرتبة هى أدنى الكمال فى أحوال الإخاء ، وماقبلها أسباب تعود إليها ، فإن اقترن بها المعاضدة ، فهى الصداقة ؛ ثم يحدث عن المودّة رتبة سادسة ، وهى المحبّة ، وسببها الاستحسان ، فإن كان الاستحسان لفضائل النفس ، حدثت رتبة سابعة وهى الإعظام ؛ وإن كان الاستحسان للصورة والحركات ، حدثت رتبة ثامنة ، وهى العِشق ، وسببه الطمع ؛ وقد قال المأمون رحمه الله تعالى :

أوّل العشقِ مُزاحٌ وَوَلَعْ ثم يزداد إذا زاد الطمَعْ

كل مَن يهوَى وإن عالت به رتبة الملكُ لمن يهوَى تَبَعْ

وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة ، وليس لما جاوزها رتبة مقدّرة ، ولا حالة محدودة ، لأنها قد تؤدى إلى ممازجة النفوس ، وإن تميَّزت ذواتها ، وتفضى إلى مخالطة الأرواح ، وإن تفارقت أجسادها ، وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ، ولا الوقوف عند نهايتها . وقد قال الكِنْدِىّ : الصديقُ إنسان هو أنت إلّا أنه غيرُك . ومثلُ هذا القولُ المَرْوِىُّ عن أبى بكر

الصدِّيق رضى الله عنه ، حين أقطع طلحة بن عُبيد الله أرضا ، وكتب له بها كتابا ، وأشهد فيه ناسا منهم عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأتى طلحة بكتابه إلى عُمر ليختمه ، فامتنع عليه ، فرجع طلحة مغضبا إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وقال : والله ماأدرى : أنت الخليفة أم عُمر ؟ فقال : بل عُمر ، لـكنه أنا .

وأما المـكتسبة بالقصد ، فلا بد لها من داعٍ يدعو إليها ، وباعثٍ يبعث عليها ، وقد يكون الداعى إليها من وجهين : رَغبة وفاقة . فأما الرغبة فهى أن يظهر من الإنسان فضائلُ تبعث على إخائه ، ويتوسّم بجميل يدعو إلى اصطفائه . وهذه الحالة أقوى من التى بعدها ، لظهور الصفات المطلوبة ، من غير تـكلف لطلبها ، وإنمـا يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها ، فليس كل من أظهر الخير كان من أهله ، ولا كل من تخلَّق بالُحسنَى كانت من طبعه ، والمتـكلف للشئ مناف له ، إلا أن يدوم عليـه مستحسنا له فى العقل ، أو متدينا به فى الشرع ، فيصير متطبِّعا به ، لا مطبوعا عليه ، لأنه قد تقدم من كلام الحـكماء : ليس فى الطبع أن يكون ماليس فى التطبُّع [١] ، ثم نقول: من المتعذر أن تـكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع ، وإنمـا الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع ، و بعضها بالتطبُّع الجارى بالعادة مجرى الطبع ، حتى يصير ماتطبَّع به فى العادة أغلب عليه ، مما كان مطبوعا عليه ، إذا خالف العادة ، ولذلك قيل : العادة طبع ثان . وقال ابن الرومىّ رحمه الله :

واعلمْ بأن الناسَ من طِينةٍ ... يصدُق فى الثَّلْب لها الثالبُ [٢]
لولا علاجُ الناس أخلاقَهم ... إذن لفاحَ الحمأُ اللازبُ [٣]

وأما الفاقة ، فهى أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ، ومَهانة وَحْدته ، إلى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصُرته ومُوالاته . وقد قالت الحـكماء : من لم يرغب فى ثلاثٍ بُلِىَ بستّ : من لم يرغب فى الإخوان بُلِىَ بالعداوة والخِذْلان . ومن لم يرغب فى السَّلامة ، بُلِىَ بالشدائد والامتهان . ومن لم يرغب فى المعروف بُلِىَ بالندامة والُخسران . ولعمرى إن إخوان الصدق من أنفس الذخائر ، وأفضل العُدَد ، لأنهم سُهْمان [٤] النفوس ، وأولياء النوائب .

---

(١) يريد : أن كل شىء يكون بالطبع ، يمكن أن يكون بالتطبع (منهاج اليقين ص ٢٩٦).
(٢) الثلب : العيب . والثالب : العائب . (٣) الحمأ اللازب : الطين الأسود المنتن .
(٤) سهمان : جمع سهم ، بمعنى النصيب ، شبه الاخوان بالأنصباء من الدنيا . وفى الأصل : سهماء تحريف .

وقد قالت الحكماء : رُبَّ صديق أودُّ من شقيق . وقيل لمعاوية : أيُّما أحبُّ إليك ؟ قال : صديق يُحَبِّبنى إلى الناس . وقال ابن المعتز : القريب بعداوته بعيد ، والبعيد بمودّته قريب . وقال الشاعر :

لَمَوَدَّةٌ ممن يحبُّك مُخْلِصًا   خيرٌ منَ الرَّحِمِ القريبِ الكاشحِ

وقال آخر :

يخُونك ذو القُرْبَى مِرَارًا وَرُبَّمَا   وفى لك عند العهد من لاتناسِبُهْ

[اختيار الإخوان قبل اصطفائهم] فإذا عزم على اصطفاء الإخوان سَبَرَ أحوالهم قبل إخائهم ، وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم ، لما تقدم من قول الحكماء : اسْبُرْ تَخْبُرْ . ولا تبعثه الوحدة على الإقدام قبل الخِبرة ، ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنُّع ، فإن الملق مَصايد العقول ، والنفاق تدليس الفِطَن ، وهما سجيتا المتصنِّع ، وليس فيمن يكون النفاق والملَق بعضَ سجاياه خير يُرجَى ، ولا صلاح يؤمَّل . ولأجل ذلك قالت الحكماء : اعرف الرجل من فعله ، لا من كلامه ، واعرف محبته من عينه ، لا من لسانه . وقال خالد بن صفوان : إنما نَفَقْتُ عند إخوانى ، لأنى لم أستعمل معهم النفاق ، ولا قصَّرْت بهم عن الاستحقاق . وقال حَمّاد[1] :

كم من أخٍ لك ليس تُنكِرهُ   مادمتَ فى دنياك فى يُسْرِ
مُتَصَنِّعٍ لك فى مَوَدَّتِهِ   يلقاك بالترحيب والبشرِ
فإذا عدا (والدهرُ ذو غِيَرٍ)   دَهرٌ عليك عدا مع الدهرِ
فارفضْ بإجمالٍ مودّةَ مَنْ   يَقْلِى المُقِلَّ ويعشَق المُثْرِى
وعليكَ مَنْ حالاه واحدةٌ   فى العسْر إمَّا كنتَ واليسرِ

[يظن بالمرء مايظن بقرينه] على أن الإنسان موسوم بسيماء من قارَب ، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرْء مع مَن أحبَّ » . وقال علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه : الصاحب مُناسب . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

---

(١) هو حماد عجرد بوزن جعفر ، كان ماجنا خليعا ظريفا .

مامن شيء أدلَّ عَلَى شيء ، ولا الدخان على النار ، من الصاحب على الصاحب . وقال بعض الحكماء : اعرِف أخاك بأخيه قَبْلَكَ . وقال بعض الأدباء : يُظَنُّ بالمرء مايُظَنُّ بقرينه . وقال عَدِىّ بن زيد :

عن المرء لا تسألْ وسَلْ عن قرينهِ ... فكلُّ قَرينٍ بالمقارَن يقتدِى

إذا كنت فى قوم فصاحبْ خيارَهم ... ولا تصحبِ الأردَى فتردَى مع الردِى

فلزِم من هذا الوجه أيضا أن يتحرَّز من دُخَلاء أهل السُّوء ، ويجانب أهل الريب ، ليكون موفور العِرْض ، سليم الغَيب ، فلا يُلام بملامة غيره ، ولهذا قيل : التثبّت والارتياء ، ومداومة الاختبار والابتلاء ، متعذر بل مفقود . وقد ضرب ذو الرُّمَّة مَثَلا بالماء ، فيمن حَسُن ظاهره ، وَخَبُث باطنه . فقال :

ألم تر أن الماء يخبُث طَعْمُهُ ... وإن كان لون الماء أبيضَ صافيا

ونظر بعض الحكماء إلى رجل سَوْء حَسَن الوجه . فقال : أما البيت فحسن ، وأما الساكن فردىء ، فأخذ جَحظة(١) هذا المعنى . فقال :

رَبَّ ما أبينَ التباينَ فيه ... منزلٌ عامرٌ وعقلٌ خَرابُ

وأنشدنى بعض أهل العلم :

لا تَرْكَنَنَّ إلى ذى مَنظَرٍ حسَنٍ ... فرُبَّ رائعةٍ قد ساء مَخْبرُها

ما كلُّ أصفرَ دينارٌ لصفرتهِ ... صُفْر العقاربِ أرداها وأنكرُها(٢)

ثم قد تقدم من قول الحكماء : من لم يقدّم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأنس ، أثمرت مودّته ندَما . وقال بعض البلغاء : مُصارَمةٌ قبل اختبار ، أفضل من مؤاخاةٍ على اغترار . وقال بعض الأدباء : لا تثق بالصديق قبل الخِبْرة ، ولا تقع بالعدوّ قبل القُدْرة . وقال بعض الشعراء :

لا تحْمَدَنّ امرأ حتى تجرّبَهُ ... ولا تذمّنّهُ من غير تجريبِ

---

(١) جحظة : لقب أحمد بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، كان شاعرا أديبا مغنيا جاحظ العينين .

(٢) أرداها : من الردى ، أى أسرعها إهلاكا ، وأخبثها سما .

فحمدُكَ المرء مالم تبــلهُ خطأٌ   وذَمُّهُ بَعْدَ حَمْدٍ شرٌّ تـكذيب (١)

فإذنْ قد لزم من هذين الوجهين سَـبْرَ الإخوان قبل إخائهم ، وخِبرة أخلاقهم قبـل اصطفائهم ، فالخصال المعتبرة فى إخائهم بعد المجانسة التى هى أصل الاتفاق ، أربع خصال :

فالخصلة الأولى : عقل موفور ، يهدِى إلى مراشد الأمور ، فإن الحمق لاتثبت معه مودّة ، ولا تدوم لصاحبه استقامة . وقد رُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « البَذَاء (٢) لُؤم ، وصحبة الأحمق شُؤم » . وقال بعض الحـكماء : عداوة العاقل ، أقل ضررا من مودّة الأحمق ، لأن الأحمق ربمـا ضرّ وهو يقدر أن ينفع ، والعاقل لايتجاوز الحدّ فى مَضرّته ، فمضرته لها حدّ يقف عليه العقل ، ومضرة الجاهل ليست بذات حدّ ، والمحدود أقل ضررا ممـا هو غير محدود . وقال المنصور للمسيّب بن زُهَير : مامادة العقل ؟ فقال : مجالسة العقلاء . وقال بعض البلغاء : مِنَ الجهل صحبة ذوى الجهل ، ومن المُحال مجادلة ذوى المِحال (٣) . وقال بعض الأدباء : مَن أشار عليك باصطناع جاهل أوعاجز ، لم يَخْلُ أن يكون صديقا جاهلا ، أو عدوّا عاقلا ، لأنه يشير بما يضرّك ، ويحتال فيما يضَع منك . وقال بعض الشعراء :

إذا ما كنتَ متخذا خليلاً   فلا تَثِقَنْ بكلّ أخى إخاءِ

فإن خُـيِّرْتَ بين الناس فالصَقْ   بأهلَ العقل منهم والحَياءِ

فإن العقل ليس له إذا ما   تفاضَلَت الفضائلُ من كِفاءِ

والخصلة الثانية : الدين الواقف بصاحبه على الخيرات ، فإن تارك الدين عدوّ لنفسه ، فـكيف يُرْجَى منه مودة غيره . وقال بعض الحـكماء : اصْطَفِ من الإخوان ذا الدين والحسب ، والرأى والأدب ، فإنه رِدْء لك عند حاجتك ، ويَدٌ عند نائبتك ، وأُنْس عنـد وحشتك ، وَزَيْن عند عافيتك . وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

أَخِلَّاءُ الرخاء هُمُ كثيرٌ   ولـكنْ فى البـلاء هُمُ قليلُ

فلا يَغرُرْكَ خُلّةُ مَن تُؤاخى   فما لك عنـد نائبة خليلُ

---

(١) رواية الشطر الثانى فى النسخ المطبوعة : « وذمك المرء بعد الحمد تـكذيب » وفيهما إقواء .

(٢) البذاء : الفحش فى القول .   (٣) يريد : مما لايرجى نفعه مجادلة ذوى المكر والدهاء .

وكل أخ يقول أنا وفىٌّ ولكن ليس يفعلُ ما يقولُ
سوى خِلٍّ له حَسَب ودين فذاك لما يقول هو الفَعولُ

وقال آخر :

مَن لم تكنْ فى الله خُلّته فخليلُه منه على خطَر

والخصلة الثالثة : أن يكون محمود الأخلاق ، مَرْضِىّ الفِعال ، مؤثرا للخير ، آمرا به ، كارها للشر ، ناهيا عنه ، فإن مودة الشّرير تُكْسِبُ العِداءَ ، وتفسد الأخلاق ، ولا خير فى مودة تجلُب عداوة ، وتورِث مَذَمَّة وملامة ؛ فإن المتبوع تابع صاحبه . وقال عبدالله بن المعتز : إخوان الشرّ كشجر النارَنج يُحْرِق بعضه بعضا . وقال بعض الحكماء : مخالطة الأشرار على خَطَر ، والصبر على صحبتهم كركوب البحر ، الذى مَن سَلِم منه ببدنه من التلف فيه ، لم يسلم بقلبه من الحذَر منه . وقال بعض البلغاء : صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار . وقال بعض البلغاء : من خير الاختيار ، صحبة الأخيار ، ومن شر الاختيار ، صحبة الأشرار . وقال بعض الشعراء :

مجالسة السّفيهِ سَفَاهُ رأيٍ ومنْ عَقْلٍ مجالسة الحكيم
فإنّك والقرينَ معًا سواءٌ كما قُدَّ الأديمُ من الأديم

والخصلة الرابعة : أن يكون من كل واحد منهما ميل إلى صاحبه ، ورغبة فى مؤاخاته ، فإن ذلك أوكد لحال المؤاخاة ، وأمدّ لأسباب المصافاة ، إذ ليس كل مطلوب إليه طالب ، ولا كل مرغوب إليه راغب ، ومَن طلب مودة ممتنعٍ عليه ، ورغب إلى زاهد فيه ، كان مُعَنًّى خائبا ، كما قال البُحْترىّ :

وطلبتُ منك مودّةً لم أُعطَها إن المُعَنّى طالبٌ لا يظفرُ

وقال العباس بن الأحنف :

فإنْ كان لايدنيكَ إلا شفاعةٌ فلا خيرَ فى وُدٍّ يكون بشافعِ
وأُقسم ما تركى عتابَك عن قِلًى ولكن لعلمى أنه غيرُ نافعِ
وإنى إذا لم ألزمِ الصبرَ طائعا فلابدّ منهُ مُكْرهًا غير طائعِ

[اصطفاء الحكماء من الرجال] : فإذا استكملت هذه الخصال فى إنسان ، وجب إخاؤه ، وتعيَّن اصطفاؤه ، وبحسَب وفورها فيه ، يجب أن يكون الميل إليه ، والثقة به ، وبحسب مايُرَى من غَلَبة إحداها عليه ، يُجعل مستعمَلا فى الخُلُق الغالب عليه ، فإن الإخوان على طبقات مختلفة ، وأنحاء متشعبة ، ولكل واحد منهم حال ، يختص بها فى المشاركة ، وثُلْمة يَسُدّها فى الموازَرة والمظافرة ، وليس تتفق أحوال جميعِهم على حدّ واحد ، لأن التباينَ فى الناس غالب ، واختلافهم فى الشِّيَم ظاهر . وقال بعض الحكماء : الرجال كالشجر : شرابه واحد ، وثمره مختلف ؛ فأخذ هذا المعنى منصور بن إسمعيل ، فقال :

بنـــو آدمَ كالنبتِ ونبْتُ الأرضِ ألوانُ
فمنهمْ شجرُ الصـــندَلِ والكافورُ والبانُ
ومنهمْ شجر أفْـــضَلُ مايحمِلُ قَطِرَانُ

ومَن رام إخوانا تتفق أحوال جميعهم ، رام متعـذرا ، بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خَلَل فى نظامه ؛ إذ ليس الواحد من الإخوان يمكن الاستعانة به فى كل حال ، ولا المجبولون على الخلق الواحد ، يمكن أن يتصرفوا فى جميع الأعمال ، وإنما بالاختلاف يكون الائتلاف . وقد قال بعض الحكماء : ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بُدًّا . وقال المأمون : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء : لايستغنى عنه ، وطبقة كالدواء : يُحتاج إليه أحيانا ، وطبقة كالداء : لا يُحتاج إليـه أبدا . ولعمرى إن الناس على ما وصفهم ، ولكن ليس من كان منهم كالداء من الإخوان المعدودين ، بل هم من الأعداء المحذورين ، وإنمـا يُداجُون (١) المودة استكفافا لشرّهم ، وتحرُّزا من مكاشفتهم ، فدخلوا فى عِداد الإخوان بالمظاهرة والمساترة ، وفى الأعداء عنـد المكاشَفة والمجاهرَة . قال بعض الحكماء : مَثَل العدوّ الضاحك إليك ، كالحنظلة الخضْراءِ أوراقُها ، القاتل مذاقُها . وقد قيل فى منثور الحكم : لاتغترِرْ بمقاربة العدوّ ، فإنه كالماء الذى إن أطيل إسخانه بالنار ، لم يمنع من إطفائها . وقال يزيد بن الحكَم الثقفىّ :

---

(١) داجاه : ساتره بالعداوة .

تُكاشِرُنى ضِحْكا كأنك ناصحٌ وعينك تبدى أنّ صدرك لى دَوِىْ
لسانك معسولٌ ونفسك علقمٌ وشرّك مبسوطٌ ، وخيرك ملتوِىْ
فليتَ كَفافا كان خيرُك كلُّه وشرُّك عنى ماارتوى الماءَ مرْتوِىْ

فإذا خرج من كان كالداء من عِداد الإخوان ، فالإخوان هم الصنفان الآخَران ، من كان منهم كالغذاء أو كالدواء ، لأن الغذاء قِوام للنفس وحياتُها ، والدواء علاجها وصلاحها ، وأفضلهما من كان كالغذاء ، لأن الحاجة إليه أعمّ . و إذا تميز الإخوان وجَب أن ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله إليه ، واستقرّت خِصاله وخِلاله عليه ، فمن قويت أسبابه ، قويت الثقةُ به ، و بحسب الثقة به ، يكون الركون إليه ، والتعويلُ عليه . وقال الشاعر :

ما أنت بالسبب الضعيف و إنما نُجْحُ الأمور بقوّة الأسبابِ
فاليومَ حاجتنا إليك ، و إنما يُدعَى الطبيبُ لشدة الأوصابِ

[اختلاف مذاهب الناس فى كثرة الإخوان] : وقد اختلفت مذاهب الناس فى اتخاذ الإخوان . فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولَى ، ليكونوا أقوى مَنَعة ويدا ، وأوفر تحبُّبا وتوددا ، وأكثر تعاونا وتفقُّدا . وقيل لبعض الحكماء : ما العيش ؟ قال : إقبال الزمان ، وعز السلطان ، وكثرة الإخوان . وقيل : حِلية المرء كثرة إخوانه . ومنهم من يرى أن الإقلال منهم أولى ، لأنه أخف أثقالا وكُلَفا ، وأقل تنازعا وخُلْفا . وقال الإسكندر : المستكثر من الإخوان من غير اختيار ، كالمستوقر[1] من الحجارة . والمُقِلُّ من الإخوان المتخيِّرُ لهم ، كالذى يتخيَّر الجوهر . وقال عمرو بن العاص : من كثُرَ إخوانه كثر غُرَماؤه . وقال إبراهيم ابن العباس : مَثَل الإخوان كالنار : قليلها مَتاع ، وكثيرها بَوَار . ولقد أحسن ابن الرومىّ فى هذا المعنى ونبَّه على العلة ، حيث يقول :

عَدُوُّك من صديقك مستفادٌ فلا تَسْتَكْثِرَنَّ من الصِّحابِ
فإن الداءَ أكثرَ ما تراهُ يكونُ من الطعام أو الشرابِ
ودَعْ عنك الكثيرَ فكم كثيرٍ يُعافُ وكم قليلٍ مستطابُ
فما اللُّجَجُ المِلاح بمُرْوِياتٍ وتَلقَى الرِّىّ فى النُّطَف العِذاب

---

(١) المستوقر من الحجارة : المتخذ وقرا منها ، وهو الحمل الثقيل .

وقال بعض البلغاء : ليكن غرضك فى اتخاذ الإخوان ، واصطناع النصحاء تكثير العُدّة ، لاتكثير العِدّة ، وتحصيل النفع ، لاتحصيل الجمع ، فواحد يحصل به المراد ، خير من ألف تُكثِّر الأعداد .

[مذهب العقلاء وأهل الفضل] : وإذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوّة ، وأسباب المودة ، كان وُفور العقل ، وظهور الفضل ، يقتضى من حال صاحبه قلة إخوانه ، لأنه يروم مِثْلَه ، ويطلب شَكلَه ، وأمثاله من ذوى العقل والفضل ، أقل من أضداده من ذوى الحمق والنقص ، لأن الخِيار فى كل جنس هو الأقل ، فلذلك قلّ وفور العقل والفضل . وقد قال الله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحُجرات أكثرهم لايعقلون » ، فقلّ بهذا التعليل إخوان أهل الفضل لقلتهم ، وكثر إخوان ذوى النقص والجهل لكثرتهم . وقد قال فى ذلك الشاعر :

لكلّ امرئ شَكْلٌ من الناس مثلُه ... فأكثرُهم شَكْلاً أقلُّهمُ عقلاَ
وكل أناسٍ آلفون لشكلهمْ ... فأكثرهم عقلا أقلهم شكلاَ
لأن كثير العقل لستَ بواجدٍ ... له فى طريق حين يسلكه مِثلَا
وكل سفيهٍ طائشٍ إن فقدتَهُ ... وجدتَ له فى كل ناحية عِدْلَا

[أقسام الداخلين فى عدد الإخوان] : وإذا كان الأمر على ماوصفنا، فقد تنقسم أحوال مَن دخل فى عدد الإخوان أربعة أقسام : منهم من يُعين ويستعين ، ومنهم من لايعين ولايستعين ، ومنهم من يستعين ولايعين ، ومنهم من يعين ولايستعين .

فأما المعين والمستعين ، فهو معاوِض منصِف ، يؤدِّى ماعليه ، ويستوفى مالَه ، فهو كالمقرض : يُسعف عند الحاجة ، ويستردّ عند الاستغناء ، وهو مشكور فى مَعونته ، ومعذور فى استعانته ؛ فهذا أعدل الإخوان .

وأما من لايعين ولايستعين ، فهو متروك ، قد مَنع خَيرَه ، وقمَع شره ، فهو لاصديق يُرْجَى ، ولاعدوٌّ يُخشى . وقد قال المغيرة بن شُعْبة رضى الله عنه : التارك للإخوان متروك . وإذا كان كذلك فهو كالصورة الممثّلة : يروقك حسنها ، ويخونك نفعها ؛ فلاهو مذموم

لقمع شره ، ولاهو مشكور لمنع خيره ، وإن كان باللوم أجدر ، وقد قال الشاعر :

وأسوأُ أيام الفتى يومَ لايَرَى ... له أحدٌ يُزرِى عليه ويُنكِرُ

غير أن فساد الوقت وتغير أهله ، يوجب شكر من كان شرّه مقطوعا ، وإن كان خيره ممنوعا ، كما قال المتنبى :

إنّا لفى زمنٍ تركُ القبيح بهِ ... من أكثر الناس إحسانٌ وإجمالُ

وأما من يستعين ولا يعين ، فهو لئيمٌ كَلٌّ ، ومَهين مُستذَلٌّ ، قد قطعَ عنه الرغبة ، وبَسط فيه الرَّهبة ، فلاخيرُه يُرْجَى ، ولا شرّه يؤمن ، وحسبك مَهانةً من رجل مستثقَل عند إقلاله ، ويُستَقَلّ عند استقلاله ، فليس لمثله فى الإخاء حظٌّ ، ولا فى الوداد نصيب ، وهو ممن جعله المأمون من داء الإخوان لامن دوائهم ، ومن سَمّهم لامن غِذائهم . وقال بعض الحكماء : شرّ مافى الكريم أن يمنعك خيرَه ، وخير مافى اللئيم أن يكفَّ عنك شرّه وقال ابن الرومىّ :

عذرنا النخلَ فى إبداءِ شوكٍ ... يردّ به الأناملَ عن جَناهُ

فما للعوسَج الملعون أبدَى ... لنا شوْكا بلا ثمر نراهُ ؟

وأما من يعين ولايستعين ، فهو كريم الطبع ، مشكور الصنع ، وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء . فلا يُرَى ثقيلا فى نائبة ، ولا يقعد عن نهضة فى معونة ؛ فهذا أشرف الإخوان نفسا ، وأكرمهم طبعا ؛ فينبغى لمن أوجد له الزمان مثلَه — وقل أن يكون له مِثل ، لأنه البَرّ الكريم ، والدُّر اليتيم — أن يَثْنِىَ عليه خِنصره ، ويعَضَّ عليه بناجذه ، ويكون به أشدّ ضِنّا منه بنفائس أمواله ، وسَنِىّ ذخائره ، لأن نفع الإخوان عامّ ، ونفع المال خاصّ ، ومن كان أعمَّ نفعا ، فهو بالادخار أحق . وقال الفرزدق :

يمضِى أخوكَ فلا تَلْقَى له خَلَفًا ... والمالُ بعد ذهاب المالِ مكتَسبُ

وقال آخر :

لكل شىء عدِمتَهُ عِوَضٌ ... وما لفقدِ الصديقِ من عِوَضِ

[الإغضاء عن هفوات الإخوان] : ثم لاينبغى أن يُزهَد فيه ، لخلُق أو خلُقين ينكرهما منه ، إذا رَضِى سائر أخلاقه ، وحمِد أكثر شيمه ، لأن اليسير مغفور ، والكمال مُعْوِز . وقد قال الـكِنْدىّ : كيف تريد من صديقك خلقا واحدا ، وهو ذو طبائع أربع ؟ مع أن نفس الإنسان التى هى أخص النفوس به ، ومدبَّرة باختياره وإرادته ، لاتعطيه قيادَها فى كل مايريد ، ولاتجيبه إلى طاعته فى كل مايحب ، فكيف بنفْس غيره ؟ وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثرُه ، وقد قال أبوالدرداء رضى الله عنه : معاتبة الأخ خيرٌ من فَقْده ، ومن لك بأخيك كله ؟ فأخذ الشعراء هذا المعنى ، فقال أبو العتاهية :

أأُخَىَّ مَن لك من بنى الدنيا بكلّ أخيكَ مَنْ لَكْ
فاستبقِ بعضَك لا يَمَلَّكَ كلُّ من لم تُعْطِ كلَّكْ

وقال أبو تمام الطائى :

ما غَبَنَ المغبونَ مثلُ عَقلِهِ   مَنْ لك يوما بأخيك كلِّه ؟

وقال بعض الحكماء : طلب الإنصاف ، من قلة الإنصاف . وقال بعض البلغاء : لايزهدنك فى رجل حَمِدْت سيرته ، وارتضيت وَتيرته ، وعَرَفتَ فضله ، وبَطَنت عقله ، عيب خفىّ ، تحيط به كثرة فضائله ، أو ذنب صغير تستغفر له قوّةُ وسائله ، فإنك لن تجد مابقيتَ مهذَّبا لا يكون فيه عيب ، ولا يقع منه ذنب ، فاعتبر بنفسك بعد ألّا تراها بعين الرضا ، ولا تجرِى فيها على حكم الهوى ، فإن فى اعتبارك بها ، واختبارك لها ، مايؤيسك مما تطلب ، ويعطِفك على من يُذنب . وقد قال الشاعر :

ومَن ذا الذى تُرْضَى سجاياه كلُّها   كفى المرء نُبْلاً أن تُعَدّ معايبُهْ ؟

وقال النابغة الذبيانىّ :

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ أىُّ الرجالِ المهذَّبُ ؟

وليس ينقضُ هذا القولَ ماوصفنا من اختباره ، واختبار الخصال الأربع فيه ، لأنّ ماأعوزَ فيه معفوّ عنه ، وهذا لاينبغى أن توحشك فَترة تجدها منه ، ولاأن تسىء الظنّ فى كَبوة تكون منه ، مالم تتحقق تغيرَه ، وتتيقنْ تنكرَه ، وليُصْرَف ذلك إلى فَترات

النفوس ، واستراحات الخواطر ، فإن الإنسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التى هى أخص النفوس به ، ولا يكون ذلك من عداوة لها ، ولا مَلَل منها . وقد قيل فى منثور الحكم : لا يفسدنّك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . وقال جعفر بن محمد لابنه : يابنىَّ من غضب من إخوانك ثلاث مرات ، فلم يقل فيك سوءا ، فاتخذه لنفسك خِلاّ . وقال الحسن بن وهب : من حُقوق المودَّة أخذ عَفْو الإخوان ، والإغضاء عن تقصير إن كان . وقد رُوِى عن علىّ رضى الله عنه فى قوله تعالى : « فاصفحِ الصفحَ الجميل » قال : الرضا بغير عِتاب . وقال ابن الرومىّ :

هُمُ الناسُ والدنيا ولا بدَّ من قَذًى ... يُلِمُّ بعينٍ أو يكدِّرُ مَشْرَبَا

ومِن قِلة الإنصاف أنكَ تبتغى الْـ ... ـمُهذَّب فى الدنيا ولست المهذّبَا

وقال بعض الشعراء :

تَواصُلُنا عَلَى الأيام باقٍ ... ولكن هجرُنا مَطَرُ الربيع

يروعكَ صَوْبه لكن تراهُ ... على عِلّاته دانى النُّزوع

مَعاذَ الله أن نُلْفَى غِضابًا ... سوى دَلِّ المطاعِ عَلَى المطيعِ

وأنشدنى الأزدىّ :

لا يُؤْيِسنَّكَ من صديقٍ نَبْوَةٌ ... ينبو الفتى وهو الجوادُ الخِضْرِمُ

فإذا نبا فاستَبقه وتأنَّهُ ... حتى تفِئ به وطبعُك أكرمُ

[صداقة الملول] : وأما المَلُول ، وهو السريع التغير ، الوشيك التنكُّر ، فوداده خطَر ، وإخاؤه غرَر ، لأنه لا يبقى على حالة ، ولا يخلو عن استحالة . وقد قال ابن الرومىّ :

إذا أنتَ عاتبتَ المَلولَ فإنما ... تخُطُّ عَلَى صُحُفٍ من الماء أحرُفَا

وهَبْهُ ارْعوَى بعد العتابِ ألم تكنْ ... مودّتُه طَبعا فصارت تكلّفَا

وهم نوعان : منهم من يكون مَلَله استراحة ، ثم يعود إلى المعهود من إخائه ، فهذا أسلم المَلِلين ، وأقرب الرجلين ، يسامح فى وقت استراحته ، وحين فَتْرته ، ليرجع إلى الحسنى ، ويَئُوب إلى الإخاء ، وإن تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال :

وقالوا : يعود الماء فى النهر بعد ما   عَفَتْ منه آثارٌ وجفَّتْ مشارعُهْ
فقلتُ : إلى أن يرجعَ الماء عائدا   ويُعْشِبَ شطّاه تموتُ ضفادعُهْ

لكن لايَطرحُ حَقّه بالتوهُّم ، ولايُسْقِط حُرمته بالظُّنون . وقال الشاعر :

إذا ماحالَ عهدُ أخيك يومًا   وحادَ عن الطريق المستقيم
فلاتعجلْ بلومك واستدمْهُ   فإن أخا الحِفاظ المستديمُ
فإن تك زلةٌ منه وإلا   فلاتبعُدْ عن الخلق الكريمِ

ومنهم من يكون مَلَله تركا واطّراحا ، ولا يراجع إخاء ولا ودّا ، ولا يتذكر حِفاظا ولا عهدا ، كما قال أشجع بن عَمرٍو السُّلَمىّ :

إنى رأيتُ لها مواصلةً   كالسّمّ تفرِغه على الشَّهْدِ
فإذا أخذتُ بعهد ذمّتها   لعبَ الصدودُ بذلك العهدِ

وهذا أذمّ الرجُلين حالا ، لأن مودّته من وساوس الخَطرات ، وعوارض الشَّهوات ، وليس إلا استدراك الحال معه ، بالإقلاع قبل المخالطة ، وحسن المتاركة بعد الورطة ، كما قال العباس بن الأحنف :

تداركتُ نفسى فعزَّيتُها   وبَغَّضْتُها فيكَ آمالَها
وماطابت النفسُ عن سَلْوَةٍ   ولكن حَمَلتُ عليها لها

وما مثل من هذه حاله إلا كما قد قال إبراهيم بن هَرْمة :

فإنك واُطّراحَكَ وصْلَ سَلْمَى   لأخرى فى مودّتها نُكُوبُ
كثاقبةٍ لِحَلْيٍ مستعارٍ   لأُذْنيها فَشَانَهُما الثُّقُوب
فأدّت حَلْىَ جارتها إليها   وقد بقِيت بأذنيها نُدُوبُ

[صور الصبر على الصبر] : وإذا صفَت له أخلاق من سَبَره ، وتمهدت إليه أحوال من خَبَره ، وأقدم على اصطفائه أخا ، وعلى اتخاذه خِدْنا ، لزمته حينئذ حقوقه ، ووجبت عليه حُرُماته . وقال عمرو بن مسعدة : العبودية عبودية الإخاء ، لاعبودية الرقّ . وقال بعض الحكماء : من جاد لك بمودّته فقد جعلك عَديل نفسه .

فأوّل حقوقه اعتقاد مودّته ، ثم إيناسه بالانبساط إليه فى غير مُحَرّم ، ثم نصحه فى السر والعلانية ، ثم تخفيف الأثقال عنه ، ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة ، أو يناله من نكْبة ، فإن مراقبته فى الظاهر نفاق ، وتركه فى الشدة لؤم . وقد قيل : يارسول الله ، أى الأصحاب خير ؟ قال : « الذى إذا ذَكَرْتَ أعانك وواساك ، وخير منه من إذا نسيت ذكّرك » . وقال علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه : خير إخوانك من واساك ، وخير منه من كافاك . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن لايلتمِس خالص مودّتى ، إلا بموافقة شهوتى ، وممن ساعدنى على سرور ساعتى ، ولا يفكر فى حوادث غَدِى . وقال بعض البلغاء : عقود الغادر محلولة ، وعهوده مَدْخولة . وقال بعض البلغاء : ماوَدَّك ، مَن أهمل وُدَّك ، ولا أحبك ، من أبغض حِبَّك . وقال بعض الشعراء :

وكل أخٍ عند الهوينَى ملاطفٌ ... ولكنما الإخوانُ عند الشدائدِ

وقال صالح بن عبد القدوس : شرّ الإخوان من كانت مودته مع الزمان إذا أقبل ، فإذا أدبر الزمان أدبرَ عنك ، فأخذ هذا المعنى الشاعر ، فقال :

شَرُّ الأخلاءِ من كانت مودّتُهُ ... مع الزمانِ إذا ماخاف أو رَغِبَا
إذا وَتَرْتَ امْرَأً فاحذَرْ عَدَاوتَهُ ... مَنْ يزرعِ الشوكَ لايحصُدْ به عِنَبا[١]
إن العَدُوَّ وَإن أبدَى مُسالَمَةً ... إذا رأى منكَ يوما فُرْصة وَثَبَا

وينبغى أن يتوَقَّى الإفراطَ فى محبته ، فإن الإفراط داعٍ إلى التقصير ، ولأن تكون الحال بينهما نامية ، أولى من أن تكون متناهية . وقد رَوَى ابن سِيرينَ عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحبِبْ حبيبَك هَوْنًا مّا ، عسى أن يكون بَغِيضَك يوما مّا ، وأبغِض بغيضك هوْنًا مّا ، عسى أن يكون حَبيبك يومًا مّا[٢] » . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : لا يكن حبّك كَلَفًا ، ولا بُغْضك تَلَفًا[٣] . وقال أبوالأسود الدؤلىّ :

---

(١) وتره فهو موتور : قتل له قتيلا ولم يأخذ بدمه . والمراد : أساء إليه أية إساءة تغضبه .

(٢) المراد : ترفق واقتصد ولا تغل فى محبة أو عداوة ، فإن الأيام تتقلب ، وقد يصير الصديق عدوا .

(٣) الكلف : شدة الولوع بالشىء ، والعشق له . والتلف : الإهلاك .

وكن مَعْدِنا للخير واُصفحْ عن الأذَى … فإنك راء ماعملتَ وسامعُ
وأحببْ إذا أحببتَ حُبًّا مُقارِبًا … فإنكَ لاتدرِى متَى أنتَ نازعُ[(١)]
وأبغِضْ إذا أبغضتَ غيرَ مُبايِنٍ … فإنك لاتدرِى مَتَى أنتَ راجعُ

وقال عَدِىّ بن زيد :

لاتأمَنَنْ من مُبغِضٍ قربَ دارِه … ولامن مُحِبٍّ أن يَمَلَّ فيَبْعُدَا

وإنما يلزم من حق الإخاء ، بذلُ المجهود فى النصح ، والتناهى فى رعاية مابينهما من الحقّ ، فليس فى ذلك إفراطٌ وإن تناهى ، ولا مجاوزةُ حدٍ ، وإن كثر وأوفَى ، فتستوى حالتاهما فى المَغيب والمَشْهَد ، ولا يكون مَغيبُهما أفضل من مشهدهما وأولى ، فإن فضل المشهد على المغيب لؤم ، وفضلَ المغيب على المشهد كرم ، واستواؤهما حِفاظ . وقال بعض الشعراء :

عَلَىّ لإخوانى رقيب من الصفا … تَبيدُ الليالِى وَهْوَ ليسَ يبيدُ
يذَكِّرنيهمْ فى مَغيبى ومَشْهدِى … فسِيَّانِ منهمْ غائبٌ وشهيدُ
وإنى لأستحيى أخى أن أبرَّه … قريبًا وأن أجفوْه وهو بعيدُ

وهكذا يقصد التوسط فى زيارته وغشيانه ، غير مقلّل ولا مكثر ، فإن تقليل الزيارة داعية الهِجْران ، وكثرتها سبب المَلاَل . وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه : « ياأبا هريرة : زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا[(٢)] » . وقال لبيد :

تَوَقَّفْ عَنْ زيارةِ كلِّ يومٍ … إذا أكثرْتَ ملَّكَ مَنْ تزُورُ

وقال آخر :

أقلِلْ زيارتَكَ الصديقَ ولا تُطِلْ … هِجْرانَهُ فَيلجَّ فى هِجْرانِهِ
إنَّ الصديقَ يَلجُّ فى غِشْيانِهِ … لصديقه ، فيملّ من غِشْيانِهِ
حتى يَرَاهُ بعدَ طولِ سُرُورِه … بمكانه متثاقِلاً بمكانِهِ

---

(١) نزع عنه : فارقه . (٢) أى زر إخوانك وقتا بعد وقت ، ولا تلازمه كل يوم .

وإذا توانى عن صيانة نفسهِ رجلٌ تُنُقِّصَ وَاسْتُخِفَّ بشأنِه

وبحسب ذلك فليكن فى عتابه، فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة، واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق، وقد قيل: عِلة المعاداة، قلة المُبالاة، بل تتَوَسَّطُ حالتا تركه وعتابه، فيسامَح بالمتاركة، ويستصلَح بالمعاتبة، فإن المسامحة والاستصلاح إذا اجتمعا، لم يلبث معهما نفور، ولم يبق معهما وَجْد. وقد قال بعض الحكماء: لاتكثِرَنّ معاتبة إخوانك، فيهونَ عليهم سُخْطك. وقال منصور النَّمَرىّ:

أقلِلْ عتابَ من استرَبتَ بودّهِ ليستْ تُنال مودّةٌ بعتابِ

وقال بشار بن برد:

إذا كنْتَ فى كلّ الأمور مُعاتبًا صديقَكَ لم تلقَ الذى لا تُعاتبهُ
وإنْ أنت لم تشرب مِرَارًا على القذَى ظَمِئْتَ وأىُّ الناسِ تصفو مشاربُهُ؟
فعِشْ واحدًا أوْ صِلْ أخاكَ فإنه مُقارفُ ذَنْبٍ مرَّةً ومجانبُهْ[(١)]

— ثم من حقّ الإخوان أن تغفر هفوتهم، وتستُرَ زلتهم، لأن من رام بريئا من الهفوات، سليما من الزَّلَّات، رام أمرا مُعْوِزا، واقترح وصفا معجِزا؛ وقد قالت الحكماء: أىّ عالم لا يهفو، وأىّ صارمٍ لا ينبو[(٢)]، وأىّ جواد لا يكبو؟

وقالوا: من حاول صديقًا يأمَنُ زلته، ويدوم اغتباطه به، كان كضالّ الطريق، الذى لا يزداد لنفسه إتعابا، إلا ازداد من غايته بُعْدًا. وقيل لخالد بن صفوان: أىُّ إخوانك أحبُّ إليك؟ قال: من غفر زَلَلى، وقطع عِلَلى، و بلَّغنى أملى.

وقال بعض الشعراء:

ما كدْتُ أفحصُ عن أخى ثِقَةٍ إلَّا ندِمتُ عواقبَ الفحْصِ

وأُنشدتُ عن الربيع، للشافعىّ رضى الله عنه:

أُحِبُّ من الإخوان كلَّ مُواتى[(٣)] وكلَّ غَضيض الطرف عن عَثَرَاتى

---

(١) قارف الشىء: قاربه. (٢) نبا السيف عن الضريبة: كل ولم يقطع.
(٣) المواتى: الموافق.

يوافقُـــنى فى كل أمر أُرِيدُه ويَحفظنى حَيًّا و بعــدَ وفاتى

فمن لى بهذا ؟ ليتَ أنى أصبتُهُ فقاسمته مالى من الحسَنات ؟

تصفحتُ إخوانى وكان أقلُّهم على كثرة الإخوان أهلَ ثقاتى

وأنشد ثعلب :

إذا أنتَ لم تَسْتَقبلِ الأمرَ لم تجدْ بكفيــكَ فى أدباره مُتعَلَّقَا

إذا أنت لم تتركْ أخاكَ وزَلَّةً إذا زَلَّـا أوشكتما أنْ تفرَّقَا

وحكى الأصمعىّ عن بعض الأعراب ، أنه قال : تناسَ مساوِىَ الإخوان ، يدم لك ودّهم.
ووصَّى بعض الأدباء أخا له ، فقال : كن للودّ حافظا ، و إن لم تجد محافظا ، وللخلّ واصلا ، و إن لم تجد مواصلا . وقال رجل من إياد ليزيد بن المهلب :

إذا لم تجَاوَزْ عن أخ عند زَلَّة فلستَ غدا عن عَثرتى متجاوزا

وكيف يرجيك البعيــدُ لنفعهِ إذا كان عن مولاكَ خيرُكَ عاجزا

ظلمتَ أخاً كلفتهَ فوق وُسْعِهِ وهل كانت الأخلاق إلّا غرائزا ؟

وقال أبومسعود كاتب الرّضى : كنا فى مجلس الرّضِى ، فشكا رجل من أخيه ، فأنشد الرضى :

اِعْذِرْ أخاكَ على ذنوبهْ واسترْ وغُضَّ على عُيوبِهْ

واصبرْ عَلَى بَهْتِ السَّـــفيهِ وللزمان على خطوبِهْ [١]

ودَعِ الجواب تفضُّــلاً وكِلِ الظلومَ إلى حَسيبهْ

واعلَمْ بأنَّ الحِـلْمَ عنـدَ الغيظِ أحسنُ مِنْ ركُوبِهْ

وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع ، أنها قالت لزوجها طلحةَ بن عبد الرحمن بن عَوْف الزُّهْرِىّ ، وكان أجود قريش فى زمانه : ما رأيت قوما ألأم من إخوانك . قال : مَهْ [٢] ، ولم ذلك ؟ قالت : أراهم إذا أيسرت لزموك ، و إذا أعسرت تركوك . قال : هذا والله من

---

(١) بهت السفيه : كذبه وافتراؤه . (٢) مه : كفى واسكتى .

كرَمهم : يأتوننا فى حال القوّة بنا عليهم ، ويتركوننا فى حال الضعف بِنا عنهم . فانظر كيف تأوّل بكرمه هذا التأويل ، حتى جعل قبيح فعلهم حسنا ، وظاهر غَدرهم وفاء ، وهذا مَحْض الـكرم ، ولباب الفضل ، وبمثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتأوَّلوا الهفوات من إخوانهم . وقد قال بعض الشعراء :

إذا مابدتْ من صاحبٍ لك زلةٌ فـكن أنت مُحتالاً لزلته عُذْرَا
أحِبُّ الفتى ينفِى الفواحش سمعهُ كأنّ به عن كل فاحشة وَقْرَا
سَليمَ دواعى الصدرِ لاباسطٌ أذًى ولا مانعٌ خيرًا ولا قائلٌ هُجْرَا

والداعى إلى هذا التأويل شيئان : التغافُل الحادث عن الفطنة ، والتألُّف الصادر عن الوفاء . وقال بعض الحكماء : وجدت أكثر أمور الدنيا لاتجوز إلا بالتغافل . وقال أكثَم بن صَيْفىّ : من شدّد نفَّر ، ومن تراخَى تألَّف ، والشرف[1] فى التغافل . وقال شبيب بن شيبة : الأريب العاقل ، هو الفطن المتغافل . وقال الطائىّ :

ليس الغبىُّ بسيدٍ فى قومِهِ لـكنّ سيدَ قومِهِ المتغابى

وقال أبو العتاهية :

إن فى صحـةِ الإخاء من النا سِ وفى خُـلّة الوفاء لَقِلَّهْ
فالْبَسِ الناس ما استطعت على النقْـص وإلا لم تستقم لك خُلّهْ
عشْ وحيدا إن كنت لاتقبل العذْ رَ وإن كنت لا تجاوزُ زَلّهْ
مِن أبٍ واحـد وأمّ خُلِقنا غير أنا فى المال أولاد عَـلّهْ[2]

ومما يتبع هذا الفصل تألُّف الأعداء ، بمـا يَثْنيهم عن البغضاء ، ويعطفهم على المحبة ، وذلك قد يكون بصنوف من البرّ ، ويختلف بسبب اختلاف الأحوال ، فإن ذلك من سمات الفضل ، وشروط السُّؤدد ، فإنه ماأحد يعدم عدوّا ، ولا يفقد حاسدا ، وبحسب قدر النعمة تـكثر الأعداء والحسدة ، كما قال البُحْترىّ :

---

(١) ويروى : السرو ، وهو بمعنى الشرف . (٢) أبناء العلات : الذين يكون أبوهم واحدا ، وأمهاتهم شتى .

ولن تستبينَ الدهرَ مَوضعَ نعمةٍ إذا أنتَ لم تُدْلَلْ عليها بحاسدِ

فإن أغفل تألُّف الأعداء مع وُفور النعمة، وظهور الحَسَدة، توالى عليه من مكر حليمهم، وبادرة سفيههم، ماتصير به النعمة غراما، والزعامة مَلاما.

وروى ابن المسيِّب عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى، التودّد إلى الناس[1] ». وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه: لا تستكثرْ أن يكون لك ألفُ صديق، فالألف قليل، ولا تستقلَّ أن يكون لك عدوّ واحد، فالواحد كثير. فنظم ابن الرومىّ هذا المعنى، فقال:

تكَثَّرْ من الإخوان ماسطعتَ إنهم بطونٌ إذا استنجدتَهم وظهورُ

وليس كثيرًا ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ وإنّ عدوًّا واحدا لكثيرُ

وقيل لعبد الملك بن مروان: ما أفدْتَ فى ملكك هذا؟ قال: مودّة الرجال. وقال بعض الحكماء: من علامة الإقبال، اصطناع الرجال. وقال بعض البلغاء: من استصلح عدوَّه زاد فى عَدَده، ومن استفسد صديقه نقص من عُدَده. وقال بعض الأدباء: العجَب ممن يطرح عاقلا كافيا، لما يضمره من عداوته، ويصطنع عاجزا جاهلا، لما يظهره من محبته، وهو قادر على استصلاح من يعاديه، بحسن صنائعه وأياديه.

وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته العرب، وهى للأفْوَهِ[2]، واسمه صَلاءة بن عَمرو، حيث يقول:

بلوْتُ الناس قرْنا بعد قرنٍ فلم أر غير خَتَّالٍ وقالِى[3]

وذقتُ مرارة الأشياء جمعًا فما طعم أمرَّ من السؤالِ

ولم أرَ فى الخطوب أشدَّ هولًا وأصعبَ من معاداة الرجالِ

---

(١) المراد من الحديث التودد إلى الناس، ومداراتهم بكل ما يمكن من الإحسان، من غير أن يثلم الدين.

(٢) الأفوه الأودى، من أقدم شعراء الجاهلية وحكمائهم.

(٣) والختال: الخداع. والقالى: من القلى وهو القاطع، لحقد أو حسد.

وقال القاضى التنوخىّ[١] :

القَ العَدُوَّ بوجه لا قطوبَ به[٢] ... يكاد يقطرُ من ماء البشاشاتِ

فأحزمُ الناس مَنْ يَلقَى أعاديَهُ ... فى جسم حِقْـدٍ وثوبٍ من مَوَدَّاتِ

الرفق يمنٌ وخير القول أصدقهُ ... وكثرة المَزْحِ مفتاحُ العَـداواتِ

وأُنشدت عن الربيع للشافعىّ رضى الله تعالى عنه :

لمَّا عفوْتُ ولم أحقِدْ عَلَى أَحَدٍ ... أرحتُ نفسىَ من هَمِّ العداواتِ

إنى أُحَيِّى عدوّى عند رؤيته ... لأدفعَ الشرَّ عنى بالتحياتِ

وَأُظْهِرُ البشرَ للإنسان أُبغِضُهُ ... كأنما قد حَشَا قلبى مَحباتِ

الناس داء دواء الناسِ قُرْبُهُمُ ... وفى اعتزالهمُ قطع المودَّاتِ[٣]

وليس وإن كان بتألف الأعداء مأمورا ، وإلى مقاربتهم مندوبا ، ينبغى أن يكون لهم راكنا ، وبهم واثقا ، بل يكون منهم على حَذَرٍ ، ومن مكرهم على تحرّزْ ، فإن العداوة إذا استحكمت فى الطباع ، صارت طبعا لايستحيل ، وجِبـلّة لا تزول ، وإنما يستكفِى بالتألف إظهارَها ، ويستدفع به أضرارَها ، كالنار يُستدفع بالماء إحراقُها ، ويُستفاد به إنضاجُها ، وإن كانت محرقة بطبع لايزول ، وجوهر لايتغيَّر . وقال الشاعر :

وإذا عجزتَ عن العدوّ فداره ... وامْزَحْ له إن المِزَاحَ وِفاقُ

فالنارُ بالماء الذى هو ضدّها ... تُعْطِى النِّضاجَ وطبعها الإحراقُ

---

(١) هو القاضى أبو على المحسن بن أبى القاسم على بن محمد ، كان من أكبر القضاة فى الدولة العباسية . توفى فى بغداد سنة ٣٨٤ هـ . وكان أديبا شاعرا ، من قبيلة تنوخ .

(٢) القطوب : أن يزوى المرء ما بين عينيه ويعبس .

(٣) فى منهاج اليقين : يعنى : الناس لا سيما الأعداء والحساد ، مرضى؛ وعلاجهم قربهم ، وصلتهم بالبشر والطلاقة .

فصـــل

وأما البر ، وهو الخامس من أسباب الألفة : فلأنه يوصِّل إلى القلوب ألطافا ، ويثنيها محبة وانعطافا ، ولذلك ندب الله تعالى إلى التعاون به ، وقرنه بالتقوى له ، فقال : « وتعاونوا على البرّ والتقوى » ، لأن له فى التقوى رضا الله تعالى ، وفى البر رضا الناس ، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس ، فقد تمت سعادته ، وعمت نعمته . وروَى الأعمش عن خيثمة ، عن ابن مسعود ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جُبِلت القلوب على حب من أحسن إليها ، و بغض من أساء إليها » .

وحكى أن الله تعالى أوحى إلى داود على نبينا وعليه السلام : ذَكِّرْ عبادى إحسانى إليهم ليحبّونى ، فإنهم لايحبون إلا من أحسن إليهم . وأنشدنى أبوالحسن الهاشمىّ :

الناسُ كلُّهمُ عِيا ل الله تحتَ ظلالِهِ
فأحبُّهُمْ طُرًّا إليـــه أبرُّهم لعيـالِهِ

والبر نوعان : صِلة ومعروف .

فأما الصِّلة فهى التبرُّع ببذل المال فى الجهات المحمودة ، لغير عوض مطلوب ، وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ، ويمنع منه شُحُّها وإباؤها ؛ قال الله تعالى : « ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسهِ فأولئكَ هُمُ المفلحون » . وروَى محمد بن إبراهيم التيمىّ ، عن عُرْوة بن الزّبير ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السَّخِىّ قريب من الله عز وجل ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار . والبخيل بعيد من الله عز وجل ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار » . وقال صلى الله عليه وسلم لعدىّ بن حاتم : « رفع اللهُ عن أبيك العذابَ الشديد لسخائه » . و بلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير إمساك ، فجذب عمامته إليه ، وقال: يازُبير، أنا رسول الله إليك و إلى غيرك، يقول: أنفِقْ أُنْفِقْ عليك ، ولا تُوكِ فأُوكِىَ[1] عليك . وروى أبوالدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن يوم غَرَبت فيه شمسُه، إلا ومَلَكان يناديان: اللهم أعطِ منفقا خَلَفا، ومُمسكا تَلَفا[2] »، وأنزل فى ذلك القرآن :

---

(١) يقال : أوكيت فم القربة : إذا شددت عليه بحبل أوخيط . (٢) تلفا : أى هلاكا لماله .

« فأمّا مَنْ أعطَى واتقى وصدّق بالحسْنَى فسنيسره لليُسْرَى ؛ وأما مَنْ بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعُسْرَى » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى مَنْ أَعطَى فيما أَمر ، واتقى فيما حَظَر . وصدّق بالحسنى ، يعنى : بالخلَف من عطائه ، فعند هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما : سادات الناس فى الدنيا الأسخياء ، وفى الآخرة الأتقياء . وقيل فى منثور الحكم : الجودُ عن موجود . وقيل فى المثل : سُؤْدُد بلاجود ، كملك بلا جُنود . وقال بعض الحكماء : الجود حارس الأعراض . وقال بعض الأدباء : من جاد ساد ، ومن أضعف ازداد . وقال بعض الفصحاء : جود الرجل يحببه إلى أضداده ، وبخله يبغضه إلى أولاده . وقال بعض الفصحاء : خير الأموال ما استرقّ حُرًّا ، وخير الأعمال ما استحقّ شكرا . وقال صالح ابن عبد القدوس :

ويُظهرُ عيبَ المرء فى الناس بخلُهُ ويسترُهُ عنهم جميعا سخاؤُهُ
تغطَّ بأثواب السخاء فإننى أرى كل عيبٍ والسخاء غطاؤُهُ

وحدُّ السخاء : بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة ، وأن يُوصَّل إلى مستحقه بقدر الطاقة ؛ وتدبير ذلك مستصعب ، ولعل بعض من يُحِب أن ينسب إلى الكرم ، ينكر حدّ السخاء ، ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل ، وأن الجود بذل الموجود ؛ وهذا تكلُّف يفضى إلى الجهل بحدود الفضائل ، ولو كان الجود بذل الموجود ، لما كان للسرف موضع ، ولا للتبذير موقِع . وقد ورد الكتاب بذمهما ، وجاءت السنة بالنهى عنهما ؛ وإذا كان السخاء محدودا ، فمن وقف على حده سمى كريما ، وكان للحمد مستَحِقًّا ؛ ومن قصر عنه كان بخيلا ، وكان للذم مستوجبا ؛ وقد قال الله تعالى : « ولا يَحْسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم ، بل هو شرٌّ لهم ، سيُطَوَّقُون مابخلوا به يوم القيامة » . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أقسم الله تعالى بعزته لايجاوره بخيل » . ورُوى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « طعام الجواد دواء ، وطعام البخيل داء » . وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول : الشحيح أعذر من الظالم . فقال : « لعن الله الشحيح ، ولعن الظالم » .

وقال بعض الحكماء : البخل جِلباب المسكنة . وقال بعض الأدباء : البخيل ، ليس له خليل . وقال بعض البلغاء : البخيل حارس نعمته ، وخازن ورثته . وقال بعض الشعراء :

إذا كنتَ جَمَّاعا لمالك مُمْسِكاً فأنت عليـه خازنٌ وأمينُ
تؤدِّيه مَذموما إلى غـير حامدٍ فيأكله عفوا وأنت دفينُ

وتظاهر بعض ذوى النباهة بحب الثناء مع إمساك فيه . فقال بعض الشعراء :

أراكَ تؤمِّلُ حسن الثناءِ ولم يرزُق اللهُ ذاكَ البخيلاَ
وكيف يَسُود أخو بطنةٍ يَمُنُّ كثيرًا ويعطى قليلا

وقد بينا حبَّ الثناء وحب المال ، لأن الثناء يبعث على البذل ، وحب المـال يمنع منه ، فإن ظهرا كان حب الثناء كاذبا . وقد قال بعض الشعراء :

جمعتَ أمرينِ ضاع الحزمُ بينهما تِيـهَ الملوكِ وأخلاقَ المماليكِ
أردتَ شكرًا بلا برٍ ولا صِـلَةٍ لقد سلـكتَ طريقا غيرَ مسلوكِ
ظننتَ عِرْضَك لم يُقرَعِ بقارعةٍ وما أراكَ على حال بمتروكِ
لئنْ سبقتَ إلى مال حَظِيتَ بهِ فما سبقتَ إلى شىء سوى النُّوكِ (١)

وقد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة ، وإن كان ذريعة إلى كل مذمة ، أربعة أخلاق ، ناهيـك بها ذما ، وهى : الحرص ، والشره ، وسوء الظن ، ومنع الحقوق .

فأما الحِرْص فهو شدَّة الـكَدْح ، والإسراف فى الطلب .

وأما الشَّرَه فهو : استقلال الـكفاية ، والاستكثار لغير حاجة ، وهذا فرق ما بين الحِرْص والشَّرَه . وقد رَوَى العلاء بن جرير عن أبيه ، عن سالم بن مسروق ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لا يَجْزِيه (٢) من العيش ما يكفيه ، لم يجد ما عاش مايغنيه » . وقال بعض الحـكماء : الشرهُ من غرائز اللؤم .

وأما سوء الظن : فهو عدَم الثقة بمن هو لها أهل ، فإن كان بالخالق كان شكا يئُول إلى ضلال ، وإن كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانا وخوَّانا ، لأن ظن الإنسان بغيره ، بحسب ماراه من نفسه ، فإن وجد فيها خيرا ظنه فى غيره ، وإن رأى فيها سوءا اعتقده

---

(١) النوك ، بضم النون : الحمق والبلاهة . (٢) يجزيه : يقنعه .

فى الناس . وقد قيل فى المثل : كل إناء ينضَح بمـا فيه . فإن قيل : قد تقدم من قول الحكماء : أن الحزم سوء الظن . قيل تأويله : قلة الاسترسال إليهم ، لااعتقاد السوء فيهم .

وأما منع الحقوق، فإن نفس البخيل لاتسمح بفراق محبوبها ، ولاتنقاد إلى ترك مطلوبها ، فلا تُذْعِن لحقّ ، ولا تجيب إلى إنصاف ؛ وإذا آل البخيل إلى ماوصفنا من هـذه الأخلاق المذمومة ، والشِّيم اللئيمة ، لم يَبق معه خير مرجوّ ، ولا صلاح مأمول .

وأما السَّرَف والتبذير ، فإن من زاد على حدّ السخاء فهو مسرف ومبذر، وهو بالذم جَدير . وقد قال الله تعالى : « وَلا تُسْرِفُوا إنه لايُحبّ المسرِفين » . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ماعالَ مَنِ اقتصد » . وقد قال المأمون رحمه الله : لاخير فى السَّرَف ، ولاسرف فى الخير . وقال بعض الحكماء : صديق الرجل قصدُه ، وسَرَفه عدوّه . وقال بعض البلغاء : لا كثير مع إسراف ، ولا قليل مع احتراف .

واعلم أن السَّرَف والتبذير قد يفترق معناهما ، فالسَّرَف : هو الجهل بمقادير الحقوق ، والتبذير : هو الجهل بمواقع الحقوق ، وكلاهما مذموم ، وذم التبذير أعظم ، لأن المسرف يخطئ فى الزيادة ، والمبذر يخطئ فى الجهل ، ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وأخطأها ، فهو كمن جهلها بفعاله فتعدّاها ؛ وكما أنه بتبذيره قد يضع الشىء فى غير موضعه ، فهكذا قد يعدل به عن موضعه ، لأن المـال أقل من أن يوضع فى كل موضع ، من حق وغـير حق . وقد قال معاوية رضى الله عنه : كل سَرَف فبإزائه حقّ مُضيَّع . وقال بعض الحكماء : الخطأ فى إعطاء ما لاينبغى ومنع ماينبغى: واحد . وقال سفيان الثَّورىّ رضى الله عنه : الحلال لايحتمل السرف، وليس يتم السخاء ببذل مافى يده ، حتى تسخوَ نفسه عما بيد غيره ، فلا يميل إلى طلب ، ولا يكفّ عن بذل .

وقد حكى أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام : أتدرى لم تخذتك خليلا ؟ قال : لايارب ، قال : لأنى رأيتك تحبّ أن تعطىَ ، ولا تحبّ أن تأخذ . ورَوَى سهل بن سعد الساعدىّ رضى الله عنه ، قال : أتى رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم . فقال : يارسول الله : مُرنى بعمل يحبنى الله عليه ، ويحبنى الناس . فقال « ازهد فى الدنيا

يحبَّك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبَّك الناس » . وقال أيوب السختيانى : لا ينبلُ الرجل حتى يكون فيه خصلتان : العفة عن أموال الناس ، والتجاوز عنهم . وقيل لسفيان : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : الزهد فى الناس . وكتب كسرى إلى ابنه هرْمُز : يابنىّ ، استقلّ الكثير مما تعطى ، واستكثر القليل مما تأخذ ، فإن قرّة عيون الكرام فى الإعطاء ، وسرور اللئام فى الأخذ ، ولا تَعُدَّ الشحيح أمينا ، ولا الكذاب حُرّا ، فإنه لا عفّة مع الشحّ ، ولا مروءة مع الكذب . وقال بعض الحكماء : السخاء سخاءان ، أشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك . وقال بعض البلغاء : السخاء أن تكون بمالك متبرّعا ، وعن مال غيرك متورّعا . وقال بعض الصلحاء : الجود غاية الزهد ، والزهد غاية الجود . وقال بعض الشعراء :

إذا لم تكن نفسُ الشريف شريفةً   وإن كان ذا قدرٍ فليس له شَرَفْ

والبذل على وجهين : أحدهما ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال . والثانى : ما كان عن طلب وسؤال . فأما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء ، وأشرفهما عطاء . وسئل علىّ كرّم الله وجهه عن السخاء ، فقال : ما كان منه ابتداء ، فأما ما كان عن مسألة فحياء وتكرُّم . وقال بعض الحكماء : أَجَلُّ النوال ، ماوصل قبل السؤال . وقال بعض الشعراء :

وَفَتًى خَلاَ من مالهِ   ومن المروءة غير خالْ

أعطاك قبل سؤاله   فكفاكَ مكروهَ السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب :

فالسبب الأوّل : أن يرى خَلَّة بقدر على سدّها ، وفاقةً يتمكن من إزالتها ، فلا يدعه الكرم والتدين ، إلّا أن يكون زعيم صلاحها ، وكفيل نجاحها ، رغبة فى الأجر إن تدين ، وفى الشكر إن تكرّم . وقال أبوالعتاهية :

ماالناسُ إلّا آلةٌ مُعْتَمَلَهْ   للخير والشر جميعا فَعَلَهْ

والسبب الثانى : أن يرى فى ماله فضلا عن حاجته ، وفى يده زيادة عن كِفايته ، فيرى انتهاز الفرصة بها ، فيضعُها حيث تكون له ذُخرا مُعَدّا ، وغُنما مستجدًّا . وقد قال الحسن البصرىّ رحمه الله : ما أنصفك من كلفك إجلاله ، ومنعك ماله .

وقيل لهند بنت الخس[١] : مَن أعظم الناس فى عينك ؟ قالت: من كان لى إليه حاجة . وقال الشاعر :

وماضاع مالٌ ورَّثَ الحمدَ أهلَهُ ولـكنّ أموالَ البخيلِ تضيعُ

والسبب الثالث : أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته ، و إشارة يَستدل عليها بكرمه ، فلا يدعه الـكرم أن يَغفُل ، ولا الحياء أن يكفّ . وقد حكى أن رجلا ساير بعض الولاة ، فقال : ما أهزلَ بِرذونك ؟ فقال : يده مع أيدينا ، فوصله اكتفاء بهذا التعريض ، الذى بلغ ما لايبلغه صريح السؤال . ولذلك قال أكثم بن صَيفىّ : السخاء حسن الفِطنة ، واللؤم سوء التغافُل . وحكى أن عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضِد ، كتب إليه عُبيد الله بن عبدالله ابن طاهر :

أبَى دَهْرُنا إسعافنا فى نفوسنا وأسعَفَنا فيمن نحبُّ ونـكرمُ
فقلت لهُ : نُعماكَ فيهم أتمَّها ودَعْ أمرنا إن المهمَّ مُقَدَّمُ

فقال عُبيد الله : ما أحسن ماشكا أمره بينَ أضعاف مدحه ، ثم قضى حاجته . وقال بعض الشعراء :

ومَنْ لايَرى من نفسه مُذْكِرا لها رأى طلبَ المستنجدِين ثقيلَا

والسبب الرابع : أن يكون ذلك رعاية ليد ، أوجزاء على صنيعة ، فيرى تأدية الحق عليه طوعا ، إما أَنَفة ، و إما شكرا ، ليكون من أسْر الامتنان طليقا ، ومن رِقِّ الإحسان وعبوديته عَتيقا . قال بعض الحـكماء : الإحسان رِقّ ، والمكافأة عِتْق . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى :

وليستْ أيادى الناس عندى غنيمةً ورُبَّ يدٍ عندى أشدُّ من الأسْرِ

والسبب الخامس : أن يُؤْثِر الإذعان بتقديمه ، والإقرار بتعظيمه ، توطيدا لرياسة هو لها محبّ ، وعلى طلبها مُـكِبّ ؛ وقد قال الشاعر :

حُبُّ الرياسة داءٌ لادواء لهُ وقلما تجد الراضين بالقِسَمِ

فتستصعب عليه إجابة النفوس له طوعا إلا بالاستعطاف ، و إذعانها إلا بالرغبة والإسعاف ،

---

(١) هند نبت الخس بن حابس الإيادى : كانت من أهل الدهاء ، واللسن والجواب العجيب ، والكلام الصحيح ، والأمثال السائرة . (كذا وصفها الجاحظ فى كتاب البيان) .

وقد قال بعض الأدباء : بالإحسان يرتبط الإنسان . وقال بعض البلغاء : مَنْ بذل مالَهُ ، أدرك آمالَه . وقال بعض الشعراء :

أترجُو أن تسودَ بلا عَناء   وكيف يسودُ ذوالدَّعة البخيلُ؟

والسبب السادس : أن يدفع به سطوةَ أعدائه ، ويستكِفّ به نِفارَ خُصمائه ، ليصيروا له بعد الخصومة أعوانا ، وبعد العداوة إخوانا ، إما لصيانة عرض ، وإما لحراسة مَجْد . وقد قال أبو تمّام الطائىّ :

ولم يجتمع شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ   ولاالمجدُ فى كف امرئٍ والدراهمُ

ولم أرَ كالمعروف تدعى حقوقُه   مغارمَ فى الأقوامِ وهى مَغَانِمُ

وقال بعض الأدباء : من عَظُمت مَرَافقه ، أعظمه مُرَافِقه .

والسبب السابع : أن يَرُبَّ به سالفَ صنيعة أولاها ، ويراعىَ به قديم نعمة أسداها ، كيلا يُنْسَى ما أولاه ، أو يُضاع ما أسداهَ ، فإن مقطوع البرضائع ، ومهمل الإحسان ضالّ . وقد قال الشاعر :

وَسَمْتُ امرأً بالبر ثم اُطّرَحْتُه   ومن أفضل الأشياء رَبُّ الصنائعِ

قال محمد بن داود الأصبهانىّ :

بدأتَ بنعْمَى أوجَبَتْ لِىَ حُرْمةً   عليك فعُدْ بالفضل فالعَوْدُ احمدُ

والسبب الثامن : المحبةُ يُؤْثِرُ بها المحبوب على ماله ، فلا يضِنّ عليه بمرغوب ، ولا ينفِس عليه بمطلوب ، للذةِ التى هى عنده أحظى ، وإلى نفسه أشهى ، لأن النفس إلى محبوبها أشوق ، وإلى ممايلته أسبق ، وقد قال الشاعر :

فما زرتكم عمـدًا ولـكنّ ذا الهوى   إلى حيث يهوَى القلب تَهوِى به الرجلُ

وهذا وإن دخل فى أقسام العطاء ، فخارج عن حدّ السخاء ، وهكذا الخامس والسادس من هذه الأسباب ، وإنما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء .

والسبب التاسع ليس بسبب: أن يفعل ذلك لغير ماسبب ، وإنمـا هى منه سجية قد فُطِر

عليها ، وشيمة قد طُبِـعَ بها ، فلا يميز بين مستحقّ ومحروم ، ولا يفرق بين محمود ومذموم ، كما قال الشاعر :

ليس يُعطِيك للرجاء ولا لِلْـــخَوْفِ لـكِنْ يَلَذ طَعْمَ الْعَطَاءِ

وقد اختلف الناس فى مثل هذا : هل يكون منسوبا إلى السخاء فيحمد ، أو خارجا عنه فيذم ؟ وقال قوم : هذا هو السخىّ طبعا ، والجواد كرما ، وهو أحق من كان به ممدوحا ، وإليه منسوبا . وقال أبو تمام :

من غير ماسببٍ يُدْنِى كفى سببا للحرّ أن يَجْتَدِى حُرًّا بلا سَبَبِ

وقال الحسن بن سهل : إذا لم أعط إلا مستحقّا ، فكأنى أعطيت غريما . وقال : الشرف فى السَّرَف . فقيل له : لاخير فى السَّرَف . فقال : ولا سَرَف فى الخير . وقال الفضل بن سهل : العجَب لمن يرجو من فَوْقه ، كيف يَحْرِمُ مَنْ دُونه . وقال بشار :

وما الناسُ إلا صاحباك فمنهمُ سَخِىٌّ ومغلول اليدين من البُخْلِ
فسامحْ يدا ما أمكنتك ، فإنَّها تقِلُّ وتُثْرِى والعواذل فى شُغْلِ

وقال آخرون : هذا خارج من السخاء المحمود ، إلى السَّرَف والتبذير المذموم ، لأن العطاء إذا كان لغير سبب ، كان المنع لغير سبب ، لأن المال يقل عن الحقوق ، ويقصُر عن الواجبات ، فإذا أعطى غير المستحقّ ، فقد يمنع مستحقا ، ومايناله من الذم بمنع المستحقّ ، أكثر مما يناله من الحمد لإعطاء غير المستحق ، وحسبك ذمّا بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز ، وتوجد لغير علَّة . وقد قال الله تعالى : « ولا تجعلْ يدكَ مغلولة إلى عُنُقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد مَلُومًا مَحسُورا » . فنهى عن بسطها سَرَفا ، كما نهى عن قَبْضِها بُخلا ، فدلّ على استواء الأمرين ذما ، وعلى اتفاقهما لَوما . وقال الشاعر :

وكان المـال يأتينا فـكنّا نُبذِّره وليس لنا عقُولُ
فلما أنْ تَوَلَّى المـالُ عنا عقَلْنا حين َليس لنا فضُولُ

قالوا : ولأن العطاء والمنع إذا كانا لغير علة ، أفضيا إلى ذم الممنوع ، وقلة شكر المعطَى ، أما الممنوع فلأنه قد فضَّل عليه من سواه ، وأما المعطَى فإنه وجد ذلك اتفاقا ، وربما أمَّل

بالاتفاق أضعافا ، فصار ذلك مُفْضِيا إلى اجتلاب الذمّ ، و إحباط الشكر ، وليس فيما أفضى إلى واحد منهما خيرٌ يرجَى ، وهو جدير أن يكون شرّا يتقى ، ولمثل هـذا كان منع الجميع إرضاء للجميع ، وعطاء يكون المنع أرضَى منه خسرانٌ مبين . فأما إذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب ؛ فشروطه معتبرة من وجهين : أحدهما فى السائل ، والثانى فى المسئول . فأما ما كان معتبرا فى السائل فثلاثة شروط :

الشرط الأول : أن يكون السؤال لسبب ، والطلَب لموجِب ، فإن كان لضرورةٍ ارتفع عنه الحرَج ، وسقط عنه اللوم . وقد قال بعض الحكماء : الضرورة تُوَقِّحُ الصورة . وقال بعض الشعراء :

ألَا قبَّح اللهُ الضرورةَ إنها ... تكلفُ أعلَى الخلق أدنَى الخلائقِ
وللهِ درّ الإتِّســاع فإنه ... يبَيِّن فضل السبق من غير سابق

وقال الكُميت :

إذا لم تكنْ إلّا الأسنةَمَرْكبٌ ... فلا رأْىَ للمضطرّ إلا ركوبُها

فإن ارتفعت الضرورة ، ودعت الحاجة فيما هو أولى الأمرين ألا يكون ، و إن جاز ألّا يكون ، فالنفس المسامحة تغلب الحاجة ، وتسمح فى الطلب ، وتراعى ما استقام به الحال ، و إن ناله ذل ، ولحقه وهْن ، فيتأوّل صاحبها قول البحترىّ :

ورُبمَّا كان مكروه الأمورِ إلى ... محبوبِها سَبَبا مامثله سَبَبُ

والنفس الشريفة تطلب الصيانة : وتراعى النزاهة ، وتحتمل من الضُرّ مااحتملت ، ومن الشدة ماأطاقتْ ، فيبقى تحمُّلها ، ويدوم تصوُّنُها ، فتكون كما قال الشاعر :

وقد يكتسى المرء خزّ الثيابِ ... ومِنْ دُونها حالةٌ مُضْنِيَهْ
كما يَكْتَسِى خَـدُّهُ حُمْرَةً ... وعِلَّتُــهُ وَرَمٌ فى الرِّيَهْ

فلا يرى أن يتدنّس بمطالب الشؤم ، ومطالع اللؤم ، فإن البهائم الوحشية تأبى ذلك ، وتأنف منه . قال الشاعر :

وليسَ الليثُ مِنْ جوع بغادٍ ... على جِيَفٍ تُطِيفُ بها الكلابُ

فكيف بالإنسان الفاضل ، الذى هو أكرم الحيوان جنسا ، وأشرفه نفسا ، هل يحسن به أن يَرَى لوحش البهائم عليه فضلا ، وقد قال الشاعر :

على كلِّ حالٍ يأكلُ المرءُ زادَهُ   على البؤس والضرَّاءِ والحَدَثَانِ (١)

وقد قيل لبعض الزهاد : لو سألتَ جارَك أعطاك ؟ فقال : والله ما أسأل الدنيا ممن يملكها ، فكيف ممن لا يملكها . ووصف بعض الشعراء قوما ، فقال :

إذا افتقروا أغضَوْا على الضُّرِّ حِسْبَةً   وإن أيسَرُوا عادوا سِرَاعا إلى الفقْر (٢)

فأما من يسأل من غير ضرورة مَسَّت ، ولا حاجة دعت ، فذلك صريح اللؤم ، ومحض الدناءة ، وقلما تجد مثله ملحوظا ، أو مموَّلا محفوظا ، لأن الحِرمان قاده إلى أضيق الأرزاق ، واللؤم ساقه إلى أخبث المطاعم ، فلم يَبْقَ لوجهه ماء إلا أراقه ، ولا ذلٌّ إلا ذاقه ، كما قال عبد الصمد بن المعذَّل لأبى تمام الطائىّ :

أنتَ بينَ اثنتين تبرزُ للنا   س وكلتاهما بوجْهٍ مُذَال

لستَ تنفكُّ طالبا لوصالٍ   من حبيب أو طالبا لنوالِ

أىُّ ماء لحرٍّ وجْهك يبقَى   بين ذلِّ الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار ، وأنف من الذلّ ، لوجد غير السؤال مَكْسَبا يَمُونه ، ولقدر على مايصُونه ، وقد قال الشاعر :

لا تطلبنَّ معيشةً بتذلُّلٍ   فليأتِيَنَّكَ رزقُك المقدورُ

واعلمْ بأنك آخِذٌ كل الذى   لك فى الكتاب مقدَّرٌ مَسطُورُ

والشرط الثانى من شروط السؤال : أن يضيق الزمان عن إرجائه ، ويقصر الوقت عن إبطائه ، فلا يجد لنفسه فى التأخير فُسحة ، ولا فى التمادى مُهْلة ، فيصير من المعذورين ، وداخلا فى عداد المضطرين . فأما إذا كان الوقت متسعا ، والزمان ممتدًّا ، فتعجيل السؤال لُؤم وقُنوط . وقال الشاعر :

أَبَى لِيَ إغضاءَ الجفونِ على القَذَى   يَقينىَ أنْ لاعُسْرَ إلَّا مُفَرَّجُ

أَلَا رُبَّمَا ضاق الفضاءُ بأهله   وأمكنَ مِنْ بين الأسنة مَخْرَجُ

---

(١) البؤس : شدة الحاجة . والضراء : المصيبة فى المال أو النفس . والحدثان : نوائب الدهر ونوازله .

(٢) أى إذا افتقروا صبروا صبر الكرام وإن أيسروا أنفقوا ما كسبوا ، وآثروا الفقر على حرمان ذوى الحقوق .

والشرط الثالث : اختيار المسئول أن يكون مرجوّ الإجابة ، مأمول النُّجْح ، إما لحرمة السائل ، أو كرم المسئول ؛ فإن سأل لئيما لا يرعى حُرْمة ، ولا يُولِي مَكرمة ، فهو فى اختياره ملوم ، وفى سؤاله محروم . وقد قال بعض البلغاء : المخذول من كانت له إلى اللئام حاجة . وقد قال بعض البلغاء : أذلّ من اللئيم سائله ، وأقل من البخيل نائلُه . وقال بعض الشعراء :

من كان يأمُل أنْ يرَى ... مِن ساقطٍ نيْـلا سَنِيًّا
فلقَد رجا أنْ يجتنِى ... مِن عَوْسَجٍ رُطَبًا جَنِيًّا[1]

وأما الشروط المعتبرة فى المسئول فثلاثة :

الشرط الأوّل : أن يكتفىَ بالتعريض ، ولا يُلْجِئَ إلى السؤال الصريح ، ليصون السائلَ عن ذلّ الطلب ، فإن الحال ناطقة ، والتعريض كاف ، وقد قال الشاعر :

أقول وسِتْرُ الدُّجَى مُسْبَلٌ ... كما قال حين شكا الضِّفْدَعُ
كلامىَ إن قلتــهُ ضائعُ ... وفى الصمتِ حَتْفِى فما أصنعُ ؟

وربما فهم المسئول الإشارة ، فألْجأ إلى التصريح بالعبارة ، تهجينا للسائل ، ليخجل فيمسك ، ويستحيي فيكف ، فيكون كما قال أبو تمام :

مَن كان مفقودَ الحياء فوجهُهُ ... من غير بوّابٍ له بوّابُ[2]

والشرط الثانى : أن يَلقَى بالبشر والترحيب ، ويقابلَ بالطلاقة والتقريب ، ليكون مشكورا إن أعْطَى ، ومعذورا إن منع . وقد قال بعض الحكماء : الْقَ صاحب الحاجة بالبِشر ، فإن عَدِمتَ شكره ، لم تعدم عُذْره .

وقال ابن لَنْكَكَ : إن أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء فى حاجة ، فلم يقضِها له ، وظهر له منه ضجَر . فقال :

لا تدْخُلَنَّكَ ضَجْرَةٌ من سائلٍ ... فلخيرُ دهرِك أن ترَى مَسئولَا
لا تجبَهَنْ بالردّ وَجْـه مُؤَمِّلٍ ... فبقاء عزك أن ترَى مَأْمُولَا
تلقَى الـكريمَ فتستدِلّ ببشْره ... وترَى العُبوسَ على اللئيم دَليلاَ
واعلم بأنَّك عن قليل صائر ... خبَرًا ، فـكن خبرا يرُوق جميلا

---

(١) العوسج : شجر شائك ، لا ثمر له . (٢) يعنى أنه لوقاحته مستغن عن البواب .

والشرط الثالث : تصديق الأمل فيه ، وتحقيق الظن به ، ثم اعتبار حاله وحال سائله ، فإنهما لا يخلوان من أربع أحوال :

فالحال الأولى : أن يكون السائل مستوجبا ، والمسئول متمكنا ، فالإجابة ههنا تُستَحق كرما ، وتُستلزَم مُروءة ، وليس للرد سبيل إلّا لمن استولى عليه البُخل ، وهان عليه الذم ، فيكون كما قال فيه عبدُ الرحمن بن حسان :

إنى رأيت من المكارم حَسْبَكُم ... أن تلبسُوا خزّ الثياب وتَشْبَعُوا

فإذا تذوكرتِ المكارمُ مرّة ... فى مجلسٍ أنتم به فتقنَّعُوا

فنعوذ بالله ممن حرَم ثروةَ ماله ، ومنع حُسْنَ حاله ، أن يكون مستودَعا فى صنيع مشكور ، وبر مذخور . وقد قيل لبخيل : لم حَبَست مالك ؟ قال : للنوائب . فقيل له : قد نزلت بك . وقال بعض الشعراء :

مالك من مالك إلّا الذى ... قدَّمْتَ فابذُل طائعا مالَكا

تقولُ أعمالى ولو فَتّشُوا ... رأيت أعمالك أعمى لَكا

وقد أسقط حق نفسه ، ورفع أسباب شكره ، فصار بأن لا حقَّ له ، مذموما كمشكور ، ومأثوما كمأجور ؛ وقال أبو العتاهية :

خزَن البخيلُ علَىّ صالحهُ ... إذْ لم يُثقِل برُّه ظهرى

ما فاتنى خيرُ امرئ وضَعَتْ ... عنى يداهُ مئونة الشكرِ

فإذا لم يكن للردّ فى مثل هذه الحال سبيلٌ نظر ، فإن كان بالتأخير مُضِرًّا ، عجلَّ بذله ، وقطع مَطْلَه ، وكانت إجابته فعلا ، وقوله عملا . وقد قالت الحكماء : من مُرُوءة المطلوب منه، ألّا يُلجِئَ إلى إلحاح عليه ، وقال محمد بن حازم :

ومنتظرٍ سؤالكَ بالعطايا ... وأشرفُ من عطاياهُ السؤالُ

إذا لم يأتك المعروف طوعا ... فدعْه فالتنزُّهُ عنه مالُ

وإن كان فى الوقت مُهْلة ، وفى التأخير فُسحة ، فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه .

فذهب بعضهم إلى أن الأوْلى تعجيل الوعد قولا ، ثم يُعقِبهُ الإنجازَ فعلا ، ليكون السائل

مسرورا بتعجيل الوعد ، ثم بآجل الإنجاز ، ويكون المسئول موصوفا بالكرم ، ملحوظا بالوفاء . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العِدَة عطيّة » . وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة : أعِدُك اليوم ، وأحبوك غدا بالإنجاز ، لتذوق حلاوة الأمل ، وأتزين بثوب الوفاء . ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله إياها ، فقيل له : تَعِد وأنت قادر ؟ فقال : إن الحاجة إذا لم يتقدّمها وَعْد ينتظر صاحبه نُجْحَه ، لم يجد سُرورها ، لأن الوعد طَعْم والإنجاز طعام ، وليس من فاجأه الطعام ، كمن يجد ريحه ويطعَمه ، فدع الحاجة تختمر بالوعد ، ليكون لها طعمٌ عند المصطنع إليه . وقال بعض البلغاء : إذا أحسنت القول فأحسن الفعل ، ليجتمع لك ثمرة اللسان ، وثمرة الإحسان ، ولا تقل ما لا تفعل ، فإنك لا تخلو فى ذلك من ذنب تكتسبه ، أو عجز تلتزمُه .

ومنهم من ذهب إلى أن تعجيل البذل فعلا من غير وعد أولى ، وتقديمه من غير ترقُّب ولا انتظار أحْرَى ؛ وإنما يقدّم الوعد أحد رجلين : إما مُعْوِز ينتظر جِدَة ، وإما شحيح يَروض نفسه توطئة ، وليس للوعد فى غير هاتين الحالتين وجه يصحّ ، ولا رأى يتّضح ، مع ما يغيره الليل والنهار ، وتَقَلّبُ به الحال ، من يَسار وإعسار ؛ وقال بعض الشعراء :

يأيُّها الملكُ المقدَّم أمرُهُ شرقًا وَغَرْبا
أمْنُنْ بختْمِ صحيفتِى مادام هذا الطينُ رَطْبَا
واعلمْ بأنَّ جفافَه مما يعيدُ السهلَ صَعْبا

قالوا : ولأن فى الرجوع عنه مِنَ الانكسار ، وفى توقع الوعد من مرارة الانتظار ، وفى العود إليه من بِذْلة الاقتضاء ، وذِلة الاجتداء ، ما يكدِّر برّه ، ويُوهِن شكره . وقال الشاعر :

إن الحوائجَ ربَّما أَزْرَى بها عندَ الذى تُقْضَى له تطويلُها
فإذا ضمنت لصاحبٍ لك حاجةً فاعلمْ بأنّ تمامَها تعجيلُها

والحال الثانية : أن يكون السائل غير مستوجب ، والمسئول غير متمكن ، ففى الرد فُسْحة ، وفى المنع عُذْر ، غير أنه يَلين عند الرد لينا يقيه الذمّ ، ويظهر عُذرا يدفع عنه اللوم ، فليس

كل مقلٍّ يَعْرِف ، ولا معذور يُنْصِف ، وقد قال أبو العتاهية يصف الناس :

يارب إن الناس لا يُنْصِفونَنِي ... فكيفَ وإن أنصفتهم ظلمُونى

فإن كان لى شيء تصدَّوا لأخذهِ ... وإن جئت أبغِى شَيئهمْ منعونى

وإن نالهمْ بذْلِى فلا شُكْر عندهم ... وإنْ أنا لم أبذلْ لهم شتمونى

وإن طرقتنى نكبةٌ فَكِهُوا بها ... وإن صحبتنى نعمة حسدونى

سأمنع قلبى أن يَحِنَّ إليهمُ ... وأُغمِض عنهم ناظرِى وجفونى

وأقطعُ أيامِى بيوم سهُولة ... أُقَضِّى بها عمرِى ويوم حُزونِ

ألا إن أصفَى العيش ماطاب غِبُّهُ ... وما نلتهُ فى لذة وسُكُونِ

والحال الثالثة : أن يكون السائل مستوجِبا ، والمسئول غير متمكن ، فيأْتى بالحمل على النفس ما أمكن ، من يسير يسُدّ به خُلة ، أو يدفع به مَذَمة ، أو يوضح من أعذار المعوِزِين ، وتوجع المتألِّمين ، مايجعله فى المنع معذورا ، و بالتوجّع مشكورا . وقد قال أبو نصر العتبىّ رحمه الله تعالى :

اللهُ يعلم أنَّى لست ذابَخَلٍ ... ولست ملتمسا فى البخل لى عِللَا

لكنَّ طاقةَ مثلى غيرُ خافيةٍ ... والنمل يُعْذر فى القَدْر الذى حَملا

وربما تحسَّر بحدوث العجز بعد تقدّم القدرة ، عَلَى فوت الصنيعة ، وزوال العادة ، حتى صار أُضْنى جسدا ، وأزيد كمدًا ، كما قال الشاعر :

وكنتُ كباز السُّوقِ قُصَّ جَناحُه ... يرَى حسراتٍ كُلَّما طارَ طائرُ

يَرَى طائراتِ الجوِّ تخفقُ حَوْلَه ... فيذكُرُ إذ ريشُ الجناحَين وافرُ

والحال الرابعة : أن يكون السائل غيرَ مستوجِب ، والمسئول متمكنا ، وعلى البذل قادرا ، فينظرُ ، فإن خاف بالردّ قدْح عِرْض ، أوقُبح هجاء مُمِضّ ، كان البذل إليه مندوبا ، صيانة لاجودا ؛ فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ماوَقَى به المرءُ عِرْضَه ، فهو له صدقة » وإن أمن من ذلك ، وسلم منه ، فمن الناس من غَلَّب المسألة ، وأمر بالبذل ، لئلا

يقابِل الرجاء بالخيبة ، والأمل بالإياس ، ولما فيه من اعتياد الرد ، واستسهال المنع المفضِى إلى الشحّ .

وأنشد الأصمعىّ عن الكسائىّ :

كأنك فى الكتاب وجدت لاءٍ محرَّمة عليك فلا تحِلُّ[1]
فما تدرى إذا أعطيتَ مالاً أيُكْثِر من سماحك أم يُقِلُّ ؟
إذا حضر الشتاء فأنت شمسٌ وإن حضر المَصِيفُ فأنت ظِلّ

ومن الناس من اعتبر الأسباب ، وغلَّب حال السائل ، وندب إلى المنع ، إذا كان العطاء فى غير حقّ ، ليقوى على الحقوق إذا عرضت ، ولا يعجز عنها إذا لزمت وتعيَّنت . وقد قال بعض الشعراء :

لا تجُدْ بالعطاء فى غير حقٍّ ليس فى منع غير ذى الحق بُخْلُ
إنّما الجودُ أن تجود على مَنْ هو للجود والندى منك أهلُ

فأما من أجاب السؤال ، ووعد بالبذل والنَّوال ، فقد صار بوعده مرهونا ، وصار وفاؤه بالوعد مقرونا ، فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد ، ولا سبيل إلى مراجعة نفسه فى الردّ ، فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل ، ومَقْت القادر ، وهُجْنة الكذوب ، ثم لاسبيل لِمَطْله بعد الوعد ، لما فى المطل من تكدير الصنيع ، وتمحيق الشكر . والعرب تقول فى أمثالها : المَطْلُ أحد المَنْعَين ، واليأس أحدُ النُّجْحين . وقال بشار بن برد :

أَظَلَّت علينا منك يوما غمامةٌ أضاءتْ لنا برقًا وأبطا رشاشُها
فلا غيمها يَجْلِى فييأس طامعٌ ولا غيثُها يأتى فيُرْوَى عطاشُها

ثم إذا أنجز وعده ، وأوفى عهده ، لم يتبع نفسه ما أعطى ، ويُسَرُّ أن كانت يدهُ العليا ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليدُ العُلْيا خير من اليد السُّفْلى » . وقال الشاعر :

فإنك لاتدرِى إذا جاءَ سائلٌ أأنتَ بما تعطيهِ أم هوَ أسْعَدُ ؟
عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعتَهُ من اليوم سُؤْلاً أن يكونَ له غَدُ

وليكن من سروره إذ كانت الأرزاق مقدّرة ، أن تكون على يده جارية ، ومن جهته

---

(١) أى وجدت قول « لا » محرما عليك . و « لاء » بالمد : اسم لحرف النفى « لا » المقصور .

واصلة ، لاتنتقل عنه بمنع ، ولا تتحوّل عنه بإياس . وحُكى أن رجلا شكا كثرة عياله إلى بعض الزهاد ، فقال : انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل ، فحوّله إلى منزلى . وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة ، ففقد الدابة : مافعل بِرْذَوْنك ؟ قال : اشتدت علىّ مُؤْنته فبعته . قال : أفتراه خَلَّف رزقه عندك . وقال ابن الرومىّ رحمه الله :

إن لله غيرَ مَرْعَاكَ مَرْعًى ... ترتعيهِ وغير مائكَ ماء

إنَّ لله بالبرية لُطفاً ... سبق الأمهاتِ والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى ، وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل ، كالذى حكاه أبو بَكرة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن أعرابياً أتاه فقال :

ياعُمرَ الخيرِ جُزيتَ الجَنَّهْ ... أكْسُ بُنيّاتى وأمَّهُنَّهْ

وكُنْ لنا من الزمان جُنَّهْ ... أُقسِمُ باللهِ لتفعلَنَّهْ

فقال عمر رضى الله عنه : فإن لم أفعل يكون ماذا ؟ فقال :

* إذَنْ أبا حَفْصٍ لأذهَبَنَّهْ *

فقال : فإذا ذهبتَ يكون ماذا ؟ فقال :

يكون عن حالى لتُسألنَّهْ ... يوم تكون الأعطياتُ هَنَّهْ[(١)]

وموقفُ المسئول بينهُنَّهْ ... إما إلى نارٍ وإما جَنَّهْ

فبكى عمر رضى الله عنه، حتى اخضلَّت لحيته ، ثم قال : ياغلام ، أعطه قميصى هذا ، لذلك اليوم ، لالشعره ؛ أما والله لا أملك غيره . وإذا كان العطاء على هذا الوجه، خلا من طلب جزاء وشكر ، وعَرِىَ عن امتنانٍ ونشْر[(٢)] ، فكان ذلك أشرف للباذل ، وأهنأ للقابل .

وأما المعطى إذا التمس بعطائه الجزاء ، وطلب به الشكر والثناء ، فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء ، لأنه إن طلب به الشكر والثناء ، كان صاحب سُمْعة ورياء ، وفى هذين من الذم والسمعة ، ماينافى السخاء ، وإن طلب به الجزاء، كان تاجرا متربِّحا، لا يستحق حمدا ولامدحا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى : « وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ » : إنه

---

(١) الهنة : من الهنين ، وهن يهن هنينا . بكى بكاء مثل الحنين ، أى يوم يكون البكاء على فوات الصدقات فى الدنيا . (٢) يريد إعلان العطاء طلبا لحسن السمعة والأحدوثة .

الذى يعطى عطية يلتمس بها أفضل منها . وكان الحسن البصرىّ رضى الله عنه يقول فى تأويل ذلك : « لا تَمْنُنْ بعملك ، تستكثر على ربك . وقال أبو العتاهية :

وليست يدٌ أوليتَهـا بغنيمةٍ إذا كنت ترجو أن تُعِدّ لها شكرا
غِنَى المرء ما يكفيه من سدّ حاجةٍ فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنَى فَقْرا

واعلم أن الكريم يجتدِى بالكرامة واللُّطف ، واللئيم يجتدى بالمهانة والعُنْف ، فلا يجود إلّا خوفا ، ولا يجيب إلّا عنفا ، كما قد قال الشاعر :

رأيتُكَ مثلَ الجَوْز يَمنع لُبَّه صحيحا،ويعطِى خيرَه حينَ يُكسَرُ

فاحذر أن تكون المهانة طريقا إلى اجتدائك ، والخوف سبيلا إلى إعطائك ، فيجرى عليه سَفَه الطَّغام ، وامتهان اللئام ، وليكن جودك كرما ورغبة ، لا لؤما ورهبة ، كيلا يكون مع الوصمة ، كما قال العباس بن الأحنف :

صِرْتُ كأنى ذُبالةٌ نصِبتْ تضىء للناسِ وهْىَ تحترقُ

وأما النوع الثانى من البرّ فهو المعروف . ويتنوّع أيضا نوعين : قولا وعملا . فأما القول فهو طيب الكلام ، وحسن البِشر ، والتودد بجميل القول ؛ وهذا يبعث عليه حسن الخلق ، ورقة الطبع ؛ ويجب أن يكون محدودا كالسخاء ، فإنه إن أسرف فيه كان مَلَقا مذمومًا ، وإن توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرّا محمودا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما ، فى تأويل قوله تعالى : « والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربكَ ثوابًا وخيرٌ أَمَلا » : إنها الكلام الطيب . وكان سعيد بن جبير يتأوّل أنها الصلوات الخمس . ورَوى سعيد عن أبى هريرة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم لن تَسَعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم بسط الوجوه ، وحسن الخلق » . ورُوِى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أُنشد عنده قول الأعرابىّ هذا :

وَحَىٍّ ذوى الأضغانِ تَسْبِ قلوبَهُمْ تحيَّتُكَ الحسنَى فقد يُدبَغُ النَّغَلْ[1]

---

(١) كذا فى منهاج اليقين ، وفى المطبوعات : ترقع النعل . والنغل بالتحريك : الأديم الفاسد .

فإن دَحَسُوا بالمكر فاعفُ تكرمًا   وإن خَنَسوا عنك الحديثَ فلا تَسَلْ[1]

فإنّ الذى يؤذيك منه سماعُهُ   وإن الذى قالوا وراءك لم يُقَلْ

فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكمة ، وإن مِن البيان لسحرًا » . وقيل للعَتابىّ : إنك تلقَى العامة ببشر وتقريب . قال : دفع صنيعة بأيسر مؤنة ، واكتساب إخوان بأيسر مَبذول . وقيل فى منثور الحكم : من قلّ حياؤه قلّ أحباؤه . وقال بعض الشعراء :

أُبَنَىَّ إن البِشرَ شىءٌ هيِّنٌ   وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنُ

وقال بعضهم :

المرء لا يُعْرَفُ مِقدارُه   مالم تَبِنْ للناس أفعالُهُ

وكلٌّ من يمنعنى بِشْرَهُ   فقلَّما ينفعُنى مالُهُ

وأما العمل فهو بذل الجاه ، والمساعدة بالنفس ، والمعونة فى النائبة ؛ وهذا يبعث عليه حبُّ الخير للناس ، وإيثار الصلاح لهم ، وليس فى هذه الأمور سَرَف ، ولا لغايتها حدّ ، بخلاف النوع الأوّل ، لأنها وإن كثُرت فهى أفعال خير تعود بنفعين : نفع على فاعلها فى اكتساب الأجر ، وجميل الذكر ، ونفع على المُعان بها ، فى التخفيف عنه ، والمساعدة له . وقد روَى محمد ابن المنكدِر عن جابر ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « كل معروفٍ صدقه » . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « صنائع المعروف تقى مصارعَ السوء » . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « المعروف كاسمه ، وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله » . وقال علىّ ابن أبى طالب كرم الله وجهه : لا يزهدنّك فى المعروف كفر من كفره ، فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر . وقال الحطَيْئة :

مَنْ يفعل الخيرَ لا يعدمْ جوازِيَهُ   لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والناسِ

---

(١) دحس بالشر : إذا دسه وأخفاه بحيث لا يعلمه أحد . وخنس بالشىء : غاب به وأخفاه . والمراد إنكار الحديث .

وأنشد الرياشىّ :

يدُ المعروف غُنْم حيث كانتْ تحملهـا كفورٌ أم شكورُ
ففى شكر الشّكور لها جزاء وعند الله ما كفَرَ الـكفورُ

فينبغى لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجِّله ، حذرَ فواته ، ويبادر به خيفةَ عجزه ، ولْيعلمْ أنه من فُرَص زمانه ، وغنائم إمكانه ، ولا يهمله ثقة بقدرته عليه ، فكم واثق بقدرة فاتت ، فأعقبت ندما ، ومعوّل على مُكْنة زالت ، فأورثتْ خَجلا . وقد قال الشاعر :

مازلت أسمعُ : « كَمْ من واثق خَجِلٌ » حتى ابتُليت فـكنت الواثق الخَجلاَ

ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفَّظ من عواقب مكره ، لـكانت مَغانمه مذخورة ، ومغارمُه مجبورة ؛ فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من فُتِح عليه باب من الخير فلْينتهزه ، فإنه لايدرى متى يُغْلق عليه » . وَرُوِى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لـكل شىء ثمرة ، وثمرة المعروف تعجيل السَّراح » . وقيل لأنو شَرْوان : ماأعظمُ المصائب عندكم ؟ فقال : أن تقدر على المعروف ولاتصطنعه حتى يفوت . وقال عبد الحميد : من أخَّر الفرصة عن وقتها ، فليكن على ثقة من فَوْتها . وقال بعض الشعراء :

إذا هبَّتْ رياحُك فاغتنِمْها فإنّ لـكلّ خافقةٍ سُكونُ
ولا تغفُل عن الإحسان فيها فما تدرِى السكونُ متى يكونُ
وإن دَرَّت نياقك فاحتلبْها فمـا تدرى الفصيلُ لمن يكونُ

وَرُوِى أن بعض وزراء بنى العباس ، مَطَل راغبا إليه فى عمل يستـكفيه إياه ، فـكتب إليه بعد طول المَطْل :

أما يدعوك طولُ الصبر منِّى على استئناف منفعتى وشُغـلِى
وعلمُك أن ذا السلطان غادٍ على خطرين : من مَوت وعَزلِ
وأنك إن تركت قضاء حَقِّى إلى وقت التفرّغ والتخـلّى
ستصبح نادما أسِفًا مُعَزًّى على فوت الصنيعة عندَ مِثلِى

وكتب بعض ذوى الُحرمات إلى وال قد قصر فى رعاية حرمته ، يقول :

أعلَى الصراط تريد رَعْيَةَ حُرْمتى ... أم فى الحساب تمنّ بالإنعـام ؟

للنفعَ فى الدنيا أردتُكَ فانتبـهْ ... لحوائجى من رَقْدة النـوّام

وكتب أبوعليّ البصير إلى بعض الوزراء، وقد اعتذر إليه بكثرة الأشغال ، يقول :

لنا كلَّ يوم نَوبة قد ننوبُها ... وليس لنا رزقٌ ولاعندنا فضلُ

فإن تعتذرْ بالشغْل عنا فإنما ... تُناط بك الآمالُ ما اتصل الشغلُ

واعلم أن للمعروف شروطا لايتمّ إلّا بها ، ولا يكمُل إلّا معها ؛ فمن ذلك ستره عن إذاعة يستطيل لها ، و إخفاؤه عن إشاعة يُستَذَلُّ بها . قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاسْتره ، و إذا صُنِع إليك فانشُرْه ؛ ولقد قال دِعْبِل الخزاعىّ :

إذا انتقموا أعلنوا أمرَهُمُ ... و إن أنعموا أنعموا با كتتامْ

يقومُ القعود إذا أقبلوا ... وتقعد هيبتُهُم بالقيـامْ

على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره ، وأبلغ دواعى نشره ، لما جبلت عليه النفوس من إظهار ماخفى ، وإعلان ما كُتم ؛ وقال سهل بن هارون :

خِــلٌّ إذا جئتَه يوما لتسألَهُ ... أعطاك ماملـكتْ كفاهُ واعتذَرَا

يُخفى صـنائعَهُ واللهُ يظهرُها ... إن الجميلَ إذا أخفيتَهُ ظَهَرَا

ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبرا ، وتقليله عن أن يكون مستكثرا ، لئلا يصير به مُدِلّا بطِرا ، ومستطيلا أشِرًا . وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه : لايتم المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستره. فإذا عجّلته هنّأته، و إذاصغّرته عظّمته ، و إذا سترته أتممته ؛ وقال بعض الشعراء :

زادَ معروفَك عندى عِظَمًا ... أنه عندك مستورٌ حقيرُ

وتناسيتَ كأنْ لم تأتِهِ ... وهو عندالناس مشهورٌ خَطِيرُ

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به ، وترك الإعجاب بفعله ، لما فيهما من إسقاط الشكر ، و إحباط الأجر . فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إيا كم والامتنان

بالمعروف، فإنه يُبطل الشكر ، ويَمْحَق الأجر ، ثم تلا : «لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى» .
وسمع ابن سِيرين رجلا يقول لرجل : فعلت إليك وفعلت . فقال ابن سيرين : اسكت فلا خير
فى المعروف إذا أُحْصِىَ . وقال بعض الحكماء : المنّ مَفْسدة الصنيعة . وقال بعض الأدباء :
كَدَّرَ معروفا امتنان ، وضيَّع حَسَبًا امتهان . وقد قال بعض البلغاء : مَن منّ بمعروفه سقط
شكره ، ومن أُعجب بعمله ، حَبِط أجره . وقال بعض الفصحاء : قُوّة المِنن من ضعف المنن .
وقال بعض الشعراء :

أفسدتَ بالمنّ ماأسديتَ من حَسَنٍ ليس الكريم إذا أَسْدَى بمنّانِ

وقال أبونواس :

فامضِ لاتَمْنُنْ عَلَيَّ يدًا مَنُّكَ المعروفَ من كَدَرِهْ

وأُنشدت عن الربيع للشافعىّ رضى الله عنه :

لا تحمِلنَّ لِمَنْ يَمُنُّ من الأنام عليك مِنَّهْ
واخترْ لنفسك حظَّها واصبرْ فإن الصبْر جُنّهْ
مِنَنُ الرجال على القلو ب أشدُّ من وقع الأسنَّهْ

ومن شروط المعروف ألّا يحتقر منه شيئا و إن كان قليلا نَزْرًا ، إذا كان الكثير مُعْوِزا ،
وكنت عنه عاجزا ، فإن من حَقَر يسيره، فمنع منه ، أعجزه كثيره، فامتنع عنه، وفعل قليل الخير
أفضل من تركه ، فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لايمنعكم من المعروف
صغيرُه» . وقال عبد الرحمن بن جعفر : لاتستحِى من القليل ، فإن البخل أقلّ منه ، ولا تجبُنْ
عن الكثير ، فإنك أكثر منه . وقد قال الشاعر :

اعمَلِ الخيرَ ما استطعتَ و إن كا نَ قليلاً فلن تحيطَ بكلِّهْ
ومتى تفعلُ الكثير من الخير إذا كنت تاركا لأقله ؟

على أن من المعروف مالا كُلْفة على مُولِيه ، ولامشقةَ على مُسْديه ، و إنما هو جاهٌ يَسْتظِلّ
به الأدنى ، ويرتفقُ به التابع ، وقد قال الشاعر :

ظِلُّ الفتى ينفع مَن دونَه وما لهُ فى ظِلّهِ حَظ

واعلم أنك لن تستطيع أن تُوسِع جميعَ الناس معروفَك ، ولا أن تُولِيَهُمْ إحسانك ، فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحِفاظ ، واقصد به ذوى الرعاية والوداد ، ليكون معروفك فيهم ناميا ، وصنيعك عندهم زاكيا . وقد رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تنفع الصَّنيعةُ إلا عند ذى حَسَب ودين » . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه فى أهل الحِفاظ » . وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

إن الصنيعةَ لا تكون صنيعةً ... حتى يُصابَ بها طريقُ المَصْنَعِ

فإذا صنعت صنيعةً فاعمَلْ بها ... لله أولذوى القرابة أودَعِ

وقيل فى منثور الحكم : لا خيرَ فى معروف إلى غير عَرُوف . وقد ضرب الشاعر به مثلا ، فقال :

كحمارِ السَّوْءِ إن أشْبعته ... رَمَحَ الناسَ وإن جاع نَهَقْ

وقد قال بعض الحكماء : على قدر المغارس ، يكون اجتناء الغارس ، فأخذه بعض الشعراء ، فقال :

لَعمرُكَ ما المعروف فى غير أهلِهِ ... وفى أهله إلَّا كبعض الودائعِ

فمستودَعٌ ضاع الذى كان عندَه ... ومستودَعٌ ما عندَه غيرُ ضائعِ

وما الناس فى شكر الصنيعة عندَهم ... وفى كفرها إلاّ كبعض المزارعِ

فمزرَعة طابت وأضعف نبتُها ... ومَزْرعة أكدتْ على كل زارعِ

وأما من أُسْدِى إليه المعروف ، واصطُنِع إليه الإحسان ، فقد صار بأسْر المعروف موثوقا ، وفى مِلك الإحسان مرقوقا ، ولزمه إن كان من أهل المكافأة أن يكافئ عليه ، وإن لم يكن من أهلها ، أن يقابل المعروف بنَشْره ، ويقابلَ الفاعل بشكره . فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من أُودِعَ معروفا فلينْشُرْه ، فإنْ نشرَه فقد شكره ، وإن كتمه فقد كَفرَه » . ورَوَى الزُّهرىّ عن عُرْوة عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : دخَلَ عَلَىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين :

ارفعْ ضعيفكَ لا يَحُونُكَ ضَعفُه ... يومًا فتدركَهُ العواقبُ قد نَمَى [1]

(١) لا يحونك : كذا فى منهاج اليقين . يقال حانه إذا نقصه ، أو نظر إليه فى فتور ، يعنى لا تنظر إليه مستخفا به ، إذ قد تدركه العواقب وقد ارتفع ونمت أحواله ، وحينئذ يكافئك على صنيعك .

يَجْزِيكَ أو يُثْنِى عليكَ وَإِنَّ مَنْ   أثنى عليك بما فعلتَ فقد جَزَى

فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « رُدِّى علىّ قول اليهودىّ قاتله الله ، لقد أتانى جبرائيل برسالة من ربى تعالى : « أيما رجلٍ صنع إلى أخيه صنيعة ، فلم يجد لها جَزاء إلا الدعاء والثناء، فقد كافأه » . وقيل فى منثور الحكم : الشكر قيدُ النعم . وقال عبد الحميد : من لم يشكر الإنعام فاعدُدْه من الأنعام . وقيل فى منثور الحكم : قيمة كل نعمة شكرها . وقال بعض الحكماء: كُفْر النعم من أمارات البَطر ، وأسباب الغِيَر . وقال بعض الفصحاء : الكريم شكور أومشكور ، واللئيم كَفُور أو مكفور . وقال بعض البلغاء : لا زوال للنعمة مع الشكر، ولا بقاء لها مع الكفر . وقال بعض الأدباء :

شُكْرُ الإله بطولِ الثناءِ   وشكر الولاةِ بصدق الولاءِ
وشكرُ النظيرِ بحسن الجزاءِ   وشكر الدنىِّ بحسن العطاءِ

وقال بعض الشعراء :

فلو كان يَسْتغنى عن الشكر ماجدٌ   لعزة مُلْكٍ أو عُلوٍّ مكانِ
لمَا أمرَ الله العبادَ بشكرِه   فقال : اشكروا لى أيُّها الثقَلاَن

فإن مَن شكَر معروف من أحسَن إليه ، ونشر إفضال من أنعَمَ عليه ، فقد أدّى حق النعمة ، وقضى مُوجَب الصنيعة ، ولم يبقَ عليه إلا استدامة ذلك ، إتماما لشكره ، ليكون للمزيد مستحقا ، ولمتابعة الإحسان مستوجِبا .

حُكِىَ أنّ الحجاج أُتِىَ إليه بقوم من الخوارج ، وكان فيهم صديق له ، فأمر بقتلهم إلّا ذلك الصديق ، فإنه عفا عنه ، وأطلقه ووصله ، فرجع الرجل إلى قَطَرِىِّ بن الفُجاءة ، وكان من أصحابه ، فقال له : عُدْ إلى قتال الحجاج عدوّ الله ، فقال : هيهات ! غلَّ يدا مُطْلِقِها، واسترقّ رقبة مُعْتِقها ، وأنشأ يقول :

أأقاتلُ الحجاجَ عن سُلطانه   بيدٍ تقرُّ بأنها مَوْلاَتُهُ ؟
إنى إذَنْ لأخو الدناءة والذى   شهدتْ بأقبحِ فعله غَدَرَاتُهُ
ماذا أقول إذا وقفتُ إزاءَهُ   فى الصفِّ واحتجتْ له فعَلاَتُهُ

أأقول جارعلىَّ ؟ لا . إنى إذَنْ ... لأحق من جارت عليه وُلاتُهُ

وتحَدَّثَ الأقوام أن صنائعا ... غُرِسَتْ لدىَّ فَحَنْظَلَتْ نخلاتُهُ

وقيل فى منثور الحكم : المعروف رِقّ ، والمكافأة عِتق . ومن أشكر الناس الذى يقول :

لأَشْكُرَنْ لكَ معروفا هممتَ به ... إن اهتمامك بالمعروفِ مَعروفُ

ولا ألومُكَ إنْ لم يُمْضِه قَدَرٌ ... فالشىء بالقدَرِ المحتوم مصروفُ

وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ، ويتقدَّم البر ، قد يكون على وجوه : فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور ، فى وصول بره ، وإسداء عُرْفه ، ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر ، أن يخلف حسن ظنه فيه ، فيكون كما قال العتَّابىّ :

قد أوْرَقتْ فيكَ آمالى بوعدكَ لِى ... وليس فى وَرَق الآمالِ لى ثمَرُ

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجى ، وحسن مكافأة الآمِل ، فلا يرضى لنفسه إلا بتعجيل الحقّ ، وإسلاف الشكر ، وليس لمن صادف لمعروفه مَعْدِنا زاكيا ، ومَغْرِسا ناميا ، أن يفوّت نفسه غُنما ، ولا يحرمَها رِبحا ، فهذا وجه ثان . وقد يكون تارة ارتهانا للمأمول ، وحثًّا للمسئول ؛ وبحسَبِ ما أسلف من الشكر ، يكون الذم عند الإياس. وقال بعض الأدباء، من حكماء المتقدمين : مَن شكرك على معروف لم تسدِهِ إليه ، فعاجله بالبرّ ، وإلا انعكس فصار ذما . وقال ابن الرومىّ :

وما الحقدُ إلا تَوْءَمَ الشكر فى الفتى ... وبعضُ السجايا ينتسبنَ إلى بعضِ

فحيثُ ترى حقدا على ذى إساءة ... فثمَّ ترى شكرا عَلَى حَسَنِ القرضِ

إذا الأرض أدَّتْ رَيْع ما أنت زارعٌ ... من البذْرفيها فهى ناهيك من أرضِ

وأما من ستر معروف المنعم ، ولم يشكره على ما أولاه من نعمه ، فقد كَفرَ النعمة ، وجحد الصنيعة ؛ وإن من أذمّ الخلائق ، وأسوأ الطرائق ، مايستوجب به قبح الرد ، وسوء المنع . فقد رَوَى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لايشكرُ اللهَ من لايشكرُ الناس » . وقال بعض الأدباء : من لم يشكر لمنعمه ، استحق قطع النعمة . وقال بعض الفصحاء : من كفر نعمة المُفِيد ، استوجب حرمان المَزِيد .

وقال بعض البلغاء : من أنكر الصنيعة ، استوجب قبح القطيعة .

وأنشدنى بعض الأدباء ماذكر أنه لعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه :

من جاور النعمةَ بالشكر لم ... يخشَ على النعمة مُغْتالهَا

لو شكروا النعمةَ زادتْهُمُ ... مقالةُ اللهِ التى قالهَا

لئنْ شكرتمْ لأزيدَنَّكمْ ... لكنما كُفْرُهُمُ غالهَا

والكفر بالنعمة يدعو إلى ... زوالها ، والشكر أبقَى لها

وهذا آخر مايتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة .

فأما القاعدة الثالثة : فهى المادة الكافية ؛ لأن حاجة الإنسان لازمة لايَعْرَى منها بشر . قال الله تعالى : « وما جعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين » ، فإذا عدم المادة التى هى قِوام نفسه ، لم تدم له حياة ، ولم يستقم له دين ؛ وإذا تعذر شىء منها عليه ، لحقه من الوَهْن فى نفسه ، والاختلال فى دنياه ، بقدر ماتعذّر من المادة عليه ، لأن الشىء القائم بغيره ، يكمل بكماله ، ويختل باختلاله . ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة إليها ، أُعوزت بغير طلب ، وعُدِمَت لغير سبب . وأسباب المودة مختلفة ، وجهات المكاسب متشعبة ، ليكون اختلاف أسبابها ، علة الائتلاف بها ، وتشعب جهاتها ، توسعة لطلابها ، كيلا يجتمعوا على سبب واحد ، فلايلتئمون ، أو يشتركوا فى جهة واحدة ، فلا يكتفون ، ثم هداهم إليها بعقولهم ، وأرشدهم إليها بطباعهم ، حتى لايتكلفوا ائتلافهم فى المعايش المختلفة فيعجزوا ، ولا يعاونوا بتقدير موادّهم بالمكاسب المتشعبة ، فيختلوا ، حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الأمور .

وقد أنبأ الله تعالى فى كتابه العزيز إخبارا وإذكارا ، فقال سبحانه وتعالى : « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . اختلف المفسرون فى تأويل ذلك ، فقال قتادة : أعطى كل شىء مايصلحُه ، ثم هداه . وقال مجاهد : أعطى كل شىء صورته ، ثم هداه لمعيشته . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أعطى كل شىء زوجته ، ثم هداه لنكاحها . وقال تعالى : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » يعنى معايشهم ، متى يزرعون ، ومتى يغرسون ؟ وقال تعالى : « وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواءً للسائلين » قال عكرمة : قدّر فى كل بلدة منها مالم يجعله فى الأخرى ، ليعيش بعضهم من بعض ، بالتجارة من بلد إلى بلد . وقال الحسن البصرىّ وعبد الرحمن بن زيد : قدّر أرزاق

أهلها سواء للسائلين الزيادة فى أرزاقهم. ثم إن الله تعالى جعل لهم مع ماهداهم إليه من مكاسبهم ، وأرشدهم إليه من معايشهم ، دينا يكون عليهم حَكَما ، وشرعا يكون لهم قيِّما ، ليصلوا إلى موادهم بتقديره ، ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره ، حتى لاينفردوا بإرادتهم فيتغالبوا[١] ، وتستولىَ عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا . قال الله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض » . قال المفسرون فى هذا الموضع : هو الله جل جلاله ، فلأجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالإلهام ، حتى جعل العقل هاديا إليها ، والدين قاضيا عليها ، لتتم السعادة ، وتعم المصلحة . ثم إنه جلت قدرته جعل سَدّ حاجتهم ، وتوصلهم إلى منافعهم من وجهين : بمادة ، وكسب .

فأما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها ، وهى شيئان : نَبْت نام ، وحيوان متناسل . وقال الله تعالى : « وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » . قال أبو صالح : أغنى خلقه بالمال ، وأقنى : جعل لهم قِنية ، وهى أصول الأموال .

وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة والتصرّف المؤدى إلى الحاجة وذلك من وجهين : أحدهما تقلب فى تجارة ، والثانى تصرّف فى صناعة ؛ وهذان هما فرع لوجهى المادة ، فصارت أسباب الموادّ المألوفة ، وجهات المكاسب المعروفة ، من أربعة أوجه : نماء زراعة ، ونِتاج حيوان ، ورِبح تجارة ، وكسْب صناعة . وحكى الحسنُ بن رجاء مثل ذلك عن المأمون ، قال : سمعته يقول : مَعايش الناس على أربعة أقسام : زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وإمارة ؛ فمن خرج عنها كان كَلًّا عليها . وإذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه ، فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز .

أما الأول من أسبابها وهى الزراعة : فهى مادة أهل الحضَر ، وسكان الأمصار والمدن ، والاستمداد بها أعم نفعا ، وأوفى فرعا ، ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل ، فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله : كمثل حبة أنبتت سَبْع سَنابل ، فى كل سُنْبلة مِئة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء » . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُ المال عين ساهرة ، لعين نائمة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « نِعْمَتْ لكم النخلة : تشرب من عين خرَّارة ، وتغرس فى أرض خوَّارة[٢] » . وقال صلى الله عليه وسلم : فى النخل : « هى الراسخات فى الوَحْل

---

(١) أى يتدافعوا حين الخصومة بالغلبة . (٢) خواره : أى ضعيفة لاتثبت .

المطعِمات فى المَحْل[1] » . وقال بعض السلف: خير المال عين خَرَّارة ، فى أرض خوّارة ، تسهر إذا نمتَ ، وتشهد إذا غبتَ ، وتكون عَقِبا إذا مِتّ. ورَوَى هشام بن عُروة ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التمسوا الرزق فى خَبايا الأرض » : يعنى : الزرع .

وحكى عن المعتضد أنه قال : رأيت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام ، يناولنى المِسْحاة ، وقال : خذها ، فإنها مفاتيح خزائن الأرض . وقال كسرى للموبذ : ما قيمة تاجى هذا ؟ فأطرق ساعة ، ثم قال : ما أعرف له قيمة ، إلا أن تكون مَطْرةٌ فى نَيْسان ، فإنها تُصلح من معايش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك . ولقىَ عبد الله بن عبد الملك بن شهاب الزُّهْرىّ ، فقال له : ادللنى على مال أُعالجه ، فأنشأ ابن شهاب يقول :

تَتَبَّعْ خَبايا الأرض وادعُ مليكها ... لعلك يوما أن تجاب فترزَقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا مَتانة ... إذا مامياهُ الأرضِ غارتْ تَدَفَّقا

وقد اختلف الناس فى تفضيل الزرع والشجر ، مما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه ، غير أنّ من فضَّل الزرع ، فلقرب مداه ، ووُفور جداه ، ومن فضَّل الشجر ، فلثُبوت أصله ، وتوالى ثمره .

وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان : فهو مادة أهل الفلوات ، وسكان الخيام ، لأنهم لما لم تستقرّ بهم دار ، ولم تضمهم أمصار ، افتقروا إلى الأموال المنتقلة معهم ، وما لا ينقطع نماؤه بالظَّعْن والرِّحْلة ، فاقتنُوا الحيوان ، لأنه يستقل فى النقْلة بنفسه ، ويستغنى عن العَلُوفة برعيه ، ثم هو مركوب ومحلوب ، فكان اقتناؤه على أهل الخيام أيسر ، لقلة مُؤْنته ، وتسهيل الكُلْفة به ، وكانت جَدواه عليهم أكثر ، لوفور نسله ، واقتيات رَسْله ، إلهاما من الله لخلقه ، فى تعديل المصالح فيهم ، وإرشادا لعباده ، فى قَسْم المنافع بينهم . وقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير المال مُهْرة مأمورة ، وسِكّة مأبوره » . ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : مهرة مأمورة : أى كثيرة النسل ، ومنه ما تأوّل الحسن وقتادة قوله تعالى : « أمَرْنا مُتْرَفيها » : أى كثَّرنا عددهم . وأما السِّكة المأبورة : فهى النخلة المؤبَّرة الحَمل .

---

(١) المحل : الشدة والجدب .

وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الغنم : « سَمْنُها مَعاش ، وصُوفها رِياش » .

ورُوِى عن أبى ظَبْيان ، أنه قال : قال لى عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه : ما مالك يا أبا ظَبْيان ؟ قال : قلت : عطائى ألفان . قال : اتخذْ من هذا الحرْث والسائبات ، قبل أن تليك غِلْمة من قريش ، لا تَعُدّ العطاء معهم مالا . والسائبات : النِّتاج

وحكى «أن امرأة أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، إنى اتخذت غنما أبتغى نَسْلها ورَسْلها ، و إنها لاتنمِى . فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : ما ألوانها ؟ قالت : سُوْد . فقال لها : عَفِّرى » . وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى مَنا كح الآدميين : «اغتربوا لاتُضْوُوا» .

وأما الثالث من أسبابها وهى التجارة : فهى فرع لمـادتى الزرع والنِّتاج ؛ فقد رُوِى عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة والحرث » والباقى فى السائبات . وهى نوعان : تَقَلُّبٌ فى الحضَر ، من غير نُقْلة ولا سفر ، وهذا تربُّص واحتكار ، وقد رغب عنه ذوو الأقدار ، وزهد فيه ذوو الأخطار .

والثانى : تقلُّب بالمـال بالأسفار ، ونقله إلى الأمصار ، فهذا أليق بأهـل المروءة ، وأعم جَدْوَى ومنفعة ، غير أنه أكثر خَطَرا ، وأعظم غَرَرا[١] ؛ فقد رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن المسافر وماله لعلى قَلَتٍ ، إلّا ماوقى الله » . يعنى : على خطَر . وفى التوراة : يابن آدم أَحْدِثْ سفَرا ، أُحدِثْ لك رزقا .

أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة : فقد يتعلق بمـا مضى من الأسباب الثلاثة . وتنقسم أقسامها ثلاثة : صناعة فِـكر ، وصناعة عمل ، وصناعة مشتركة بين فـكر وعمل ، لأن الناس آلات للصناعة ، فأشرفهم نفسا متهيئ لأشرفها جنسا ، كما أن أرذلهم نفسا ، متهيئ لأرذلها جنسا ؛ لأن الطبع يبعث على مايلائمه ، ويدعو إلى مايجانسه . وحكى أن الإسكندر لما أراد الخروج إلى أقاصى الأرض ، قال لأرسطاطاليس : أُخرج معى . قال : قد نَحَل جسمى ، وضعفتُ عن الحركة ، فلا تزعجنى . قال : فما أصنع فى عمالى خاصة ؟ قال : انظر إلى من كان له عَبيد

(١) الغرر : اسم من التغرير . يقال : غرر فلان بنفسه ، إذا عرضها للهلكة . يعنى خطر الطريق .

فأحسنَ سياستهم ، فولّه الجنود ، ومن كانت له ضَيْعة ، فأحسن تدبيرها ، فوله الخراج ، فنبه باعتبار الطباع ، على ما أغناه عن كُلْفة التجربة .

وأشرف الصناعات صناعة الفكر ، وأرذلها صناعة العمل ، لأن العمل نتيجة الفكر وهو مُدَبِّره .

فأما صناعة الفكر ، فقد تنقسم قسمين :

أحدهما : ماوقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة ، كسياسة الناس ، وتدبير البلاد ، وقد أفردنا للسياسة كتابا ، لخصنا فيه من جملها ، ماليس يحتمل هذا الكتابُ زيادة عليها .

والثانى : ما أدت إلى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية ، وقد مضى فى فضل العلم من كتابنا هذا باب ، أغنى مافيه ، عن زيادة قول فيه .

وأما صناعة العمل : فقد تنقسم قسمين : عمل صناعىّ ، وعمل بهيمىّ . فالعمل الصناعىّ أعلاها رتبة ، لأنه يحتاج إلى معاطاة فى تعلمه ، ومعاناة فى تصوّره ، فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية ، والآخر إنما هو صناعة كدّ ، وآلة مَهْنة[1] ، وهى الصناعة التى تقتصر عليها النفوس الرّذْلة ، وتقف عليها الطباع الخاسئة ، كما قال أكثم بن صَيفىّ : لكل ساقطة لاقطة ، وكما قال المتلمِّس :

ولا يُقيمُ عَلَى ضَيمٍ يُسامُ به ... إلّا الأذلان عَيْرُ الحىّ والوَتِدُ

هذا على الخسف مَربوط برُمَّته ... وذا يُشَجُّ فلا يَرْثِى له أحدُ

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل : فقد تنقسم قسمين :

أحدهما : أن تكون صناعة الفكر أغلب ، والعملِ تبعا ، كالكتابة .

والثانى : أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا ، كالبناء ، وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها ، والعمل تبعا لها .

فهذه أحوال الخلق ، التى ركبهم الله عز وجل عليها ، فى ارتياد موادّهم ، ووكلهم إلى نظرهم ، فى طلب مكاسبهم ، وفرق بين هممهم فى التماسها ، ليكون ذلك سببا لائتلافهم -

---

(١) كنقل الأحجار ، واحتطاب الأشجار ، وحمل الأثقال ونحوها .

فسبحان من تفرّد فينا بلطيف حكمته ، وأظهر لفطنتنا عزائم قُدْرته .

وإذ قد وضح القول فى أسباب الموادّ ، وجهات الكسب ، فليس يخلو حال الإنسان فيها من ثلاثة أمور :

أحدها : أن يطلب منها قدر كفايته ، ويلتمس وَفْق حاجته ، من غير أن يتعدى إلى زيادة عليها ، أو يقتصر على نقصان منها ، فهذه أحمد أحوال الطالبين ، وأعدل مراتب المقتصدين . وقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أوحى الله تعالى إلىّ كلمات ، فدخلن فى أُذُنى ، ووقَرْن فى قلبى : مَنْ أُعْطِىَ فَضْلَ مالِهِ فهو خير له ، ومن أمسك فهوَ شرٌّ له ، ولا يَلُومُ اللهُ على كفاف[1] . وروَى حُميد عن معاوية بن حَيْدة ، قال: قلت يارسول الله ، ما يكفينى من الدنيا ؟ قال : مايسدّ جَوْعتك ، ويستر عَوْرتك ، فإن كان دارٌ فذاك ، وإن كان حمار فبَخٍ بَخٍ[2] ، فِلَقٌ مِن خبز ، وجَرٌّ[3] من ماء ، وأنت مسئول عما فوق الإزار . وقد رُوِى عن ابن عباس ومجاهد فى قوله تعالى : « إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » : أن كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك . وروَى زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان له بيت وخادم فهو ملك » وهو فى المعنى صحيح ، لأنه بالزوجة والخادم مُطاع فى أمره ، وفى الدار محجوب ، إلا عن إذنه ؛ وليس على من طلب قدر الكفاية ، ولم يجاوز تبعات الزيادة ، إلا توخى الحلال منه ، وإجمال الطلب فيه ، ومجانبة الشبهة الممازجة له . وقد رَوَى نافع عن ابن عمر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحلال بَيِّن ، والحرام بَيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فدعْ مايَرِيبك إلى مالا يريبك ، فإنك لن تجد فَقْد شىء تركته لله .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد . فقال : أما إنه ليس بإضاعة المال ، ولا تحريم الحلال ، ولكن أن تكون بما بيد الله ، أوثقَ منك بما فى يديك ، وأن يكون ثواب المصيبة ، أرجحَ عندك من بقائها . وحَكَى عبد الله بن المبارك قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرّاح بن عبد الله الحكَمِىّ : إن استطعت أن تدَع مما أحل الله لك ، ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام ، فافعل ؛ فإنه من استوعب الحلال ، تاقت نفسه إلى الحرام . وقد

(١) أى إذا لم يكن عندك إلا الكفاف ، وهو الذى بقدر حاجتك ، لم تلم على ألا تعطى أحدا .

(٢) بخ . كلمة تقال عند المدح والرضا بالشئ . وتكرر للمبالغة فيقال : بخ بخ .

(٣) جر : جمع جرة • وهى الإناء من الفخار .

اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى : « فإنّ لهُ مَعِيشةً ضَنْكا » . فقال عِكرمة : يعنى كسبا حراما . وقال ابن عباس : هو إنفاق من لايُوقِن بالخَلَف . وقال يحيى بن مُعاذ : الدرهم عَقرب، فإذا أحسنت رُقيتها ، و إلا فلا تأخذْها . وقيل : من قَلّ توقيه ، كثرت مَساويه . وقال بعض البلغاء : خيرُ الأموال ، ما أخذته من الحلال ، وصرفته فى النَّوَال ؛ وشر الأموال ، ما أخذته من الحرام ، وصرفته فى الآثام . وكان الأوزاعىّ الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات :

المالُ يَنفدُ حِلّهُ وحَرَامُهُ ... يوما ويبقَى بعدَه آثامُهُ
ليسَ التقىُّ بمتّقٍ لإلهِهِ ... حتى يطيبَ شرابُهُ وطعامُهُ
ويطيبَ مايجنى ويكسبُ أهلَه ... ويطِيبَ من لفظ الحديث كلامُه
نطقَ النبىّ لنا به عن ربّهِ ... فعلى النبىّ صلاتُهُ وسلامُهُ

وحكى عن ابن المعتمر السُّلَمِىّ ، قال : الناس ثلاثة أصناف : أغنياء ، وفقراء ، وأوساط . فالفقراء مَوْتَى ، إلا من أغناه الله بعزّ القناعة . والأغنياء سُكارى ، إلّا من عصمه الله تعالى بتوقع الغِيَر ؛ وأكثر الخير مع أكثر الأوساط ، وأكثر الشرّ مع أكثر الفقراء والأغنياء ؛ لسُخْف الفقر ، وبَطَر الغِنى .

والأمر الثانى : أن يُقصِّر عن طلب كفايته ، ويزيد فى التماس مادته ، وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه : فيكون تارة كَسلا ، وتارة توكلا ، وتارة زهدا وتقنعا ، فإن كان تقصيره لكسل ، فقد حُرِم ثروة النشاط ، ومرح الاغتباط ، فلن يعدَم أن يكون كَلًّا قَصيا ، ضائعا شَقِيّا . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كاد الحسدأن يغلبَ القدر ، وكاد الفقر أن يكون كفرًا » . وقال بُزُرْجَمِهْر : إن كان شىء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شىء مثلها فالغنى ، وإن كان شىء فوق الموت فالمرض ، وإن كان شىء مثله فالفقر . قيل فى منثور الحكم : القبرُ خير من الفقر ، ووُجد فى نيل مصر مكتوب على حَجَر :

عَقبَ الصبرَ نجاحٌ وغِنًى ... ورداء الفقرمن نسج الكَسَلْ

وقال بعض الشعراء :

أعوذُ بك اللهم من بطَر الغنى ... ومن نَهْكة البلوَى ومن ذِلة الفقرِ

ومِن أملٍ يمتدّ فى كل شارقٍ[١] يُرَجِّعنى منه بحظ يدٍ صِفرِ
إذا لم تدنِّسنى الذنوبُ بعارها فلستُ أبالِى ماتشعَّث من أمرِى[٢]

وإذا كان تقصيره لتوكّل ، فذلك عجز قد أعذر به نفسه ، وتَرْكُ حزم قد غير اسمه ، لأن الله تعالى إنما أمر بالتوكل ، عند انقطاع الحِيل ، والتسليم إلى القضاء بعد الإعواز . وقد رَوَى مَعمَر عن أيوب ، عن أبى قِلابة ، قال : ذُكر عند النبىّ صلى الله عليه وسلم رجل ، فذُكر فيه خير ، فقالوا : يارسول الله ، خَرج معنا حاجًّا ، فإذا نزلنا منزلا لم يزل يصلِّى حتى نرحَل ، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل . فقال صلى الله عليه وسلم : فمن كان يكفيه عَلَفَ ناقته ، وصنع طعامه ؟ قالوا : كلنا يارسول الله . قال : كلكم خير منه . وقال بعض الحكماء : ليس مِن توكل المرء إضاعته للحزم ، ولا من الحزم إضاعة نصيبه من التوكّل . وإن كان تقصيره لزهد وتقنّع ، فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بِتَبِعات الغنى والثروة ، وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة ، فآثر الفقر على الغنى ، وزجَر النفس عن ركوب الهوى ؛ فقد رَوَى أبو الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن يوم طلعت فيه شمسه إلا وعلى جَنْبَتيها ملَكان ينادِيان ، يسمعهما خلق الله كلّهم ، إلا الثقلين : يأيها الناسُ هَلُمُّوا إلى ربكم ، إن ماقلّ وكفى ، خيرٌ مما كثر وألهى » .

وروى زيد بن علىّ بن الحسين ، عن أبيه ، عن جده ، رضى الله عنهم أجمعين : أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ، ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق ، رضى الله عز وجل منه بالقليل من العمل » . ورُوِى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : من نُبْلِ[٣] الفقر أنك لاتجد أحدا يعصى الله ليفتقر ، فأخذه محمود الورّاق فقال :

يا عائبَ الفقرِ ألا تزدَجِرْ عيبُ الغِنَى أكثرُ لو تعتَبِرْ
من شرف الفقر ومن فضله على الغِنَى إن صحّ منك النظرْ
أنك تعصِى لتنال الغِنَى ولست تعصِى الله كى تفتقِرْ

---

(١) شارق : لامع . (٢) تشعث : اختل . (٣) نبل الفقر : فضله .

وقال ابن المقفَّع :

دليلك أن الفقرَ خير من الغِنَى وأن قليل المـال خير من المُثْرِى

لقاؤك مخلوقا عَصَى الله بالغِـنَى ولم ترَ مخلوقا عصى الله بالفقرِ

وهذه الحال إنما تصحّ لمن نصح نفسه فأطاعته ، وصدقها فأجابته ، حتى لان قيادها ، وهان عِنادها ، وعلمت أنّ من لم يقنع بالقليل ، لم يقنع بالـكثير ؛ كما كتب الحسن البصرىّ إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : يا أخى ، من استغنى بالله اكتفَى ، ومن انقطع إلى غيره تَعَنَّى[1] ، ومن كان من قليل الدنيا لايشبع ، لم يغنه منها كثرة مايجمع ، فعليك منها بالـكَفاف ، وألزم نفسك العفاف ، وإياك وجمع الفُضُول ، فإن حسابه يطول . وقال بعض الحـكماء : هيهات منك الغنى إن لم يُقْنِعك ماحَوَيت . فأما من أعرَضَت نفسـه عن قبول نصحه ، وجَمَحت[2] به عن قناعة زهده ، فليس إلى إكراهها سبيل ، ولا للحمل عليها وجه ، إلا بالرياضة والمروءة ، وأن يستنزلها إلى اليسير الذى لاتنفر منه ، فإذا استقرّت عليه ، أنزلها إلى ماهو أقل منه ، لتنتهى بالتدريج إلى الغاية المطلوبة ، وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة . وقد تقدم قول الحـكماء : إن المـكروه يسهل بالتمرين .

فهذا حكم مافى الأمر الثانى من التقصير عن طلب الـكفاية .

وأما الأمر الثالث فهو أن لايقنع بالـكفاية ، ويطلب الزيادة والـكثرة ، فقد يدعو إلى ذلك أربعة أسباب :

أحدها : منازعة الشهوات التى لاتُنال إلا بزيادة المال ، وكثرة المـادة ؛ فإذا نازعته الشهوة ، طلب من المال مايوصله إليها ، وليس للشهوات حدّ متناه ، فيصير ذلك ذريعة إلى أن مايطلبه من الزيادة غير متناه ، ومن لم يتناه طلبه ، استدام كدّه وتعبه ، فلم يفِ التذاذُه ، بنيل شهواته ، بما يعانيه من استدامة كدّه وأتعابه ، مع ماقد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات ، والتعرض لاكتساب التَّبِعات ، حتى يصير كالبهيمة التى قد انصرف طلبها ، إلى ماتدعو إليه شهوتها . فلا تنزَجر عنه بعقل . ولاتنكفّ عنه بقناعة . وقد رُوِى عن علىّ

---

(١) تعنى من العناء : أى كد كثيرا . (٢) جمح الفرس : عز راكبه وغلبه .

عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أراد الله به خيرا حال بينه و بين شهوته ، وحال بينه و بين قلبه ، و إذا أراد به شرًّا وكَلَهُ إلى نفسه » . وقد قال الشاعر :

وإنك إن أعطيتَ بطنَكَ هَمَّهُ ... وفَرْجَكَ نالا منتهَى الذمّ أجمعا

والسبب الثانى : أن يطلب الزيادة ، ويلتمس الكثرة ، ليصرفها فى وجوه الخير ، ويتقرّب بها فى جهات البرّ ، ويصطنع بها المعروف ، ويغيث بها الملهوف ، فهذا أعذر ، وبالحمد أحرى وأجدر ، إذا انصرفت عنه تَبِعات المطالب ، وتوَقّى شبُهات المكاسب ، وأحسن التقدير فى حالتى فائدته وإفادته ، على قدر الزيادة ، وبقدر الإمكان ؛ لأن المال آلة للمكارم ، وعون على الدين ، ومتألّف للإخوان ، ومن فقده من أهل الدنيا ، قلت الرغبة فيه ، والرهبة منه ، ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولارغبة ، استهانوا به . وقد روَى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه[1] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن حساب أهل الدنيا هذا المال » . وقال مجاهد : الخير فى القرآن كله المال : « وإنه لحب الخير لشديد » يعنى المال . « وأحببتُ حُبَّ الخيرِ عَنْ ذِكرِ ربِّى » : يعنى المال . « فكاتبوهمْ إن علمتمْ فيهم خيرًا » : يعنى مالا . وقال شعيب النبىّ عليه السلام : « إنى أراكم بخير » يعنى : المال . وإنما سمى الله تعالى المال خيرا إذا كان فى الخير مصروفا ، لأن ما أدى إلى الخير ، فهو فى نفسه خير ؛ وقد اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى : « ومنهم من يقول: ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » . فقال السُّدّى وعبدُ الرحمن بن زيد : الحسنة فى الدنيا : المال ، وفى الآخرة : الجنة . وقال الحسن البصرىّ وسفيان الثوْرىّ : الحسنة فى الدنيا : العلم والعبادة ، وفى الآخرة : الجنة

وقال ابن عباس : الدراهم والدنانير خواتم الله فى الأرض ، لا تؤكل ولا تشرب ، حيث قصدت بها قضيت حاجتك . وقال قيس بن سعد : اللهم ارزقنى حَمدًا ومجدا ، فإنه لاحمد إلّا بفَعال[2] ، ولامجد إلا بمال . وقد قيل لأبى الزناد[3] : لِمَ تُحِبُّ الدراهمَ وهى تدنيك من

(١) أبوه : بريدة بن خصيب الأسلمي . وكان عبد الله ابنه قاضيا بمرو .

(٢) الفعال : بفتح الفاء : الكرم . (٣) أبو الزناد : هو عبد الله بن ذكوان المدنى القرشى اتفق على إمامته وجلالته ، روى عنه جماعة من التابعين . وولاه عمر بن عبد العزيز خراج العراق .

الدنيا ؟ فقال : هى وإن أدنتنى منها ، فقد صانتنى عنها[1] . وقال بعض الحكماء : من أصلح ماله ، فقد صان الأكرمَين : الدِّين والعِرْض . وقيل فى منثور الحكم : من استغنى كرم على أهله . ومرّ رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء ، فتحرك له وأكرمه . فقيل له بعد ذلك : أكانت لك إلى هذا حاجة ؟ قال : لا ، ولـكنى رأيت ذا المال مَهيبا . وسأل رجل محمد بن عُمَير ابن عُطارد وعَتّاب بن وَرْقاء فى عشر ديات . فقال محمد : علىّ دية ، وقال عتاب : الباقى علىّ ؛ فقال محمد : نعم العون على المجد اليسار . وقال الأحنف بن قيس :

فلو مُدَّ سَرْوِى[2] بمالٍ كثيرٍ ... لجُدْتُ وكنتُ له باذِلَا

فإنّ المروءة لاتستطاعُ ... إذا لم يكن مالُها فاضِلَا

وكان يقال : الدراهم مراهم ؛ لأنها تداوى كل جرح ، ويطيِّب بها كلُّ صُلح . وقال ابن الجلال :

رُزِقتَ مالا ولم تُرْزَقْ مُرُوءتَهُ ... وما المروءة إلا كثرةُ المالِ

إذا أردتُ رُقَى العلياءِ يُقعِدُنى ... عَمّا يُنَوِّه باسمى رقةُ الحالِ

وقيل فى منثور الحكم : الفقر مَخْذَلة ، والغنى مَجْذَلة[3] ، والبؤس مَرْذلة ، والسؤال مَبْذَلة . وقال أوْس بن حَجَر :

أقيمُ بدار الحزمِ ما دامَ حَزْمُها ... وأحْرِ إذا حالت بأنْ أتحوَّلَا

فإنى وَجَدْتُ الناسَ إلّا أقلَّهمْ ... خِفافَ عُهود يُكثِرون التنقلَا

بنى أُمِّ ذى المالِ الكثيرِ يرونَهُ ... وإن كان عبدًا سيدَ القومِ جَحْفَلَا

وهم لمقلّ المالِ أولادُ عَـلَّة ... وإن كان مَحْضًا فى العشيرة مُخْوِلا[4]

---

(١) أى عن مصائبها ومتاعبها .

(٢) كذا فى منهاج اليقين . وفى المجموعة (كنت مثرى) . والسرو : الشرف والمروءة . يريد لو وصل شرفى ومروءتى بالمال الكثير، لجدت به على مستحقيه .

(٣) مجذلة : داع إلى الجذل ، وهو الفرح .

(٤) محضا : خالص النسب ، أى حرا كريما . والمخول : كريم الأخوال .

وقال بشر الضرير :

كَفَى حَزَنًا أنى أروح وأغتدى   ومالى من مال أصون به عِرْضِى
وأكثرُ ما ألقى الصديقَ بمرحبًا   وذلك لا يكفى الصديقَ ولا يُرضِى

وقال آخر :

أجَلَّكَ قوم حين صرتَ إلى الغِنَى   وكل غنىّ فى العيون جليلُ
وليس الغِنَى إلاّ غِنًى زَيَّنَ الفتى   عَشيةَ يَقْرِى أو غَداةَ يُنيلُ

مذاهب الناس فى الغنى والفقر : وقد اختلف الناس فى تفضيل الغنى والفقر ، مع اتفاقهم على أن ما أحوج من الفقر مكروه ، وما أبطر من الغنى مذموم ، فذهب قوم إلى تفضيل الغنى على الفقر ، لأن الغنىّ مقتدِر ، والفقير عاجز ، والقدرة أفضل من العجز ، وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة . وذهب آخرون إلى تفضيل الفقر على الغنى ، لأن الفقير تارك ، والغنىّ ملابِس ، وترك الدنيا أفضل من ملابَستها . وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة .

وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين ، بأن يخرج عن حدّ الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ، ليصل إلى فضيلة الأمرين ، ويسلم من مَذَمة الحالين . وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال ، وأن خيار الأمور أوساطها ، وقد مضى شواهد كلّ فريق فى موضعه ، بما أغنى عن إعادته .

والسبب الثالث : أن يطلب الزيادة ، ويقتنى الأموال ليدّخرها لولده ، ويخلّفها لورثته ، مع شدة ضِنِّهِ على نفسه ، وكفه عن صرف ذلك فى حقه ، إشفاقا عليهم من كدح الطلب ، وسوء المُنقلَب[1] ، وهذا شقىّ بجمعها ، مأخوذ بوزرها ، قد استحق اللومَ من وجوه لا تخفى على ذى لبّ : منها سوء ظنه بخالقه ، أنه لا يرزقهم إلا من جهته . وقد قيل : قتل القُنوط صاحبه ، وفى حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد : كيف تبقى على حالتك والدهر فى إحالتك . ومنها الثقّة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه ، وقد قيل : الدهر

---

(١) المنقلب : انقلاب الدهر ، وإدباره بعد إقباله .

حَسود ، لايأتى على شىء إلا غيّره . وقيل فى منثور الحكم : المال ملول . وقال بعض الحكماء : الدنيا إن بقيت لك ، لاتبقى لها . ومنها ما حُرِم من منافع ماله ، وسُلِبَ من وفور حاله ، وقد قيل : إنما مالك لك ، أوللوارث ، أو للجائحة[1] ؛ فلا تكن أشقى الثلاثة . وقال عبد الحميد : اطرح كواذب آمالك ، وكن وارث مالك . ومنها: مالحقه من شقاء جمعه ، ونالهمن عناء كده ، حتى صار ساعيا محروما ، وجاهدا مذموما . وقد قيل : رب مغبوط بمسرَّةٍ هى داؤه ، ومرحوم من سقمٍ هو شِفاؤه ، وقال الشاعر :

ومَنْ كلفتهُ النفسُ فوقَ كَفافِها فما ينقضِى حتى المماتِ عَناؤُهُ

ومنها: مايؤاخذ به من وزره وآثامه ، ويحاسب عليه من تبعاته و إجرامه. وقد حُكى أن هشام بن عبد الملك لما ثَقُلَ بكى ولده عليه ، فقال لهم : جاد لكم هشام بالدنيا ، وجُدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ما كسب ، وتركتم عليه ما اكتسب ، ما أسوأ حالَ هشام إن لم يغفر الله له ! فأخذ هذا المعنى محمود الوراق ، فقال :

تمتَّع بمالك قبل المماتِ و إلاّ فلا مالَ إن أنتَ مِتَّا
شَقِيتَ به ثم خلفّته لغيركَ بُعْدًا وَسُحْقا وَمَقْتا
فجادوا عليك بزُورِ البكاءِ وَجُدت عليهم بما قد جَمَعتا
وأرْهَنتَهُمْ كلَّ مافى يديك وَخَلَّوْك رَهْنا بما قد كَسَبتا

وَرُوى أن العباس بن عبد المطلب جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، وَلِّنى . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ياعباس ياعم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قليل يكفيك ، خير من كثير يُرْديك ؛ ياعباس ياعمّ النبىّ ، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها ؛ ياعباس ياعم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، إن الإمارة أوّلها ندامة ، وأوسطها مَلامة ، وآخرها خزىٌ يوم القيامة ، فقال : يارسول الله ، إلاّ من عَدَل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تعدلون مع الأقارب ؟ وقال رجل للحسن البصرىّ رحمه الله : إنى أخاف الموت وأكرهه . فقال : إنك

---

(١) الجائحة : المصائب المهلكة للمال .

خلَّفت مالك ، ولو قدّمته لسرك اللحاق به . وقيل فى منثور الحكم : كثرة مال الميت تُعَزِّى ورثته عنه ، فأخذ هذا المعنى ابن الرومىّ ، فقال وزاد :

أبقيتَ مالكَ ميراثا لوارثهِ   فليتَ شِعْرِىَ ما أبقى لَكَ المالُ ؟
القومُ بعدَكَ فى حالٍ تَسُرُّهُمُ   فكيف بعدهمُ حالتْ بكَ الحالُ
ملوا البكاء فما يبكيكَ من أحدٍ   واستحكم القول فى الميراث والقالُ
أَلْهَتْهُمُ عنكَ دنيا أقبلتْ لهمُ   وأدبرتْ عنك والأيامُ أحوالُ

والسبب الرابع : أن يجمع المال ، ويطلب المكاثرة ، استحلاء لجمعه ، وشغفًا باحتجانه ، فهذا أسوأ الناس حالا فيه ، وأشدّهم حِرمانا له ، قد توجهت إليه سائر الملاوِم ، حتى صار وبالا عليه ، ومَذَامَّ له . وفى مثله قال الله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم » . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « تَبًّا للذهب ، تبًّا للفضة ، فشق ذلك على أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أىَّ مال نتخذ ؟ فقال عمر رضى الله عنه : أنا أعلم لكم ذلك ، فقال : يارسول الله ، إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا : أىّ مال نتخذ ؟ فقال : لسانا ذا كرا ، وقلبا شا كرا ، وزوجة مؤمنة ، تعين أحدكم على دينه » . وروَى شَهْر ابن حَوْشَب عن أُمامة قال : «مات رجل من أهل الصُّفَّة ، فوُجد فى مِئزره دينار . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : كَيَة . ثم مات آخر ، فوُجد فى مِئزره ديناران ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : كَيَّتان » . وإنما ذكر ذلك فيهما وإن كان قد مات على عهده ، من ترك أموالا جمة ، وأحوالا ضخمة ، فلم يكن فيه ما كان فى هذين ، لأنهما تظاهرا بالقناعة ، واحتجنا ماليس بهما إليه حاجة ، فصار ما احتجناه وِزرا عليهما ، وعقابا لهما ، وقد قال الشاعر :

إذا كنتَ ذامالٍ ولمِتكُ ذانَدًى   فأنت إذن والمقترون سواء
على أن فى الأموال يوما تَبَاعةً   على أهلها والمُقْتِرُون برَاء

وأنشدت عن الربيع للشافعىّ رضى الله عنه :

إن الذى رُزِقَ اليسارَ فلم يصب   حمدا ولا أجرا لغيرُ موفق
والجدّ يدنى كل شىء شاسع   والجدّ يفتح كل باب مغلق

وأحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
فإذا سمعت بأن مجدودا حوى عودا فأورق فى يديه فحقق
وإذا سمعت بأن محدودا أتى ماء ليشربه فجف فصدّق[1]

وآفة من بُلِي بالجمع والاستكثار، ومنى بالإمساك والادّخار، حتى انصرف عن رشده فغوى، وانحرف عن سنن قصده فهوى، أن يستولىَ عليه حب المال، وبعد الأمل، فيبعثه حب المال على الحرص فى طلبه، ويدعوه بعد الأمل على الشح به، والحرص والشح أصل لكل ذم، وسبب لكل لؤم، لأن الشح يمنع من أداء الحقوق، ويبعث على القطيعة والعقوق. ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: «شر ما أعطى العبد شح هالع، وجبن خالع». وقال بعض الحكماء: الغنىّ البخيل كالقوىّ الجبان.

وأما الحرص فيسلب فضائل النفس، لاستيلائه عليها، ويمنع من التوفر على العبادة، لتشاغله عنها، ويبعث على التورّط فى الشبهات، لقلة تحرزه منها، وهذه الثلاث خصال هنّ جامعات الرذائل، سالبات الفضائل، مع أن الحريص لايستزيد بحرصه زيادة على رزقه، سوى إذلال نفسه، وإسخاط خالقه. ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الحريص الجاهد، والقنوع الزاهد، يستوفيان أكلهما غير منتقص منه، فعلام التهافت فى النار». وقال بعض الحكماء: الحرص مفسدة للدين والمروءة، والله ماعرفت من وجه رجل حرصا فرأيت أن فيه مصطنعا

وقال آخر: الحريص أسير مهانة لايفَكّ أسره. وقال بعض البلغاء: المقادير الغالبة لاتنال بالمغالبة. والأرزاق المكتوبة لاتنال بالشدة والمكالبة، فذلِّلْ للمقادير نفسك، واعلم بأنك غير نائل بالحرص إلا حظك. وقال بعض الأدباء: ربّ حظ أدركه غير طالبه، ودَرّ أحرزه غير حالبه.

وأنشدنى بعض أهل الأدب لمحمد بن حازم:

يا أسير الطمع الكا ذب فى غلّ الهوانِ
إنّ عز اليأس خير لك من ذل الأمانى

---

(١) المحدود: الذى حرم الحظ، وهو ضد المجدود.

سامح الدهر إذا عـَـــزّ وخذ صفو الزمانِ[1]

ربما أعـدم ذو الحر ص وأثرى ذو التوانِى

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ، ولانهاية محدودة يقنع بها ، لأنه إذا وصل بالحرص إلى ما أمل ، أغراه ذلك بزيادة الحرص والأمل ، و إذا لم يصل رأى إضاعة العناء لوما ، والصبر عليه حزما ، وصار بما سلف من عنائه أقوى رجاء ، وأبسط أملا . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يشيب ابن آدم و يبقى معه خصلتان : الحرص والأمل » . وقيل للمسيح عليه السلام : ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب ؟ قال : لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا مالم يذقه الشباب . ولو صدق الحريص نفسه ، واستنصح عقله ، لعلم أن من تمام السعادة ، وحسن التوفيق ، الرضا بالقضاء ، والقناعه بالقَسْم[2] .

ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اقتصدوا فى الطلب فإن مارزقتموه أشدّ طلبا لكم منكم له ، وماحُرِمتموه فلن تنالوه ولو حَرَصتم » . وَرُوِى أن جبريل على نبينا وعليه السلام ، هبط على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله تبارك وتعالى ، يقرأ عليك السلام ، و يقول لك : اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم : « ولا تمدنّ عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » . فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى : من لم يتأدّب بأدب الله تعالى ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

وقيل : مكتوب فى بعض الكتب : رُدّوا أبصاركم عليكم ، فإن لكم فيها شغلا . وقال مجاهد فى تأويل قوله تعالى : « فلنحيينه حياة طيبة » : قال بالقناعة . وقال أكثم بن صيفى : من باع الحرص بالقناعة ، ظفر بالغنى والمروءة . وقال بعض السلف : قد يخيب الجاهد الساعى ، و يظفر الوادع الهادى . فأخذه البحترىّ ، فقال :

لم ألق مقدورا عَلَى استحقاقه فى الحظ إما ناقصا أو زائدا

وعجبت للمحدود يحرَم ناصبا كلِفا وللمجدود يغنَم قاعـدا

ماخطْب من حُرِم الإرادة قاعدا خطبَ الذى حرم الإرادة جاهدا

وقال بعض الحكماء : إن من قنع كان غنيا ، و إن كان مقترا ، ومن لم يقنع كان فقيرا

---

(١) عز : اشتد وصعب . (٢) القسم : الحظ والنصيب المقسوم .

و إن كان مكثرا . وقال بعض البلغاء : إذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة ، و إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ، فمن أطاع الله عز وجل ، عزّ نصره . ومن لزم القناعة زال فقره . وقال بعض الأدباء : القناعة عز المعسر ، والصدقة حرز الموسر . وقال بعض الأدباء :

إنى أرى من له قُنُوع   يدرك مانال من تمنى
والرزق يأتى بلا عناء   ور بما فات من تعنَّى

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه : فالوجه الأوّل أن يقنع بالبُلْغة من دنياه ، و يصرف نفسه عن التعرّض لما سواه ، وهذا أعلى منازل أهل القناعة . وقال الشاعر :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن   على حالة إلا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار : أزهد الناس من لاتتجاوز رغبته من الدنيا بُلْغته . وقال بعض الحكماء : الرضا بالكفاف يؤدى إلى العفاف . وقال بعض الأدباء : رب ضيق أفضل من سعة ، وعناء خير من دعة .

وأنشدنى بعض أهل الأدب ، وذكر أنه لعلىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه :

أفادتنى القناعة كل عزّ   وأىّ غنى أعز من القناعهْ
فصيِّرْها لنفسك رأسَ مال   وصير بعدها التقوى بضاعهْ
تَحَرَّزْ حين تغنى عن بخيل   وتنعم فى الجنان بصبر ساعهْ

والوجه الثانى : أن تنتهى به القناعة إلى الكفاية ، و يحذف الفضول والزيادة ، وهذا أوسط حال المقتنع . وقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن عبد إلّا بينه و بين رزقه حجاب ، فإن قنع واقتصد أتاه رزقه ، و إن هتك الحجاب لم يزد فى رزقه » . وقال بعض الحكماء : طلب مافوق الكفاف إسراف . وقال بعض البلغاء : من رضى بالمقدور ، قنع بالميسور . وقال البحترىّ :

تَطْلُبُ الأكثر فى الدنيا وقد   تبلغ الحاجة منها بالأقلْ

وأنشدت لإبراهيم بن المدبّر :

إن القناعة والعفا   ف ليغنيان عن الغنَى
فإذا صَبَرت عن المنى   فاشكر فقد نلت المُنَى (١)

(١) المنى جمع منية ، وهى الرغائب التى تتوق إليها النفس من طيبات الدنيا . والمنى الثانية : الدرجات الرفيعة فى الآخرة .

والوجه الثالث : أن تنتهىَ به القناعة إلى الوقوف على ماسنح ، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيرا ، ولا يطلب ماتعذر وإن كان يسيرا . وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة ، لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة : أما الرغبة فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت . وأما الرهبة فلأنه لايطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت . وفى مثله قال ذو النون رحمة الله عليه : من كانت قناعته سمينة ، طابت له كل مَرَقة .

وقد روى الحسن بن الحسن بن علىّ ، عن أبيه عن جده ، قال: قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «الدنيا دُول ، فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوّتك ، ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ، ومن رضى بما رزقه الله تعالى قرّت عينه » . وقال أبو حازم الأعرج : وجدت الدنيا شيئين : شيئا هو لى لن أعجله قبل أجله ، ولو طلبته بقوّة السموات والأرض ، وشيئا هو لغيرى ، وذلك مما لم أنله فيما مضى، ولا أنا له فيما بقى، يُمنع الذى لى من غيرى ، كما يُمنع الذى لغيرى منى ، ففى أىّ هذين أفنى عمرى ، وأهلك نفسى .

وقال أبو تمام الطائى :

لا تأخذَنِّى بالزمان فليس لى ... تبعا ولست على الزمان كفيلَا
من كان مرعَى عزمه وهمومِه ... روضُ الأمانى لم يزل مهزولَا
لو جاز سلطان القُنوع وحكمه ... فى الخلق ما كان القليل قليلَا
الرزق لا تَكْمَد عليه فإنه ... يأتى ولم تبعث إليه رسولَا[1]

وأنشدنى بعض أهل الأدب لابن الرومىّ :

جرى قلم القضاء بما يكونُ ... فسيان التحرك والسكونُ
جنون منك أن تسعى لرزق ... ويُرْزَق فى غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسئول ، وأفضل مأمول ، أن يحسن إلينا التوفيق فيما مَنَح ، ويصرف عنا الرغبة فيما مَنَع ، استكفافا لتبعات الثروة ، ومُوبقات الشهوة . روى شريك ابن أبى نمر ، عن أبى الجذع ، عن أعمامه وأجداده ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « خيرُ أمتى الذين لم يُعْطَوْا حتى يَبْطَرُوا ، ولم يُقتِرُوا حتى يَسْألوا » .

(١) فى الديوان طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ م : الرزق لا تحرص عليه .

وقال أبو تمام الطائى :

عندى من الأيام مالو أنه أضحى بشارب مُرْقدٍ ما غَمَّضا (١)

لا تطلبنّ الرزق بعد شِماسه فترومَه سَبُعًا إذا ما غَيَّضا (٢)

ما عُوِّض الصبر امرؤ إلا رأى ما فاته دون الذى قد عُوِّضا

باب أدب النفس

وهو الخامس من الكتاب

[ضرورة التأديب] :

اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة ، وأخلاق مرسَلَة ، لا يستغنى محمودها عن التأديب ، ولا يُكتفى بالمرضىّ منها عن التهذيب ، لأن لمحمودها أضدادا مقابلة ، يُسْعدها هوى مطاع ، وشهوة غالبة ؛ فإن أُغفل تأديبها تفويضا إلى العقل ، أو توكلا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع ، أعدمه التفويض دَرْكَ المجتهدين ، وأعقبه التوكل ندم الخائبين ، فصار من الأدب عاطلا ، وفى صورة الجهل داخلا ، لأن الأدب مكتسب بالتجربة ، أو مستحسن بالعادة ، ولكل قوم مواضعة ، وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ، ولا بالانقياد للطبع ، حتى يُكتسب بالتجربة والمعاناة ، ويستفاد بالدُّرْبة والمعاطاة ، ثم يكون العقل عليه قيِّما ، وزكىّ الطبع إليه مسلِّما ، ولو كان العقل مغنيا عن الأدب ، لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين ، وبعقولهم مكتفين . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : من أدّبك ؟ قال : ما أدّبنى أحد ، ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم ، فحسْب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها . وقال أردشير بن بابَكَ : من فضيلة الأدب أنه ممدوح بكل لسان ، ومتزيَّن به فى كل مكان ، وباق ذكره على أيام الزمان .

وقال مهبود : شُبِّه العالم الشريف العديم الأدب بالبُنيان الخراب ، الذى كلما علا سَمْكه ، كان أشد لوحشته ؛ وبالنهر اليابس الذى كلما كان أعرض وأعمق ، كان أشد لوعورته ،

---

(١) المرقد : الدواء : المنوم . وما غمض : أى ما غمض عينه ، لشدة الأهوال .

(٢) لا تطلب ما يمتنع عليك من الرزق ، كأنه سبع ممتنع فى غيله .

وبالأرض الجيدة المعطلة التى كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفَع به التفافا ، وصار للهوام مسكنا . وقال ابن المقفع : مانحن إلى مانتقوّى به على حواسنا من المطعم والمشرب ، بأحوج منا إلى الأدبِ ، الذى هو لِقاح عقولنا ، فإن الحبة المدفونة فى الثرى لاتقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء الذى يعود إليها من مستودعها .

وحَكَى الأصمعىّ رحمه الله تعالى، أن أعرابيا قال لابنه: يابنىّ ، الأدب دعامة أيد الله بها الألباب ، وحلية زَيَّنَ الله بها عواطل الأحساب . فالعاقل لايستغنى وإن صحت غريزته عن الأدب المخرج زهرتَه ، كما لاتستغنى الأرض وإن عذُبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها . وقال بعض الحكماء : الأدب صورة العقل ، فصوّر عقلك كيف شئت . وقال آخر : العقل بلا أدب ، كالشجر العاقر ، ومع الأدب كالشجر المثمر . وقيل : الأدب أحد المنصبين . وقال بعض البلغاء : الفضل بالعقل والأدب ، لابالأصل والحسب ، لان من ساء أدبه ، ضاع نسبه ، ومن قلّ عقله ضلّ أصله . وقال بعض الأدباء : ذكِّ قلبك بالأدب ، كما تذكَّى النار بالحطب ، واتخذ الأدب غُنْما ، والحرص عليه حظا ، يرتجيك راغب ، ويخاف صولتك راهب ، ويؤمَّلُ نفعُك ، ويُرْجَى عدلك . وقال بعض العلماء : الأدب وسيلة إلى كل فضيلة ، وذريعة إلى كل شريعة . وقال بعض الفصحاء : الأدب يستر قبيح النسب . وقال بعض الشعراء فيه :

فما خلق الله مثل العقولِ	ولا اكتسب الناسُ مثلَ الأدبْ
وما كَرَمُ المرء إلا التقَى	ولا حَسَب المرء إلا النسبْ
وفى العلم زين لأهل الحِجا	وآفة ذى الحلم طيش الغضَبْ

وأنشد الأصمعىّ رحمه الله :

وإن يك العقل مولودا فلستُ أرى	ذا العقل مستغنيا عن حادث الأدبِ
إنى رأيتهما كالماء مختلطا	بالترب تظهر منه زَهْرة العُشُبِ
وكل من أخطأته فى مواله	غريزة العقل حاكَى البَهْمَ فى الحسَبِ

والتأديب يلزم من وجهين : أحدهما : ما لزم الوالد لولده فى صغره . والثانى: ما لزم الإنسان فى نفسه عند نشأته وكبره .

فأما التأديب اللازم للأب ، فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها ، وينشأ عليها ، فيسهل عليه قبولها عند الكبر ، لاستئناسه بمبادئها فى الصغر ، لأن نشأة الصغير على الشىء ، تجعله متطبعا به ، ومن أُغفِل فى الصغر ، كان تأديبه فى الكبر عسيرا . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما نحلَ والدٌ ولده نِحْلة أفضلَ من أدب حسن يفيده إياه ، أو جهل قبيح يكفه عنه ، ويمنعه منه» . وقال بعض الحكماء : بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال ، وتفرّق البال . وقال بعض الشعراء :

إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلتْ ... ولا يلين إذا قوّمته الخُشُبُ
قد ينفع الأدبُ الأحداثَ فى صغر ... وليس ينفع عند الشَّيبة الأدَبُ

وقال آخر :

ينشو الصغير على ما كان والده ... إن الأصول عليها ينبت الشجر

[أدب النشأة] : وأما الأدب اللازم للإنسان عند نشأته وكبره فأدبان : أدب مواضعة واصطلاح ، وأدب رياضة واستصلاح .

فأما أدب المواضعة والاصطلاح ، فيؤخذ تقليدا على ما استقرّ عليه اصطلاح العقلاء ، واتفق عليه استحسان الأدباء ، وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبَط ، ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجِب ، كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب ، واتفاقهم على هيئات اللباس ، حتى إن الإنسان الآن إذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للأَدب ، مستوجبا للذم ، لأن فراق المألوف فى العادة ، ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضَعة ، مفض إلى استحقاق الذم بالعقل ، مالم يكن لمخالفته عِلة ظاهرة ، ومعنى حادث ، وقد كان جائزا فى العقل أن يُوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه ، فيرونه حسنا ، ويرون ما سواه قبيحا ، فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل ، من حيث توجُّهُ الذم على تاركه ، ومخالفا له من حيث إنه كان جائزا فى العقل أن يوضع على خلافه .

وأما أدب الرياضة والاستصلاح : فهو ما كان محمولا على حال لايجوز فى العقل أن يكون بخلافها ، ولا أن تختلف العقلاء فى صـــلاحها وفسادها ، وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبَط ، ووضوح صحته بالدليل مرتبط ، وللنفس على مايأتى من ذلك شاهد ، ألهمها الله تعالى إرشادا لها ، قال الله تعالى : « فألهمها فُجورَها وتقواها » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بين لها ماتأتى من الخير ، وتَذَرُ من الشر . وسنذكر تعليل كل شىء فى موضعه ، فإنه أولى به وأحق .

فأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح : أن لايسبق إلى حسن الظن بنفسه ، فيخفَى عنه مذموم شيمه ، ومساوى أخلاقه ، لأَن النفس بالشهوات آمرة ، وعن الرُّشْد زاجرة . وقد قال الله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك ، ثم أهلك ، ثم عيالُك » . ودعت أعرابية لرجل فقالت : كبتَ الله كل عدوّ لك إلا نفسك ، فأخذه بعض الشعراء ، فقال :

قلبى إلى ما ضرَّنى داعِى   يكثر أسقامِى وأوجاعى

كيف احتراسِى من عدوّى إذا   كان عدوّى بين أضلاعى

فإذا كانت النفس كذلك ، فحسن الظن بها ذريعة إلى تحكيمها ، وتحكيمها داع إلى سلاطتها ، وفساد الأخـــلاق بها ؛ فإذا صرف حسن الظن عنها ، وتوسمها بمـا هى عليه من التسويف والمـكر ، فاز بطاعتها ، وانحاز عن معصيتها . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : العاجز من عجز عن سياسة نفسه . وقال بعض الحـكماء : من ساس نفسه ساد ناسه .

فأما سوء الظن بها، فقد اختلف الناس فيه ، فمنهم من كرهه، لمـا فيه من اتهام طاعتها ، وردّ مناصحتها ، فإن النفس وإن كان لها مكر يُرْدِى ، فلها نصح يهدى . فلما كان حسن الظن بها يُعْمِى عن مساويها ، كان سوء الظن بها يُعمى عن محاسنها . ومن عَمِى عن محاسن نفسه ، كان كمن عمى عن مساويها ، فلم ينف عنها قبيحا ، ولم يُهْدِ إليها حسنا . وقد قال الجاحظ فى كتاب البيان : يجب أن يكون فى التهمة لنفسه معتدلا ، وفى حسن الظن بها مقتصدا ، فإنه إن تجاوز مقدار الحق فى التهمة ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين ، وإن تجاوز بها الحق

فى مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين ، ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوَهْن ، ولكل وَهْن مقدار من الجهل .

وقال الأحنف بن قيس : من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم . وذهب قوم إلى أن سوء الظن بها أبلغ فى صلاحها ، وأوفر فى اجتهادها ، لأن للنفس جَوْرا لاينفك إلا بالسخط عليها، وغرورا لاينكشف إلا بالتهمة لها ، لأنها محبوبة تجور إدلالا، وتغرّ مكرا ، فإن لم يسىء الظن بها ، غلب عليه جَوْرها ، وتموّه عليه غرورها ، فصار بميسورها قانعا ، و بالشبهة من أفعالها راضيا . وقد قالت الحكماء : من رضى عن نفسه ، أسخط عليه الناس . وقال كشاجم :

لم أرضَ عن نفسى مخافة سخطها ورضا الفتى عن نفسه إغضابُها

ولَوَ أننى عنها رضيت لقصرتْ عما تزيد بمثله آدابُها

وتَبَيَّنَتْ آثارَ ذاك فأكثرتْ عذْلى عليه فطال فيه عِتابُها

وقد استُحْسِن قول أبى تمام الطائىّ :

ويسىء بالإحسان ظنا لا كمنْ هو بابنه و بشعره مَفْتونُ

فلم يروا إساءة ظنه بالإحسان ذما ، ولا استقلال عمله لؤما ، بل رأوا ذلك أبلغ فى الفضل ، وأبعث على الازدياد . فإذا عرف من نفسه ما تُجِنّ ، وتصوّر منها ماتُكِنّ ، ولم يطاوعها فيما يحبُّ إذا كان غيا ، ولاصرف عنها ما تكره إذا كان رُشدا ، فقد ملكها بعد أن كان فى ملكها ، وغلبها بعد أن كان فى غَلَبها . وقد روى أبو حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشديد من غلب نفسه » . وقال عون بن عبدالله : إذا عصتك نفسك فيما كرِهَتْ ، فلا تطعها فيما أحبتْ ، ولا يغرّنّك ثناء من جَهِل أمرك .

وقال بعض البلغاء : من قوِىَ على نفسه ، تناهى فى القوّة ، ومن صبر عن شهوته، بالغ فى المروّة ، فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنّت ، وخبرة ما أجنّتْ ، بتقويم عِوَجها ، و إصلاح فسادها . وقد رُوِى عن عائشة رضى الله عنها قالت : يارسول الله : متى يعرف الإنسان ربه ؟ قال : إذا عرف نفسه ، ثم يراعى منها ماصلح واستقام ، من زيغ يَحْدُث عن إغفال ، أو ميل

يكون عن إهمال ، ليتم له الصلاح ، وتستديم له السعادة ، فإن المُغْفَل بعد المعاناة ضائع ، والمهملَ بعد المراعاة ذائع .

[أدب الرياضة والاستصلاح] وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح ، فصولا تحتوى على مايلزم مراعاته من الأخلاق ، ويجب معاناته من الأدب ، وهى ستة فصول متفرّعة :

الفصل الأول : فى مجانبة الكبر والإعجاب

لأنهما يسلُبان الفضائل ، ويَكْسِبان الرذائل ، وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح ، ولا قبول لتأديب ، لأن الكبر يكون بالمنزلة ، والعُجْب يكون بالفضيلة ، فالمتكبر يُجِلّ نفسه عن رتبة المتعلمين ، والمُعْجَب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين ، فلذلك وجب تقديم القول فيهما ، بإبانة مايَكْسِبانه من ذم ، ويوجبانه من لوم ، فنقول :

أما الكبر فيَكْسِب المَقْت ، ويُلهى عن التألّف ، ويوغِر صدور الإخوان ، وحسبُك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه ، ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمه العباس : أنهاك عن الشرك بالله والكبر ، فإن الله يحتجب منهما . وقال أردَشِيرُ بن بابَك : ما الكبر إلّا فضل حُمْق ، لم يدر صاحبه أين يُذْهب به ، فيصرفه إلى الكبر ؛ وما أشبه ماقال بالحق .

وحُكِى أن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير نظر إلى المهلَّب بن أبى صُفرة وعليه حُلة يسحبها ، ويمشى الخُيلاء ، فقال : ياأبا عبد الله ، ماهذه المِشية التى يبغضها الله ورسوله ؟ فقال المهلب : أما تعرفنى ؟ فقال : بل أعرفك : أوّلك نطفة مَذِرَة ، وآخرك جيفة قذرة ، وحشوك فيما بين ذلك بَوْلٌ وعذرة . فأخذ ابن عوف هذا الكلام ، فنظمه شعرا ، فقال :

عجبتُ من مُعْجَبٍ بصُورتِهِ … وكان بالأمسِ نطفة مَذِرَهْ
وفى غدٍ بعد حسن صورته … يصير فى اللحد جِيفةً قَذِرَهْ
وهْوَ على تيهِهِ ونَخْوَتِهِ … ما بين ثوبيه يحمل العَذِرَهْ

وقد كان المهلّب أفضل من أن تُخْدَع نفسه بهذا الجواب ، ولكنها زَلّة من زلات الاسترسال ، وخطيئة من خطايا الإدلال .

فأما الحمق الصريح ، والجهل القبيح ، فهو ماحُكى عن نافع بن جبير بن مطعم ، أنه جلس فى حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحِرْقىّ وهو يقرئ الناس ، فلما فرغ قال : أتدرون لِمَ جلست إليكم ؟ قالوا : جلست لتسمع ، قال : لا ، ولكن أردت أن أتواضع لله بالجلوس إليكم . فهل يُرجَى من مثل هذا فضل ، أو ينفعُ فيه عَذْل ؛ وقد قال ابن المعتز : لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوى الكمال ، استعانوا بالكبر ، ليعظِّم صغيرا ، ويرفع حقيرا ، وليس بفاعل .

وأما الإعجاب فيُخفِى المحاسن ، ويظهر المساوى ، ويَكسب المذامّ ، ويصدّ عن الفضائل . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن العُجْب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه : الإعجاب ، ضدّ الصواب ، وآفة الألباب . وقال بُزُرْجَمِهْر : النعمة التى لا يحسد صاحبها عليها : التواضع ، والبلاء الذى لا يُرْحَم صاحبه منه : العُجْب . وقال بعض الحكماء : عُجب المرء بنفسه أحد حُسّاد عقله . وليس إلى ما يكسبه الكبر من المقت حدّ ، ولا إلى ماينتهى إليه العجب من الجهل غاية ، حتى إنه ليطفئ من المحاسن ماانتشر ، ويسلُب من الفضائل مااشتهر ، وناهيك بسيئةٍ تُحبِط كل حسنة ، وبمذَمَّة تهدم كل فضيلة ، مع مايثيره من حَنَق ، ويَكسِبه من حقد .

حَكَى عُمرُ بن حفص قال : قيل للحجاج : كيف وجدت منزلك بالعراق ؟ قال خير منزل ، لو كان الله بلَّغنى قتل أربعة ، فتقرّبت إليه بدمائهم . قيل : ومَنْ هم ؟ قال : مقاتِل بن مِسْمَع : ولِىَ سجستان ، فأتاه الناس ، فأعطاهم الأموال ، فلما عُزل دخل مسجد البصرة ، فبسط الناس له أرديتهم ، فمشى عليها ، وقال لرجل يماشيه : لمثل هذا فليعمل العاملون .

وعبد الله بن زياد بن ظَبْيان التَّيْمىّ : خوّف أهل البصرة أمرا ، فخطب خطبة أوجز فيها ، فنادى الناس من أعراض المسجد : أكثر الله فينا مثلك ! فقال : لقد كلفتم الله شَطَطا . ومعبَد ابن زُراة كان ذات يوم جالسا فى طريق ، فمرت به امرأة ، فقالت له : يا عبد الله ، كيف الطريق إلى موضع كذا ؟ فقال : ياهَناهْ ، مثلى يكون من عَبيد الله ! وأبو سَمَّال الأسدىّ ، أضلّ راحلته ، فالتمسها الناس ، فلم يجدوها ، فقال : والله إن لم يَرُدّ إلىّ راحلتى لاصليت له صلاة أبدا ، فالتمسها الناس فوجدوها ، فقالوا : قد ردّ الله راحلتك فصلّ ، فقال : إن يمينى يمين مُصِرّ .

فانظر إلى هؤلاء ، كيف أفضى بهم العُجْب إلى حُمق ، صاروا به نكالا فى الأوّلين ، ومَثلا فى الآخرين . ولو تصوَّر المعجَب المتكبر مافُطِر عليه من جِبِلّة ، وَبُلِىَ به من مَهْنة ، لخفض جَناح نفسه ، واستبدل لينا من عُتُوّه ، وسكونا من نفوره . وقال الأحنف بن قيس : عجِبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين ، كيف يتكبر ؟ وقد وصف بعض الشعراء الإنسان فقال :

يامُظْهِرَ الكبرِ إعجابا بصُورته ... أُنظرْ خلاءَكَ فإن النَّتْنَ تثريبُ

لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعرَ الكبرَ شُبّانٌ ولا شِيبُ

هل فى ابن آدم مثلُ الرأس مكرمةً ... وهْو بخَمْسٍ من الأقذارِ مَضْرُوبُ

أنفٌ يسيلُ وأذن رِيحها سَهِكٌ ... والعينُ مرفضةٌ والثغرُ ملعوبُ

يابنَ الترابِ ومأكولَ التراب غدًا ... أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

وأحق من كان للكبر مجانبا ، وللإعجاب مباينا ، من جل فى الدنيا قدره ، وعظم فيها خطره ، لأنه قد يستقل بعالى همته كلَّ كثير ، ويستصغر معها كل كبير . وقال محمد بن علىّ : لاينبغى للشريف أن يرى شيئا من الدنيا لنفسه خطيرا ، فيكون مهانا بها . وقال ابن السماك لعيسى بن موسى : تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك ، وكان يقال اسمان متضادّان بمعنى واحد : التواضع والشرف .

وللكبر أسباب : فمن أقوى أسبابه علوّ اليد ، ونفوذ الأمر ، وقلة مخالطة الأكفاء . وَحُكى أن قوما مَشَوا خلف على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : أبعدوا عنى خَفْق نعالكم ، فانها مفسدة لقلوب نوكَى الرجال . ومَشَوا خلف ابن مسعود ، فقال : ارجعوا فإنها زلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وروى قيس بن حازم أن رجلا أُتِىَ به للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأصابته رِعدة . فقال له صلى الله عليه وسلم : « هوّن عليك ، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد » . وإنما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لمواد الكبر ، وقطعا لذرائع الإعجاب ، وكسرا لإسراف النفس ، وتذليلا لسطوة الاستعلاء . ومثل ذلك مارُوى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه نادى

الصلاةَ جامعةً ؛ فلما اجتمع الناس صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، لقد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم ، فيقبض لى القبضة من التمر والزبيب ، فأظلّ اليوم وأى يوم ؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله يا أمير المؤمنين مازدت على أن قصرت بنفسك . فقال عمر رضى الله عنه : ويحك يا ابن عوف ! إنى خلوت ، فحدثتنى نفسى ، فقالت : أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا أفضل منك ، فأردت أن أعرّفها نفسها .

[وللإعجاب أسباب] : فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقرّبين ، وإطراء المتملقين ، الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا ، والتملق خديعة وملعبا ، فإذا وجدوه مقبولا فى العقول الضعيفة ، أغروا أربابها باعتقاد كذبهم ، وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أنه سمع رجلا يزكّى رجلا فقال له : قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها » . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : المدح ذبح وقال ابن المقفع : قابل المدح كمادح نفسه . وقال بعض الحكماء : من رضى أن يُمدح بما ليس فيه ، فقد أمكن الساخرَ منه . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والتمادح ، فإنه الذبح ، إن كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة ، فليقل أحسب ولا أزكى على الله أحدا » . وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة : عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ؟ وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب ؟ وقال بعض الشعراء :

يا جاهلا غرّه إفراط مادحِهِ ... لا يغلبنْ جهلُ من أطراك علمَك بكْ

أثنى وقال بلا علم أحاط بهِ ... وأنت أعلم بالمحصول من رِيَبِكْ

وهذا أمر ينبغى للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزّها ، ويمنعها من تصديق المدح لها ، فإن للنفس ميلا لحب الثناء ، وسماع المدح . وقال الشاعر :

يَهْوَى الثناء مبرِّزٌ ومقصرٌ ... حب الثناء طبيعة الإنسانِ

فإذا سامح نفسه فى مدح الصبْوَة ، وتابعها على هذه الشهوة ، تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ، ولها بها عن المحاسن الممنوحة ، فصار الظاهر من مدحه كذبا ، والباطن من ذمه

صدقا ، وعند تقابلهما يكون الصدق ألزم الأمرين ، وهذه خُدْعة لا يرتضيها عاقل ، ولا ينخدع بها مميز . وليعلم أن المتقرّب بالمدح يسرف مع القبول ، ويكف مع الإباء ؛ فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته ، ولتكن تهمة المادح أغلب عليه ، فقل مدح كان جميعه صدقا ، وقلّ ثناء كان كله حقا ، ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح ، تحرّزا من التجاوز فيه ، وتنزيها عن التملق به . وقد رَوَى مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكونوا عيَّابين ولا تكونوا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين » . وحكى الأصمعىّ : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان إذا مدح قال : اللهم أنت أعلم بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم . اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون . وقال بعض الشعراء :

إذا المرء لم يمدحهُ حُسْنُ فِعاله ... فمادحه يهذى وإن كان مفصحَا

وربما آل حب المدح بصاحبه إلى أن يصير مادح نفسه ، إمّا لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله ، وأخلوا بحقه . وإمّا ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والإطراء ، فيعتقدون أن قوله حق متَّبَع ، وصدق مستمَع .

وإما لتلذذ بسماع الثناء ، وسرور نفسه بالمدح والإطراء ، كما يتغنى بنفسه طربا إذا لم يسمع صوتا مطربا ، ولا غناء ممتعا ، ولأىّ ذلك كان ، فهو الجهل الصريح ، والنقص الفاضح . وقد قال بعض الشعراء :

وما شرفٌ أن يمدح المرء نفسه ... ولكن أعمالًا تذم وتمدحُ
وما كل حين يصدُق المرء ظنُّه ... ولا كلُّ أصحاب التجارة يربحُ
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا ... ولا كل من ضم الوديعة يصلحُ

وينبغى للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب ، ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه ، التى صرفه حسن الظن عنها ، فإنهم أمكن نظرا ، وأسلم فكرا ، ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه . وقد رَوَى أنس بن مالك ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « المؤمن مِرآة المؤمن ، إذا رأى فيه عيبا

أصلحه » . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوينَا .
وقيل لبعض الحكماء : أتحب أن تُهْدَى إليك عيوبك ؟ قال : نَعَمْ ، من ناصح .

ومما يقارب معنى هذا القول مارُوى عن عمر رضى الله عنه ، أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما : من ترى أن نوليه حمص ؟ فقال : رجلا صحيحا منك ، صحيحا لك. قال: تكون أنت ذلك الرجل؟ قال : لا تنتفع بى مع سوء ظنى بك، وسوء ظنك بى . وقيل فى منثور الحكم : من أظهر عيب نفسه فقد زكاها . فإذا قطع أسباب الكبر ، وحسم موادّ العُجْب ، اعتاض بالكبر تواضعا ، و بالعُجْب توددا ، وذلك من أوكد أسباب الكرامة ، وأقوى موادّ النعم ، وأبلغ شافع إلى القلوب ، يعطفها إلى المحبة ، ويثنيها عن البغض . وقال بعض الحكماء : من برئ من ثلاث نال ثلاثا : من برئ من السرف نال العزّ ، ومن برئ من البخل نال الشرف ، ومن برئ من الكبر نال الكرامة . وقال مصعب بن الزبير : التواضع مصايِد الشرف . وقيل فى منثور الحكم : من دام تواضعه كثر صديقه . وقد تُحدِث المنازل والولايات لقوم أخلاقا مذمومة . يظهرها سوء طباعهم، ولآخرين فضائل محمودة، يبعث عليها زكاء شيمهم، لأن لتقلب الأحوال سَكْرة تظهر من الأخلاق مكنونها ، ومن السرائر مخزونها ، لاسيما إذا هجمت من غير تدريج ، وطرقت من غير تأهُّب. وقد قال بعض الحكماء : فى تقلب الأحوال، تعرف جواهر الرجال. وقال الفضل بن سهل : من كانت ولايته فوق قدره ، تكبر لها ، ومن كانت ولايته دون قدره، تواضع لها . وقال بعض البلغاء : الناس فى الولاية رجلان : رجل يَجل العملُ بفضله ومروءته، ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته ؛ فمن جل عن عمله، ازداد به تواضعا و بشرا ، ومن جل بعمله لبس به تجبرا وتكبرا .

الفصل الثانى : فى حسن الخلق

رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى اختار لكم الإسلام دينا ، فأكرموه بحسن الخلق والسخاء ، فإنه لا يكمل إلا بهما » . وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوإ الدواء ؟ قالوا بلى . قال : الخلق الدنىّ ، واللسان البذىّ . قال بعض الحكماء : من ساء خلقه ضاق رزقه . وعلة هذا القول ظاهرة . وقال بعض البلغاء : الحَسَنُ الخُلُقِ مِنْ نفسه فى راحة ، والناس منه فى سلامة ، والسيئ الخلق الناس منه

فى بلاء، وهو من نفسه فى عناء . وقال بعض الحكماء : عاشر أهلك بأحسن أخلاقك ، فإن الثواء فيهم قليل . وقال بعض الشعراء :

إذا لم تتسعْ أخلاق قومٍ تضيق بهم فسيحاتُ البلادِ

إذا ما المرء لم يُخْلق لبيبا فليس اللبّ عن قِدَم الولادِ

فإذا حسُنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه ، وقلّ معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب . وقد رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسن الخلق وحسن الجوار يَعْمُران الديار ويزيدان فى الأعمار » . وقال بعض الحكماء : من سعة الأخلاق كنوز الأرزاق . وسبب ذلك ماذكرنا من كثرة الأصفياء المسعدين ، وقلة الأعداء المجحفين . ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أحبُّكم إلىّ أحسنكم أخلاقا ، الموطَّئُون أكنافا ، الذين يألفون ويُؤْلفون » . وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة ، لين الجانب، طلق الوجه ، قليل النفور ، طيب الكلمة ؛ وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأوصاف فقال : « أهل الجنة كل هَيْنٍ لَيْنَ ، سَهْلَ طَلْق » . ولما ذكرنا من هذه الأوصاف حدود مقدرة ، ومواضع مستحقة ، كما قال الشاعر :

أصفُو وأكدُر أحيانا لمختبرى وليس مستحسنا صفوٌ بلا كَدَر

وليس يريد بالكدر البَذَاء وشراسة الخلق ، فإن ذلك ذم لايستحسن : وعيب لايرتضى ، وإنما يريد الكف والانقباض فى موضع يلام فيه المساعد ، ويذم فيه الموافق ؛ فإذا كانت لمحاسن الأخلاق حدود مقدّرة ، ومواضع مستحقة ، فإن تجاوز بها الحدّ صارت مَلَقا ، وإن عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا ، والمَلَق ذل ، والنفاق لؤم ، وليس لمن وُسِم بهما ودّ مبرور ، ولا أثر مشكور . وقد رَوَى حكيم عن جابر بن عبد الله، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شر الناس ذو الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . وروى مكحول عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاينبغى لذى الوجهين أن يكون وجيها عند الله تعالى» . وقال سعيد بن عُروة: لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان ، على مافيهما من قبح المنظر ، وعجز المَخْبر ، أحبّ إلىّ من أن أكون ذاوجهين ، وذا لسانين ، وذا قولين مختلفين . وقال الشاعر :

خَلِّ النفاق لأهله ... وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن تُرَى ... إلا عدوًّا أو صديقا

وقال إبراهيم بن محمد :

وكم من صديق وده بلسانه ... خَئُونٌ بظهر الغيب لا يتذممُ
يضاحكنى عُجْبا إذا ما لقيته ... ويُقْذِعنى منه إذا غبت أسهمُ(١)
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا ... وفى غيبه إن غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوِطاء ، إلى الشراسة ، والبذاء لأسباب عارضة ، وأمور طارئة ، تجعل اللين خشونة ، والوطاء غلظة ، والطلاقة عبوسا .

فمن أسباب ذلك الولاية ، التى تحدث فى الأخلاق تغيرا ، وعلى الخلطاء تنكرا ، إما من لؤم طبع ، وإما من ضيق صدر . وقد قيل : من تاه فى ولايته ، ذل فى عزله . وقيل : ذل العزل ، يضحك من تيه الولاية .

ومنها العزل ، فقد يسوء منه الخلق ، ويضيق به الصدر ، إما لشدة أسف أو لقلة صبر .

حكى حميد الطويل : أن عمار بن ياسر عُزل عن ولاية ، فاشتد ذلك عليه ، وقال : إنى وجدتها حُلوة الرضاع ، مرة الفِطام .

ومنها الغنى ، فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطرا ، وتسوء طرائقه أشرا . وقد قيل : من نال استطال . وأنشد الرياشىّ :

غضبانُ يعلم أن المال ساق له ... مالم يسقه له دين ولا خلقُ
فمن يكن عن كرام الناس يسألنى ... فأكرم الناس من كانت له وَرِقُ

وقال بعض الشعراء :

لئن تكن الدنيا أنالتك ثروةً ... فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عُسْرِ
لقد كشف الإثراء منك خلائقا ... من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقرِ

وبحسب ما أفسده الغنى ، كذلك يصلحه الفقر .

وكتب قتيبة بن مسلم إلى الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه ، فكتب إليه أن

---

(١) يقذعنى : أى يصيبني . يقال : أقذعه وأقذع له إقذاعا : رماه بالفحش .

اقطع عنهم الأرزاق . ففعل ، فساءت حالهم ، فاجتمعوا إليه فقالوا : أَقِلنا ، فكتب إلى الحجاج فيهم ، فكتب إليه : إن كنت آنست منهم رشدا ، فأجر عليهم ما كُنت تجرى .

واعلم أن الفقر جند الله الأكبر ، يذل به كل جبار عنيد يتكبر . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لولا أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ماطأطأ رأسه لشىء : الفقر والمرض والموت » .

ومنها الفقر ، فقد يتغير به الخلق ، إما أنفة من ذل الاستكانة ، أوأسفا على فائت الغنى . ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « كاد الفقر أن يكون كفرا ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » . وقال أبوتمام الطائىّ :

وأَعجب حالات ابن آدم خُلْقه   يَضلُّ إذافكرت فى كنهه الفكرُ
فيفرح بالشىء القليل بقاؤه   ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالأمانى ، وإن قلّ صدقها ، فقد قيل : قلما تصدق الأمنية ، ولكن قد يعتاض بها سلوة من همّ ، أومسرة برجاء . وقد قال أبو العتاهية :

حرّك مناك إذا اغتممت فإنهن مراوحُ

وقال آخر :

إذا تمنيتُ بتّ الليل مغتبطا   إن المُنَى رأس أموال المفاليسِ

ومنها الهموم التى تَذْهل اللب ، وتشغل القلب ، فلا تتبع الاحتمال ، ولا تقوى على صبر . وقد قيل : الهم كالسمّ . وقال بعض الأدباء : الحزن كالداء المخزون، فى فؤاد المحزون . وقال بعض الشعراء :

همومُك بالعيش مقرونةٌ   فما تقطع العيش إلا بهمّْ
إذا تم أمر بدا نقصه   ترقب زوالا إذا قيل تمّْ
إذا كنت فى نعمة فارعها   فإن المعاصى تزيل النعمْ
وحام عليها بشكر الإله   فإن الإله سريع النقمْ
حلاوة دنياك مسمومة   فما تأكل الشهد إلا بسمْ
فكم قدَر دبّ فى مهلة   فلم يعلم الناس حتى هَجَمْ

ومنها الأمراض، التى يتغير بها الطبع ، كما يتغير بها الجسم ، فلاتبقى الأخلاق على اعتدال ، ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبى :

آلة العيش صحةٌ وشبابٌ ... فإذا وليا عن المرء ولَّى
وإذا الشيخُ قالَ أُفٍ فما مَلَّ حَيَاةً ولَـكِنِ الضَّعْفَ مَلَّا
وإذا لم تجد من الناس كُفْئًا ... ذاتُ خِدْرٍ أرادتِ الموتَ بَعْلا
أبدا تستردُّ ما تهبُ الدنـ ... ـيا فياليت جودَها كان بخلا

ومنها علو السن، وحدوث الهرَم لتأثيره فى آلة الجسد، كذلك يكون تأثيره فى أخلاق النفس ، فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال ؛ فكذلك تعجز النفس عن احتمال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوِفاق، ومضيق الشقاق، وكذلك ماضاهاه . وقال منصور النَّمَرِىّ:

ما كنتُ أوفى شبابى كُنهَ عزتهِ ... حتّى مضَى فإذا الدنيا له تبعُ
أصبحتِ لم تَطْعَمِى ثُكلَ الشباب ولم ... تَشْجَىْ لغصته فالعذر لا يقعُ
ما كان أقصر أيامَ الشباب وما ... أبقى حلاوة ذكراه التى تدعُ
ماواجه الشيبَ من عين و إن رمقتْ ... إلا لها نبوةٌ عنه ومرتدعُ
قد كدتَ تقضى على فوت الشباب أسًى ... لولا يعزيك أن العمر منقطعُ

فهذه سبعة أسباب ، أحدثت سوء خلق كان عاما . وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص ، وهو البغض الذى تنفر منه النفس، فتحدث نفورا عن المبغض ، فيئول إلى سوء خلق يخصه دون غيره، فإذا كان سوء الخلق حادثا بسبب، كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب، ثم بالضدّ.

الفصل الثالث : فى الحياء

اعلم أن الخير والشر معانٍ كامنة تعرف بسمات دالة ، كما قالت العرب فى أمثالها : تخبر عن مجهوله مرآته . وكما قال سلم بن عمرو الشاعر :

لاتسأل المرءَ عن خلائقه ... فى وجهه شاهدٌ من الخبَرِ

فسمة الخير: الدَّعة والحياء ، وسمة الشر: القحة والبَذَاء، وكفى بالحياء خيرا أن يكون على الخير دليلا ، وكفى بالقحة والبذاء شرا ، أن يكونا إلى الشر سبيلا. وقد روَى حسان بن عطية ، عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحياء والعىُّ شعبتان من الإيمان ،

والبذاء والبيان شُعبتان من النفاق » ، ويشبه أن يكون العيّ في معنى الصمت ، والبيان في معنى التشدّق ، كما جاء في الحديث الآخر : « إن أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون » . وَرَوى أبوسَلَمة عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار » . وقال بعض الحكماء : من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء : حياة الوجه بحيائه ، كما أن حياة الغرس بمائه . وقال بعض البلغاء العلماء : ياعجبا ! كيف لاتستحى من كثرة مالا تستحى ، وتتقى من طول مالا تتقى ؟ ! وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا قلّ ماء الوجه قلّ حياؤُه ... ولاخير في وجه إذا قلّ ماؤهُ

حياءك فاحفظه عليك وإنما ... يدل على فعل الكريم حياؤُهُ

وليس لمن سُلِب الحياء صادّ عن قبيح ، ولا زاجر عن محظور ، فهو يُقدم على مايشاء ، ويأتي مايهوَى ، وبذلك جاء الخبر ، رَوَى شُعْبة عن منصور بن رِبْعِيّ عن أبي منصور البدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى : يابن آدم إذا لم تستحْيِ فاصنع ماشئت » . وليس هذا القول إغراء بفعل المعاصى عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ، ومواضعات الخطاب . وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر :

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحْيِ فاصنع ماتشاء

فلا والله مافي العيش خيرٌ ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللِّحاء

واختلف أهل العلم في معنى هذا الخبر . فقال أبو بكر بن محمد الشاشيّ[1] في أصول الفقه : معنى هذا الحديث أن من لم يستحْيِ دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء ، لايردعه عنه رادع ، فليستحى المرء فإن الحياء يردعه . وسمعت من يحكى عن أبي بكر الرازى من أصحاب أبي حنيفة أن المعنى فيه إذا عرضت عليك أفعالك التي هممت ، بفعلها فلم تستحى منها لحسنها وجمالها فاصنع ماشئت منها ، فجعل الحياء حكما على أفعاله ، وكلا القولين حسن ؛ والأول أشبه لأن الكلام خرج من النبيّ صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لامخرج المدح . لكن قد جاء الحديث بما يضاهى

(١) هو أبو بكر القفال الشاشى ، من كبار الفقهاء والمحدثين ، نسب إلى الشاش ، بلد فيما وراء النهر ، وعنى بمذهب الشافعى ، فنشره هناك . توفى سنة ٣٦٦ هـ

القول الثانى. وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ماأحببت أن تسمعَه أذناك فأته ، وما كرهت أن تسمعَه أذناك فاجتنبه » . ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ، ويكون التأويل الأول فى الحديث المتقدم أصح ، إذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعانى ، بل اختلاف معانيها أدخل فى الحكمة ، وأبلغ فى الفصاحة إذا لم يضادّ بعضها بعضا .

[أنواع الحياء] : واعلم أن الحياء فى الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه . أحدها : حياؤه من الله تعالى . والثانى : حياؤه من الناس . والثالث : حياؤه من نفسه .

فأما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره ، والكف عن زواجره . وَرَوى ابن مسعود أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « استحيُوا من الله عز وجل حق الحياء ، فقيل يارسول الله ، فكيف نستحيي من الله عز وجل حق الحياء ؟ قال : من حفظ الرأس وما حوَى ، والبطن وما وَعَى ، وترك زينة الحياة الدنيا ، وذكر الموت والبِلَى ، فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء » . وهذا الحديث من أبلغ الوصايا .

وقال أبو الحسن الماوردىّ مصنف الكتاب: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ذات ليلة ، فقلت يارسول الله، أوصنى . فقال : استحْيِ من الله عز وجل حق الحياء ، ثم قال : تغير الناس. قلت : وكيف ذلك يارسول الله؟ قال : كنت أنظر إلى الصبىّ، فأرى من وجهه البشر والحياء ، وأنا أنظر إليه اليوم ، فلا أرى ذلك فى وجهه .

ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصوّرتها ، وأذهلنى السرور عن حفظها ، ووددت لو أنى حفظتها . فلم يبدأ بشىء صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل ، وجعل ماسُلِبه الصبىّ من البشر والحياء سببا لتغير الناس ، وخص الصبى، لأن مايأتيه بالطبع، من غير تكلف ، فصلى الله وسلم على من هدى أمته ، وتابع إنذارها ، وقطع أعذارها ، وواصل تأديبها ، وحفظ تهذيبها ، وجعل لكل عصر حظا من زواجره ، ونصيبا من أوامره . أعاننا الله على قبولها بالعمل ، وعلى استدامتها بالتوفيق .

وقد رُوِى أن علقمة بن عُلاثة قال: يارسول الله عظنى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استحْيِ من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك » ، وهذا الحياء يكون من قوة

الدين ، وصحة اليقين . ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « قلة الحياء كفر » : يعنى من الله، لما فيه من مخالفة أوامره . وقال صلى الله عليه وسلم : « الحياء نظام الإيمان ، فإذا انحلّ نظام الشيء ، تبدّد مافيه وتفرّق » .

وأما حياؤه من الناس ، فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح ، وقد رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مِنْ تقوى الله اتقاء الناس » . ورُوِى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا، فتنكب الطريق عن الناس، وقال: لاخير فيمن لايستحيي من الناس . وقال بشار بن بُرْد :

ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء حياءً وحبه فى السوادِ
أُمْسك النفس بالعفاف وأُمْسِى ذاكرا فى غد حديث الأعادى

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من ألقى جلباب الحياء فلا غِيبة له » يعنى والله أعلم : لقلة مروءته ، وظهور شهوته . وروى الحسن عن أبى هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إن مروءة الرجل مَمْشاه، ومَدْخله، ومَخْرجه ، ومَجْلِسه ، و إلفه ، وجليسه » . وقال بعض الشعراء :

وربَّ قبيحة ماحال بينى و بين ركوبها إلّا الحياء
إذا رُزق الفتى وجهاوَقاحا تقلبَ فى الأمور كما يشاء

وقال آخر :

إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحيِ مخلوقا ، فما شئت فاصنع

وأما حياؤه من نفسه ، فيكون بالعفة وصيانة الخلوات . وقال بعض الحكماء : ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك . وقال بعض الأدباء : من عمل فى السرّ عملا يستحيي منه فى العلانية ، فليس لنفسه عنده قدر . ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم ، فلم يجبهم وقال : إنى دخلت البارحة فى الأربعين ، وأنا أستحيي من سنِّى . وقال بعض الشعراء :

فسرّى كإعلانى وتلك خليقتى وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس، وحسن السريرة، فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة، فقد كَمَلت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشر، وصار بالفضل مشهورا، وبالجميل مذكورا. وقال بعض الشعراء:

وإنى لَيثنينى عن الجهل والخنَا ... وعن شتم ذى القربَى خلائق أربعُ

حياء وإسلام وتقوى وإننى ... كريم، ومثلى من يضرّ وينفعُ

وإن أخلّ بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص بإخلاله، بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله. وقد قال الرِّياشى: يقال إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر:

وحاجة دون أخرى قد سنَحْتَ لها ... جعلتها للتى أخفيتَ عنوانا

وإننى لأَرَى من لاحياء له ... ولا أمانة وَسْط القوم عريانا

الفصل الرابع: فى الحلم والغضب

[مدح الحلم]: رَوَى محمد بن حارث الهلالىّ، أن جبريل نزل على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، إنى أتيتك بمكارم الأخلاق فى الدنيا والآخرة: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين».

وَرَوَى سفيان بن عيينة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية قال: «ياجبريل، ماهذا؟ قال: لا أدرى حتى أسأل العالم، ثم عاد جبريل وقال: يا محمد إن ربك يأمرك أن تصلَ من قطعك، وتعطىَ من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». ورَوَى هِشام عن الحسن: أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: «أيعجِز أحدكم أن يكون كأبى ضَمْضَم؟ كان إذا خرج من منزله قال: اللهم إنى تصدقت بعرضى على عبادك». وَرُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله يحب الحليم الحيّى، ويبغض الفاحش البذىّ». وقال عليه الصلاة والسلامَ: «من حلُم ساد، ومن تفهم ازداد». وقال بعض الأدباء: من غرس شجرة الحلم. اجتنى ثمرة السلم. وقال بعض البلغاء: ماذبّ عن الأعراض، كالصفح والإعراض. وقال بعض الشعراء:

أحبُّ مكارم الأخلاق جُهْدِى ... وأكره أن أعيب وأن أُعابا

وأصفح عن سِباب الناس حلما ... وشرّ الناس من يهوَى السِّبابا

ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حَقَر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق، وأحقها بذوى الألباب، لما فيه من سلامة العِرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد. وقد قال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: أوّل عِوض الحليم عن حلمه، أن الناس أنصاره. وحدّ الحلم: ضبط النفس عند هيجان الغضب، وهذا يكون عن باعث وسبب. وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة:

[أسباب الحلم]: أحدها: الرحمة للجهال، وذلك من خير يوافق رقة. وقد قيل فى منثور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه لرجل أسمعه كلاما: ياهذا، لا تُغْرِقَن فى سبنا، ودع للصلح موضعا، فإنا لا نكافئ من عَصَى الله فينا، بأكثر من أن نطيع الله عزوجل فيه. وشتم رجل الشعبىّ فقال: إن كنت كما قلتَ فغفر الله لى، و إن لم أكن كما قلتَ فغفر الله لك. واغتاظت عائشة رضى الله عنها على خادم لها، ثم رجعت إلى نفسها، فقالت: لله درّ التقوى، ما تركت لذى غيظ شفاء. وقسم معاوية رضى الله عنه قُطُفا، فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه؛ فحلف أن يضرب بها رأس معاوية، فأتاه فأخبره، فقال له معاوية: أَوْف بنذرك، وليرفُقِ الشيخ بالشيخ.

والثانى من أسبابه: القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر، وحسن الثقة. وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا قدرت على عدوّك، فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه». وقال بعض الحكماء: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة. وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم عفو المقتدر، وجود المفتقر.

والثالث من أسبابه: الترفع عن السِّباب، وذلك من شرف النفس، وعلو الهمة، كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره، كما تحمل المكارم. وقد قيل: إن الله تعالى سَمَّى يحيى عليه السلام سيدا، لحلمه. وقد قال الشاعر:

لا يبلغ المجدَ أقوام وإن كرُموا حتى يَذِلوا وإن ـ عزوا ـ لأقوام
ويُشْتَموا فترى الألوان مُسْفِرة لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

والرابع: من أسبابه الاستهانة بالمسىء، وذلك عن ضرب من الكبر والإعجاب،

كما حكى عن مُصْعَب بن الزبير ، أنه لما وَلِيَ العراق ، جلس يوما لعطاء الجند ، وأمر مناديَه فنادى: أين عمرو بن جُرْموز ؟ وهو الذى قتل أباه الزبير ، فقيل له : أيها الأمير ، إنه قد تباعد فى الأرض ، فقال : أوَ يظن الجاهل أنى أُقِيده بأبى عبد الله، فليظهر آمنا، ليأخذ عطاءه موفَّرا . فعدَّ الناس ذلك من مستحسن الكبر . ومثل ذلك قول بعض الزعماء فى شعره :

أوَ كلما طَنَّ الذبابُ طردته   إن الذباب إذَنْ عَلَيَّ كريم

وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه فقال : والله ما منعه من جوابى إلا هوانى عليه ، وفى مثله يقول الشاعر :

نجا بك لؤمك منجى الذباب   حمته مقاذيره أن ينالا

وأسمع رجل ابن هبيرة، فأعرض عنه ، فقال له الرجل: إياك أعنى، فقال له: وعنك أُعرِض. وفى مثله يقول الشاعر :

فاذهبْ فأنت طليق عِرْضك إنه   عرض عَزَزْتَ به وأنت ذليلُ

وقال عمرو بن على :

إذا نطق السفيه فلا تجبهُ   فخير من إجابته السكوتُ
سكَتُّ عن السفيه فظن أنى   عَيِيت عن الجواب وما عييت

والخامس من أسبابه : الاستحياء من جزاء الجواب . وهذا يكون من صيانة النفس ، وكمال المروءة . وقد قال بعض الحكماء : احتمال السفيه خير من التحلى بصورته ، والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته . وقال بعض الأدباء : ما أفحش حليم ، ولا أوحش كريم . وقال لُقيط بن زُرارة :

وقل لبنى سعد فمالى ومالكم   تُرقُّون منى ما استطعت وأُعْتق
أغرَّكمو أنِّى بأحسن شيمة   بصير وأنى بالفواحش أخرقُ
وإن تك قد سابيتنى فقهرتنى   هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه : التفضل على السَّبَّاب، فهذا يكون من الكرم، وحب التألف، كما قيل للإسكندر : إن فلانا وفلانا ينقصانك ويَثْلبانك . فلو عاقبتهما ، فقال : هما بعد العقوبة

أعذرُ فى تنقصى وثلبى ، فكان هذا تفضلا منه وتألفا . وقد حُكِى عن الأحنف بن قيس أنه قال : ماعادانى أحدٌ قطُّ ، إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال : إن كان أعلى منى عرفت له قدره ، و إن كان دونى رفعت قدرى عنه ، و إن كان نظيرى تفضلت عليه ، فأخذه الخليل، فنظمه شعرا ، فقال :

سألزمُ نفسى الصفح عن كل مذنبٍ ... و إن كثُرت منــه إلىَّ الجرائمُ

فما الناس إلا واحـد من ثلاثة ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مُقاوِمُ

فأما الذى فوقى فأعرفُ قدرهُ ... وأَتْبَعُ فيه الحقَّ والحق لازمُ

وأما الذى دونى فأحـلُم دائبا ... أصونُ به عرضى وإن لام لائمُ

وأما الذى مثلى فإن زل أوهفا ... تفضلت ، إن الفضل بالفخر حاكمُ

والسابع من أسبابه : استكفاف السابّ ، وقطع السِّباب ، وهـذا يكون من الحزم ، كما حُكِى أن رجلا قال لضرار بن القعقاع : والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا ، فقال له ضرار : والله لو قلت عشراً لم تسمع واحدة .

وحكى أن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال لعامر بن مُرة الزُّهرىّ : من أحمق الناس ؟ قال : من ظن أنه أعقل الناس ، قال : صدقت ، فمن أعقل الناس ؟ قال : من لم يتجاوز الصمتَ فى عقوبة الجهال . وقال الشعبىّ : ما أدركت أمى فأبرها ، ولـكن لا أسب أحدا فيسبَّها . وقال بعض الحـكماء : فى إعراضك صون أعراضك . وقال بعض الشعراء :

وفى الحلم رَدْع للسفيه عن الأذى ... وفى الخُرْق إغراء فلا تك أخْرَقا

فتندمَ إذ لا تنفْعك ندامة ... كما ندم المغبون لما تفرّقا

وقال آخر :

قل ما بدا لك من زُور ومن كذب ... حلمى أصمّ وأذنى غـيرُ صماءِ

والثامن من أسبابه : الخوف من العقوبة على الجواب . وهذا يكون من ضعف النفس ، وربما أوجبه الرأى ، واقتضاه الحزم ، وقد قيل فى منثور الحـكم : الحلم حجاب الآفات . وقال الشاعر :

ارفُقْ إذا خفت من ذى هفوة خُرُقا ليس الحليم كمن فى أمره خُرُق

والتاسع من أسبابه : الرعاية ليد سالفة ، وحرمة لازمة ، وهذا يكون من الوفاء ، وحسن العهد . وقد قيل فى منثور الحكم : أكرم الشيم أرعاها للذمم . وقال الشاعر :

إن الوفاء على الكريم فريضة واللؤم مقرون بذى الإخلافِ

وترى الكريم لمن يعاشر منصفا وترى اللئيم مجانبَ الإنصافِ

والعاشر من أسبابه : المكر ، وتوقع الفرص الخفية ، وهذا يكون من الدهاء . وقد قيل فى منثور الحكم : من ظهر غضبه قلّ كيده . وقال بعض الأدباء : غضب الجاهل فى قوله ، وغضب العاقل فى فعله . وقال بعض الحكماء : إذا سكتّ عن الجاهل فقد أوسعته جوابا ، وأوجعته عقابا . وقال إياس بن قتادة :

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلمِ

وقال بعض الشعراء :

ولَلْكَفُّ عن شتم اللئيم تكرما أضرّ له من شتمه حين يشتم

[بعض الغضب المحمود] : فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم ، وبعض الأسباب أفضل من بعض ، وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولا به ، ما يقتضى أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة ، وإنما الأَوْلى بالإنسان أن يدعوه للحلم أفضل أسبابه ، وإن كان الحلم كله فضلا . وإن عرا عن أحد هذه الأسباب كان ذلا ، ولم يكن حلما ، لأننا قد ذكرنا فى حد الحلم أنه ضبط النفس عند هيجان الغضب ، فإذا فقد الغضب لسماع ما يغضب ، كان ذلك من ذل النفس ، وقلة الحميّة . وقد قالت الحكماء : ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن ، لا يعرف الجواد إلا فى العُسْرة ، والشجاع إلا فى الحرب ، والحليم إلا فى الغضب . وقال الشاعر :

ليست الأحلام فى حال الرضا إنما الأحلام فى حال الغضبْ

وقال آخر :

مَنْ يدّعى الحلم أغضبْه لتعرفه لا يُعرفُ الحلُم إلا ساعة الغضب

وأنشد النابغة الجعدىّ بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ولا خيرَ فى حلم إذا لم يكن له بوادرُ تحمِى صفوَه أن يُكدّرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا

فلم يُنكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ؛ ومن فقد الغضب فى الأشياء المغضبة، حتى استوى حالتاه قبل الإغضاب و بعده ، فقد عَدِم من فضائل النفس الشجاعة والأنفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ بالثأر ، لأنها خصال مركبة من الغضب ، فإذا عدمها الإنسان هان بها ، ولم يكن لباقى فضائله فى النفوس موضع ، ولا لوفور حلمه فى القلوب موقع . وقد قال المنصور : إذا كان الحلم مَفْسدة كان العفو مَعْجزة . وقال بعض الحكماء : العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم . وقال عمرو بن العاص : أكرموا سفهاءكم فإنهم يقونكم العار والشّنار . وقال مصعب بن الزبير : ماقلّ سفهاء قوم إلا ذلوا . وقال أبو تمام الطائىّ :

والحرب تركب رأسَها فى مشهد عدلُ السفيه به بألف حليم

وليس هذا القول إغراء بتحكم الغضب ، والانقياد إليه عند حدوث مايغضب ، فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل، أكثر مما يكسبه عدم الغضب من الفضائل، ولكن إذا ثار به الغضب عند هجوم مايغضبه ، كف سَوْرته بحزمه ، وأطفأ ثائرته بحلمه ، ووكَلَ من استحق المقابلة إلى غيره ، ولا يعدم مسىء مكافئا ، كما لن يعدم محسن مجازيا . والعرب تقول دخل بيتا ماخرج منه : أى إن خرج منه خير دخله خير ، و إن خرج منه شر دخله شر .

وأنشد ابن دُريد عن أبى حاتم :

إذا أمِنَ الجهالُ جهلَك مرةً فعرضك للجهال غُنْمٌ من الغُنْمِ
فعُمَّ عليه الحلم والجهل والْقَهُ بمنزلة بين العداوة والسِّلمِ
إذا أنت جاريت السفيه كما جرى فأنت سفيه مثلُه غيرُ ذى حلم
ولا تَعْضِبَنْ عِرْضَ السفيه وداره بحلم فإن أعيا عليك فبالصُّرُم(١)
فيرجوك تاراتٍ ويخشاك تارةً ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فإن لم تجد بدّا من الجهل فاستعنْ عليه بجُهّال فذاك من العزمِ

---

(١) عضبه : طعنه بالرمح .

وهذه من أحكم أبيات وجدتها فى تدبير الحلم والغضب . وهذا التدبير إنما يستعمل فيما لايجد الإنسان بدّاً من مقارنته ، ولا سبيل إلى أُطراحه ومتاركته ؛ إما لخوف شره ، أو للزوم أمره ؛ فأما من أمكن اطراحه ، ولم يضرّ إبعاده ، فالهوان به أولى ، والإعراض عنه أصوب ؛ فإذا كان على ماوصفت ، استفاد بتحريك الغضب فضائله ، وأمن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله ، وصار الحلم مدبرا للأُمور المغضبة ، بقدر لايعتريه نقص بعدم الغضب، ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ، ولو عَزَب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ، ضل عنه وجه الصواب فيه ، وضعف رأيه عن خبرة أسبابه ودواعيه ، حتى يصير بليد الرأى ، مغمور الروية ، مقطوع الحجة ، مسلوب العزاء ، قليل الحيلة ، مع مايناله من أثر ذلك فى نفسه وجسده ، حتى يصير أضرّ عليه مما غضب له . وقد قال بعض الحكماء : من كثر شَطَطه كثر غلطه .

وَرُوِى أن سلمان قال لعلىّ رضى الله عنه : ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل؟ قال : ألّا تغضب . وقال بعض السلف : أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل إذا غضب . وقال بعض البلغاء : من ردّ غضبه ، هدّ من أغضبه . وقال بعض الأدباء : ماهيج جاشك كغيظ أجاشك . وقال رجل لبعض الحكماء : عظنى ، قال : لاتغضب .

فينبغى لذى اللب السوىّ ، والحزم القوىّ ، أن يتلقّى قوّة الغضب بحلمه فيصدها ، ويقابل عوادىَ شِرّته بحزمه فيردها، ليحظى بانجلاء الحَيْرة ، ويسعد بحميد العاقبة . وقال بعض الأدباء : فى إغضائك راحة أعضائك . وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها ، وسبب الحزن هجوم ماتكرهه النفس ممن فوقها ، والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه ، والحزن يتحرك من خارج الجسد إلى داخله ، فلذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب ، لبروز الغضب ، وكمون الحزن ، وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه ؛ والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكمونه ، ولذلك أفضى الحزن إلى الموت ، ولم يفض إليه الغضب ، فهذا فرق مابين الحزن والغضب .

[تسكين الغضب] : واعلم أن لتسكين الغضب إذا هجم أسبابا، يستعان بها على الحلم ؛ منها: أن يذكر الله عز وجل، فيدعوَه ذلك إلى الخوف منه ، ويبعثه الخوف منه على الطاعة له ، فيرجع إلى أدبه ويأخذ بندبه ، فعند ذلك يزول الغضب . قال الله تعالى : « واذكر ربك إذا نسيت » .

قال عِكْرمة : يعنى إذا غضبت . وقال الله تعالى : « وإما ينزغنَّكَ من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله » . ومعنى قوله يَنْزِغَنَّكَ : أى يغضبنك ، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم : يعنى أنه سميع بجهل من جهل ، عليم بما يذهب عنك الغضب .

وذكر أن فى التوراة مكتوبا : يابن آدم اذكرني حين تغضب ، أذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمْحَق . وحُكِىَ أن بعض ملوك الفرس كتب كتابا ، ودفعه إلى وزير له ، وقال : إذا غضبت فناولنيه ، وكان فيه : مالك والغضبَ ، إنما أنت بشر ، ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء . وقال بعض الحكماء : من ذكر قدرة الله ، لم يستعمل قدرته فى ظلم عباد الله . وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد : يا أمير المؤمنين ، أسألك بالذى أنت بين يديه أذل منى بين يديك ، و بالذى هو أقدر على عقابك منك على عقابى لَمَا عفوت عنى ، فعفا عنه لَمَّا ذكره قدرة الله تعالى .

ورُوِى أن رَجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة ، فقال : اطلُع فى القبور ، واعتبر بالنشور . وكان بعض ملوك الطوائف إذا غضب ، أُلْقِى عنده مفاتيح تُرب الملوك ، فيزول غضبه . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : من أكثر من ذكر الموت ، رضى من الدنيا باليسير . ومنها ، أن ينتقل عن الحالة التى هو فيها : إلى حالة غيرها ، فيزول عنه الغضب بتغير الأحوال ، والتنقل من حال إلى حال ، وكان هذا مذهب المأمون إذا غضب أوشتم ، وكانت الفرس تقول : إذا غضب القائم فليجلس ، و إذا غضب الجالس فليقم .

ومنها : أن يتذكر مايئول إليه الغضب من الندم ، ومَذَمة الانتقام .

وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه : إن كلمة منك تسفك دما ، وأخرى منك تَحقِن دما ، وإن نفاذ أمرك مع كلامك ، فاحترس فى غضبك من قولك أن تخطئ ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يخفّ ، فإن الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلما . وقال بعض الحكماء : الغضب على من لاتملك عجز ، وعلى من تملك لؤم . وقال بعض الأدباء : إياك وعزّة الغضب ، فإنها تفضْى إلى ذل العذر . وقال بعض الشعراء :

و إذا مااُعترتك فى الغضب العزّ ةُ فاذكر تذلل الإعتذار

ومنها : أن يذكر ثواب العفو ، وحسن الصفح ، فيقهر نفسه على الغضب ، رغبة فى الجزاء والثواب ، وحذرا من استحقاق الذم والعقاب . رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينادى مناد يوم القيامة : مَنْ له أجر على الله عز وجل فليقم ، فيقوم العافون عن الناس ، ثم تلا : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » . وقال رجاء بن حَيْوة لعبد الملك بن مروان فى أسارى ابن الأشعث : إن الله قد أعطاك ماتحب من الظفر ، فأعط الله مايحب من العفو . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الخير ثلاث خصال ، فمن كن فيه فقد استكمل الإيمان ، من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق ، وإذا قدر عفا » .

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما ، فقال عمر : أردت أن يستفزنى الشيطان ، لعزّة السلطان ، فأنال منك اليوم ماتناله منى غدا ، انصرف رحمك الله .

ومنها : أن يذكر انعطاف القلوب عليه ، وميل النفوس إليه ، فلا يرى إضاعة ذلك بتنفير الناس عنه ، وبعدهم منه ، فيكفّ عن متابعة الغضب ، فيرغب فى التألف وجميل الثناء .

ورَوَى ابن أبى ليلى ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مازداد أحد بعفو إلا عزا ، فاعفوا يُعزّكم الله » وقال بعض البلغاء : ليس من عادة الكرام ، سرعة الانتقام ، ولامن شروط الكرم ، إزالة النعم .

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدىّ : إنى شاورت فى أمرك ، فأشاروا علىّ بقتلك ، إلا أنى وجدت قدرك فوق ذنبك ، فكرهت القتل للازم حُرْمتك . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن المشير أشار بما جرت به العادة فى السياسة ، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث ماعُوِّدْتَه من العفو ، فإن عاقبت فلك نظير ، وإن عفوت فلا نظير لك . وأنشأ يقول :

البِرّ بى منك وطّا العذرَ عندك لى ... فيما فعلتُ فلم تعــذُل ولم تلُمِ
وقام علمك بى فاحتجّ عندك لى ... مقام شاهد عدل غير متهمِ
لئن جحدتك معروفا مننتَ به ... إنى لفى اللؤم أحظَى منك بالكرمِ
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به ... فلا عدمتكَ من عاف ومنتقم

الفصل الخامس: فى الصدق والكذب

[ذم الكذب] : قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: «ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين».
وقال تعالى: « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ». وَرُوِى عن النَّبىّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال للحسن بن علىّ رضى الله عنهما : «دع ما يريبك إلى مالا يريبك، فإن الكذب ريبة ، والصدق طمأنينة » . ورُوِى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله أمرأ أصلح من لسانه ، وأقصر من عنانه ، وألزم طريق الحق مِقْوله ، ولم يعوّد الخطل مِفْصله » . ورَوَى صفوان بن سليم قال : قيل للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جبانا ؟ قال: نعم، قيل : أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم ، قيل : أفيكون كذابا ؟ قال : لا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « ولا تلبِسُوا الحق بالباطل » : أى لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقيل فى منثور الحكم : الكذّاب لص ، لأن اللص يسرق مالك ، والكذاب يسرق عقلك . وقال بعض الحكماء : الخرَس خير من الكذب ، وصدق اللسان أول السعادة . وقال بعض البلغاء : الصادق مصون جليل ، والكاذب مُهان ذليل . وقال بعض الأدباء : لا سيف كالحقّ ، ولا عون كالصدق . وقال بعض الشعراء :

وماشىءٍ إذا فكرت فيهِ ... بأذهب للمروءة والجمالِ
من الكذب الذى لا خير فيه ... وأبعد بالبهاء من الرجالِ

والكذب جِمَاع كل شرّ ، وأصل كل ذم لسوء عواقبه ، وخبث نتائجه ، لأنه ينتج النميمة ، والنميمة تنتج البغضاء ، والبغضاء تئول إلى العداوة ، وليس مع العداوة أمن ولا راحة ، ولذلك قيل : من قلّ صدقه قلّ صديقه ، والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضية ، كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة ؛ فالصدق هو الإخبار عن الشىء على ماهو عليه ، والكذب هو الإخبار عن الشىء بخلاف ماهو عليه ، ولكل واحد منهما دواعٍ ؛ فدواعى الصدق لازمة، ودواعى الكذب عارضة ، لأن الصدق يدعو إليه عقل موجِب، وشرع مؤكِّد فالكذب يمنع منه العقل، ويصد عنه الشرع ؛ ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة، حتى تصير متواترة ، ولم يجز أن تستفيض الأخبار الكاذبة ، لأن اتفاق الناس فى الصدق والكذب

إنما هو لاتفاق الدواعى، فدواعى الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها، حتى إذا نقلوا خبرا، وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطأة، وقع فى النفس صدقه، لأن الدواعى إليه نافعة، واتفاق الناس فى الدواعى النافعة ممكن، ولايجوز أن يتفق العدد الكثير الذى لايمكن مواطأة مثلهم، على نقل خبر يكون كذبا، لأن الدواعىَ إليه غير نافعة، وربما كانت ضارّة؛ وليس فى جارى العادة، أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة، ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق، لجواز اتفاق دواعيهم، ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم، وإذا كان للصدق والكذب دواع، فلابد من ذكر ماسنح به الخاطر من دواعيهما.

[دواعى الصدق]: أما دواعى الصدق: فمنها العقل، لأنه موجب لقبح الكذب، لاسيما إذا لم يجلب نفعا، ولم يدفع ضررا؛ والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسنا، ويمنع من إتيان ما كان مستقبحا، وليس ما استحسن من مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحا، استحسانا للكذب فى العقل، كالذى أنشدنيه الأزدى لبعض الشعراء:

توهمه فكرى فأصبحَ خدُّه ... وفيه مكان الوهم من فكرتى أثْرُ

وصافحه كفى فآلم كفَّه ... فمن لَمْسِ كفى فى أنامله عَقْرُ

ومرّ بقلبى خاطرا فجرحته ... ولم أر شيئا قط يجرحه الفكرُ

وكقول العباس بن الأحنف، وإن كان بدون هذه المبالغة:

تقول وقد كتبت دقيق خطى ... إليها لِمْ تجنّبْتَ الجليلَا[1]

فقلت لها نَحُلْتُ فصار خطي ... مساعدة لكاتبه نحيلا

لأنه خرج مخرج المبالغة فى التشبيه: والاقتدار على صنعة الشعر، وإن شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب، فلذلك استحسن فى الصنعة، ولم يستقبح فى العقل، وإن كان الكذب مستقبحا فيه.

ومنها: الدِّين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب، لأن الشرع لايجوز أن يَرِد بإرخاص ماحظره العقل، بل جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب، لأن الشرع

---

(١) الدقيق والجليل فى البيت: اصطلاحان من اصطلاحات كتاب الدواوين فالقلم الدقيق: الذى يكتب به الخط الدقيق، والقلم الجليل: مايكتب به الخط الواسع الجهير.

ورد بحظر الكذب ، وإن جرّ نفعا ، أو دفع ضررا ؛ والعقل إنما حظر ما لايجلب نفعا ، ولا يدفع ضررا .

ومنها : المروءة ، فإنها مانعة من الكذب ، باعثة على الصدق ، لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها ، فأولى من فعل ما كان مستقبحا .

ومنها : حب الاشتهار بالصدق ، حتى لا يُرَدَّ عليه قول ، ولا يلحقه ندم . وقد قال بعض البلغاء : ليكن مرجعك إلى الحق ، ومنزَعُك إلى الصدق ؛ فالحق أقوى معين ، والصدق أفضل قرين . وقال بعض الشعراء :

عوّد لسانك قول الصدق تحظَ به ... إن اللسان لما عوّدتَ معتادُ
موكَّل بتقاضى ماسننْتَ له ... فى الخير والشرّ فانظر كيف ترتادُ

وأما دواعى الكذب : فمنها اجتلاب النفع ، واستدفاع الضرّ ؛ فيرى أن الكذب أسلم وأغنم ، فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخُدَع ، واستشفافا للطَّمَع ، وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل ، وأقرب لما يخاف ، لأن القبيح لا يكون حسنا ، والشرّ لايصير خيرا ، وليس يجنى من الشوك العنب ، ولامن الكرم الحنظل .

وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تحرَّوُا الصدق ، وإن رأيتم أن فيه الهَلَكة ، فإن فيه النجاة ، وتجنبوا الكذب ، وإن رأيتم أن فيه النجاة ، فإن فيه الهَلَكة » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لأن يضعنى الصدق — وقلما يضع — أحب إلىّ من أن يرفعنى الكذب ، وقلما يفعل . وقال بعض الحكماء : الصدق منجيك وإن خفته ، والكذب مرديك وإن أمنته . وقال الجاحظ : الصدق والوفاء توءمان ، والصبر والحلم توءمان ، فيهنّ تمام كل دين ، وصلاح كل دنيا ، وأضدادها سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد .

ومنها : أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذبا ، وكلامه مستظرفا ، فلا يجد صدقا يعذب ، ولاحديثا يستظرف ، فيستحلىَ الكذب الذى ليست غرائبه معوزة ، ولاطرائفه معجزة .

وهذا النوع أسوأ حالا مما قبل ، لأنه يصدر عن مهانة النفس ، ودناءة الهمة . وقد قال

الجاحظ : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده . وقال ابن المقفع : لا تتهاون بإرسال الكَذْبة من الهزل ، فإنها تسرع إلى إبطال الحق .

ومنها: أن يقصد بالكذب التشفِّىَ من عدوّه ، فيسمه بقبائح يخترعها عليه، و يصفه بفضائح ينسبها إليه ، و يرى أن معرّة الكذب غنم ، وأن إرسالها فى العدوّ سهم وسَم" ، وهذا أسوأ حالا من النوعين الأوَّلين ، لأنه قد جمع بين الكذب المُعِرّ والشرّ المضرّ ، ولذلك ورد الشرع بردّ شهادة العدوّ على عدوّه .

ومنها : أن تكون دواعى الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها ، فصار الكذب له عادة ، ونفسه إليه منقادة ، حتى لو رام مجانبة الكذب عَسُر عليه ، لأن العادة طبع ثان : وقد قالت الحكماء : من استحلى رضاع الكذب عسر فِطامه . وقيل فى منثور الحكم : لا يلزم الكذابَ شىء إلا غلب عليه .

[أمارات الكذاب] : واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه .

فمنها: أنك إذا لقنته الحديث تلقنه ، ولم يكن بين مالقنته و بين ما أورده فرق عنده .

ومنها : أنك إذا شككته فيه تشكك ، حتى يكاد يرجع فيه ، ولولاك ما تخالجه الشك فيه .

ومنها : أنك إذا رددت عليه قوله حَصِر وارتبك ، ولم يكن عنده نصرة المحتجين ، ولا برهان الصادقين . ولذلك قال علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه : الكذاب كالسراب .

ومنها : مايظهر عليه من ريبة الكذابين ، و ينمّ عليه من ذلة المتوهمين ، لأن هذه أمور لا يمكن الإنسانَ دفعها عن نفسه لما فى الطبع من إثارتها . ولذلك قالت الحكماء : العينان أنمّ من اللسان . وقال بعض البلغاء : الوجوه مرايا ، تريك أسرار البرايا .

وقال بعض الشعراء :

تريك أعينُهم مافى صدورهِم إن العيون يؤدِّى سرَّها النظرُ

و إذا اتسم بالكذب نُسِبت إليه شوارد الكذب المجهولة، وأضيفت إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة ، حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه ، فيجمع بين معرّة الكذب منه ، ومضرّة الكذب عليه . وقد قال الشاعر :

حَسْبُ الكذوب من البليّة بعض ما يُحكى عليه
فإذا سمعت بكذبة من غيره نُسبت إليه

ثم إنه إن تحرّى الصدق اتُّهِم، وإن جانب الكذب كذِّب، حتى لا يُعتقد له حديث مصدّق، ولا كذب مستنكَر. وقد قال الشاعر:

إذا عُرِف الكذاب بالكذب لم يكَد يصدّقُ فى شىء وإن كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كِذبه وتراه ذا حفظ إذا كان حاذقا

[الرخصة فى الكذب] وقد وردت السنة بإرخاص الكذب فى الحرب، وإصلاح ذات البين، على وجه التورية والتأويل، دون التصريح به، فإن السنة لا ترد بإباحة الكذب، لما فيه من التنفير، وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض، كما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تطرّف برداء، وانفرد عن أصحابه، فقال له رجل: ممن أنت؟ قال: من ماء، فورّى عن الإخبار بنسبه، بأمر محتمل، فظن السائل أنه عَنَي القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الماء الذى يخلق منه الإنسان، فبلغ ما أحب من إخفاء نفسه، وصدق فى خبره. وكالذى حُكِى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه، أنه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه، فتلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر، ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا يا أبا بكر مَنْ هذا؟ فقال: هاد يهدينى السبيل، فظنوا أنه يعنى هداية الطريق، وهو إنما يريد هداية سبيل الخير، فصدق فى قوله، وورّى عن مراده.

وقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن فى المعاريض لمَندوحةً عن الكذب». وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن فى المعاريض ما يكفى أن يَعِفّ الرجل عن الكذب. وقال بعض أهل التأويل فى قوله تعالى: «لا تؤاخذنى بما نَسيت» إنه لم ينس، ولكنه معاريض الكلام. وقال ابن سِيرينَ: الكلام أوسع من أن يُصَرَّح فيه بالكذب.

[الصدق المذموم] واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والمَعَرّة، ويزيد عليه فى الأذى والمَضَرّة، وهى الغيبة، والنميمة، والسعاية.

فأما الغيبة فإنها خيانة وهتك سِتر، يحدثان عن حسد وغَدْر. قال الله تعالى: «ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا»؟ يعنى أنه كما لا يحل لحمه ميتا، لا تحل

غِيبته حيا . ورُوِى أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلتا تغتابان الناس ، فأُخبر بذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال : « صامتا عما أُحِل لهما ، وأفطرتا على ماحرِّم عليهما » .

وروت أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب ، كان حقا على الله عز وجل أن يُحرِّم لحمه على النار » . وقال عدىّ بن حاتم : الغِيبة رَعْى اللئام . وكان الحسن البصرىّ رحمه الله تعالى يقول : الغيبة فاكهة النساء. وقال رجل لابن سِيرينَ رحمه الله : إنى اغتبتك ، فاجعلنى فى حِلّ ، فقال : ما أحب أن أُحِل لك ماحرَّم الله عليك . وقال ابن السَّماك : لاتُعِن الناس على عَيبك بسوء غَيبك . وقال الشاعر :

لا تلتمسْ من مَساوِى الناس ماسَتَروا   فيهتِكَ اللهُ سِترا عن مساويكا
واذكر محاسن مافيهم إذا ذُكروا   ولا تعِب أحـدا منهم بما فيكا

وربما عذر المغتاب نفسه بأنه يقول حقّا ، ويُعلِن فسقا ، ويستشهد بما رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة ليست غِيبتهم بغِيبة : الإمام الجائر ، وشارب الخمر ، والمعلِن بفسقه » فيبعد من الصواب ، ويجانب الأدب ، لأنه وإن كان بالغِيبة صادقا ، فقد هتك سِترا كان بصونه أولى ، وجاهر من أسرّ وأخفى ، وربما دعا المغتابَ ذلك إلى إظهار ما كان يستره ، والمجاهرة بما كان يضمرُه ، فلم يُفده ذلك إلا فساد أخلاقه، من غير أن يكون فيه صلاح لغيره . وقد قيل لأنوشِروان : ما الذى لاخير فيه ؟ قال : ماضرَّنى ولم ينفع غيرى ، أوضرَّ غيرى ولم ينفعنى ، فلا أعلم فيه خيرا .

وقيل فى منثور الحكم : لاتبد من العيوب ماستره علام الغيوب . وقد روى العـلاء ابن عبد الرحمن ، عن أبيه عن أبى هريرة قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغِيبة فقال : « هى أن تقول لأخيك مافيه ، فإن كنت صادقا فقد اغتبته ، وإن كنت كاذبا فقد بهتَّه » . وقال عبد الرحمن بن زيد فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لايسخَر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » : إنه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه .

ودخلت امرأة على النبىّ صلَّى الله عليه وسلم مستفتية ، فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله ما أقصرها ! فقال: مَهْلا إياك والغِيبة . فقالت: يارسول الله : إنما قلت مافيها .

قال : أجل ، ولولا ذلك لكان بُهتانا . وسئل بعض الأدباء عن صفة اللئيم ؟ فقال : اللئيم إذا غاب عاب ، و إذا حضر اغتاب . فأما الخبر فمحمول على الإنكار لأفعال هؤلاء ، ولا يكون الإنكار غِيبة لأنه نهى عن منكر ، وفرق بين إنكار المجاهر وغيبة المساتر .

وأما النميمة فهى : أن تجمع إلى مَذَمة الغِيبة رداءة وشرا ، وتضم إلى لؤمها دناءة وغدرا ، ثم تئول إلى تقاطع المتواصلين ، وتباعد المتقاربين ، وتباغض المتحابين . ورَوَى شَهْر بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا: بلى يارسول الله ، قال : من شراركم المشاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون العيوب » . ورَوَى محمد بن عمرو عن أبى سَلَمَة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملعونٌ ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شَغَّار، ملعون كل قَتَّات، ملعون كل مَنَّان » .

الشَّغَّار : المحرّش بين الناس يُلقِى بينهمُ العداوة . والقَتَّات : النمام . وقيل : النمام الذى يكون مع القوم يتحدثون، فينمّ حديثهم . والقتات : هو الذى يستمع عليهم وهم لايعلمون ، فينم حديثهم . والمنان : هو الذى يصنع الخير ويَمُنّ به . وقيل فى منثور الحكم : النميمة سيف قاتل . وقال بعض الأدباء : لم يمش ماش شرّ من واشٍ .

فأما السِّعاية فهى شر الثلاثة ، لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة ، ولؤم النميمة ، التغرير بالنفوس والأموال ، والقدح فى المنازل والأحوال . وَرَوَى ابن قتيبة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « الجنة لايدخلها دَيُّوث ولا قَلَّاع » .

الديوث : هو الذى يجمع بين الرجال والنساء ، سمى بذلك لأنه يديث بينهم . والقَلَّاع : هو الساعى الذى يقع فى الناس عند الأمراء ، سمى بذلك لأنه يأتى الرجل المتمكن عند الأمير ، فلا يزال يقع فيه حتى يقْلَعه .

وقال بعض الحكماء : الساعى بين منزلتين قبيحتين : إما أن يكون صَدَق فقد خان الأمانة ، و إما أن يكون قد كذب فخالف المروءة . وقال بعض الحكماء : الصدق يزين كل أحد إلا السُّعاة ، فإن الساعى أذمُّ وآثم ما يكون إذا صدق . وقال بعض البلغاء : النميمة دناءة ، والسعاية رداءة ، وهما رأس الغدر ، وأساس الشر ، فتجنب سبلهما ، واجتنب أهلهما . ووقّع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى إليه : نحن نرى قبول السعاية شرا منها، لأنّ السعاية دِلالة ، والقبولَ إجازة ، فاتقُوا الساعى ، فإنه إن كان فى سعايته

صادقا ، كان فى صدقه آثما ، إذ لم يحفظ الحُرْمة ، ولم يستر العورة. وقال الإسكندر لرجل سعى إليه برجل : أتحب أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك ؟ قال : لا . قال : فكفَّ عن الشرّ يكفَّ عنك الشر . ورُوِى أن الله تعالى أوحى إلى موسى على نبينا وعليه السلام أن فى بلدك ساعيا ، ولست أُمْطِرُكَ وهو فى أرضك . فقال : يارب دُلَّنى عليه حتى أخرجه. فقال: ياموسى أكرهُ النميمة وأنِمّ .

الفصل السادس : فى الحسد والمنافسة

[ذم الحسد] اعلم أن الحسد خلق ذميم ، مع إضراره بالبدن ، و إفساده للدين ، حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شرّه . فقال تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد». وناهيك بحال ذلك شرا . وَرُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «دَبَّ إليكم داء الأمم قبلَكم : البغضاء والحسد ، هى الحالقة، حالقة الدين، لا حالقة الشعر، والذى نفس محمد بيده، لا تؤمنوا حتى تَحَابُّوا، ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أَفشُوا السلام بينكم » . فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد ، وأن التحابُب ينفيه ، وأن السلام يبعث على التحابب ، فصار السلام إذن نافيا للحسد ، وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول . وقال الله تعالى : « ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم » . قال مجاهد : معناه ادفع بالسلام إساءة المسىء .

وقال الشاعر :

قد يلبث الناس حينا ليس بينهمُ ⁂ وُدٌّ فيزرعه التسليم واللُّطَفُ

وقال بعض السلف : الحسد أول ذنب عُصِى الله به فى السماء ، يعنى حسد إبليس لآدم عليه السلام ، وأول ذنب عُصِىَ الله به فى الأرض ، يعنى حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله . وقال بعض الحكماء : من رضى بقضاء الله تعالى لم يُسْخِطه أحد ، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء : الناس حاسد ومحسود ، ولكل نعمة حسود . وقال بعض الأدباء : مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحسود ، نَفَس دائم ، وهمّ لازم ، وقلب هائم ؛ فأخذه بعض الشعراء فقال :

إن الحسودَ الظلومَ فى كُرَبٍ ⁂ يخاله من يراه مظلوما

ذا نفس دائم على نَفَس ⁂ يظهر منها ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دنىء ، يتوجه نحو الأكفاء والأقارب ، ويختص بالمخالط والمصاحب ، لكانت النزاهة عنه كرما ، والسلامة منه مَغْنما ، فكيف وهو بالنفس مُضرّ ، وعلى الهمّ مُصِرّ ، حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف ، من غير نكاية فى عدوّ ، ولا إضرار بمحسود .

وقد قال معاوية رضى الله عنه : ليس فى خصال الشر أعدل من الحسد ، يقتل الحاسدَ قبل أن يصل إلى المحسود . وقال بعض الحكماء : يكفيك من الحاسد أنه يغتم فى وقت سرورك . وقيل فى منثور الحكم : عقوبة الحاسد من نفسه . وقال الأصمعىّ : قلت لأعرابىّ : ما أطولَ عُمرك ؟ قال : تركت الحسد فبقيت . وقال رجل لشُرَيح القاضى : إنى لأحسُدُك على ما أرى من صبرك على الخصوم ، ووقوفك على غامض الحُكْم . فقال : ما نفعك الله بذلك ولا ضَرّنى . وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى :

اصبرْ على كيد الحسو ... دِ فإن صبرك قاتلُهْ

فالنار تأكل بعضَها ... إن لم تجد ما تأكُلُهْ

[حقيقة الحسد] وحقيقة الحسد : شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل ، وهو غير المنافسة ، وربما غلِط قوم فظنوا أن المنافسة فى الخير هى الحسد ، وليس الأمر على ما ظنوا ، لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل ، من غير إدخال ضرر عليهم ، والحسد مصروف إلى الضرر ، لأن غايته أن يعدَم الأفاضل فضلهم ، من غير أن يصير الفضل له ، فهذا الفرق بين المنافسة والحسد ، فالمنافسة إذن فضيلة لأنها داعية إلى اكتساب الفضائل ، والاقتداء بأخيار الأفاضل ، وقد رُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن يغْبِطُ ، والمنافق يحسُد » . وقال الشاعر :

نافِس على الخيرات أهل العلا ... فإنما الدنيا أحاديثُ

كل أمرئ فى شأنه كادح ... فوارث منهم وموروثُ

[دواعى الحسد] واعلم أن دواعى الحسد ثلاثة : أحدها بُغْض المحسود ، فيأسى عليه بفضيلة تظهر ، أو منقبة تشكر ، فيثير حسدا قد خامر بغضا ، وهذا النوع لا يكون عاما وإن كان أضرها ، لأنه ليس يبغض كل الناس .

والثانى : أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه ، فيكره تقدمه فيه ، واختصاصه به ، فيثير ذلك حسدا لولاه لكفّ عنه ، وهذا أوسطها ، لأنه لا يحسد الأكفاء من دنا ، وإنما يختص بحسد من علا ، وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ، ولكنها مع عجز ، فلذلك صارت حسدا .

والثالث : أن يكون فى الحاسد شحٌّ بالفضائل ، وبخل بالنعم ، وليست إليه ، فيَمْنعَ منها ، ولا بيده ، فيَدْفَعَ عنها ، لأنها مواهب قد منحها الله من شاء ، فيسخط على الله عز وجل فى قضائه ، ويحسد على مامنح من عطائه ، وإن كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر ، ومِنَحه عليه أظهر . وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها ، إذ ليس لصاحبه راحة ، ولا لرضاه غاية ، فإن اقترن بشرّ وقدرة ، كان بَوْرا وانتقاما ، وإن صادف عجزا ومَهانة ، كان جَهدا وسقاما . وقد قال عبد الحميد : الحسود من الهمّ كساقى السَّم ، فإن سرى سمه ، زال عنه همه .

واعلم أنه بحسب فضل الإنسان ، وظهور النعمة عليه ، يكون حسد الناس له ، فإن كثر فضله كثر حساده ، وإن قلّ قلوا ، لأن ظهور الفضل يثير الحسد ، وحدوث النعمة يضاعف الكَمَد ، ولذلك قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء الحوائج بسترها ، فإن كل ذى نعمة محسود » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما كانت نعمة الله على أحد إلا وجه لها حاسدا ؛ فلو كان الرجل أقوم من القِدْح لما عَدِم غامزا . وقد قال الشاعر :

إن يحسدونى فإنى غيرُ لائمهمْ ... قبلى من الناس أهلُ الفضل قد حُسِدُوا

فدام لى ولهم مابى وما بِهِمُ ... ومات أكثرنا غيظا بما يجدُ

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود ، كما قال أبو تمام الطائىّ :

وإذا أراد الله نشرَ فضيلة ... طُوِيت أتاح لها لسانَ حَسودِ

لولا اشتعال النار فيما جاورتْ ... ما كان يُعْرفُ طيبُ عَرْفِ العودِ

لولا التخوّف للعواقب لم يزلْ ... للحاسد النُّعمَى على المحسودِ

[دواء الحسد] فأما مايستعمله من كان غالبا عليه الحسد ، وكان طبعه إليه مائلا ، لينتفىَ عنه ويُكفاه ، ويسلم من ضرره وعدْواه ، فأمور هى له حَسْم ، إن صادفها عزْم .

فمنها : اتباع الدِّين فى اجتنابه ، والرجوع إلى الله عز وجل فى آدابه ، فيقهرَ نفسه على مذموم خُلقها ، وينقلها عن لئيم طبعها ، وإن كان نقل الطباع عَسِرا ، لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعَب ، ويُحبَّب منها ما أتعب ، وإن تقدم قول القائل : مَنْ رَبُّه خَلَقَه ، كيف يُخَلِّى خُلقه ! غير أنه إذا عانى تهذيب نفسه ، تظاهر بالتخلق دون الخلق ، ثم بالعادة يصير كالخلق .
قال أبو تمام الطائىّ :

فلم أَجِدِ الأخلاقَ إلا تخلُّقا ولم أجد الإفضال إلا تفضُّلا

ومنها : العقل الذى يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ، ويستنكف من هُجْنة مساويه ، فيذلل نفسه أنفة ، ويطهرها حمية ، فتذعن لرشدها ، وتجيب إلى صلاحها . وهذا إنما يصح لذى النفس الأبية ، والهمة العلية ، وإن كان ذو الهمة يجلّ عن دناءة الحسد .
وقد قال الشاعر :

أبىّ له نفسان : نفس زكية ونفس إذا ما خافت الظلم تَشْمُس

ومنها : أن يستدفع ضرره ، ويتوقّى أثره ، ويعلم أن مكانته فى نفسه أبلغ ، ومن الحسد أبعد ؛ فيستعمل الحزم فى دفع ما كده وأكمده ، ليكون أطيب نفْسا ، وأهنأ عيشا . وقد قيل : العجب لغفلة الحساد ، عن سلامة الأجساد ! وقد قال الشاعر :

بصيرٌ بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأى ما هو واقعُ

ومنها : ما يرى من نفور الناس عنه ، وبعدهم منه ، فيخافهم إما على نفسه من عداوة ، أو على عرضه من ملامة ، فيتألفهم بمعالجة نفسه ، ويراهم إن صلحوا أجدى نفعا ، وأخلص ودا . وقال ابن العميد رحمه الله تعالى :

داوَى جوًى بجوًى وليس بحازم من يستكفّ النار بالحلفاءِ

وقال المؤمَّل بن أُمَيل :

لا تحسِبونى غنيا عن مودتكم إنى إليكم وإن أيسرتُ مفتقرُ

ومنها : أن يساعد القضاء ، ويستسلم للمقدور ، ولا يرى أن يغالب قضاء الله ، فيرجع مغلوبا ، ولا أن يعارضه فى أمره ، فيرد محروما مسلوبا . وقد قال أرْدشير بن بابَك : إذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه . وقال محمود الورّاق :

قَـــدَرُ اللهِ كائنٌ   حين يُقضى ورودُهُ
قد مضى فيك علمُهُ   وانتهى ما يريدُهُ
وأخو الحزم حزمُهُ   ليس ممـا يزيدُهُ
فأرد ما يكون إنْ   لم يكن ماتُريده

فإن أظفرته السعادة بأحد هذه الأسباب ، وهَدَته المَراشد إلى استعمال الصواب ، سلم من سَقامه ، وخلص من غَرامه ، واستبدل بالنقص فضلا ، واعتاض من الذم حمـدا ، وَلَمَنِ(١) اُسْتَنزَل نفسه عن مَذَمة ، وصرفها عن لائمة ، هو أظهر حزما ، وأقوى عزما، ممن كفته النفس جهادها ، وأعطته قيادها؛ ولذلك قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : خياركم كل مُفَتَّنٍ توّاب .

[آفات الحسد] وإن صدّته الشهوة عن مَراشده ، وأضلّه الحرمان عن مقاصده ، فانقاد للطبع اللئيم ، وغلب عليه الخلق الذميم ، حتى ظهرحسده ، واشتد كمده ، فقد باء بأربع مَذَامّ :

إحداهن : حسرات الحسد ، وسَقام الجسد ، ثم لايجد لحسرته انتهاء ، ولا يؤمل لسقامه شفاء . وقال ابن المعتز : الحسد داء الجسد .

والثانية : انخفاض المنزلة ، وانحطاط المرتبة ، لانحراف الناس عنه ، ونفورهم منه . وقد قيل فى منثور الحكم : الحسود لايسود .

والثالثة : مَقْت الناس له ، حتى لايجد فيهم محبا ، وعداوتهم له ، حتى لايرى فيهم وَليا ، فيصير بالعداوة مأثورا ، و بالمقت مزجورا ؛ ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « شر الناس من يبغض الناس و يبغضونه » .

والرابعة : إسخاط الله تعالى فى معارضته ، واجتناء الأوزار فى مخالفته ، إذ ليس يرى قضاء الله عَدْلا ، ولا لنعمه من الناس أهلا ؛ ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عبد الله بن المعتز : الحاسد مغتاظ على من لاذنب له ، بخيل بما لا يملكه ، طالب مالا يجده ؛ وإذا بلى الإنسان بمن هذه حاله من حساد النعم ، وأعداء الفضل ، استعاذ بالله من شرّه ، وتوقى مصارع كيده ، وتحرز من غوائل حسده ، وأَبْعد عن ملابسته وإدنائه ، لعضل دائه ، و إعواز دوائه ، فقد قيل : حاسد النعمة لا يرضيه

---

(١) كذا فى منهاج اليقين . وفى طبعة الأميرية : فإن من ... الخ .

إلا زوالها . وقال بعض الحكماء : من ضَرَّ بطبعه فلا تأنس بقربه ، فإن قَلْبَ الأعيان صعب المرام . وقال عبد الحميد : أسد تقاربه ، خير من حسود تراقبه . وقال محمود الورّاق :

أَعطيتُ كلَّ الناس من نفسى الرضا ... إلَّا الحسودَ فإنه أعيانى

ما إنَّ لى ذنبا إليه علمتُه ... إلا تظاهرُ نعمة الرحمن

وأَبَى فما يرضيه إلا ذِلَّتى ... وذهاب أموالى وقطع لسانى

وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة لا يسلم أحد منهنَّ : الطِّيَرَة ، وسوء الظن ، والحسد ؛ فإذا تطيَّرتَ فلا ترجِع ، وإذا ظننت فلا تُحقِّق ، وإذا حسدت فلا تَبْغِ » .

فصل

وأما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان : أحدهما : ماتكون المواضعة فى فروعه ، والعقل موجب لأصوله .

والثانى : ماتكون المواضعة فى فروعه وأصوله ، وذلك متضحٌ فى الفصول التى نذكرها إذا سُبِرَتْ ، وهى ثمانية :

الفصل الأول : فى الكلام والصمت

[فضل الكلام والصمت] اعلم أن الكلام تَرْجمان يعبِّر عن مستودعات الضمائر ، ويخبر بمكنونات السرائر ، لا يمكن استرجاع بوادره ، ولا يُقْدَرُ على ردّ شوارده ؛ فَحُقَّ على العاقل أن يحترز من زَلَله ، بالإمساك عنه ، أو بالإقلال منه . رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله من قال خيرا فغنم ، أوسكت فسلم » . وقال صلى الله عليه وسلم لِمعاذ : يامعاذ ، أنت سالم ماسكتَّ ، فإذا تكلمتَ فعليك أولك . وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : اللسان مِعيار أطاشه الجهل ، وأرجَحَه العقل . وقال بعض الحكماء : الزَمِ الصمت تعدَّ حكيما ، جاهلا كنت أوعالما . وقال بعض الأدباء : سَعِد من لسانه صَمُوت ، وكلامه قُوت . وقال بعض العلماء : من أعْوَز مايتكلم به العاقل ألَّا يتكلم إلا لحاجته ، أو لُحجته ، ولا يفكر إلا فى عاقبته ، أوفي آخرته . وقال بعض البلغاء : اِلزم الصمت ، فإنه يَكْسِبك صفو المحبة ، ويؤَمِّنك سوء المَغَبَّة ،

ويُلْبسك ثوب الوقار، ويكفيك مُؤنة الاعتذار. وقال بعض الفصحاء: اعقل لسانك إلا عن حقّ توضحه، أو باطل تدحَضُه، أو حكمة تنشرُها، أو نعمة تَذْكُرُها. وقال الشاعر:

رأيت العزَّ فى أدب وعقلٍ ... وفى الجهل المذلة والهوَانُ

وماحسن الرجال لهم بحسنٍ ... إذا لم يُسْعِدِ الحسن البيانُ

كفى بالمرء عيبا أن تراه ... له وجهٌ وليس له لسان

شروط الكلام] واعلم أن للكلام شروطا، لايسلم المتكلم من الزلل إلا بها، ولا يعرى من النقص إلا بعد أن يستوفيها، وهى أربعة:

فالشرط الأول: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما فى اجتلاب نفع، أودفع ضرر.

والشرط الثانى: أن يأتى به فى موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته.

والشرط الثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته.

والشرط الرابع: أن يتخير اللفظ الذى يتكلم به. فهذه أربعة شروط، متى أخلّ المتكلم بشرط منها فقد أوهن فضيلة باقيها. وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينبئ عن لزومه.

فأما الشرط الأول، وهو الداعى إلى الكلام، فلأن ما لاداعى له هذَيان، ومالا سبب له هُجْر، ومن سامح نفسه فى الكلام إذا عَنّ، ولم يراع صحة دواعيه، وإصابة معانيه، كان قوله مرذولا، ورأيه معلولا، كالذى حَكى ابن عائشة: أن شابا كان يجالس الأحنف ويطيل الصمت، فأعجب ذلك الأحنف، فخلت الحلقة يوما. فقال له الأحنف: تكلم يابن أخى؛ فقال: ياعم، أرأيت لو أن رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شىء؟ فقال: يابن أخى ليتنا تركناك مستورا، ثم تمثل الأحنف بقول الأعور الشَّنِّى:

وكائِنْ ترى من صامتٍ لك مُعْجِبٍ ... زيادتُه أو نقصُــه فى التكلمِ

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يَبْقَ إلا صورة اللحم والدم

وكالذى حُكِى عن أبى يوسف الفقيه: أن رجلا كان يجلس إليه، فيطيل الصمت. فقال له أبو يوسف: ألا تسأل؟ قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غربت الشمس. قال: فإن لم تغرب إلى نصف الليل؟ قال: فتبسم أبو يوسف رحمه الله، وتمثل ببيتى الخَطَفَى جدِّ جرير:

عجبتُ لإزراءِ العَييّ بنفسه ... وصمت الذى قد كان بالقول أعلما
وفى الصمت سَترٌ للعييّ و إنما ... صحيفةُ لُبِّ المرء أن يتكلما

ومما أُطْرِفُكَ به عنى : أنى كنت يوما فى مجلسى بالبصرة ، وأنا مقبل على تدريس أصحابى ، إذ دخل علىّ رجل مسنّ، قد ناهز الثمانين أوجاوزها. فقال لى : قد قصدتك بمسألة اخترتك لها . فقلت : اسأل عافاك الله ، وظننته يسأل عن حادث نزل به . فقال : أخبرنى عن نجم إبليس ونجم آدم ماهو ؟ فإن هذين لعظم شأنهما لا يُسأل عنهما إلا علماء الدين ، فعجبت وعجب من فى مجلسى من سؤاله ، و بدر إليه قوم منهم بالإنكار والاستخفاف ، فكففتهم وقلت : هذا لا يقنع مع ماظهر من حاله إلا بجواب مثله ، فأقبلت عليه وقلت : ياهذا إن المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة مواليدهم ، فإن ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله . فحينئذ أقبل علىّ وقال : جزاك الله خيرا ، ثم انصرف مسرورا ؛ فلما كان بعد أيام عاد وقال : ما وجدت إلى وقتى هذا من يعرف مولد هذين .

فانظر إلى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم ، وأعربوا بالسؤال عن نقصهم ، إذ لم يكن لهم داع إليه ، ولا روية فيما تكلموا به ، ولو صدر عن روية ودعا إليه داع لسلموا من شَيْنه ، و برئوا من عيبه ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم ، و إن كان عليه أمسك ؛ وقلب الجاهل من وراء لسانه ، يتكلم بكل ماعرض له » .

وقال عمر بن عبد العزيز : من لم يعدّ كلامه من عمله كثرت خطاياه . وقال بعض الحكماء : عقل المرء مخبوء تحت لسانه . وقال بعض البلغاء : احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك ، أو يتلف نَفْسك ، فلا شىء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ، و يسرع إلى الجواب . وقال أبو تمام الطائىّ :

ومما كانت الحكماء قالتْ ... لسان المرءِ من تَبَعِ الفؤادِ

وكان بعض الحكماء يحسِم الرُّخصة فى الكلام ، و يقول : إذا جالست الجهال فأنصت لهم ، و إذا جالست العلماء فأنصت لهم ، فإن فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم ، وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم .

وأما الشرط الثانى : فهو أن يأتى بالكلام فى موضعه ، لأن الكلام فى غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به ، ومالاينفع من الكلام فقد تقدم القول بأنه هَذَيان وهُجْر ؛ فإن قدم مايقتضى التأخير كان عَجَلة وخُرْقا ، وإن أخر مايقتضى التقديم كان توانيا وعجزا ، لأن لكل مقام قولا ، وفى كل زمان عملا . وقد قال الشاعر :

تضعُ الحديث على مواضعِهِ ‏ ‏ ‏ وكلامُها من بعدها نَزْر

وأما الشرط الثالث : وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته ، فإن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة ، ولم يقدّر بالكفاية ، لم يكن لحدّه غاية ، ولا لقدره نهاية ، ومالم يكن من الكلام محصورا كان إما حَصَرا إن قصُر ، أوهذرا إن كثُر . ورُوِى أن أعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوّل . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاى وأسنانى . قال : فإن الله عز وجل يكره الانبعاق فى الكلام ، فنضّر الله وجه أمرئ أوجز فى كلامه، فاقتصر على حاجته .

وحُكِى أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقلّ السكوت. فقال : إن الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولسانا واحدا ، ليكون ماتسمعه ضعف ما تتكلم به . وقال بعض الحكماء : من كثر كلامه كثرت آثامه . وقال ابن مسعود : أُنذِركم فضول المنطق . وقال بعض البلغاء : كلام المرء بيان فضله ، وترجمان عقله ، فاقصِرْه على الجميل ، واقتصر منه على القليل ، وإياك ومايُسْخِط سلطانك ، ويوحش إخوانك ، فمن أسخط سلطانه تعرّض للمنية ، ومن أوحش إخوانه ، تبرّأ من الحرّية . وقال بعض الشعراء :

وزِنِ الكلام إذا نطقت فإنما ‏ ‏ ‏ يبدى عيوب ذوى العيوب المنطقُ

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان : تقصير يكون حَصَرا ، وتكثير يكون هَذَرا ، وكلاهما شَيْن ، وشَيْن الهذر أشنع ، وربما كان فى الغالب أخوف . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « وهل يكبّ الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلّا حصائدُ ألسنتهم » . وقال بعض الحكماء : مَقْتل الرجل بين فكَّيه . وقال بعض البلغاء : الحصَر خير من الهذَر ، لأن الحصَر يُضعف الحُجَّة ، والهذَر يتلف المُهْجة ؛ وقد قال الشاعر :

رأيتُ اللسان على أهلِهِ ‏ ‏ ‏ إذا ساسهُ الجهلُ ليثا مُغيرَا

وقال بعض الأدباء : يارُبَّ ألسنةٍ كالسيوف ، تقطع أعناقَ أصحابها، وما ينقصْ من هَيْشَاتَ الرجال يزدْ في بهائها وألبابها . وقد ذهب بعضهم إلى أن الكلام إذا كثُر عن قدر الحاجة ، وزاد على حدّ الكفاية ، وكان صوابا لايشوبه خَطَل ، وسليما لايتعوّده زَلَل ، فهو البيان ، والسحْر الحلال . وقال سليمان بن عبد الملك ، وقد ذُمّ الكلام في مجلسه : كَلّا . إن من تكلم فأحسن ، قدَر على أن يسكُت فيُحسن ، وليس من سكت فأحسن ، قَدَر على أن يتكلم فيُحسن . ووصف بعضهم الكاتب فقال: الكاتب من إذا أخذ شِبْرا كفاه ، وإذا وجد طُومارا أملاه . وأنشد بعضهم في خطباء إياد :

يَرمون بالخطبِ الطوالِ وتارةً وَحْىَ المَلاحظِ خِيفةَ الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه : يا بُنىّ إذا أقللت من الكلام ، أكثرت من الصواب . فقال : ياأبت ، فإن أنا أكثرت وأكثرت ؟ يعني كلاما وصوابا . فقال : يابنىّ ما رأيت موعوظا أحقّ بأن يكون واعظا منك . وأُنشِدت لأبي الفتح البستىّ :

تكلَّمْ وسدِّد ما استطعتَ فإنما كلامُكَ حَىٌّ والسكوتُ جَمادُ

فإن لم تجدْ قولا سديدًا تقولهُ فصمتُك عن غير السَّداد سَدَادُ

وقيل لإياس بن معاوية : ما فيك عيب إلا كثرة الكلام ، فقال : أفتسمعون صوابا أو خطأ ؟ قالوا : لا بل صوابا . قال : فالزيادة من الخير خير . وقال أبو عثمان الجاحظ : للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فَضَل عن الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والمَلال ، فذلك الفاضل هو الهذَر . وصدق أبو عثمان ، لأن الإكثار منه وإن كان صوابا ، يُمِلّ السامع ، ويُكِلّ الخاطر ، وهو صادر عن إعجاب به ، لولاه لأقصر عنه ؛ ومن أُعجب بكلامه استرسل فيه ، والمسترسِل في الكلام كثير الزلَل ، دائم العِثار . وقال بعض الحكماء : من أُعجب بقوله ، أصيب بعقله ، وليس لكثرة الهذَر رجاء يقابل خوفه ، ولا نفع يوازي ضَرَره ، لأنه يخاف من نفسه الزلل ، ومن سامعيه السآمة والملل ؛ وليس في مقابلة هذين حاجة داعية ، ولا نفعٌ مرجوٌّ . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبغضُكم إلىّ المتفيهقُ المِكثار ، والملحّ المِهذار » . وسأل رجل حكيما فقال: متى أتكلم ؟ قال: إذا اشتهيت الصمت . فقال: متى أصمُت ؟ قال : إذا اشتهيت الكلام .

---

(١) كذا في منهاج اليقين . وفي الأميرية : هيئات ، ولا معنى لها هنا . والهيشة: الفتنة والاختلاط كالهوشة . يريد : أي لسان ينقص الفتن ويدفعها ، يزيد في بهاء صاحبه وجماله (وانظر منهاج اليقين ، ولسان العرب) .

وقال جعفر بن يحيى : إذا كان الإيجاز كافيا ، كان الإكثار عِيا ، وإن كان الإكثار واجبا ، كان التقصير عجزا . وقيل فى منثور الحكم : إذا تم العقل ، نقص الكلام . وقال بعض الأدباء : من أطال صمته ، اجتلب من الهيبة ماينفعه ، ومن الوَحْشة مالايضره . وقال بعض البلغاء : عِيٌّ تسلم منه ، خير من منطق تندم عليه ، فاقتصِرْ من الكلام على ما يقيم حجتك ، ويبلغ حاجتك ، وإياكَ وفُضُولَه ، فإنه يُزِلّ القدَم ، ويُورث الندَم . وقال بعض الفصحاء : فم العاقل مُلْجَم ، إذا همّ بالكلام أحجم ؛ وفم الجاهل مُطلَق ، كلما[1] شاء أطلق . وقال بعض الشعراء :

إنّ الكلام يغرُّ القومَ جَلْوَتُهُ ... حتّى يَلِجَّ به عِيٌّ وإكثارُ

وأما الشرط الرابع : وهو اختيار اللفظ الذى يتكلم به ، فلان اللسان عُنوان الإنسان ، يُترجم عن مجهوله ، ويُبرهن عن مَحصوله ، فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حَرِيًّا ، وبتقويم لسانه مَلِيًّا . رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس : يعجبنى جمالُك . قال : وما جمال الرجل يارسول الله ؟ قال : لسانه . وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان ؟ هل كان إلا بهيمة مُهملة ، أو صورة مُمَثَّلة . وقال بعض الحكماء : اللسان وزير الإنسان . وقال بعض البلغاء : يُستدل على عقل الرجل بقوله ، وعلى أصله بفعله . وقال بعض الشعراء :

وإنّ لسانَ المرء مالم تكنْ لهُ ... حَصاةٌ عَلَى عَوْراته لدليلُ

[مراعاة البلاغة] وليس يصح اختيار الكلام ، إلّا لمن أخذ نفسه بالبلاغة ، وكلفها لزومَ الفصاحة ، حتى يصير متدرّبا بها ، معتادا لها ، فلا يأتى بكلام مستكرَه اللفظ ، ولامختلّ المعنى ؛ لأن البلاغة ليست على معان مفردة ، ولا لألفاظها غاية ، وإنما البلاغة أن تكون المعانى[2] الصحيحة ، مستودَعة فى ألفاظ فصيحة ؛ فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعانى هى البلاغة .
وقد قيل لليونانىّ : ما البلاغة ؟ قال : اختيار الكلام ، وتصحيح الأقسام . وقيل ذلك للرومىّ . فقال : حسن الاختصار عند البديهة ، والغَزارة يوم الإطالة . وقيل للهندىّ فقال : معرفة الفصل من الوصل . وقيل للعربىّ ، فقال : ماحسن إيجازه ، وقل مجازُه : وقيل للبدوىّ ، ما دون السِّحْر ، وفوق الشعر ، يفتُّ الخرْدَل ، ويَحُطّ الجندل . وقيل للحضَرى ؟ فقال : ما كثر إعجازُه ، وتناسبت صدوره وأعجازُه .

---

(١) كذا فى منهاج اليقين ، وفى الأميرية : كما . (٢) فى الأميرية : بالمعانى .

وقال ابن المقفع : البلاغة قلة الحصَر ، والجراءة على البَشَر . وسأل الحجاج ابن القِرّية عن الإيجاز ؟ قال : أن تقول فلا تُبطئ ، وأن تصيب فلا تخطِئ . وقال الشاعر :

خيرُ الكلامِ قليلٌ على كثيرٍ دليلُ
والعِيُّ معنًى قصيرٌ يحويه لفظ طويلُ
وفى الكلام فُضُولٌ وفيه قالٌ وقيلُ

وأما صحة المعانى فتكون من ثلاثة أوجه .

أحدها : إيضاح تفسيرها ، حتى لا تكون مشكِلَة ولا مُجْمَلة .

والثانى : استيفاء تقسيمها ، حتى لا يدخل فيها ماليس منها ، ولا يخرج منها ماهو فيها .

والثالث : صحة مقابِلاتها ؛ والمقابلة تكون من وجهين . أحدهما : مقابلة المعنى بما يوافقه ، وحقيقة هذه المقاربة ، لأن المعانىَ تصير متشاكِلة . والثانى : مقابلته بما يضادّه ، وهو حقيقة المقابلة ، وليس للمقابلة إلا أحد هذين الوجهين . الموافقة فى الائتلاف ، والمضادّة مع الاختلاف .

فأما فصاحة الألفاظ ، فتكون بثلاثة أوجه :

أحدها : مجانبة الغريب الوحشىّ ، حتى لا يَمُجَّه سمع ، ولا ينفِرَ منه طبع .

والثانى : تنكُّب اللفظ المستبذل ، والعدول عن الكلام المسترذَل ، حتى لا يستسقطه خاصىٌّ ، ولا ينبو عن فهمه عامىّ ، كما قال الجاحظ فى كتاب البيان : « أما أنا فلم أر قوما أمثلَ طريقة فى البلاغة من الكُتَّاب ، وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعِّرًا وحْشِيًا ، ولا ساقطا عامِّيا » .

والثالث : أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة . أما المطابقة فهى أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها ، فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بِشْر بن المُعْتَمر فى وصيته فى البلاغة : إذا لم تجد اللفظةَ واقعة موقعها ، ولا صائرة إلى مستقرّها ، ولا حالّة فى مركزها ، بل وجدتها قَلِقة فى مكانها ، نافرة عن موضعها ، فلا تُكرِهْها على القرار فى غير موضعها ، فإنك إن لم تتعاطَ قريض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يَعِبك بِتَرْكِ ذلك أحد ، وإذا أنت تكلفتهما ، ولم تكن حاذقا فيهما ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، وأزرى عليك من أنت فوقه .

وأما المناسبة فهى : أن يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ ، إما لعُرف مستعمل ، أو لاتفاق مستحسَن ، حتى إذا ذكرت تلك المعانى بغير تلك الألفاظ ، كانت نافرة عنها ، وإن كانت أفصح وأوضح ، لاعتياد ماسواها .

وقال بعض البلغاء : لا يكون البليغ بليغا ، حتى يكون معنى كلامه أسبقَ إلى فهمك ، من لفظه إلى سمعك . وأما معاطاة الإعراب ، وتجنُّب اللحن ، فإنما هو من صفات الصواب ، والبلاغة أعلى منه رتبة ، وأشرف منزلة ، وليس لمن لحن فى كلامه مَدخل فى الأدباء ، فضلا عن أن يكون فى عِداد البلغاء .

[آداب الكلام] واعلم أن للكلام آدابا إن أغفلها المتكلم ، أذهب رونق كلامه ، وطَمَس بهجةَ بيانه ، ولها الناس عن محاسن فضله ، بمساوى أدبه ، فعدلوا عن مناقبه ، بذكر مثالبه .

فمن آدابه ألّا يتجاوز فى مدح ، ولا يسرف فى ذمّ ، وإن كانت النزاهة عن الذمّ كرما ، والتجاوز فى المدح مَلَقا يصدر عن مَهانة ؛ والسرَف فى الذم انتقام يصدر عن شرّ ، وكلاهما شَيْن ، وإن سَلِم من الكذب .

يُروَى أنه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم ، عن قيس بن عاصم (١) ، فمدحه ، فقال قيس : والله يارسول الله ، لقد علم أنى خير مما وصف ، ولكن حسدنى ، فذمه عمرو ، وقال : والله : يارسول الله لقد صدَقْتُ فى الأولى ، وما كذبت فى الأخرى ؛ لأنى رَضيت فى الأولى ، فقلت أحْسن ما علمت ، وسَخِطت فى الأخرى ، فقلت أقبح ماعلمت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » . على أن السلامة من الكذب فى المدح والذم متعذرة ، لاسيما إذا مدح تقرّبا ، وذم تَحنقا (٢) .

وحُكِىَ عن الأحنف بن قيس ، أنه قال : سهرت ليلتى أفكر فى كلمة أُرضِى بها سلطانى ، ولاأُسخِط بها ربى ، فما وجدتها . وقال عبد الله بن مسعود : إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه ، فيخرج ومامعه دينه . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يُرضيه بما يُسْخِط الله عز وجل . وسمع ابن الرومىّ رجلا يصف رجلا ، ويبالغ فى مدحه ، فأنشأ يقول :

إذا ما وصفتَ امرأً لامرئٍ   فلا تَغْلُ فى وصفه واقْصِدِ

---

(١) هذا وهم ، والصواب : الزبرقان بن بدر ، كما فى منهاج اليقين ، وزهر الآداب للحصرى ، وسرح العيون وغيرها . وانظر الخبر فى صحيح البخارى فى كتاب النكاح عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) أى جل تسكين عظيمة وغضبه .

فإنّكَ إن تَغلُ تَغلُ الظُّنُو ... ن فيـه إلى الأمدِ الأبعدِ

فيضؤُل من حيث عَظَّمتَهُ ... لفضل المَغيب على المَشْهَدِ

ومن آدابه: ألّا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال فى وعد أووعيد، يعجز عنهما، ولا يقدر على الوفاء بهما، فإن مَنْ أطلق بهما لسانه، وأرسل فيهما عِنانه، ولم يستثقل من القول، ما يستثقله من العمل، صار وعده نَكْثا، ووعيده عجزا.

وحُكِى أن سليمان بن داود عليهما السلام مرّ بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه: هل تدرون مايقول لها؟ قالوا: لا، يانبىّ الله. قال: إنه يخطبها لنفسه، ويقول لها: زوّجينى نفسَك، أُسكنْكِ أىّ غُرَفِ دِمَشْق شئت. قال سليمان: كذب العصفور، فإن غرف دمشق مبنية بالصخور، لايقدر أن يسكنها هناك، ولكن كل خاطب كاذب.

ومن آدابه: أنه إن قال قولا حقّقه بفعله، وإذا تكلم بكلام صدّقه بعمله، فإن إرسال القول اختيار، والعمل به اضطرار، ولأن يفعل مالم يقُل، أجمل من أن يقول مالم يفعل. وقال بعض الحكماء: أحسن الكلام مالا يُحتاج فيه إلى الكلام؛ أى يكتفى بالفعل من القول. وقال محمود الورّاق:

القولُ ما صدَّقه الفعلُ ... والفعلُ ما وكَّده العقْلُ

لايثبتُ القَوْلُ إذا لم يكن ... يُقِلُّه من تحته الأصلُ

ومن آدابه: أن يراعى مخارج كلامه، بحسب مقاصده وأغراضه، فإن كان ترغيبا قرنه باللين واللُّطف، وإن كان ترهيبا، خلَطه بالخشونة والعُنْف، فإن لينَ اللفظ فى الترهيب، وخُشُونته فى الترغيب، خروج عن موضعهما، وتعطيل للمقصود بهما، فيصير الكلام لَغْوًا، والغرض المقصود لَهْوًا. وقد قال أبو الأسود الدُّؤَلى لابنه: يا بُنىَّ، إن كنت فى قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك، ولا بكلام من هو دونك فيزدروك.

ومن آدابه: ألّا يرفع بكلامه صوتا مستكرها، ولا ينزعِج له انزعاجا مستهجَنا، وليكفّ عن حركة تكون طَيْشا، وعن حركة تكون عِيًّا، فإن نقصَ الطيش أكثر من فضل البلاغة.

وقد حُكى أن الحجَّاج قال لأعرابىّ : أخطيب أنا ؟ قال : نعم لولا أنك تكثر الردّ ، وتشير باليد ، وتقول : أما بعد .

ومن آدابه : أن يتجافى هُجْر القول ، ومستقبَح الكلام ، وليْعدِل إلى الكناية عما يُستقبَح صَريحه ، ويُستهْجَن فصيحه ، ليبلغَ الغرض ولسانه نَزِه ، وأدبه مَصُون : وقد قال محمدُ بن علىّ فى قوله تعالى : « وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراما » قال : كانوا إذا ذكروا الفروج كَنَوا عنها . وكما أنه يصون لسانه عن ذلك ، فهكذا يصون عنه سمعه ، فلا يسمع خنًا ، ولا يصغِى إلى فحش ، فإن سماع الفحش داع إلى إظهاره ، وذريعة إلى إنكاره ؛ وإذا وُجِد عن الفحش مُعْرِضا ، كفَّ قائلُه ، وكان إعراضه أحدَ النَّكيرين ، كما أن سَماعه أحدُ الباعثين .

وأنشدنى أبوالحسن بن الحارث الهاشمىّ :

تحَرَّ منَ الطُّرْقِ أوساطَها ... وعدِّ عنِ الموضعِ المشتَبهْ
وسَمْعَكَ صُنْ عن قبيحِ الكلامِ ... كَصَوْنِ اللسانِ عنِ النطقِ بِهْ
فإنكَ عندَ استماعِ القبيحِ ... شريكٌ لقائلِهِ فانتَبِهْ

ومما يَجْرِى مَجْرَى فُحش القول وهُجْره ، فى وجوب اجتنابه ، ولزوم تنكبه ، ما كان شنيع البديهة ، مستنكَر الظاهر ، وإن كان عَقِب التأمل سليما ، وبعد الكشف والروية مستقيما ، كالذى رواه الأزدىّ عن الصُّولِىّ لبعض المتكلِّفين من الشعراء :

إننى شيخٌ كبيرُ ... كافرٌ ، بالله سِيرِى
أنتِ رَبِّى ، وإلهى ... رازق الطفلِ الصغيرِ

يريد بقوله كافر : أى لابس ، لأن الكَفْر : التغطية ، ولذلك سُمى الكافر بالله كافرا ، لأنه قد غطَّى نعمة الله بمعصيته ، وقوله بالله سِيرى : يقسِم عليها أن تسير . وقوله أنتِ ربى : يعنى رَبِّى ولَدَك ، من التربية . وإلهى رازق الطفل الصغير ، كما أنه رازق الولد الكبير . فانظر إلى هذا التكلف الشنيع ، والتعمق البشيع ، ما اعتاض من حيث البديهة ، إذا سلم بعد الفكر والروية ، إلّا لوْما إن حسُن فيه الظن ، أوذمّا إن قوى فيه الارتياب ، وقلما يكون ذلك إلّا من خليع بَطِر ، ومُرْتاب أشِر . فأما الحديث المروىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« لاتصلُّوا على النبىّ » فخارج من هذا النوع من التلبيس ، وفى تأويله وجهان :

أحدهما : أنه أراد النهى عن الصلاة فى المكان المرتفع المحدودب ، مأخوذ من النَّبْوَة .

والثانى : أنه أراد الطريق ، ومنه سُمِّى رسلُ الله أنبياء ، لأنهم الطرق إليه ؛ وإنما زال عنه التلبيس إذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان من قول غيره تلبيسا شنيعا ، لأن موضوع خطابه ، وشواهد أحواله ، يصرفان كلامه عن التجوّز والاسترسال فى أمر أونهى ، إلى مالايجوز أن يرد به شرع ، وينهى عنه نبىّ ، وليس يمتنع ذلك فى غيره ، ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره .

ومن آدابه : أن يجتنب أمثال العامة الغَوغاء ، ويتخصَّص بأمثال العلماء الأدباء . فإن لكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم ، فلاتجد لساقط إلا مَثَلا ساقطا ، وتشبيها مستقبحا . وللسقاط أمثال ، فمنها تمثيلهم للشىء المُرِيب كما قال الصَّنَوْبرىّ :

إذا ما كنتَ ذابولٍ صحيحٍ ألا فاضرِبْ به وجهَ الطبيبِ

ولذلك علتان : إحداهما : أن الأمثال من هواجس الهمم ، وخَطَرات النفوس ، ولم يكن لذى الهمة الساقطة إلّا مَثَل مرذول ، وتشبيه معلول .

والثانية : أن الأمثال مستخرجةٌ من أحوال المتمثِّلين بها ، فبحسب ماهم عليه ، تكون أمثالهم ، فلهاتين العلتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة ، وأمثال العامة ، وربما أَلِف المتخصِّص مَثَلا عاميا ، أوتشبيها رَكيكا ، لكثرة مايطرق سمعه من مخالطة الأراذل ، فيسترسل فى ضربه مثلا ، فيصير به مَثَلا ، كالذى حُكى عن الاصمعىّ : أن الرشيد سأله يوما عن أنساب بعض العرب ، فقال : على الخبيرِ سقطت يا أمير المؤمنين . فقال له الفضل بن الربيع : أسقط الله جَنبيك! أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب ! فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه ، أعلم بما يستعمل من الكلام فى محاورة الخلفاء من الأصمعىّ، الذى هو واحد عصره ، وقَرِيع دهره .

وللأمثال من الكلام موقعٌ فى الأسماع، وتأثير فى القلوب، لايكاد الكلام المرسَل يبلغ مَبلغها، ولا يؤثر تأثيرها ، لأن المعانىَ بها لائحة ، والشواهد بها واضحة ، والنفوس بها وامقة ، والقلوب بها واثقة ، والعقول لها موافقة ، فلذلك ضرب الله الأمثال فى كتابه العزيز ، وجعلها من دلائل

رسله ، وأوضح بها الحجة على خلقه ، لأنها فى العقول معقولة ، وفى القلوب مقبولة ، ولها أربعة شروط :

أحدُها : صحةُ التَّشبيه .

والثانى : أن يكون العلم بها سابقا ، والكل عليها موافقا .

والثالث : أن يُسْرِع وصولها للفهم ، ويُعَجِّل تصوّرُها فى الوهْم ، من غير ارتياء فى استخراجها، ولا كدّ فى استنباطها .

والرابع : أن تناسب حال السامع ، لتكون أبلغ تأثيرا ، وأحسن موقِعا ؛ فإذا اجتمعت فى الأمثال المضروبة هذه الشروط الأربعة ، كانت زينة للكلام ، وجِلاء للمعانى ، وتَدَبُّرا للأفهام .

الفصل الثانى : فى الصبر والجزع

[فضل الصبر] : اعلم أن من حسن التوفيق ، وأمارات السعادة ، الصبر على المِلمّات ، والرفق عند النوازل ، وبه نزل الكتاب ، وجاءت السنة . قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » : يعنى اصبروا على ما افترض الله عليكم ، وصابروا عدوكم . ورابطوا : فيه تأويلان . أحدهما : على الجهاد . والثانى : على انتظار الصلوات . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلُّكم على ما يُحبِط الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى ، يارسول الله . قال : إسباغ الوُضوء عند المكاره ، وكثرة الخُطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرِّباط » . فنزل الكتاب بتأكيد الصبر ، فيما أمر به ، وندب إليه ، وجعله من عزائم التقوى ، فيما افترضه وحثّ عليه . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصبر سَتر من الكروب، وعون على الخطوب » . وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : الصبر مطية لاتكبو ، والقناعة سيف لا ينبو . وقال عبد الحميد : لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو أن الصبر والشكر بعيران ، ما باليت أيَّهما ركِبت . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أفضل العُدّة ، الصبر على الشدة . وقال بعض البلغاء : من خير خلالك ، الصبر على اختلالك . وقيل فى منثور الحكم :

من أحبَّ البقاء ، فليُعِدَّ للمصائب قلبا صَبورا . وقال بعض الحكماء : بالصبر على مواقع الكُرْه ، تدرَك الحظوظ . وقال عَبيد بن الأبرص :

صَبِّرِ النفسَ عندَ كلِّ مُلِمٍّ   إنَّ فى الصبرِ حيلةَ المُحتالِ
لاتَضِيقَنَّ فى الأمور فقد تكْشَفُ غَمَّاؤُها بغيرِ احتيالِ
رُبَّ ماتجزعُ النفوسُ منَ الأمْرِ له فَرْجَةٌ كحلِّ العِقالِ

وقال ابن المقفع فى كتاب اليتيمة : الصبرُ صَبران ، فاللئام أصبر أجساما ، والكرام أصبر نفوسا . وليس الصبر الممدوح صاحبه ، أن يكون الرجل ، قوى الجسد على الكدّ والعمل ، لأن هذا من صفات الحمير ، ولكن أن يكون للنفس غَلوبا ، وللأُمور متحمِّلا ، ولجأشِه عند الحفاظ مُرْتَبِطا .

[أقسام الصبر] : واعلم أن الصبر على ستة أقسام ، وهو فى كل قسم منها محمود .

فأول أقسامه وأوْلاها : الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به ، والانتهاء عما نهى الله عنه ، لأنّ به تخلص الطاعة ، وبخلوص الطاعة يصح الدين ، وتؤدَّى الفروض ، ويُسْتَحَقّ الثواب ، كما قال فى مُحْكَم الكتاب : « إنما يُوَفَّى الصابرون أجرَهم بغير حساب » . ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الصبر من الإيمان ، بمنزلة الرأس من الجسد » . وليس لمن قلَّ صبره على طاعة ، حظٌّ من بِرّ . ولا نصيب من صَلاح . ومن لم ير لنفسه صَبْرا ، يكسِبها ثوابا ، ويدفع عنها عقابا ، كان مع سوء الاختيار ، بعيدا من الرشاد ، حقيقا بالضَّلال . وقد قال الحسن البَصْرِىّ رحمه الله تعالى : يا من يطلب من الدنيا مالا يلحقه ، أترجو أن تلحق من الآخرة مالا تطلبه ؟ وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى :

أراكَ امرَأً ترجو من الله عَفْوَه   وأنت على مالا يُحِبّ مُقيمُ
تَدُلُّ على التقوى وأنت مُقَصِّرٌ   فيامَنْ يداوِى الناسَ وهو سقيمُ

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفَرْط الجزَع ، وشدَّة الخوف، فإنّ من خاف الله عزوجل صَبرَ على طاعته ، ومن جَزِع من عقابه ، وقف عند أوامره .

والقسم الثانى : الصبر على ماتقتضيه أوقاته ، من رَزِية قد أجهده الحزن عليها ، أو حادثة

قدأ كدّه الهمّ بها ، فإن الصبر عليها يُعْقبه الراحة منها ، ويَكْسِبه المَثُوبة عنها ، فإنْ صبر طائعا ، وإلا احتمل هَمًّا لازما ، وصبرَ كارها آثما . وَرُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : من لم يرض بقضائى ، ويصبرْ على بلائى ، فليختر ربًّا سِواىَ » .
وقال علىّ بن أبى طالب كرَّم الله وَجْهه للأشعث بن قيس : إنك إن صَبَرْت ، جرى عليك القلم وأنتَ مأجور ، وإن جَزِعت ، جرى عليك القلم وأنت مأزور . وقد ذكر ذلك أبو تمام فى شعره ، فقال :

وقال علىٌّ فى التعازِى لأشْعَثٍ ... وخاف عليه بعضَ تلكَ المـآثِمِ
أتصبرُ للبلْوَى عزَاءً وَخَشْيةً ... فتُؤْجَر أوتسـلو سُلوَّ البهائمِ ؟

وقال شَبيب بن شَيبة للمهدىّ : إن أحقّ ما تصبر عليه ، مالم تجد إلى دفعه سبيلا . وأنشد :

ولئِنْ تُصِبْك مُصيبةٌ فاصبرْ لها ... عَظُمَتْ مصيبةُ مُبتَلًى لايَصْبرُ !

وقال آخر :

تصبَّرْتُ مغلوبا وإنى لموجَع ... كما صَبَرَ الظمآنُ فى البـلد القفرِ
وليس اصطبارى عنك صبرَ استطاعةٍ ... ولـكنه صَبرٌ أمرُّ من الصـبرِ

والقسم الثالث : الصبر على مافات إدراكه من رغبة مرجوّة ، وأعوزَ نَيلُه من مسرة مأمولة ، فإن الصبر عنها يُعقِب السلوّ منها ، والأسف بعد اليأس خُرْق . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أُعطِىَ فشكر ، ومُنع فصبر ، وظُلِم فغفر ، وظَلَمَ فاستغفر ، فأولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون » .

وقال بعض الحكماء : اجعلْ ماطلبته من الدنيا فلم تنلْه ، مثل مالا يخطر ببالك فلم تَقُلْه .
وقال بعض الشعراء :

إذا ملك القضاء عليك أمرا ... فليس يَحُـله غيرُ القضاءِ
فمالكَ والمُقامَ بدار ذلٍّ ... ودار العز واسعة القضاءِ

وقال بعض الحكماء : إن كنت تجزع على مافات من يدك ، فاجزع على مالا يصل إليك ، فأخذه بعض الشعراء ، فقال :

لا تُطِلِ الحزن على فائتٍ فقلَّما يُجْدِى عليك الحَزَنْ

سيان محزون على فائتٍ ومُضمِر حزنا لما لم يَكُنْ

والقسم الرابع : الصبر فيما يُخشَى حدوثه ، من رَهبة يخافها ، أو يحذَر حلوله من نكبة يخشاها ، فلا يتعجلْ هَمَّ مالم يأت ، فإن أكثر الهموم كاذبة ، و إن الأغلب من الخوف مدفوع . وَقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بالصبر يُتَوَقَّع الفرج ، ومن يُدْمِنْ قَرْع باب يَلِج » . وقال الحسن البصرىّ رحمه الله : لا تحملنَّ على يومك همَّ غدك ، فحسْبُ كل يوم همُّه . وأنشد الجاحظ لحارثة بن زيد :

إذا الهم أمسَى وهو داءٌ فأمضه ولستَ بممضيه وأنت تعادِلُهْ

ولا يَنْزِلن أمر الشديدة بامرئٍ إذا همَّ أمر أعوَقته عواذلُهْ

وقلْ للفؤاد إن تجد بك نورةً من الروْع فافرُخ أكثرُ الهمّ باطلُهْ

والقسم الخامس : الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها ، و ينتظر من نعمة يأمُلها ، فإنه إن أدهشه التوقّع لها ، وأذهله التطلع إليها ، انسدت عليه سُبُل المطالب ، واستفزه تسويل المطامع ، فكان أبعد لرجائه ، وأعظم لبلائه ؛ و إذا كان مع الرغبة وَقورا ، وعند الطلب صَبورا ، انجلت عنه عَماية الدَّهَش ، وانجابت عنه حَيرة الوَلَه ، فأبصر رُشْده ، وعرف قصدَه . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصَّبر ضياء » : يعنى — والله أعلم — أنه يكشف ظُلَمَ الحيرة ، و يوضِّح حقائق الأمور . وقال أكثم بن صيفىّ : من صَبَرَ ظَفِر . وقال ابن المقفع : كان مكتوبا فى قصر أردشير : الصبر مفتاح الدَّرْك . وقال بعض الحكماء : بحسن التأنى تسهلُ المطالب . وقال بعض البلغاء : من صبرَ نال المُنَى ، ومن شكر حَصَّن النُّعْمَى . وقال محمد ابن بشير :

إن الأمورَ إذا سُدت مطالبُها فالصبر يفتق منها كلَّ ما ارتَتَجا

لا تيأسنَّ و إن طالت مُطالبةٌ إذا استعنتَ بصبر أن ترى فرَجا

أخلِقْ بذى الصبر أن يحظَى بحاجته ومُدْمن القَرْع للأبوابِ أن يَلِجَا

والقسم السادس : الصبر على ما نزل من مكروه ، أو حلّ من أمر مَخوف ، فبالصبر فى هذا

تنفتح وجوه الآراء ، وتُستدفع مكايد الأعداء ، فإن مَن قل صبره ، عَزَب رأيه ، واشتدجزعه ، فصار صريع همومه ، وفريسةَ غُمومه . وقد قال الله تعالى : « واُصبر على ما أصابك ؛ إن ذلك من عزم الأمور » . وَرُوِى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنِ استطعتَ أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل ، و إن لم تستطع فاصبر ، فإن فى الصبر على ماتكره خيرا كثيرا . واعلم أن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، واليُسْر مع العسر » . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الصبرُ مستأصِل الحَدَثان ، والجزَع من أعوان الزمان . وقال بعض الحكماء : بمفتاح عزيمة الصبر ، تُعالج مغاليق الأمور . وقال بعض البلغاء : عند انسداد الفُرَج ، تبدو مطالع الفَرَج . وروَى ابن عباس رضى الله عنهما ، أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما استكدّ شياطينه فى البناء ، شكَوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ، فقال : ألستم تذهبون فُرّغا وترجعون مشاغيل ؟ قالوا : بلى . قال : ففى ذلك راحة . فبلغ ذلك سليمان ، على نبينا وعليه السلام ، فشغلهم ذاهبين وراجعين ، فشكَوْا ذلك إلى إبليس لعنه الله ، فقال : ألستم تستريحون بالليل ؟ قالوا : بلى . قال : ففى هذا راحة لكم ، نصفَ دهركم . فبلغ ذلك سليمانَ عليه السلام ، فشغلهم بالليل والنهار ، فشكَوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ، فقال : الآنَ جاءكم الفرَج . فما لبثوا أن أصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه . فإذا كان هذا فى نبىّ من أنبياء الله ، يعمل بأمره ، ويقف على حدّه ، فكيف بما جرت به الأقدار من يد عادية ، وساقه القضاء من حوادث نازلة ، هل تكون مع التناهى إلا منقرضة ، وعند بلوغ الغاية إلا منحسرة .

وأنشد بعض الأدباء لعثمان بن عفان رضى الله عنه :

خليلىَّ لاواللهِ مامن مُلِمَّةٍ	تدوم على حَىّ وإن هى جَلَّتِ
فإن نزلتْ يوما فلا تخضَعَنْ لها	ولاتُكثِرِالشكوَى إذا النعلُ زَلَّتِ
فكم من كريم قد بُلِى بنوائبٍ	فصابَرَها حتى مضتْ واضمحلتِ
وكم غمرةٍ هاجت بأمواج غَمرةٍ	تلقيتُها بالصبر حتى تجَلَّتِ
وكانتْ عَلَى الأيام نفسى عزيزةً	فلما رأتْ صبرى عَلَى الذلّ ذلّتِ
فقلت لها يانفسُ موتى كريمةً	فقد كانت الدنيا لنا ثم وَلّتِ

[تسهيل المصائب] : ولتسهيل المصائب ، وتخفيف الشدائد أسباب ، إذا قارنت حزما ، وصادفت عزما ، هان وقعها ، وقل تأثيرها وضررها .

فمنها استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء ، وتقضّى المَسارّ ، وأن لها آجالا مُنصرمة ، ومُدَدا منقضية ، إذ ليس للدنيا حال تدوم ، ولا لمخلوق فيها بقاء . وروَى ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النَّبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامَثَلى ومَثَلُ الدنيا إلا كمثل راكب ، مال إلى ظل شجرة فى يوم صائف ، ثم راح وتركها » .

وسُئل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن الدنيا ، فقال : تَغُرّ وتَضُرّ وتُمِرّ . وسأل بعض خلفاء بنى العباس جليسا له عن الدنيا ، فقال : إذا أقبلتْ أدبرتْ . وقال عمرو بن عُبيد : الدنيا أمَد ، والآخرة أبَد . وقال أنو شَروان : إن أحببت أن لاتغتمّ ، فلا تقتن ما به تهتمّ ، فأخذه بعض الشعراء ، فقال :

ألم تر أنّ الدهر من سُوء فعله ... يكدِّرُ ما أعطَى ويسلبُ ما أسدَى

فمَنْ سرَّه ألَّا يرى مايسوءه ... فلا يتخذْ شيئا يَخاف له فقْدَا

وأنشد بعض الحكماء :

لِحكيمنا بِقْراطَ خيرُ قضيةٍ ... ووصيةٍ تنفِى الهمومَ الرُّكَّدَا

قال : الهموم تكون من طَبَعَ الورى ... فى لُبْث ما فى طبعه أن يَنفَدَا

فإذا اقتنيتَ من الزجاجة قابلاً ... للكسر فانكسرت فلاتكُ مُكْمَدا

وأنشدنى بعض أهل العلم لسعيد بن مُسلم :

إنما الدنيا هباتٌ ... وعوارٍ مُسْتَرَدَّهْ

شدَّةٌ بعدَ رخاء ... ورخاء بعدَ شِدَّهْ

ولما قُتل بُزُرْجَمِهْرُ وُجد فى جيب قميصه رقعة فيها مكتوب : إذا لم يكن جَدّ ، ففيم الكدّ ؟ وإن لم يكن للأمر دوام ، ففيم السرور ؟ وإذا لم يرد الله دوام مُلك ، ففيم الحيلة ؟ وقال ابن الرومىّ :

رأيتُ حَياة المرءِ رَهْنا بموتهِ ... وصحتَهُ رَهْنا كذلك بالسَّقَمْ

إذا طابَ لى عيشٌ تنغصَ طِيبُه بصدقِ يقينى أَنْ سيذهبُ كالحُلمِ
ومن كان فى عيشٍ يراعِى زوالَهُ فذلك فى بؤسٍ وإن كان فى نُعْمِ

ومنها : أن يتصوّر انجلاء الشدائد ، وانكشاف الهموم ، وأنها تتقدر بأوقات لا تنصرم قبلها ، ولا تستديم بعدها ، فلا تَقْصُرُ بجزَع ، ولا تطول بصبر ، وأن كل يوم يمرّ بها ، يذهب منها بشطرْ[١] ، ويأخذ منها بنصيب ، حتى تنجلىَ وهو عنها غافل .

وحُكِى أن الرشيد حبس رجلا ، ثم سأل عنه بعد زمان ، فقال للموكَّل به : قل له كلُّ يوم يمضى من نعيمك ، يمضِى من بؤسى مثلهُ ، والأمر قريب ، والُحكم لله تعالى . فأخذ هذا المعنى بعضُ الشعراء ، فقال :

لو أنَّ ما أنتمُ فيه يدومُ لكمْ ظننت ما أنا فيه دائما أبدَا
لكننى عالم أنِّى وأنَّكمُ سنستجدُّ خلافَ الحالتين غدَا

وأنشدت لبعض الشعراء :

عواقبُ مكروهِ الأمور خيارُ وأيامُ ضُرٍّ لاتدومُ قِصارُ
وليس بباق بؤسها ونعيمُها إذا كرَّ ليل ثم كرَّ نهارُ

وأنشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين حضرته الوفاة .

ألم ترَ أنّ ربك ليس تُحْصَى أياديه الحديثةُ والقديمهْ
تسلَّ عن الهموم فليس شىء يقوم ولا همومُك بالمقيمهْ
لعلَّ اللهَ ينظر بعد هذا إليك بنظرة منه رحيمهْ

ومنها : أن يَعْلَمَ أن فيما وُقِىَ من الرزايا ، وكُفِىَ من الحوادث ، ماهو أعظم من رزيته ، وأشد من حادثته ، ليُعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع ، ولذلك قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « إن لله تعالى فى أثناء كلّ مِحنة مِنْحة » . وقيل للشعبىّ فى نائبة : كيف أصبحت ؟ قال : بين نِعمتين : خيرٍ منشور ، وشرٍّ مستور . وقال بعض الشعراء :

لاتَكْرَهِ المكروهَ عندَ حُلولهِ إنَّ العواقبَ لم تزلْ متباينهْ

---

(١) الشطر هنا : الجزء . والشطر أيضا نصف الشىء (عن تاج العروس) .

كم نعمة لاتستقلُّ بشكرها ... لِلّهِ فى طىِّ المكارهِ كامنَهْ

ومنها : أن يتأسَّى بذوِى الغِيَر ، ويتسلَّى بأُولى العِبَر ، ويعلم أنهمُ الأكثرون عدَدا ، والأسرعون مدَدا ، فيستجدّ من سَلوة الأسى ، وحُسن العزَا ، مايخفف شجْوَه ، ويُقِلُّ هلَعه .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الصقُوا بذوى الغِيَر ، تتسعْ قلوبكم . وعلى مثل ذلك كانت مراثى الشعراء ، قال البُحْتُرِىّ .

فلا عجَبٌ للأُسْد إن ظفرتْ بها ... كلابُ الأعادى من فصيحٍ وأعجَمِ

فحربةُ وحْشيٍّ سقتْ حمزةَ الرَّدَى ... وموتُ علىٍّ من حُسام ابن مُلْجَم

وقال أبو نُواس :

المرء بين مصائبٍ لاتنقضِى ... حتَّى يُوارَى جسمُه فى رَمْسِهِ

فمُؤَجَّل يلقَى الردَى فى أهلِهِ ... ومُعَجَّل يلقَى الردَى فى نفسِهِ

ومنها : أن يعلم أن النعم زائرة ، وأنها لامحالة زائلة ، وأن السرور بها إذا أقبلت ، مَشُوبٌ ، بالحذَر من فِراقها إذا أدبرتْ ، وأنها لاتفرِح بإقبالها فرَحا ، حتى تُعْقِب بفراقها ترَحا ؛ فعلى قدر السرور يكون الْحزْن . وقد قيل فى منثور الحكم : المفروح به ، هو المحزون عليه . وقيل : مَنْ بلغ غاية مايحب ، فليتوقَّع غاية ما يكره . وقال بعض الحكماء : مَن عَلِم أن كل نائبةٍ إلى انقضاء ، حسُن عزاؤه عند نزول البلاء . وقيل للحسن البَصْرِىّ رحمه الله : كيف ترى الدنيا ؟ قال : شغلنى توقُّع بلائها ، عن الفرح برَخائها . فأخذه أبو العتاهية ، فقال :

تزيدُه الأيام إن أقبلت ... شدّةَ خوفٍ لتصاريفها

كأنّها فى حال إسعافها ... تُسْمِعه وَقْعَةَ تخويفها

ومنها : أنْ يَعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره ، وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره ، إذ كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب ، وتصل صاحبا بفراق صاحب ، فتكون سرورا لمن وصلته ، وحزنا لمن فارقته ، وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « ماقرِعَتْ عصًا على عَصا ، إلَّا فَرِح لها قوم ، وحزن آخرون » . وقال البُحْتُرِىّ :

متى أرتِ الدنيا نباهةَ خاملٍ ... فلا ترتقبْ إلَّا خُمولَ نَبيهِ

وقال المتنبى :

بذا قضتِ الأيامُ مابين أهلِها مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ

وأنشد بعض أهل الأدب :

ألا إنما الدنيا غضارة أيكةٍ إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ

فلا تفرحَنْ منها لشىء تفيدُه سيذهب يومًا مثلَ ما أنت ذاهبُ

وما هـذه الأيام إلّا فجائعٌ وما العيش واللذاتُ إلا مصائبُ

ومنها : أن يعلم أن طوارق الإنسان من دلائل فضله ، ومِحَنه من شواهد نُبْـله ، وذلك لإحدى عِلّتين : إما لأن الـكمال مُعْوِز ، والنقصَ لازم ، فإذا تواتر الفضل عليه ، صار النقص فيما سواه . وقد قيل : من زاد فى عقله ، نقص من رزقه . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما انتُقِصَتْ جارحة من إنسان ، إلا كانت ذَكَاء فى عقله » . وقال أبو العتاهية :

ماجاوز المرء من أطرافه طرَفا إلا تخوَّنه النقصانُ من طرَفِ

وأنشدنى بعض أهل الأدب لإبراهيم بن هلال الكاتب :

إذا جمعتْ بين امرَأين صِناعةٌ فأحببتَ أن تدرِى الذى هو أحذقُ

فلا تتفقدْ منهما غـيرَ ما جرت به لهما الأرزاقُ حين تفَرَّقُ

فحيثُ يكون النقصُ فالرزق واسعٌ وحيث يكون الفضلُ فالرزق ضيقُ

وإما لأن ذا الفضل محسود ، وبالأذى مقصود ، فلا يسلم فى بره من مُعاد ، واشتطاط مُناو . وقال الصَّنَوْبَرىّ :

مِحَن الفتى يُخْبِرْنَ عن فضل الفتَى كالنار مخبرةً بفضل العنـــبرِ

وقلما تـكون محنة فاضلٍ إلا من جهة ناقص ، وبلْوَى عالم إلا على يد جاهل ؛ وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة ، وحدوث الانتقام لأجل التقدم ، وقد قال الشاعر :

فلا غَرْوَ أن يُمْنَى عليمٌ بجاهلٍ فمن ذَنَبِ التِّنِّين[1] تنكسِفُ الشمسُ

ومنها : مايعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ، ويستفيده من الحُنكة ببلاء دهره ، فيصلُب عودُه ، ويستقيم عمودُه ، ويكمل بأدنى شدته ورخائه ، ويتعظ بحالة عَفوه و بلائه.

---

(١) أصل التنين : الحية العظيمة وهو هنا : نجم من نجوم السماء ، وليس بكوكب . ولكنه بياض خفى يكون جسده فى ستة بروج ، وذنبه فى السابع ، دقيق أسود فيه التواء ، وهو يتنقل تنقل الكواكب الجوارى. (عن تاج العروس للزبيدى).

حُكى عن ثعلبٍ قال : دخلت على عُبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خِلَع الرضا بعد النكبة ؛ فلما مَثَلْت بين يديه قال لى : يا أبا العباس ، اسمع ما أقول :

نوائبُ الدهرِ أدّبتنى   وإنما يُوعظُ الأديبُ
قد ذُقْتُ حُلْوا وذقت مُرًّا   كذاك عيش الفتى ضُروبُ
لم يمضِ بؤسٌ ولا نعيمٌ   إلا ولى فيهما نصيبُ
كذاكَ من صاحب الليالى   تغذُوه من دَرِّها الخطوبُ

فقلت : لمن هذه الأبيات ؟ قال : لى .

ومنها : أن يختبر أمور زمانه ، ويتنبه على صلاح شانه ، فلا يغترَّ برخاء ، ولا يطمعَ فى استواء ، ولا يؤملَ أن تبقى الدنيا على حالة ، أو تخلوَ من تقلب واستحالة ، فإن من عرف الدنيا ، وخبر أحوالها ، هان عليه بؤسُها ونعيمُها . وأنشد بعض الأدباء :

إنى رأيتُ عواقبَ الدنيا   فتركتُ ما أهوَى لما أخشَى
فكَّرْتُ فى الدنيا وعالِمِها   فإذا جميعُ أمورها تَفْنَى
وبلَوْتُ أكثرَ أهلها فإذا   كل امرئ فى شأنه يَسْعَى
أسنَى منازلها وأرفعُها   فى العزِّ أقربُها من المَهْوَى
تعفو مَساويها محاسِنَها   لافرقَ بينَ النعْىِ والبُشْرَى
ولقد مررتُ على القبور فما   مَيَّزْتُ بين العبدِ والمولَى
أتُرَاكَ تدرى كم رأيتَ من الـأحياء ثم رأيتهمْ مَوْتَى

فإذا ظفر المصاب ، بأحد هذه الأسباب ، تخففت عنه أحزانه ، وتسهَّلَتْ عليه أشجانه ، فصار وَشِيكَ السَّلْوة ، قليلَ الجزَع ، حسن العزاء . وقال بعض الحكماء : من حاذر لم يَهْلع ، ومن راقب لم يجزَعْ ، ومن كان متوقعا ، لم يكن متوجِّعا . وقال بعض الشعراء :

ما يكون الأمرُ سهلاً كلُّه   إنما الدنيا سرورٌ وحُزُونْ
هَوِّنِ الأمرَ تعِشْ فى راحةٍ   قلَّ مَا هوَّنتَ إلا سيهونْ
تطلب الراحة فى دار العَنا   ضلَّ منْ يطلبُ شيئا لا يكونْ

فإن أغفل نفسه عن دواعى السلوة ، ومنعها من أسباب الصبر ، تضاعف عليه من شدة الأسَى ، وهمّ الجزع ، مالا يُطِيق عليه صبرا ، ولا يجد عنه سُلُوا . وقال ابن الرومى :

إن البلاء يُطاقُ غيرَ مضاعفٍ فإذا تضاعفَ صار غيرَ مُطاقِ

فإذا ساعده جَزَعه بالأسباب الباعثة عليه ، وأمدّه هَلَعه بالذرائع الداعية إليه ، فقد سعى فى حَتْفه ، وأعان على تَلفه .

[أسباب الجزع] فمن أسباب ذلك : تذكُّر المصاب حتى لايتناساه ، وتصوُّره حتى لايعزُبُ عنه ، ولا يجدُ من التذكار سَلْوة ، ولا يخلط مع التصوّر تعزية . وقد قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : لاتستفزوا الدُّموع بالتذكّر . وقال الشاعر :

« ولا يبعث الأحزان مثل التذكر »

ومنها : الأسَف وشدة الحسرة ، فلا يرى من مصابه خَلَفا ، ولا يجد لمفقوده بدلا ، فيزداد بالأسف وَلَهَا ، و بالحسرة هَلَعا . ولذلك قال الله تعالى : « لـكيلا تأسَوْا على مافاتكم، ولاتفرحوا بما آتاكم » . وقال بعض الشعراء :

إذا بُليتَ فثقْ بالله وارضَ به إن الذى يكشف البلوَى هو اللهُ
إذا قضى اللهُ فاستسلم لقدرتهِ مالامرىءٍ حيلةٌ فيما قضى اللهُ
اليأس يَقْطَع أحيانا بصاحبهِ لا تيأسنَّ فإن الصانع اللهُ

ومنها : كثرة الشكوَى ، و بثُّ الجزَع ، فقد قيل فى قوله تعالى: « فاصبر صبرا جميلا »: إنه الصبر الذى لاشكوى فيه ولا بثّ . رَوَى أنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « ماصَبر من بَثّ » . وحكى كعبُ الأحبارِ ، أنه مكتوب فى التوراة : من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس ، فإنما يشكو ربه . وحُكى أن أعرابية دخلت من البادية ، فسمعت صُراخا فى دار ، فقالت : ماهذا ؟ فقيل لها : مات لهم إنسان . فقالت : ما أراهم إلاّ من ربهم يَستغيثون ، و بقضائه يتبرَّمون ، وعن ثوابه يرغبون . وقد قيل فى منثور الحكم : من ضاق قلبه اتسع لسانه . وأنشد بعض أهل العلم :

لاتُكثِرِ الشكوى إلى الصديقِ وارجع إلى الخالق لاالمخلوقِ
لايُخرِجِ الغريقُ بالغريقِ

وقال بعض الشعراء :

لاتشكُ دهرَك ما صَحَحْتَ به ... إن الغِنَى هو صحة الجسْمِ

هبكَ الخليفةَ كنتَ منتفعا ... بغضارة الدنيـا مع السَّقَمِ

ومنها : اليأس من جَبْر مُصابه ، ودَرْك طِلابه ، فيقترن بحزن الحادثة قنوط الإياس ، فلا يبقى معهما صبر ، ولا يتسع لهما صَدْر . وقد قيل : المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين . وقال ابن الرومىّ :

إصـــبرى أيتها النفْـــسُ فإنّ الصبرَ أحْجَى

رُبَّما خاب رجاءٌ ... وأتى ماليسَ يُرْجَى

وأنشدنى بعض أهل العلم :

أتحسِب أنّ البؤس للحـــر دائمٌ ... ولو دام شىء عدّه الناس فى العَجَبْ

لقد عرَّفَتْكَ الحادثاتُ ببؤسِها ... وقد أدَّبَتْ إن كان ينفعُك الأدَبْ

ولوطلب الإنسان من صَرْف دَهرِهِ ... دوامَ الذى يخشَى لأعياه ما طلَبْ

ومنها : أن يَغْرَى بملاحظة من حِيطت سلامتُه ، وحُرِست نعمته ، حتى التحف بالأمن والدعَة، واستمتع بالثروة والسَّعَة، ويرى أنه قد خُصَّ من بينهم بالرزية، بعد أن كان مساويا ، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافيا ، فلا يستطيع صَبْرا على بَلْوى ، ولايلزم شكرا على نُعْمَى ، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه فى الرّزية ، وساواه فى الحادثة ، لتكافأ الأمران ، فهان عليه الصبر ، وحان منه الفرج . وأُنشدت لامرأة من العرب :

أيُّها الإنسانُ صَـبْرًا ... إن بعد العسر يسرًا

كم رأينا اليومَ حُرًّا ... لم يكن بالأمس حُرًّا

ملك الصـبرَ فأضحى ... مالكا خـيرًا وشرًّا

اشرب الصبرَ وإن كا ... ن من الصـبْر أَمَرًّا

وأُنشدت لبعض أهل الأدب :

رُاعُ الفتى للخطبِ تبدو صدورهُ ... فيأسَى وفى عُقباه يأتى سرورهُ

ألم ترَ أن الليلَ لما تراكمتْ دُجاه بدا وجه الصباح ونورُهُ

فلا تصحبَنَّ اليأسَ إن كنتَ عالما لبيبا فإن الدهر شتَّى أمورُهُ

[الصبر على المصائب] واعلم أنه قلّ من صَبَرَ على حادثة ، وتماسك فى نكبة ، إلا كان انكشافها وشيكا ، وكان الفرج منه قريبا .

أخبرنى بعض أهل الأدب أن أبا أيوبَ الكاتب حُبِس فى السجن خمس عشرة سنة ، حتى ضاقت حيلته ، وقل صبرُه ، فكتب إلى بعض إخوانه ، يشكو له طول حبسه ، فردّ عليه جوابَ رقعته بهذا :

صَبْرًا أبا أيوب صَبْرَ مُبَرَّحٍ فإذا عجزتَ عن الخطوب فمنْ لها؟

إن الذى عقد الذى انعقدت له عُقَدُ المكاره فيك يَملِكُ حَلَّها

صَبْرًا فإن الصبر يعقب راحة ولعلَّها أن تنجلى ولعلّها

فأجابه أبو أيوب يقول :

صَبَّرْتنى ووعظتنى وأنا لها وستنجلى بلْ لا أقول لعلّها

ويَحُلُّها من كان صاحبَ عَقْدِها كرَمًا به إذ كان يملكُ حَلَّها

فلم يلبث بعد ذلك فى السجن إلَّا أياما ، حتى أطلق مُكرَّما .

وأنشد ابن دُريد عن أبى حاتم :

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصدرُ الرحيبُ

وأَوْطَنَتِ المكارهُ واطْمأَنَّتْ وأرستْ فى مكانتها الخطوبُ

ولم ترَ لانكشاف الضُّرّ وجْها ولا أغنى بحيلته الأريبُ

أتاك على قُنوطٍ منك غَوْثٌ يَمُنُّ به اللطيفُ المستجيبُ

وكلُّ الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريبُ

الفصل الثالث : فى المشورة

[فضل المشورة] اعلم أن من الحزم لكل ذى لُبّ ، ألاّ يُبرم[1] أمرا ، ولا يُمضى عزما ، إلا بمشورة ذى الرأى الناصح ، ومطالعة ذى العقل الراجح ، فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم ، مع ماتكفّل به من إرشاده ، ووعد به من تأييده ، فقال تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فى الأمر » .

قال قتادة : أمره بمشاورتهم تألفا لهم، وتطييبا لأنفسهم. وقال الضحاك : أمره بمشاورتهم ، لِمَا علم فيها من الفضل . وقال الحسن البصرىّ رحمه الله تعالى : أمره بمشاورتهم ليستنّ به المسلمون ، ويَتّبِعَهُ فيها المؤمنون ، وإن كان عن مشورتهم غنيّا . ورُوِى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال: « المشورةُ حِصْن من الندامة ، وأمان من الملامة». وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : نعم المُوَازرة المشاورة ، و بئس الاستعداد الاستبداد . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الرجال ثلاثة : رجل تَرِد عليه الأمور، فيسدّدها برأيه؛ ورجل يشاور فيما أشكل عليه ، وينزل حيث يأمره أهل الرأى ؛ ورجل حائر بَائِر ، لايأتمر رُشْدا ، ولا يطيع مُرشدا . وقال عمر بن عبد العزيز : إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ، ومفتاحا بَرَكة ، لايضلّ معهما رأى ، ولا يُفقد معهما حَزْم . وقال سيفُ بن ذى يَزَن : من أُعْجِب برأيه لم يشاور ، ومن استبدّ برأيه كان من الصواب بعيدا . وقال عبد الحميد : المشاوِر فى رأيه ، ناظر من ورائه . وقيل فى منثور الحكم : المشاورة راحة لك ، وتعب على غيرك . وقال بعض الحكماء : الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال بعض الأدباء : ماخاب من استخار ، ولاندم من استشار . وقال بعض البلغاء : من حَقّ العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء ، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء ، فالرأى الفذّ[2] ربما زلّ والعقل الفرد ، ربما ضلّ . وقال بشار ابن بُرد :

إذا بلغَ الرأىُ المشورة فاستعنْ ... برأىِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ[3]
ولاتجعلِ الشورَى عليك غَضاضةً ... فإنّ الخوافى قُوّةٌ للقوادمِ

(١) يبرم الأمر : ينفذه ويمضى فيه . (٢) الفذ : الفرد .
(٣) أى إما أن تعمله برأى النصيح ، أو تتركه بنصيحة الحازم ، وتنتظر زمان إمكانه .

[خصال المشير] فإذا عزم على المشاورة، ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال:

إحداهنّ : عقل كامل ، مع تجربة سالفة ، فإنه بكثرة التجارب تصح الرويّة . وقد رَوَى أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «استرشدوا العاقل تَرْشُدوا ، ولا تعصُوه فتندموا » . وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد : احذرْ مُشاوَرة الجاهل وإن كان ناصحا ، كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدوّا ، فإنه يُوشك أن يُوَرِّطَك بمشاورته ، فيسبق إليك مكرُ العاقل ، وتوريطُ الجاهل .

وقيل لرجل من عبس ما أَكثرَ صوابَكم ؟ قال : نحن ألف رجل ، وفينا حازم ، ونحن نطيعه ، فكأنا ألف حازم . وكان يقال : إياكَ ومشاورةَ رجلين : شابٍّ معجَب بنفسه ، قليل التجارب في غيره ؛ أو كبيرٍ قد أخذ الدهر من عقله ، كما أخذ من جسمه . وقيل في منثور الحكم : كل شيء يحتاج إلى العقل ، والعقل يحتاج إلى التجارب ، ولذلك قيل : الأيام تَهتِك لك عن الأستار الكامنة . وقال بعض الحكماء : التجاربُ ليست لها غاية ، والعاقل منها في زيادة . وقال بعض الحكماء : من استعان بذوى العقول ، فاز بدرْك المأمول .

وقال أبو الأسود الدؤليّ :

وما كل ذى لب بمؤتيكَ نصحَهُ ... ولا كل مؤتٍ نصحَه بلبيبِ
ولكن إذا ما استجْمَعا عند صاحبٍ ... فحُقّ له من طاعةٍ بنصيبِ

والخصلة الثانية : أن يكون ذا دين وتُقَى ، فإن ذلك عماد كل صلاح ، وباب كل نجاح ، ومن غلب عليه الدِّين ، فهو مأمون السريرة ، موفَّق العزيمة . رَوَى عِكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أراد أمرا فشاور فيه أُمرَأً مسلما ، وفقه اللهُ لأرشد أموره » .

والخصلة الثالثة : أن يكون ناصحا ودودا ، فإن النصح والمودّة يَصْدُقان الفكرة ، ويُمْحِضان الرأى . وقد قال بعض الحكماء : لا تشاور إلا الحازم غير الحسود ، واللبيب غير الحقود ؛ وإياكَ ومشاورةَ النساء ، فإن رأيَهن إلى الأفْن [1] ، وعزمَهُن إلى الوَهْن . وقال بعض الأدباء : مَشُورة المشْفِق الحازم ظَفَر ، ومشورة غير الحازم خَطَر . وقال بعض الشعراء :

---

(١) الأفن : الضعف . والمأفون : الضعيف العقل .

أصْفُ ضميرا لمن تعاشرُهُ   واسْكُن إلى ناصح تشاورُهُ
وأرضَ من المرء فى مودّتِهِ   بما يُؤَدِّى إليكَ ظاهرُهُ
مَنْ يكْشِفِ الناسَ لايجدْ أحدا   تنصح منهــم له سرائرُهُ
أوْشَكَ ألّا يدومَ وصْلُ أخٍ   فى كلِّ زلّاته تنافِــرُهُ

والخصلة الرابعة : أن يكون سَليم الفكر ، من همّ قاطع ، وغمّ شاغل ، فإن مَنْ عارضتْ فكْرَه شوائبُ الهموم ، لايسلم له رأى ، ولايستقيم له خاطر . وقد قيل فى منثور الحكم : كل شىء يحتاج إلى العقل ، والعقل يحتاج إلى التجارب . وكان كسرى إذا دَهِمَه أمر ، بعث إلى مَرَازبته[1] فاستشارهم ، فإن قَصَّروا فى الرأى ، ضرب قَهارمته[2] وقال : أبطأتم بأرزاقهم ، فأخطئُوا فى آرائهم . وقال صالح بن عبد القدوس :

ولا مُشِيرَ كذى نصحٍ ومقــدُرَةٍ   فى مُشْكل الأمر فاختر ذاك منتصِحَا

والخصلة الخامسة : ألّا يكون له فى الأمر المستشار غرَض يتابعه ، ولا هوًى يساعده ، فإن الأغراض جاذبة ، والهوى صادّ ، والرأى إذا عارضه الهوى ، وجاذبته الأغراض فسد . وقد قال الفضل بن العباس بن عُتبةَ بن أبى لهَب :

وقد يُحْكِمِ الأيام مَن كان جاهلاً   ويُرْدِى الهوى ذا الرأى وهْو لبيبُ
ويُحْمَدَ فى الأمر الفتى وهو مخطِئٌ   ويُعْذَل فى الإحسان وهو مصيبُ

فإذا استُكملت هذه الخصال الخمس فى رجل ، كان أهلا للمشورة ، ومعدِنا للرأى ، فلا تعدِل عن استشارته ، اعتمادا على ماتتوهمه من فضل رأيك ، وثقة بما تستشعره من صحة رَوِيَّتك ، فإن رأىَ غير ذى الحاجة أسلم ، وهو من الصواب أقرب ، لخلوص الفكر ، وخلوّ الخاطر ، مع عدَم الهوى ، وارتفاع الشهوة . وقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رأس العقل بعد الإيمان بالله ، التوددُ إلى الناس ، وما استغنى مستبدّ برأيه ، وما هلك أحد عن مَشُورة ، فإذا أراد اللهُ بعبد هَلَكة ، كان أوّلَ مايهلكه رأيُهُ » . وقال علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه : الاستشارةُ عين الهداية ، وقد خاطر مَنِ استغنى برأيه . وقال لُقمان الحكيم لابنه : شاورْ من جَرّب الأمور ، فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغَلاء ،

(١) المرازبة : جمع المرزبان ، بفتح الميم ، وضم الزاى ، وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم ، دون الملك . وهو معرب . (٢) القهارمة : جمع قهرمان ، بفتح القاف ، وهم أمناء الملك وخاصته ، الحافظون لما تحت أيديهم من أمواله وغيرها . فارسى معرب .

وأنت تأخذه مَجَّانا . وقال بعض الحكماء : نصف رأيك مع أخيك ، فشاوره ليكمل لك الرأى . وقال بعض الأدباء : من استغنى برأيه ضَلّ ، ومن اكتفى بعقله زلّ . وقال بعض البلغاء : الخطأ مع الاسترشاد ، أحمد من الصواب مع الاستبداد . وقال الشاعر :

خليليّ ليس الرأىُ فى صدر واحدٍ أشيرَا علىّ بالذى تريَانِ

[معاذير النوكى] ولا ينبغى أن يتصوّر فى نفسه أنه إن شاور فى أمره ، ظهر للناس ضعف رأيه ، وفساد رَوِيته ، حتى افتقر إلى رأى غيره ، فإنّ هذه معاذير النَّوكَى ، وليس يراد الرأى للمباهاة به ، وإنما يراد للانتفاع بنتيجته ، والتحرّز من الخطأ عند زلله ، وكيف يكون عارا ما أدّى إلى صواب ، وصدّ عن خطأ . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَقِّحُوا عقولكم بالمذاكرة ، واستعينوا على أموركم بالمشاورة » . وقال بعض الحكماء : مِنْ كمال عقلك ، استظهارُك على عقلك . وقال بعض البلغاء : إذا أشكلتْ عليك الأمور ، وتغير لك الجُمهور ، فارجع إلى رأى العقلاء ، وافزَع إلى استشارة العلماء ، ولا تأنفْ مِنَ الاسترشاد ، ولا تستنكف مِنَ الاستمداد ، فلَأن تسأل وتسلَمَ ، خير لك من أن تستبدّ وتندَم .

وينبغى أن تكثر من استشارة ذوى الألباب ، لا سيا فى الأمر الجليل ، فقلما يضلّ عن الجماعة رأى ، أو يذهب عنهم صواب ، لأن إرسال الخواطر الثاقبة ، وإجالة الأفكار الصادقة ، لا يعزُب عنها ممكن ، ولا يخفى عليها جائز . وقد قيل فى منثور الحكم : من أكثر المشورة ، لم يعدم عند الصواب مادحا ، وعند الخطإ عاذرا ، وإن كان الخطأ من الجماعة بعيدا .

[استشارة أولى الرأى] فإذا استشار الجماعة ، فقد اختلف أهلُ الرأى فى اجتماعهم عليه ، وانفرد كل واحد منهم به .

فمذهب الفرْس أن الأوْلَى اجتماعهم على الارتياء ، وإجالة الفكر ، ليذكُرَ كل واحد منهم ماقدحه خاطره ، وأنتجه فكره ، حتى إذا كان فيه قَدْح عُورض ، أو توَجّهَ عليه ردّ نُوقض ، كالجدَل الذى تكون فيه المناظرة ، وتقع فيه المنازعة والمشاجرة ، فإنه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خَلَلٌ إلا ظهر ، ولا زَلل إلا بان .

وذهب غيرهم من أصناف الأمم ، إلى أن الأوْلَى استسرار كل واحد بالمشورة ، ليجيل كل واحد منهم فكره فى الرأى ، طمعا فى الحُظوة بالصواب ، فإن القرائح إذا انفردت

استكدّها الفكر ، واستفرغَها الاجتهاد ، وإذا اجتمعت فوّضت ، وكان الأول من بدائهها مَتبوعا . ولكل واحد من المذهبين وجه ، ووجه الثانى أظهر .

والذى أراه فى الأَوْلى : غير هذين المذهبين على الإطلاق ، ولكن ينظر فى الشورَى ، فإن كانت فى حال واحدة : هل هى صواب أم خطأ ؟ كان اجتماعهم عليها أولى ، لأن ماتردّد بين أمرين ، فالمراد منه الاعتراض على فساده ، أوظهور الحجة فى صلاحه ، وهذا مع الاجتماع أبلغ ، وعند المناظرة أوضح . وإن كانت الشورَى فى خَطْب قد استبهم صوابه ، واستعجَم جوابه ، من أمور خافية ، وأحوال غامضة ، لم يَحصُرْها عدد ، ولم يجمعها تقسيم ، ولاعُرِف لها جواب يُكْشَف عن خطئه وصوابه . فالأَوْلَى فى مثله : انفراد كل واحد بفكره ، وخلوّه بخاطره ، ليجتهد فى الجواب ، ثم يقع الكشف عنه : أخطأ هو أم صواب ؟ فيكون الاجتهاد فى الجواب منفردا ، والكشف عن الصواب مجتمعا ، لأن الانفراد فى الاجتهاد أوضح ، والاجتماع على المناظرة أبلغ ، فهكذا هذا .

وينبغى أن يسلمَ أهلُ الشورَى من حسد أو تنافُس ، فيمنعَهم من تسليم الصواب لصاحبه ، ثم يَعرض المستشير ذلك على نفسه ، مع مشاركتهم فى الارتياء والاجتهاد ، فإذا تصفح أقاويل جميعهم ، كَشَف عن أصولها وأسبابها ، وبحث عن نتائجها وعواقبها ، حتى لا يكون فى الأمر مقلِّدا ، ولا فى الرأى مفوِّضا ، فإنه يستفيد بذلك ، مع ارتياضه بالاجتهاد ، ثلاث خِصال .

إحداهن : معرفة عقله ، وصحة رَوِيَّته . والثانية : معرفة عقل صاحبه ، وصواب رأيه . والثالثة : وضوح ما استعجَم من الرأى ، وافتتاح ما أُغلق من الصواب .

[نصائح فى المشورة] فإذا تقرّر له الرأى أمضاه ، ولا يؤاخذُهم بعواقب الإكداء فيه ، فإنما على الناصح الاجتهاد ، وليس عليه ضَمان النُّجْح ، لاسيما والمقادير غالبة ، ومتى عُرِف منه تعقُّب المشير ، وُكِل إلى رأيه ، وأُسلم إلى نفسه ، فصار فردا ، لا يُعان برأى ، ولا يُمدّ بمشورة ، وقد قالت الفرس فى حكَمها : أضعفُ الحيلة ، خير من أقوى الشدة ، وأقل التأنّى خير من أكثر العَجَلة ، والدَّوْلَة[1] رسول القضاء المُبرَم . وإذا استبدّ الملك برأيه عَمِيت عليه المَرَاشد . وإذا ظَفِر برأى من خامل لا يراه للرأى أهلا ، ولا للمشورة مستوجِبا ، اغتنمه عفوًا ، فإن الرأى كالضالّة : تؤخذ أين وُجِدت ، ولا يَهُون لمهانة صاحبه فيُطْرَح ، فإن الدرّة لا يضعها

(١) الدولة : الحرب .

مَهانةٌ غائصها ، والضالّة لا تُترَك لِذلة واجدِها ، وليس يُراد الرأى لمكان المشير به ، فيراعَى قدره ، وإنما يُرادلانتفاع المستشير ، وأنشد أبوالعَيناء عن الأصمعىّ :

النصحُ أرخص ماباع الرجالُ فلا ... ترْدُدْ على ناصح نُصْحا ولا تَلُمِ
إنّ النصائحَ لاتخفى مناهجُها ... على الرجالِ ذوى الألباب والفَهَمِ

ثم لا وجه لمن تقرّر له رأى أن يَنِىَ فى إمضائه ، فإن الزمان غادر ، والفُرَص منتهزَة ، والثقة عجز . وقيل لملك زال عنه مُلْـكه : ما الذى سَلَبك مُلْـكَك ؟ قال : تأخيرى عملَ اليوم لغَدٍ . وقال الشاعر :

إذا كنتَ ذارأىٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ ... ولا تكُ بالترْداد للرأى مُفسِدا
فإنى رأيتُ الرَّيْثَ فى العزم هُجْنة ... وإنفاذَ ذى الرأى العزيمةَ أرشدَا

وينبغى لمن أُنزِل منزلة المستشار ، وأُحِلّ مَحَلّ الناصح المُوادّ ، حتى صار مأمول النُّجْح ، مَرْجُوّ الصواب ، أن يؤدِّىَ حَقّ هذه النعْمة ، بإخلاص السريرة ، ويكافىء على الاسترسال ببذل النُّصح . فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنّ من حق المسلم على المسلم إذا استنصحه ، أن ينصحه » . وربما أبطرته المُشاوْرة ، فأُعجب برأيه ، فاحذره فى المشاورة ، فليس للمعجَب رأى صحيح ، ولا رَوِية سليمة ، وربما شحّ فى الرأى ، لعداوة أو حسد ، فوَرَّى[(١)] أو مكر ، فاحذر العدوّ ، ولا تثق بحسود ، ولا عُذر لمن استشاره عدوّ أو صديق ، أن يكتم رأيا وقد استُرْشِد ، ولا أن يخون وقد اؤتُمن .

رَوَى محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها : أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « المستشيرُ مُعان ، والمستشار مُؤْتمن » . وقال سليمان بن يزيد :

وأجبْ أخاك إذا استشارك ناصحا ... وعلى أخيـكَ نصيحةٌ لاترْدُدِ

ولا ينبغى أن يشير قبل أن يُستشار ، إلا فيما مسّ ، ولا أن يتبرّع بالرأى إلّا فيما لزم ، فإنه لا ينفكّ من أن يكون رأيا مُتَّهما أومُطَّرحا ، وفى أىّ هذين كان ، وَصْمة ، وإنما يكون الرأى مقبولا إذا كان عن رغبة وطلب ، أوكان لباعث وسبب . رَوَى أبو بلال العِجْلِىّ ، عن حُذيفة بن اليمان ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال لقمان لابنه : يابنىّ ، إذا

---

(١) التورية : أن يريد المتكلم بكلامه خلاف ظاهره . واللقطة عن منهاج اليقين ص ٤٩٦ .

استُشْهِدت فاشهد ، وإذا استُعِنتَ فأعن ، وإذا استُشِرت فلا تعجَل حتى تنظُر » . وقال بَيْهسُ الكِلابِيّ :

مِنَ الناس مَنْ إن يَستَشِرْكَ فتجتهدْ له الرأيَ يستغششْكَ ما لاَ تُتَابِعهُ (١)

فلا تمنَحَنَّ الرأيَ من ليس أهلَه فلا أنت محمودٌ ولا الرأيُ نافعهُ

الفصل الرابع : فى كتمان السر

[فضل كتمان السر] اعلم أن كتمان الأسرار ، من أقوى أسباب النجاح ، وأدوم لأحوال الصلاح . رُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحاجات بالكتمان ، فإن كل ذى نعمة مَحسود » . وقال عليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : سرُّك أسيرُك ، فإن تكلمت به صِرْتَ أسيرَه . وقال بعض الحكماء لابنه : يابنيّ ، كنْ جوادا بالمال فى موضع الحق ، ضَنينا بالأسرار عن جميع الخلق ، فإنّ أحمد جود المرء ، الإنفاق فى وجه البرّ ، والبخل بمكتوم السرّ . وقال بعض الأدباء : من كتم سِرّه ، كان الخِيار إليه ، ومن أفشاه كان الخِيار عليه . وقال بعض البلغاء : ما أسرَّك ، ما كتمتَ سِرّك ! وقال بعض الفصحاء : مالم تغيبه الأضالع ، فهو مكشوف ضائع . وقال بعض الشعراء ، وهو أنَسَ بن أسيد :

ولا تُفْشِ سرَّك إلَّا إليكَ فإنّ لكل نصيح نصيحَا

فإنى رأيت وُشاة الرجا لِ لايتركونَ أديمًا صحيحَا

وكم من إظهار سرّ أراق دم صاحبه ، ومَنَع من نيل مَطالبه ، ولو كتمه كان من سطوته آمنا ، وفى عواقبه سالما ، ولنجاح حوائجه راجيا .

وقال أنُو شِرْوان : مَنْ حصّن سرّه ، فله بتحصينه خَصلتان : الظفر بحاجته ، والسلامة من السّطَوَات ، وإظهار الرجل سرّ غيره ، أقبح من إظهار سرّ نفسه ، لأنه يبوء بإحدى وَصْمَتين : الخيانة إن كان مؤتَمنا ، أوالنميمة إن كان مستودَعا . فأما الضررُ فربما استويا فيه ، أو تفاضلا وكلاهما مذموم ، وهو فيهما ملوم .

[مذام إفشاء السر] وفى الاسترسال بإبداء السر دلائل على ثلاث أحوال مذمومة .

إحداها : ضيق الصدر ، وقلة الصبر ، حتى إنه لم يتّسع لسر ، ولم يقدِر على صبر .

---

(١) كذا فى المخطوطة رقم ٧٧٨ أدب بدار الكتب المصرية . وفى المطبوعة : تبايعه .

وقال الشاعر :

إذا المرء أفشى سرَّه بلسانهِ ولام عليهِ غيرَه فهْوَ أحمقُ

إذا ضاق صدرُ المرء عن سرِّ نفسِهِ فصدرُ الذى يُستودَع السرَّ أضيقُ

والثانية : الغفلة عن تحذّر العُقلاء ، والسهو عن يقظة الأذكياء . وقد قال بعض الحكماء : انفرد بسرِّك ، ولا تُودِعْه حازما فيزلّ ، ولا جاهلا فيخون .

والثالثة : ما ارتكبه من الغرَر ، واستعمله من الخطَر . وقد قال بعض الحكماء : سرُّك من دمك ، فإذا تكلمت به فقد أرَقْته .

[من يستودع السر؟] واعلَم أن مِنَ الأسرار مالا يُستغنَى فيه عن مطالعة صديق مُساهم ، واستشارة ناصح مسالم ، فليختر العاقل لسره أمينا ، إن لم يجد إلى كتمه سبيلا ، وليتحرَّ فى اختيار مَن يأتمنه عليه ، ويَستودِعه إياه ، فليس كل من كان على الأموال أمينا ، كان على الأسرار مؤتمنا ، والعِفة عن الأموال ، أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار ، لأن الإنسان قد يُذيع سر نفسه ، بمبادرة لسانه ، وسَقَط كلامه ، ويشِحّ باليسير من ماله ، حفظا له ، وضَنا به ، ولا يرى ما أضاع من سره كبيرا ، فى جنب ماحفظه من يسير ماله ، مع عِظَم الضرر الداخل عليه ؛ فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشد تعذرا ، وأقل وجودا من أمناء الأموال ، وكان حفظ المال ، أيسر من كتم الأسرار ، لأن أحراز الأموال منيعة ، وأحراز الأسرار بارزة ، يذيعها لسان ناطق ، ويشيِّعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : القلوب أوعية الأسرار ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كلُّ امرىء مِفتاح سرِّه .

ومن صفات أمين السر : أن يكون ذا عقل صادّ ، ودين حاجز ، ونصح مبذول ، ووُدّ موفور ، وكتوما بالطبع ؛ فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة ، وتُوجِب حفظ الأمانة ؛ فمن كملت فيه فهو عَنْقاء مُغْرِب[1] . وقيل فى منثور الحكم : قلوب العقلاء ، حصون الأسرار . وليحذَر صاحبُ السر أن يُودِعَ سره من يتطلع إليه ، ويؤثِرُ الوقوف عليه ، فإن طالب الوديعة خائن .

وقيل فى منثور الحكم : لاتُنكِح خاطب سرِّك .

---

(١) أى لا وجود له . والعنقاء : اسم طائر عظيم مجهول (لعله كان موجودا ثم انقرض) . ويقال له عنقاء مغرب أو مغربة ، لأنه يغرب فى طيرانه ، ويبعد .

وقال صالح بن عبد القدّوس :

لا تُذِعْ سرا إلى طالبِهِ   منك فالطالبُ للسرِّ مُذيعُ

ولْيحذر كثرة المستودَعين لسره ، فإن كثرتهم سبب الإذاعة ، وطريق إلى الإشاعة ، لأمرين :

أحدهما : أن اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير مُعْوِز ، ولابدّ إذا كَثُروا من أن يكون فيهم من أخلّ ببعضها .

والثانى : أن كل واحد منهم يجد سبيلا إلى نفى الإذاعة عن نفسه ، و إحالة ذلك على غيره فلا يضاف إليه ذنب ، ولايتوجَّه عليه عَتْب . وقد قال بعض الحكماء : كلما كثرت خُزَّان الأسرار ، ازدادت ضَياعا . وقال بعض الشعراء :

وسرُّكَ ما كان عندَ أمرىء   وسرُّ الثلاثةِ غيرُ الخَفى

وقال آخر :

فلا تنطِق بسرِّكَ كلُّ سرٍّ   إذا ماجاوز الإثنينِ فاشِى

ثم لو سلم من إذاعتهم ، لم يسلم من إدلالهم واستطالتهم ، فإنّ لمن ظفِر بسرٍّ من فَرْط الإدلال ، وكثرة الاستطالة ، ما إن لم يحجُزْه عنه عقل ، ولم يكفَّه عنه فضل ، كان أشد من ذل الرقّ ، وخضوع العبْد . ولذلك قال بعض الحكماء : من أفشى سره ، كثُر عليه المتأمِّرون، فإذا اختار ، وأرجو أن يوفق للاختيار ، واضطُرّ إلى استيداع سره ، وليته كُفِى الاضطرار ، وجب على المستودَع له ، أداء الأمانة فيه ، بالتحفظ والتناسى له ، حتى لايخطُر له ببال ، ولايدور له فى خَلَد ، ثم يرى ذلك حُرْمة يرْعاها ، ولايُدِلّ إدْلال اللئام .

وحُكِى أن رجلا أسَرّ إلى صديق له حديثا ، ثم قال : أفهمت ؟ قال : بل جهِلت . قال : أحفظت ؟ قال : بل نسيت . وقيل لرجل : كيف كتمانُك للسرّ ؟ قال : أجحد المخبِر ، وأحلِف للمستخبِر . وقال بعض الشعراء :

ولو قَدَرْتُ على نسيان ما اشتملتْ   منى الضلوع على الأسرار والخَبَرِ
لكنتُ أولَ من ينسَى سرائرَهُ   إذ كنت من نشرها يوما على خَطَرِ

وحُكِى أن عبد الله بن طاهر ، تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السرّ ، فقال ابنه :

ومُسْتَوْدِعى سِرًّا تضمنتُ سِرَّه فأودعتُه من مُسْتَقَرٍّ الحَشَا قَبْرا
ولـكنَّنى أُخفيــه عنى كأنَّنى من الدهر يومًا ماأحطْتُ به خُـبْرا
وما السرُّ فى قلبى كميت بحفْرَةٍ لأنى أرَى المدفون ينتظر النَّشْرَا[1]

الفصل الخامس : فى المُزاح والضحك

[ضرر المزاح] اعلم أن للمُزاح إزاحة عن الحقوق ، ومَخْرَجا إلى القطيعة والعقوق ، يصِمُ المازح ، ويؤذِى المُمازَح ، فوصْمة المـازح : أن يُذهب عنه الهيبة والبهاء ، ويُجَرِّئَ عليه الغَوغاء والسفهاء .

وأمّا أذية المازَح ، فلأنه معقوق بقول كَريه ، وفعل مُمِضّ ، إن أمسك عنه أحزن قلبه ، وإن قابل عليه ، جانب أدبه ، فَحُقّ على العاقل أن يتقيَه ، ويُنزه نفسه عن وَصمة مَساويه . وقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المُزاح استدراج من الشيطان ، واختداع من الهوَى » وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا المُزاح ، فإنه حَمْقة تُورث ضغينة . وقال بعض الحكماء : إنمـا المُزاح سِباب ، إلّا أن صاحبه يضحك . وقيل : إنما سُمِّىَ المُزاح مُزاحا ، لأنه يُزِيح[2] عن الحقّ . وقال إبراهيم النخَعِىّ : المُزاح من سَخَفٍ أو بَطَر . وقيل فى منثور الحكم : المزاح يأكل الهيبة ، كما تأكل النار الحطب . وقال بعض الحـكماء : من كثُر مُزاحه ، زالت هيبته ، ومن كثر خلافه ، طابت غيبته . وقال بعض البلغاء : من قلّ عقـله ، كثُرَ هزْله .

---

(١) فى هامش الأميرية عند هذا الموضع بقلم المرحوم العلامة الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم مانصه : لايخفى مافى هذه الأبيات من الاضطراب وعدم التماسك . والرواية الصحيحة ماذكره الصفدى فى شرح لامية العجم ، نقلا عن صاحب هذا الـكتاب ، قال مانصه :

وحكى الماوردى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر ، فقال :

ومستودعى سرا تضمنت سره فأودعته من مستقر الحشا قبرا

فقال ابنه وهو صبى :

وما السر فى قلبى كثاو بحفرة لأنى أرى المدفون ينتظر الحشرا
ولكننى أخفيه عنى كأننى من الدهر يوما ماأحطت به خبرا

(٢) لوكان كذلك لسمي مزيحا ، اسم فاعل من أزاح . والأقرب : أنه إما مزاح ، بكسر الميم مصدر مازح ، وإما بضم الميم : اسم من مزح . ويجوز أن يكون مصدرا ميميا أو اسم مكان من الإزاحة ، ولـكن فيه تكلفا .

وذكر خالد بن صفوان المُزاح ، فقال : يَصُكُّ أحدكم صاحبهُ بأشدّ من الجندل ، ويُنشِقه أحْرف مِن الخَرْدل ، ويُفرِغ عليه أحرّ من المِرْجَل ، ثم يقول : إنما كنت أمازحك .
وقال بعض الحكماء : خير المُزاح لاينال ، وشرُّه لا يُقال ، فنظمه السَّابُورِىّ[١] فى قصيدته الجامعة للآداب ، فقال وزاد :

شرُّ مُزَاحِ المرءِ لا يُقالُ وخيرُه ياصاحِ لا يُنالُ
وقدْ يُقال كثرة المُزاحِ من الفتى تدعو إلى التلاحِى
إن المُزَاحَ بدوُّه حلاوهْ لكنما آخرُه عَدَاوَهْ
يحتدّ منه الرجلُ الشريفُ ويجترِى بسُخْفِه السخيفُ

وقال أبو نُواس :

خَلِّ جَنبيكَ لرامْ وامضِ عنه بسلامْ
مُتْ بداء الصمتِ خيرٌ لكَ من داء الكلامْ
إنما السالم من ألـ ـجَمَ فاهُ بلجامْ
ربما اسْتُفتِح بالمَزْ حِ مَغاليقُ الحِمامْ
والمنايا آكلاتٌ شاربات للأنامْ

[لطيف المزاح] واعلم أنه قلّما يَعرَى من المُزاح من كان سهلا ، فالعاقل يتوخّى بمُزاحه إحدى حالتين ، لا ثالثة لهما .

إحداهما : إيناس المصاحَبين ، والتودّد إلى المخالطين ، وهذا يكون بما أَنِس من جميل القول ، و بسَط من مستحسن الفعل . وقد قال سعيد بن العاص لابنه : اقتصدْ فى مُزاحك ، فإن الإفراط فيه يُذهب البهاء ، ويجرِّئ عليك السفهاء ، وإن التقصير فيه يفُضُّ عنك المؤانسين ، ويُوحِش منك المصاحبين .

والحالة الثانية : أن ينفىَ بالمُزاح ماطرأ عليه من سَأَم ، وأحدث به من همّ ، فقد قيل : لابد للمصدور أن ينفـُث . وأُنشدت لأبى الفتح البستى :

---

(١) كذا فى منهاج اليقين والمخطوطة رقم ٧٧٨ أدب تيمور ، وفى الأميرية : النيسابورى ، ولم نقف على اسمه . والأبيات من مشطور الرجز المزدوج .

أفِدْ طبعكَ المكدودَ بالجِدِّ راحةً تَجِمُّ وَعَلِّله بشىء من المَزْحِ
ولكن إذا أعطيتهَ المَزْحَ فليكنْ بمقدارِ مايُعطَى الطعامُ منَ المِلْحِ

وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يمزَح على هذا الوجه ، رُوِى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى لأمزح ولا أقول إلّا حقا » ، فمن مُزاحه صلى الله عليه وسلم ، مارُوِىَ أن عجوزا من الأنصار أتته ، فقالت : يارسول الله ، أُدعُ لى بالمغفرة . فقال : أما علمتِ أن الجنة لا يدخلُها العجائز ؟ فصرخَتْ ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أما قرأتِ من القرآن قول الله عز وجل: « إنا أنشأناهنّ إنشاء ، فجعلناهُنّ أبكارًا ، عُرُبًا أترابا» . وأتته أخرى فى حاجة لزوجها ، فقال لها : ومَنْ زَوْجك ؟ فقالت : فلان ، فقال لها : الذى فى عينه بياض ، فقالت : لا . فقال : بلى . فانصرفت عَجْلَى إلى زوجها ، وجعلت تتأمل عينيه ، فقال لها : ماشأنك ؟ فقالت : أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى عينيكَ بياضا . فقال : أما ترين بياض عينىّ أكثر من سوادها ؟ .

(١) وأتى رجل علىَّ بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، فقال : إنى احتلمت على أمى . فقال : أقيموه فى الشمس ، واضربوا ظله الحدّ(١) .

وسُئل الشعْبىّ عن أكل لحم الشيطان . فقال : نحن نرضى منه بالكفاف . وقيل له : ما اسم امرأة إبليس لعنه الله ، فقال : ذلك نِكاح ماشَهدناه . وقال رجل لغلام : بكم تعمل معى ؟ قال : بطعامى . فقال له : أحسن قليلا ، قال : فأصوم الاثنين والخميس .

(٢) وحكى عن أبى صالح بن حسان — وكان محدثا — أنه قال يوما لأصحابه مازحا : أفقه الناس وضّاح اليمن فى قوله :

إذَا قُلْتُ هاتِى نَوِّلينى تَبَرَّمت وقالت مَعَاذَ اللهِ من فعل ماحَرُمْ
فما نوَّلَتْ حتى تضرعت عندَها وأنبأتُها مارَخّصَ الله فى اللَّمَمْ

فأما الخروج إلى حدّ الخلاعة فهُجْنة وَمَذَمّة ، كالذى حُكِى عن أبى معاوية الضرير — وكان محدّثا — أنه خرج يوما إلى أصحابه ، وهو يقول :

(١ — ١) ساقط من طبعة الأميرية ؛ وثابت فى المخطوطة رقم ٧٧٨ أدب تيمور بدار الكتب المصرية .

(٢ — ٢) الخبران ساقطان من طبعة الأميرية ، وثابتان فى المخطوطة رقم ٧٧٨ أدب تيمور .

فإذا للمِعْدَة جاشَتْ   فارْمِها بالمَنْجَنيقِ

بثلاثٍ من نَبيذٍ   ليسَ بالحلو الرقيقِ

أما ترى كيف طَرَقَ بخلاعته التهمة عن نفسه بهذا المُزاح ، فيما لعله برىء منه ، و بعيد عنه[٢] .

وقد كان أبو هُريرة رضى الله عنه مسترسِلا فى مُزاحه. ورَوَى ابن قتيبة فى المَعارِف : أن مَرْوان ربما كان يستخلفه على المدينة ، فيركب حمارا قد شُدَّ عليه بَرْذَعة ، فيسير ، فيلقى الرجل فيقول : الطريقَ قد جاء الأمير ، وربما أتى الصبيانَ وهم يلعبون لُعْبَةَ الأعراب ، فلا يشعرون حتَّى يُلْقِيَ نفسه بينهم ، ويضرب برجله ، فيفزَع الصبيان فينفرون .

وهذا خروج عن القدْر المستسمَح به ، ويوشك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ .

وقد كان صُهيب بن سِنان مزَّاحا ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: أتأ كل تمْرًاو بك رَمَد ؟ فقال : يارسول الله ، إنما أمضغُ على الناحية الأخرى . وإنما استجاز صُهَيْب أن يَعْرِض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح فى جوابه ، لأن استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمَّن المزحَ ، فأجابه عن استخباره بما يوافقه ، مساعدة لغرضه ، وتقربا من قلبه ، وإلا فليس لأحد أن يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَزْحا ، لأن المزح هَزْل ، ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المبين عن الله عز وجل أحكامه ، المؤدى إلى خلقه أوامرَه ، هزلا ومزحا ، فقد عَصَى اللهَ ورسوله ؛ وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى ، من أن يكون بهذه المنزلة ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « أنا سابق العرب ، وصُهيب سابق الروم ، وسَلْمان سابق الفُرْس ، وبِلالٌ سابق الحَبَش » .

[١] ومن مستحسَن المزح ، ومُستَسْمح الدُّعابة ، ماحكى الزُّبير بن بكار ، عن الكِنْدِىّ ، أن القُشَيْرِىّ وقف عليه شيخ من الأعراب ، فقال : ياأعرابىّ ، ممن أنت ؟ فقال : من بنى عُقَيل ؛ قال : من أى عُقَيل ؟ قال : من بنى خفاجة . فقال القُشَيْرىّ :

رأيت شيخا من بنى خفاجَهْ

---

(١) من هنا إلى قوله : على مثله أولى ساقط من طبعة الأميرية ، وموجود فى المخطوطة رقم ٧٧٨ أدب تيمور بدار الكتب المصرية .

فقال الأعرابىّ : ماشأنه ؟ فقال :

لَهُ إذا جَنَّ الظلامُ حاجَهْ

فقال الأعرابىّ : ماهى ؟ فقال :

كحاجة الديكِ إلى الدَّجَاجَهْ

فاستغرب[1] الأعرابىّ ، وقال : قاتلك الله ! ما أعرفك بسرائر القوم .

فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ، ولسانه نزه ، وعرضه مصون . وهذا غاية مايتسامح به الفضلاء من الخلاعة ، وإن كان مستكره الفحوى ، والنزاهة على مثله أولى .

وليحذَر أن يسترسل فى ممازحة عدوّ ، فيجعلَ له طريقا إلى إعلان المساوىء هزلا وهو مُجِدّ ، ويفسح له فى التشفى مزحا وهو محقّ . وقد قال بعض الحكماء : إذا مازحتَ عدوَّك ، ظهرت له عيوبُك .

[آفة الضحك] وأما الضَّحِك فإن اعتياده شاغل عن النظر فى الأمور المهمة ، مُذْهِل عن الفكر فى النوائب الملمة ، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ، ولا لمن وُسِم به خَطَر ولا مقدار . رَوَى أبو إدريسَ الخَوْلانىّ ، عن أبى ذَرّ الغِفارىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكَ وكثرةَ الضَّحِك ، فإنه يُميت القلب ، ويَذْهَب بنور الوجْه » . ورُوِى عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : « مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » : أن الصغيرة الضحك والكبيرةَ القَهْقَهة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من كثر ضَحِكه ، قلتْ هيبته . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : إذا ضحك العالِم ضَحْكة ، مَجّ من العلم مَجّة . وقيل فى منثور الحِكم : ضَحكة المؤمن غَفْلة من قلبه .

والقول فى الضحك كالقول فى المُزاح : إن تجافاه الإنسان نفر عنه ، وأوحشَ منه ، وإن ألفه كانت حاله ماوصفناه ، فليكن بدلُ الضحك عند الإيناس تبسُّما وبشرا . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : التبسُّم دُعابة ، وهذا أبلغ فى الإيناس من الضحك ، الذى قد يكون استهزاء وتعجبا ، وليس يُنْكر منه المَرةُ النادرة ، لطارىء استغفل النفسَ عن دفعه . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه ، قد تبسم حتى بدت نواجذه ، وإنما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى ذكرناه .

---

(١) استغرب : أكثر من الضحك ، وبالغ فيه .

الفصل السادس : فى الطِّيَرة والفأْل

[ضرر التطير] اعلم أنه ليس شىء أضرّ بالرأى ، ولاأفسد للتدبير ، من اعتقاد الطِّيَرة ، ومن ظن أن خُوَار بقَرة ، أونَعيب غُراب ، يردّ قضاء ، أو يدفع مقدورا ، فقد جَهِل . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاعَدْوَى ، ولاطِيَرة ، ولاهامَةَ ، ولا صَفَر » .

فالعدْوَى : مايظنه الناس من تعدّى العِلَل والأمراض ، فأخبرَ أنها لا تُعْدِى ، فقيل : يارسول الله ، إنا نرى النُّقبَة من الجرب فى مِشْفَر البعير ، فتتعدّى إلى جميعه . فقال صلى الله عليه وسلم : فما أعدَى الأول(١) .

وأما الهـامَة فهو ما كانت العرب فى الجاهلية تعتقده ، من أن القتيل إذا طُلّ دَمُه ، فلم يُدْرَك بثأره ، صاحت هامته فى القبر : اسقونى . قال الزبرقان بن بدر يعنيها :

يا عمرُو إلّا تَدَعْ شتمى ومَنْقَصتى   أضربْكَ حتى تقولَ الهامة اسقونى(٢)

وقال إبراهيم بن هَرْمَة :

وكيفَ وقد صاروا عظاما وأقبُرا   يصيح صَدَاها بالعشىِّ وهامُها

تفانَوْا ولم يبقَوا وكلُّ قبيــلةٍ   سريعٌ إلى وِرد الفناءِ كرامُها

وأما الصَّفَر فهو كالحية ، يكون فى الجوف يصيب الماشية والناس ، وهو أعْدَى عندهم من الجَرَب ، وفيه يقول الشاعر :

لا يُمسِكُ الساقَ مِنْ أيْنٍ ولاوَصَبٍ   ولا يَعَضُّ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ(٣)

ورَوَى أبو هريرة رضى الله عنـه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا ظننتم

---

(١) أراد النبى صلى الله عليه وسلم صرف العرب عن اعتقاد تأثير الأمور الطبيعية بطبعها ، دون مشيئة الله وإرادته ، وكم توافرت أسباب للعدوى لأناس ، فأصيب بها بعض وسلم منها بعض ، لأن إرادة الله هى المؤثر الأول .

(٢) هذا البيت من قصيدة نسبها صاحب الأمالى فى صفحة ٢٥٩ من الجزء الأول لذى الإصبع العدوانى . وقد تمثل الزبرقان بهذا البيت ، فى تهديد عمرو بن الأهتم قريعه فى الشرف و السيادة على بنى تميم . (انظر منهاج اليقين) .

(٣) فى لسان العرب : الصفر : داء فى البطن يصفر منه الوجه . والصفر : حية تلزق بالضلوع فتعضها . وقيل : دابة تعض الضلوع والشراسيف ، قال أعشى باهلة يرثى أخاه :

لا يَتأَرَّى لما فِى القِدْرِ يَرْقُبُهُ   ولا يَعَضّ على شُرْسوفه الصَّفَرُ

وقيل : الصفر ههنا : الجوع .

فلا تُحَقِّقُوا[(١)] ، وإذا حَسَدتم فلا تَبْغُوا[(٢)] ، وإذا تطيرتم فامْضُوا ، وعلى الله فتوكَّلُوا » .

وقال الشاعر :

طِيَرَةُ الناس لا تردُّ قضاء   فاعذِر الدهرَ لا تشبْه بلَوْمِ
أىّ يوم تخصُّه بسُعودٍ   والمنايا ينزلنَ فى كل يوم
ليس يومٌ إلّا وفيه سُعود   ونُحوس تجرى لقوم وقومِ

وقد كانت الفرسُ أكثر الناس طِيَرة ، وكانت العرب إذا أرادت سفرا ، نَفَّرت أوّل طائر تلقاه ، فإن طار يَمْنة ، سارت وتيَمنت ، وإذا طار يَسْرة ، رجَعت وتشاءمت ، فنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وقال : « أقِرُّوا الطيرَ عَلَى وُكُناتها » .

وحَكَى عِكرمة قال : كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله عنهما ، فمرّ طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير . فقال ابن عباس : لاخيرٌ ولاشرّ . وقال لَبيد :

لعمرُكَ ماتدرى الضواربُ بالحصَى   ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللهُ صانعُ

[الطيرة مفزع اليائسين] واعلم أنه قلما يخلو من الطِّيَرة أحد ، لا سيا من عارضته المقادير فى إرادته ، وصدّه القضاء ، عن طَلِبته ، فهو يرجو واليأس عليه أغلب ، ويأمُل والخوف إليه أقرب ، فإذا عاقه القضاء ، وخانه الرجاء ، جعل الطِّيَرة عُذْر خيبته ، وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيئته ، فإذا تطيَّرَ أحجم عن الإقدام ، ويَئِس من الظَّفَر ، وظن أن القياس فيه مُطَّرد ، وأن العِبْرة فيه مستمرة ، ثم يصير ذلك له عادة ، فلاينَجح له سعى ، ولا يتم له قصد .

فأما من ساعدته المقادير ، ووافقه القضاء ، فهو قليل الطِّيَرة لإقدامه ، ثقة بإقباله ، وتعويلا على سعادته ، فلايصُدّه خوف ، ولا يكفه حذر ، ولا يئُوب إلا ظافرا ، ولا يعود إلا مُنْجَحا ، لأن الغنْم بالإقدام ، والخيبةَ مع الإحجام ، فصارت الطيرة من سِمات الإدبار ، واطِراحَها من أمارات الإقبال . فينبغى لمن مُنِىَ بها وبُلى ، أن يصرف عن نفسه وساوس النَّوكَى ، وذَائع الخَيبة ، وذرائع الحِرْمان ، ولا يجعل للشيطان سلطانا فى نقض عزائمه ، ومعارضة خالقه ، ويعلم

---

(١) أى لا تجعلوا ذلك الظن المتوهم حقا معتقدا ، فقد يكون ظنكم تخيلا لا أساس له .

(٢) لاتبغوا على من تحسدون بالايذاء بعد الحسد ، فتجمعوا شرا إلى شر ، بل داووا قلوبكم ونفوسكم ، لتبرأ من ذلك الحسد ، فإنه من دسائس الشيطان .

أن قضاء الله تعالى عليه غالب ، وأن رزق العبد طالب ، وأن الحركة سبب ، فلا يَثْنيه عنها ما لايضرّ مخلوقا ، ولايدفع مقدورا ، وليَمْضِ فى عزائمه ، واثقا بالله تعالى إن أُعْطِىَ ، وراضيا به إن مُنِـع . فقد رَوَى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الإنسان ثلاثة : الطيرةَ والظنَّ والحسدَ ، فمُخْرِجه من الطيرة ألّا يرجع ، ومُخرجه من الظنّ ألّا يُحقق ، ومُخرجُه من الحسد ألَّا يبغى » . ورُوِى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كفارة الطِّيرة التوكلُ على الله تعالى » . وقيل فى منثور الحكم : الخيرَة ، فى ترك الطِّيرة ، وليقلْ إن عارضه فى الطيرة ريب ، أوخامره فيها وَهَم ، مارُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ تطير فليقل : اللهم لايأتى بالخيرات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » . وقد رُوِى أن رجلا جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنا نزلنا دارا ، وكثر فيها عددنا ، وكثُرَت فيها أموالنا ، ثم تحوّلنا منها إلى أخرى ، فقلّت فيها أموالُنا ، وقلَّ فيها عددنا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « ذَرُوها وهى ذميمة » .

وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطِّيَرَة ، ولـكن على وجه التبرُّك بما فارق ، وترك ما استوحش منه ، إلى ما أَنِس به .

فأما الفأل ففيه تقوية للعزم ، وباعث على الجدّ ، ومعونة على الظَّفر ؛ فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته وحروبه . ورَوَى أبو هريرة « أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فأعجبته ، فقال : أخذنا فألَك مِن فيك » .

فينبغى لمن تفاءل أن يتأوّل الفألَ بأحسن تأويلاته ، ولا يجعلَ لسُوء الظن على نفسه سبيلا ، فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إن البلاءَ مُوَكَّل بالمنطق » . رُوِى أن يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يوسُف ، أنت حَبَست نفسك حيث قُلْت : « رَبِّ السِّجنُ أُحبُّ إلىَّ » ولو قلت : العافية أحبُّ إلىّ لعُوفيت . وحُـكِى أن المُؤَمَّل ابن أُمَيْل الشاعر لما قال يوم الحِيَرة :

شَفَّ المُؤَمَّلَ يومَ الحِيرة النظرُ ... ليتَ المؤَمَّلَ لم يُخْلق له بَصَرُ

عمِى ، فأتاه آت فى منامه ، فقال له هذا ماطلَبت . وحُـكِى أن الوليد بن يزيدَ بن عبدالملك

تفاءل يوما فى المصحَف ، فخرج له قوله تعالى : « واستفتَحُوا وخابَ كلُّ جبارٍ عَنيد » ، فمزّق المصحف ، وأنشأ يقول :

أتُوعِدُ كلَّ جبـارٍ عنيدٍ فها أنا ذاكَ جبارٌ عنيـدُ

إذا ماجئتَ ربكَ يومَ حَشْرٍ فقلْ يا ربِّ خرَّقنى الوليدُ

فلم يلبثْ إلا أياما حتى قُتِلَ شرَّ قِتْـلة ، وصُلب رأسُه على قصره ، ثم على سُور بلده ، نعوذ بالله من البغى ومَصَارعه ، والشيطان ومصايدِه ، وهو حسبنُا وعليه توكلنا .

الفصل السابع : فى المروءة

[معنى المروءة وشرائطها] اعلم أن من شواهد الفضْل ، ودلائل الـكرم : المروءة ، التى هى حِلية النفوس ، وزينة الهمم ؛ فالمروءة : مُراعاة الأحوال إلى أن تـكون [١] على أفضلها ، حتى لا يظهرَ منها قبيح عن قصد ، ولا يتوجَّه إليها ذمّ باستحقاق . رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من عاملَ الناس فلم يظلمهم ، وحدّثهم فلم يَكْذِبهم ، ووعدَهم فلم يُخْلِفهم فهو ممن كَمُلت مُروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوّته » . وقال بعض البلغاء : من شرائط المروءة : أن يتعفّف عن الحرام ، ويتصلَّف عن الآثام ، وينصِف فى الحكم ، ويكفّ عن الظلم ، ولا يطمَع فيما لا يستحق ، ولا يستطيلَ على من لا يَسترِقّ ، ولا يُعِينَ قويا على ضعيف ، ولا يؤثِرَ دَنيًّا على شريف ، ولا يُسِرَّ مايَعْقبه الوِزرُ والإثم ، ولا يفعلَ ما يُقبِّح الذكر والاسم . وسُئل بعض الحـكماء عن الفرق بين العقل والمروءة ؟ فقال : العقل يأمرك بالأنفع ، والمروءة تأمرُك بالأجمل .

ولن تجدَ الأخلاق على ماوصفنا من حدّ المروءة منطبعة ، ولا عن المراعاة مستغنية ، وإنما المراعاة هى المروءة ، لاماانطبعتْ عليه من فضائل الأخلاق ، لأن غُرور الهوَى ، ونازع الشهوة ، يصرفان النفسَ أن تركبَ الأفضل من خلائقها ، والأجملَ من طرائقها ، وإن سلمت منها ، وبعيدٌ أن تسلمَ إلا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعا ، واستغنى عن تهذيبها تـكلفا وتطبُّعا . وقال الشاعر :

مَنْ لك بالمحضِ وليسَ محضُ يخبُثُ بعضٌ ويطيب بعضُ

ثم لو استـكمل الفضلَ طبعا ، وفى المعُوِز أن يكون مُسْتـكملا ، لـكان فى المستحسن

---

(١) الضمير فى تـكون : راجع إلى النفوس . ويؤيده قوله فى أول الصفحة التالية : « فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هى المروءة » .

من عادات دهره، والموضوع من اصطلاح عصره، من حقوق المروءة وشروطها، مالا يتوصَّل إليه إلا بالمعاناة، ولا يُوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة؛ فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها: هى المروءة، وإذا كانت كذلك، فليس ينقاد لها مع ثِقَل كُلَفها، إلّا من تسهّلت عليه المشاقّ، رغبة فى الحمد، وهانت عليه الملاذّ، حذرا من الذمّ، ولذلك قيل: سيد القوم أشقاهم. وقال أبو تمّام الطائىّ:

والحمدُ شهدٌ لا يُرَى مُشتارُهُ يَجنيه إلّا من نقيعِ الحنظلِ
غُلٌّ لحاملِهِ ويحْسِبه الذى لم يُوهِ عاتقَه خفيفَ المَحْمَلِ

وقد لَحَظ المتنبى ذلك فى قوله:

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلهمُ الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتّالُ

وله أيضا:

وإذا كانتِ النفوسُ كِبارًا تعبتْ فى مُرادِها الأجسامُ

[علو الهمة] والداعى إلى استسهال ذلك شيئان: أحدهما: عُلوّ الهمة، والثانى: شرف النفس. أما علوّ الهمة، فلأنه باعث على التقدّم، وداع إلى التخصيص، أنفَة من خمول الضَّعة، واستنكارًا لمَهانة النقص، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحبُّ معالىَ الأمور وأشرافها، ويكره دَنِيّها وسَفْسافها». ورُوِى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه قال: لاتصغُرن همُمُكم، فإنى لم أر أقعد عن المكرُمات من صِغَر الهِمم. وقال بعض الحكماء: الهمة راية الجدّ. وقال بعض البلغاء: علوّ الهِمَم، بذْر النِّعم. وقال بعض العلماء: إذا طلب رجلان أمرا، ظَفِر به أعظمهما مُروءة. وقال بعض العلماء: من ترك التماسَ المعالى بسوء الرجاء، لم ينلْ جسيما.

[شرف النفس] وأما شرف النفس، فإنّ به يكون قبول التأديب، واستقرار التقويم والتهذيب، لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهى به عارفة، ونفرت عن التأديب وهى له مستحسنة، لأنها عليه غير مطبوعة، وله غير ملائمة، فتصير منه أنفر، ولضدّه الملائم آثَر. وقد قيل: ماأكثر من يَعرف الحقّ ولايطيعه! وإذا شَرُفت النفس كانت للآداب طالبة، وفى الفضائل راغبة، فإذا مازجها صارت طبعا ملائما، فنما واستقرّ؛ فأما من مُنِىَ بعلوّ الهمة، وسُلِب شرف النفس،

فقد صار عُرْضة لأمر أعوزته آلته ، وأفسدته جهالته ، فصار كضرير يروم تعلم الكتابة ، وأخرسَ يريد الخُطبة ، فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزا ، والطلب إلا عوَزا ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ماهلكَ امرؤٌ عرَف قدرَه » . وقيل لبعض الحكماء : مَنْ أسوأ الناس حالا ؟ قال : من بعُدت همته ، واتسعت أُمنيته ، وقَصُرت آلته ، وقلّت مقدُرته . وقال أُفنون التَّغْلَبى :

ولاخيرَ فيما يكذبُ المرءُ نفسَهُ   وتَقوالِهِ للشىء ياليتَ ذاليَا
لعمرك مايدرى امرؤ كيف يتقى   إذا هُوَ لم يجعل له اللهُ واقيا

وقال بعض الحكماء : تجنبوا المُنَى ، فإنها تذهَب ببهجة ماخُوِّلتم ، وتستصغرون بها نعمة الله عليكم . وقيل فى منثور الحكم : المُنَى من بضائع النَّوْكَى ، فإن صادف بهمته حظّا نال به أملا ، كان فيما ناله كالمغتصب ، وفيما وصل إليه كالمتغلِّب ، إذ ليس فى الحظوظ تقدير لحق ، ولا تمييز لمستحقّ ، وإنما هى كالسحاب الذى قد تمسك عن مَنابت الأشجار ، إلى مَغاوص البحار ، وينزل حيث صادف من خبيث وطيب ، فإن صادف أرضا طيبة نفع ، وإن صادف أرضا خبيثة ضرّ ، كذلك الحظّ إن صادف نفسا شريفة نفع ، وكان نعمة عامة ، وإن صادف نفسا دنية ضرّ ، وكان نقمة طامَّة .

حُكِى أن موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب ، فأوحى إليه : قد ملَّكتُ سِفْلَتَهَا عَلَى عِلْيَتِهَا ، فقال : يارب ، كنت أحبُّ لهم عذابا عاجلا ، فأوحى الله تعالى إليه : أليس هذا كلّ العذاب العاجل الأليم .

فأما شرف النفس إذا تجرد عن علوّ الهمة ، فإن الفضل به عاطل ، والقدْر به خامل ، وهو كالقوة فى الجلْد الكَسِل ، والجبان الفَشِل ، تضيع قوّته بكسله ، وجَلَدُه بفَشَله ؛ وقد قيل فى منثور الحكم : من دام كسله ، خاب أمله . وقال بعض الحكماء : نكح العجز التوانى فخرج منهما الندامة ، ونكح الشؤم الكسل فخرج منهما الحرمان . وقال بعض الشعراء :

إذا أنتَ لم تعرف لنفسكَ حقَّها   هوانًا بها كانت على الناس أهونَا
فنفسكَ أكرمها وإن ضاق مَسْكَنٌ   عليك لها فاطلبْ لنفسك مَسْكَنَا
وإياكَ والسكنَى بمنزل ذِلّةٍ   يُعَدّ مسيئا فيه من كان مُحْسِنا

وشرف النفس مع صغر الهمة ، أولى من علوّ الهمة مع دناءة النفس ؛ لأن من علت همته مع دناءة نفسه ، كان متعدّيا إلى طلب مالا يستحقّه ، ومتخطيا إلى التماس مالا يستوجبه ، ومن شرفت نفسه مع صغر همته ، فهو تارك لما يستحقّ ، ومقصّر عما يجب له ، وفضل مابين الأمرين ظاهر ، وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب . وقد قيل لبعض الحكماء : ما أصعبُ شىء على الإنسان ؟ قال : أن يعرف نفسه ، ويكتم الأسرار ، فإذا اجتمع الأمران ، واقترن بشرف النفس علوّ الهمة ، كان الفضل بهما ظاهرا ، والأدب بهما وافرا ، ومشاقّ الحمد بينهما مُسَهَّله ، وشروط المروءة بينهما متينة . وقد قال الحصين بن المنذر الرّقاشيّ :

إن المروءةَ ليس يدركُها امرؤ ... ورث المكارم عن أبٍ فأضاعَها
أمرتْهُ نفسٌ بالدناءة والخَنَا ... ونهتْه عن سُبُل العُلا فأطاعَها
فإذا أصابَ من المكارم خَلّة ... يَبنى الكريمُ بها المكارمَ باعَها

[حقوق المروءة] واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تُحصَى ، وأخفى من أن تظهر ، لأن منها ما يقوم فى الوهم حِسّا ، ومنها مايقتضيه شاهد الحال حَدْسا ، ومنها مايظهر بالفعل ، ويخفى بالتغافل ، فلذلك أعوز استيفاء شروطها ، إلا جُمَلا يتنبه الفاضل لها ليقظته ، ويستدل العاقل عليها بفطرته ، وإن كان جميع ماتضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها ، وإنما نذكر فى هذا الفصل ، الأشهر من قواعدها وأصولها ، والأظهر من شروطها وحقوقها ، محصورا فى تقسيم جامع ، وهو ينقسم قسمين :

أحدهما شروط المروءة فى نفسه . والثانى شروطها فى غيره .

فأما شروطها فى نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه ، فيكون بثلاثة أمور : وهى العفة ، والنزاهة ، والصيانة .

[العفة] فأما العفة فنوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثانى العفة عن المآثم، فأما العفة عن المحارم فنوعان : أحدهما : ضبط الفرْج عن الحرام ، والثانى كف اللسان عن الأعراض . فأما ضبط الفرج عن الحرام ، فلأن عدمه مع وعيد الشرع ، وزاجر العقل ، مَعَرّة فاضحة ، وهَتْكة واضحة ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « من وُقِىَ شرَّ ذَبْذَبه ولَقْلَقه وقَبْقَبه فقدوُقِىَ » يريد بذبذبه : الفرج ، وبلَقْلَقه : اللسان ، وبقَبْقبه البطْن . ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « أحبّ العفاف إلى الله تعالى عفاف الفرج والبطن » . وحُكِى أن معاوية رضى الله عنه سأل عمرا عن المروءة ، فقال : تقوى الله تعالى ، وصلة الرحم . وسأل المغيرة فقال : هى العفة عما حرم الله تعالى ؛ والحِرفة فيما أحل الله تعالى . وسأل يزيد فقال : هى الصبر على البلوى ، والشكر على النُّعمَى ، والعفوُ عند القدرة . فقال معاوية : أنت منِّى حقا . وقال أنو شرْوان لابنه هُرْمُز : مَنِ الكامل المروءة ؟ فقال : مَن حصَّن دينه ، ووصل رحمه ، وأكرم إخوانه . وقال بعض الحكماء : من أحب المكارم ، اجتنب المحارم . وقيل : عار الفضيحة يكدِّر لذتها .

وقد أنشدنى بعض أهل الأدب ، للحسن بن علىّ رضى الله عنهما :

الموتُ خير من ركوبِ العارِ والعار خير من دخول النارِ
واللهُ من هذا وهذا جارِى

والداعى إلى ذلك شيئان : أحدهما : إرسال الطرف ، والثانى : اتباع الشهوة . وقد رُوى عن النبىّ عليه الصلاة والسلام أنه قال لعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : ياعلىّ ، لاتُتْبِع النظرةَ النظرة ، فإن الأولى لك ، والثانيةَ عليك . وفى قوله : لاتتبع النظرة النظرة تأويلان :

أحدهما : لا تتبع نظرَ عينيك نظرَ قلبك .

والثانى : لاتتبع الأُولى التى وقعت سهوا بالنظرة الثانية ، التى تُوقِعها عمْدا . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : إياكم والنظرةَ بعد النظرة ، فإنها تزرع فى القلب الشهوة ، وكفى بها لصاحبها فِتنة . وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : العيونُ مصايدُ الشيطان . وقال بعض الحكماء : من أرسل طرفه ، استدعى حتفَه . وقال بعض الشعراء :

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَكَ رائدا لقلبــك يوما أتعبتكَ المناظرُ
رأيتَ الذى لا كلَّه أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ

وأما الشهوة فهى خادعة العقول ، وغادرة الألباب ، ومُحَسِّنة القبائح ، ومُسوِّلة الفضائح ، وليس عطَبٌ إلّا وهى له سبب ، وعليه الْب ، ولذلك قال النبىّ عليه الصلاة والسلام : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه وجبت له الجنة ، وحُفِظ من الشيطان : مَن ملك نفسه حين يرغب ، وحين يرهب ، وحين يشتهى ، وحين يغضب » .

وقهرها عن هذه الأحوال ، يكون بثلاثة أمور :

أحدها : غض الطَّرْف عن إثارتها ، وكفه عن مساعدتها ، فإنه الرائد المحرك ، والقائد المُهْلِك . رَوَى سعيد بن سِنان ، عن أنس بن مالك ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « تقبَّلوا إلىّ بستّ ، أتقبَّلْ إليكم بالجنة ، قالوا : وما هى يارسول الله ؟ قال : إذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، و إذا وعد فلا يُخلف ، و إذا اؤْتُمِنَ فلا يخون ، غُضُّوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكُفوا أيديَكم » .

والثانى : ترغيبها فى الحلال عوضا ، و إقناعها بالمباح بدلا ، فإن الله ماحرّم شيئا إلا وأغنى عنه بمباح من جنسه ، لما علمه من نوازع الشهوة ، وتركيب الفطرة ، ليكون ذلك عونا على طاعته ، وحاجزا عن مخالفته . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أمرَ اللهُ تعالى بشىء ، إلا وأعان عليه ، ولا نهى عن شىء إلا وأغنَى عنه .

والثالث : إشعار النفس تقوى الله تعالى فى أوامره ، واتقاؤه فى زواجره ، و إلزامها ما ألزم من طاعته ، وتحذيرها ماحذَّر من معصيته ، و إعلامُها أنه لايخفى عليه ضمير ، ولا يعزُب عنه قِطْمير ، وأنه يجازى المحسن ، ويكافئ المسىء ، و بذلك نزلت كتبه ، و بلَّغت رسله . روى ابن مسعود أن آخر مانزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يومًا تُرْجعون فيه إلى الله ، ثم توفَّى كلُّ نفس ما كسَبَت وهم لايظلمون » . وآخر مانزل من التوراة : « إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت » . وآخر مانزل من الإنجيل : « شرُّ الناس من لايبالى أن يراه الناس مُسيئا » . وآخر ما نزل من الزَّبور : « من يزرع خيرا يحصد زرعَه غِبطة » . فإذا أشعرها ماوصفت ، انقادت إلى الكف ، وأذعنت بالاتقاء ، فسلم دينه ، وظهرت مُروءته ، فهذا شرط .

وأما كف اللسان عن الأعراض ، فلأن عدمه مَلاذ السفهاء ، وانتقام أهل الغَوغاء ، وهو مستسهَل الكُلَف . و إذا لم يَقهر نفسه عنه برادع كافّ ، وزاجر صادّ ، تلبَّط بمعارّه ، وتخبَّط بمضارّه ، وظن أنه لتجافى الناس عنه حِمًى يتقى ، ورتبة تُرْتقى ، فهلك وأهلك . فلذلك قال النَّبىّ صلى الله عليه وسلم : « ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضَكم حرامٌ عليكم » ، فجمع بين الدم والعِرض ، لما فيه من إيغار الصدور ، و إبداء الشُّرور ، و إظهار البَذاء ، وا كتساب الأعداء ، ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لموموق ، ولا مروءة لملحوظ ، ثم هو بها موتور موزور ،

ولأجلها مهجور مزجور . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شرّ الناس من أكرمه الناس أُتقاء لسانه » . وقال بعض الحكماء : إنما هلك الناس بفضول الكلام ، وفضول المال .

وماقدَح فى الأعراض من الكلام نوعان : أحدهما : ماقدح فى عرض صاحبه ، ولم يتجاوز إلى غيره ، وذلك شيئان : الكذب ، وفحش القول . والثانى : ماتجاوزه إلى غيره ، وذلك أربعة أشياء : الغِيبة ، والنَّميمة ، والسِّعاية ، والسَّبّ ، بقذف أوشتم ؛ وربما كان السبُّ أنكاها للقلوب ، وأبلغها أثرا فى النفوس ؛ ولذلك زجر الله عنه بالحدّ تغليظا ، وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا ؛ وقد يكون ذلك لأحد شيئين : إما انتقام يصدر عن سفه ، أو بَذاء يحدث عن لؤم . وقد رَوَى أبو سَلَمة عن أبى هريرة ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن غِرٌّ كريم ، والفاجر خِبٌّ لئيم » . وقال ابن المقفَّع : الاستطالة لسان الجهالة ، وكف النفس عن هذه الحال بما يصدُّها من الزواجر أسلم ، وهو بذى المروءة أجمل؛ فهذا شرط .

وأما العفة عن المآثم فنوعان :

أحدها : الكف عن المجاهرة بالظلم ، والثانى : زجر النفس عن الإسرار بخيانة .

فأما المجاهرة بالظلم فعتُوٌّ مهلك ، وطُغيان مُتلِف ، وهو يئُول إن استمرّ إلى فتنة أو جَلاء ، فأما الفتنة فى الأغلب فتُحيط بصاحبها ، وتنعكس على البادئ بها ، فلا تنكشف إلا وهو بها مصروع ، كما قال الله تعالى : « ولا يَحيق المكرُ السيئ إلا بأهله » . وَرُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الفتنة نائمة ، فمن أيقظها صار طعاما لها » . وقال جعفر بن محمد : الفتنة حَصاد للظالمين . وقال بعض الحكماء : صاحب الفتنة أقرب شىء أجَلا ، وأسوأ شىء عَمَلا . وقال بعض الشعراء :

وكنتَ كَعنز السَّوء قامتْ بَظِلفها إلى مدية تحتَ الثَّرى تستثيرُها

وأما الجلاء : فقد يكون من قوة الظالم ، وتطاول مدته ، فيصير ظلمه مع المُكنَة جَلاء وفناء ، كالنار إذا وقعت فى يابس الشجر ، فلا تبقى معها مع تمكنها شيئا ، حتى إذا أفنَتْ ماوجدت ، اضمحلتْ وخمدتْ ، فكذا حال الظالم : مُهلِك ثم هالك . والباعث على ذلك

شيئان : الجراءة و القسوة ، ولذلك قال النبيّ عليه الصلاة والسلام : « اطلُبوا الفضل والمعروف عند الرُّحماء من أمتى ، تعيشوا فى أكنافهم » . والصادّ عن ذلك : أن يرَى آثار الله تعالى فى الظالمين ، فإن له فيهم عِبرًا ، ويتصوّر عواقب ظلمهم ، فإن فيها مُزْدَجرا . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أصبح ولم ينْو ظُلْمَ أحد ، غَفرَ الله له ما اجترم » . ورَوَى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا علىّ ، اتق دعوة المظلوم ، فإنه إنما يسأل الله حقه ، وإن الله لا يمنع ذا حقّ حقّه » . وقيل فى منثور الحكَم : ويلٌ للظالم ، من يوم المظالم . وقال بعض البلغاء : من جار حُكمه ، أهلكه ظلمه . وقال بعض الشعراء :

وما مِنْ يَدٍ إلا يدُ الله فوقَها ولا ظالمٍ إلّا سَيُبْلَى بظالمِ

وأما الإسرار بالخيانة فضعَة ، لأنه ببذل الخيانة مَهِين ، ولقلة الثقة به مستكين . وقيل فى منثور الحكم : من يَخُنْ يَهُنْ . وقال خالد الرَّبَعِىّ : قرأت فى بعض الكتب السالفة : أنّ ممّا تُعَجَّل عقوبته ولا تؤخر ، الأمانة تُخان ، والإحسان يُكفَر ، والرحم تُقْطَع ، والبغىُ عَلَى الناس ؛ ولو لم يكن من ذم الخيانة إلا مايجده الخائن فى نفسه من المذلة ، لكفاه زاجرا ، ولو تصوّر عُقْبَى أمانته ، وجَدْوَى ثقته ، لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه ، وأقوى شفعاء تقدّمه ، مع مايجدُه فى نفسه من العزّ ، ويقابَل عليه من الإعظام . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أدِّ الأمانة إلى مَنِ ائتمنك ، ولا تَخُنْ من خانك » . ورَوَى سعيد بن جُبَيْر قال : لما نزلت هذه الآية : « ومِنْ أهل الكتاب مَنْ إن تأمنْه بقنطار يؤدِّه إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا مادُمْتَ عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأمِّيين سَبيل » يعنون أن أموال العرب حلال لهم ، لأنهم من غير أهل الكتاب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذب أعداء الله ! مامِن شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىّ ، إلّا الأمانة ، فإنها مُؤداة إلى البَرّ والفاجر » . ولا يجعل مايتظاهر به من الأمانة زُورا ، ولا مايُبديه من العِفة غُرورا ، فينهتك الزور ، وينكشف الغُرور ، فيكون مع هَتْكه للتدليس أقبح ، ولمعرَّة الرياء أفضح . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتزالُ أمتى بخير مالم تر الأمانة مَغنمًا ، والصدقة مَغرَما » . وقال بعض الحكماء : من التمس أربعا بأربع ، التمس مالا يكون :

مَن التمس الجزاء بالرياء ، التمس مالا يكون؛ ومن التمس مودة الناس بالغلظة ، التمس مالا يكون ؛ ومن التمس وفاء الإخوان بغير وفاء ، التمس مالا يكون ؛ ومن التمس العلم براحة الجسد ، التمس ما لا يكون .

والداعى إلى الخيانة شيئان : المهانة ، وقلة الأمانة ، فإذا حسمهما عن نفسه بما وصَفْت ، ظهرت مروءته . فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة .

[النزاهة] وأما النزاهة فنوعان : أحدهما : النزاهة عن المطامع الدنية . والثانى: النزاهة عن مواقف الرِّيبة . فأما المطامع الدنية ، فلأن الطمع ذل ، والدناءة لؤم ، وهما أدفع شيء للمروءة . وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من طمَع ، يهدى إلى طَبَع . وقال بعض الشعراء :

لا تخضَعَنَّ لمخلوق على طَمَعٍ فإنّ ذلك نقصٌ منكَ فى الدِّينِ
واسترْزِق اللهَ مما فى خَزائنه فإنما هو بين الكاف والنونِ

والباعث على ذلك شيئان: الشَّرَه، وقلة الأنفة ؛ فلا يقنع بما أُوتىَ وإن كان كثيرا ، لأجل شَرَهه ، ولا يستنكف مما مُنِع وإن كان حقيرا ، لقلة أنفته . وهذه حال من لايرضى لنفسه قَدْرا ، ويرى المالَ أعظم خَطَرا ، فيرى بذلَ أهون الأمرين لأجلهما مَغْنما ، وليس لمن كان المال عنده أجلّ ، ونفسه عليه أقل ، إصغاء لتأنيب ، ولاقبول لتأديب . ورُوِى أنّ رجلا قال يارسول الله ، أوصنى . قال : عليك باليأس ، مما فى أيدى الناس ، وإياك والطمَع ، فإنه فقر حاضر ، وإذا صَلَّيت صلاة فصلِّ صلاة مُوَدِّع ، وإياك ومايُعْتَذر منه . وقال بعض الشعراء :

ومن كانت الدنيا مُناهُ وهَمَّهُ سَبَتْهُ المنَى واستعبدتهُ المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان : اليأس ، والقناعة . وقد رَوَى عبد الله بن مسعود ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوعِى: أنّ نَفْسًا لن تموتَ حتّى تستوْفِىَ رِزْقَها ؛ فاتقوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فى الطَّلَب ، ولا يحملنكم إبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصى الله تعالى ، فإن الله عز وجل لايُدْرَك ماعنده إلّا بطاعته » . فهذا شرط .

وأما مواقف الريبة فهى التردُّد بين منزلتى حَمْد وذم ، والوقوف بين حالتى سلامة وسقم ، فتتوجه إليه لائمة المتوهمين ، ويناله ذِلة المُريبين ، وكفى بصاحبها موقفا ، إن صح افتضح ، وإن لم يصحَّ امتُهِنَ . وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « دع مايَرِيبُك إلى مالا يَرِيبك » . وسُئل محمد بن علىّ عن المروءة ؟ فقال : ألّا تعمل فى السرِّ عملا تستحى منه فى العلانية . وقال حسان بن أبى سِنان : ماوجدت شيئا هو أهون من الورع . قيل له : وكيف ؟ قال : إذا ارْتبْتُ بشىء تركته .

والداعى إلى هذه الحال شيئان : الاسترسال ، وحسن الظن . والمانع منهما شيئان : الحياء والحذر . وربما انتفت الريبة بحسن الثقة ، وارتفعت التهمة بطول الخبرة . وقد حُكى عن عيسى بن مريم عليه السلام : أنه رآه بعض الحواريّين ، وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور ، فقال : يارُوح الله ، ماتصنع هنا ؟ فقال الطبيب إنما يداوِى المرضَى . ولكن لاينبغى أن يجعل ذلك طريقا إلى الاسترسال ، وليكن الحذر عليه أغلب ، وإلى الخوف من تصديق التهم أقرب ، فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أبعد خلق الله من الرِّيَب ، وأصونُهم من التُّهم ، وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها ، وكان معتكفا ، فمرّ به رجلان من الأنصار ؛ فلما رأياه أسرعا ، فقال لهما : على رِسْلِكما ، إنها صَفية بنت حُيَيّ . فقالا : سبحانَ الله ! أوفيك شكٌّ يارسولَ الله ؟ فقال مه : إن الشيطانَ يجرى من أحدِكُم مَجْرى لحمه ودمه ، فخَشيت أن يَقذِف فى قلبيكما سُوءا . فكيف مَنْ تخالجت فيه الشكوك ، وتقابلت فيه الظنون ؟ فهل يَعرَى فى مواقف الريب من قادح محقِّق ، ولائم مصدّق . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا لم يَشْق المرء إلّا بما عمِل ، فقد سَعِد » . وإذا استعمل الحزم ، وغلَّب الحذر ، وترك مواقف الرِّيب ، ومظانّ التهم ، ولم يقف موقف الاعتذار ، ولا عُذْرَ لمختار ، لم يَختلج فى نزاهته شكّ ، ولم يقدح فى عرضه إفك . وقد قال الشاعر :

أَصُونُكَ أن أُدِلَّ عليك ظَنًّا　　لأَنّ الظنَّ مفتاحُ اليَقِينِ

وقال سهل بن هارون : مُؤْنة المتوقِّف ، أيسر من تكلُّف المتعسِّف . وقال بعض الحكماء : من حسن ظنه بمن لايخاف الله تعالى فهو مخدوع .

وأنشدنى بعض أهل الأدب ، لأبى بكر الصُّولِيّ رحمه الله ، قوله :

أحسنتُ ظنى بأهلِ دهرِى ... فحسنُ ظَنِّى بهم دَهانى

لا آمنُ الناسَ بعدَ هذا ... ما الخوفُ إلّا من الأمانِ

فهذا شرط استوفينا فيه نَوْعَيِ النزاهة .

[الصيانة] وأما الصيانة ، وهى الثالث من شروط المروءة فنوعان. أحدهما: صيانة النفس بالتماس كفايتها ، وتقديم مادتها . والثانى : صيانتها عن تحمل المِنَن ، والاسترسال فى الاستعانة . فأما التماس الكفاية ، وتقدير المادة ، فلأن المحتاج إلى الناس كَلٌّ مهتَضَم ، وذليل مستثقَل ، وهو لِما فطر عليه ، محتاج إلى ما يستمدّه ، ليقيم أَوَدَ نفسه ، ويدفع ضرورة وقته ، ولذلك قالت العرب فى أمثالها : كَلْبٌ جَوّال خير من أسد رابض . ومايستمده نوعان : لازم ونَدْب . فأما اللازم فما قام بالكفاية ، وأفضى إلى سَدّ الخَلة ؛ وعليه فى طلبه ثلاثة شروط :

أحدها : استطابته من الوجوه المباحة ، وتوقى المحظورة ، فإن المواد المحرّمة مستخبثة الأصول ، ممحوقة المحصول ، إن صَرَفها فى برّ لم يؤجَر ، وإن صرفها فى مدح لم يشكر ، ثم هو لأوزارها محتقِب ، وعليها معاقَب . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يعجبْك رجل كسب مالا من غير حِله ، فإن أنفقه لم يُقبل منه ، وإن أمسكه فهو زاده إلى النار». وقال بعض الحكماء : شر المال مالزمك إثم مَكْسَبه ، وحُرِمْتَ أجْرَ إنفاقه .

ونظر بعض الخوارج إلى رجل من أصحاب السلطان يتصدّق على مِسكين، فقال: انظر إليهم حسناتهم من سيئاتهم . وقال علىُّ بن الجَهْم :

شرُّ مَنْ عاش مالُه فإذا حا ... سَبَه اللهُ سَرَّهُ الإعدامُ

والثانى : طلبه من أحسن جهاته ، التى لا يلحقه فيها غَضّ ، ولا يتدنّس له بها عِرْض ؛ فإن المال يراد لصيانة الأعراض ، لا لابتذالها ، ولعز النفوس ، لا لإذلالها . وقال عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه : ياحبذا المـالُ أصونُ به عرضى ، وأُرضِى به ربى .

وقال أبو بشر الضرير :

كفَى حزنا أنِّى أروحُ وأغتدِى ... ومالِى من مالٍ أصُون به عِرْضى

وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبًا　　　وذلك لا يكفى الصديقَ ولا يُرْضِى

وسئل ابن عائشة عن قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : «اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه» ، فقال : معناه مِنْ أحسن الوجوه التى تحلّ .

والثالث : أن يتأنّى فى تقدير مادته ، وتدبير كفايته ، بما لا يلحقه خَلَل ، ولا يناله زَلَل ، فإنّ يسير المال مع حسن التقدير ، وإصابة التدبير أجدى نفعا ، وأحسنَ موقعا ، من كثيره مع سوء التدبير ، وفساد التقدير ، كالبذر فى الأرض ، إذا رُوعى يسيره زكا ، وإن أُهمل كثيره اضمحلّ . وقال محمد بن على رضى الله عنه : الكمال فى ثلاثة : العفة فى الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التدبير فى المعيشة . وقيل لبعض الحكماء : فلان غنىّ ، فقال : لا أعرف ذلك ما لم أعرفْ تدبيره فى ماله .

فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمدّه من قدر الكفاية ، فقد أدّى حق المروءة فى نفسه . وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة ، فقال : العفّة والحِرفة . وقال بعض الحكماء لابنه : يابنىّ ، لا تكن على أحد كَلّا ، فإنك تزداد ذُلّا ، واضرب فى الأرض عَوْدا وبَدْءا ، ولا تأسف لمال كان فذهب ، ولا تعجِز عن الطلَب ، لوصَب ولا نصَب ، فهذا حال اللازم . وقد كان ذوو الهمم العَلِية ، والنفوس الأبية ، يرون ماوصل إلى الإنسان كسبا ، أفضل مما وصل إليه إرثا ، لأنه فى الإرث فى جَدْوى غيره ، وبالكسب مُجْدٍ إلى غيره ، وفرْق مابينهما فى الفضل ظاهر . وقال كشاجم :

لا أستلذّ العيشَ لم أدأبْ له　　　طَلَبا وسَعْيا فى الهواجر والغَلَسْ

وأرَى حَرَاما أن يُوَاتينى الغِنى　　　حتى يحاوَل بالعَناء ويُلتَمَسْ

فاصرفْ نوالَك عن أخيك مُوَفَّرا　　　فالليث ليس يُسِيغُ إلّا ما افترسْ

وأما الندب فهو : مافضل عن الكفاية ، وزاد على قدر الحاجة ، فإن الأمر فيه معتبر بحال طالبه ، فإن كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء ، وتقاصر عن مطاولة النظراء ، وانقبض عن منافسة الأكفاء ، فحسبُه ما كفاه ، فليس فى الزيادة إلا شَرَه ، ولا فى الفُضُول إلّا نَهَم ، وكلاهما مذموم . وقد قال النبىّ صلَّى الله عليه وسلم : « خيرُ الرزق ما يكفى ، وخيرُ الذكر الخفىّ » .

وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : الدنيا كَلٌّ على العاقل . وقال عبد الله ابن مسعود : المستغنى عن الدنيا بالدنيا ، كمطفئ النار بالتِّبْن . وقال بعض الحكماء : اشتر ماء وجهك بالقناعة ، وتسلَّ عن الدنيا بتجافيها عن الكرام . فإن كان ممن مُنِى بعلوّ الهمم ، وتحركت فيه أريحية الكرم ، وآثر أن يكون رأسا مقدما ، وأن يُرى فى النفوس مُعَظَّما ومفخما ، فالكفاية لا تُقِلّه حتى يكون ماله فاضلا ، ونائله فائضا ؛ فقد قيل لبعض العرب : ما المروءة فيكم ؟ قال : طَعام مأكول ، ونائل مَبذول ، وبِشر مقبول . وقد قال الأحنف ابن قيس :

فلوْ مُدَّ سَرْوِى بمال كثير لَجُدْتُ وكنتُ له باذلَا
فإن المروءة لا تستطاعُ إذا لم يكن مالهُا فاضلَا

وأما صيانتها عن تحمل المِنَن ، والاسترسالِ فى الاستعانة ، فلأن المِنة استرقاق الأحرار ، تُحْدث ذلة فى الممنون عليه ، وسَطوة فى المانّ ، والاسترسال فى الاستعانة تثقيل ، ومن ثَقَّل على الناس هان ، ولاقدر عندهم لُمهان .

وقال رجل لعمر رضى الله عنه : خدَمَك بنُوك ، فقال : أغنانى الله عنهم . وقال علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه لابنه الحسن ، فى وصيته : يابنىّ ، إنِ استطعت ألَّا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، ولا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حُرًّا ، فإن اليسير من الله تعالى أكرمُ وأعظم من الكثير من غيره ، وإن كان كلٌّ منه كثيرا . وقال زياد لبعض الدّهاقين : ما المروءة فيكم ؟ قال : اجتناب الرِّيَب ، فإنه لا ينْبُل مُريب ، وإصلاح الرجل مالَه ، فإنه من مُروءته ، وقيامه بحوائجه وحوائج أهله ، فإنه لا ينبُل مَن احتاج إلى أهله ، ولا من احتاج أهله إلى غيره . وأنشد ثعلب :

مَنْ عَفَّ خَفَّ على الصديق لقاؤُه وأخو الحوائج وجهُه مملولُ
وأخوك مَن وَفَّرت مافى كيسه فإذا عَبِثْتَ به فأنت ثقيلُ

وإن كان الناس لُحمة لا يستغنون عن التعاون ، ولا يستقلون عن المساعد والمُظافر ، فإنما ذلك تعاون ائتلاف ، يتكافئون فيه ولا يتفاضلون ، وربما كان المستعين فيه مفضَّلا ، والمُعين

مستفضَلا ، كاستعانة السلطان بجنده ، والمزارع بأكَرَته ، فليس من هذا بدّ ، ولا لأحد عنه غِنًى ؛ وإنما الذى يتصوَّنُ عنه الكرام ، تعاوُن التفضيل . فينقبضون عن أن يستعينوا ، لئلا يكون عليهم يد ، ويُسارعون أن يُعينوا ، لأن يكون لهم يد ؛ ومَن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال ، فقد أوْهى مروءته ، واستبذل صيانته ، ومن دعاه الاضطرار لنائب ألَمّ ، أوحادث هَجَم إلى الاستعانة بمن يتنفس به من خِناق كَربه ، ويتخلّص به من وَثاق نوائبه ، فلا لوم على مضطرّ ، فإن أغنته الاستعانة بالجاه ، عن الاستعانة بالمال ، فلا عُذر له فى التعرّض للمال ، ويعدِل إلى وُلاة الأمور ، فإن الحوائج عندهم أنجح . وهى عليهم أسهل ، وهم لذلك مندو بون ، فهم لا يجدون لهم مساويا ، ولْيصبِرَنّ على إبطائهم ، فإن تراكم الأمور عليهم يشغَلُهم ، إلا عن الملحِّ الصَّبور ، ولذلك قيل : قدّم لحاجتك بعض لَجاجتك . وقال أبوسَارة سُحَيم بن الأعرف :

نَعُدّ قرابةً ونَعُدّ صِهْرًا ... ويُسْعَد بالقرابة مَن رَعاها

ومازُرناكَ من عَدَمٍ ولكن ... يَهَشّ إلى الإمارة مَن رَجاها

وأيًّا مّا فعلْتَ فإن نفسِى ... تَعُدّ صَلاحَ نفسِك مِنْ غِناها

فإن تعذر عليه صلاح حاله إلا بمال يستعين به على نوائبه ، كان له مع الضرورة فُسْحة ، لكن إن وجده قَرْضا مردودا ، لم يأخذه صِلة وجودا ، فإن القرض مستسمَح به فى المروءات . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه ، قد اقترض ، ثم قضى فأحسن . وقال صلى الله عليه وسلم : « من أعياه رزق الله تعالى حَلالا ، فلْيَستدِن على الله وعلى رسوله » . وقال صلى الله عليه وسلم : « المستدين تاجرُ الله فى أرضه » . وقال البحترى :

إن لم يكن كَثْرٌ فقُلٌّ عَطِيةٍ ... يبلغ بها باغى الرضا بعض الرضَا

أولم يكن هبة فقرض يُسِّرَتْ ... أسبابُه ، وكواهبٍ مَن أقرَضَا

ولئن كان الدَّين رِقا ، فهو أسهل من رِقّ الإفضال . وقد رُوِى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : من أراد البقاء ولا بقاء ، فليباكر الغَدَاء ، وليخفّف الرداء . قيل :

وماخفة الرداء من البقاء ؟ قال : قِلة الدَّيْن ، فإن أعوزه ذلك إلا استمناحا ، فهو الرِّق المذلّ ، ولذلك قيل : لامُرُوءة لمقِلّ . وقال بعض الحكماء : مَن قَبل صلتك ، فقد باعك مُروءته ، وأذل لقدرك عِزَّه وجلالته .

والذى يَتماسك به الباقى من مُروءة الراغبين ، واليسير التافه من صيانة السائلين ، و إن لم يبق لذى رغبة مروءة ، ولا لسائل تصوّن ، أربعة أمور ، هى جهْد المُضطَر :

أحدُها : أن يتجافى ضَرَع السائلين ، وأُبَّهة المستقلين ، فيذلّ بالضَّرَع ، و يُحرَم بالأبهة ، وليكن من التجمُّل على مايقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء : متى يَفْحُشْ زوال النعم ؟ قال : إذا زال معها التجمُّل .

وأنشد بعض أهل الأدب لعلىّ بن الجَهْم :

هىَ النفسُ ماحمَّلْتَها تَتَحَمّلُ ... وللدّهرِ أيامٌ تجورُ وَتعدِلُ
وعاقبةُ الصبرِ الجميلِ جميلةٌ ... وأحسنُ أخلاقِ الرجالِ التفضُّلُ
ولا عارَ إن زالت عن الحرّ نعْمة ... ولكنّ عاراً أن يزول التجمُّلُ

والثانى : أن يقتصر فى السؤال على ما دعته إليه الضرورة ، وقادته إليه الحاجة ، ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام ، فيحرَمَ باغتنامه ، ولا يعذرَ فى ضرورته . وقد قال بعض الحكماء : من أَلِف المسئلة أَلِفه المنع .

والثالث : أن يَعْذِر فى المنع ، ويشكر على الإجابة ، فإنه إن مُنِـع فعما لا يملك ، و إن أجيب فإلى مالا يستحقّ . فقد قال النمِر بن تَوْلَب :

لا تَغْضَبَنَّ عَلَى امرئٍ فى ماله ... وَعَلَى كرائمِ صُلْبِ مالكَ فاغضَبِ

والرابع : أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلا ، وكان النجح عنده مأمولا ، فإن ذوى المُكنة كثير ، والمعين منهم قليل . وَلذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الخير كثير ، وقليل فاعله » .

والمرجوّ للإجابة من تكاملت فيه خصالها ، وهى ثلاث :

إحداهن : كرم الطبع ، فإن الكريم مساعد ، واللئيم معاند . وقد قيل : المخذول من

كانت له إلى اللئام حاجة . والثانية : سلامة الصدر ، فإن العدوّ أَلبُّ على نكبتك ، وحرب فى نائبتك . وقد قيل : من أَوْغَرْتَ صدره ، استدعيت شَرَّه ؛ فإن رقّ لك بكرم طبعه ، ورحمك بحسن ظَفَره ، فأعظِم بها مِحنة : أن يصير عدوّك لك راحما ! وقد قال الشاعر :

وحَسْبُك من حادثٍ بامرئٍ تَرَى حاسدِيه لَهُ راحمينَا !

والثالث : ظهور المُكْنة ؛ فإنّ من سأل مالا يمكن فقد أحال ، وكان كمستنهض المسجون ، ومستسعِف المديون ، وكان بالردّ خليقا ، و بالحرمان حقيقا . وقد قال علىّ كرم الله وجهه : مَنْ لا يعرفْ « لا » حتى يقال له « لا » ، فهو أحمق . ووصّى عبد الله بن الأهتم ابنه فقال : يابنىّ لا تطلب الحوائج من غير أهلها ، ولا تطلبْها فى غير حينها ، ولا تطلب ما لست له مستحقًّا ، فإنك إن فعلتَ ذلك كنتَ حقيقا بالحِرْمان . وقال الشاعر :

ولا تسألنَّ امرَأً حاجةً يحاولُ من ربِّها مثلَهَا

فيترُكَ ما كنتَ حَمَّلْتَهَ و يَبْدَا بحاجته قبلَهَا

فهذا ما يختص بشروط المروءة فى نفسه .

[شروط المروءة فى غيره] وأما شروط المروءة فى غيره فثلاثة : المؤازرة، والمياسرة، والإفضال.

أما المؤازرة فنوعان : أحدهما : الإسعاف بالجاه . والثانى : الإسعاف فى النوائب .

فأما الإسعاف بالجاه ، فقد يكون من الأعلى قدرا ، والأنفذ أمْرا ، وهو أرخص المكارم ثمنا ، وألطف الصنائع مَوْقعا ، وربما كان أعظم من المال نفعا ، وهو الظلّ الذى يلجأ إليه المضطرّون ، والحِمَى الذى يأوِى إليه الخائفون ، فإن أوطأه[1] اتسع بكثرة الأنصار والشيع ، و إن قَبضه[2] انقطع بنفور الغاشية والتَّبَع ، فهو بالبذل يَنْمِى ويزيد ، و بالكفّ ينقص ويَبيد ، فلا عذر لمن مُنِح جاها أن يبخل به ، فيكونَ أسوأ حالا من البخيل بماله ، الذى قد يُعِدُّه لنوائبه ، و يستبقيه للذته ، ويكنِزُه لذرِّيته . و بضدّ ذلك من بخِل بجاهه ، لأنه قد أضاعه بالشحّ ، و بدّده بالبخل ، وحَرَم نفسه غنيمةَ مُكْنتِه ، وفُرْصةَ قدرته ، فلم يُعقبه إلا ندما على فائت ، وأسفا على ضائع ، ومقتا يَستحكم فى النفوس ، وذما قد ينتشر فى الناس . وقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الخلْق كلهم عِيال الله ، وأحب خلق الله تعالى إليه ، أحسنهم صنيعا إلى عِياله » . وقال بعض الحكماء : أَصنَع الخير عند إمكانه ، يبقَ لكَ

(١) أوطأه : مهده و سهله . (٢) قبضه : ضيقه وأمسكه .

حمدُه عند زواله ، وأحسِن والدَّولة لك ، يُحْسَن لك والدَّولة عليك ؛ واجعل زمان رخائك ، عُدّة لزمان بلائك . وقال بعض البلغاء : من علامة الإقبال ، اصطناع الرجال . وقال بعض الأدباء : بذل الجاه أحد الحِباءين . وقال ابن الأعرابىّ : العرب تقول : مَن أمَّلَ شيئا هابه ، ومن جهل شيئا عابَه . و بذل الجاه قد يكون من كرم النفس ، وشكر النعمة ، وضدُّه من ضدِّه ، وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا ، و إنما هو بائع جاهه ، ومعاوِضٌ على نِعم الله تعالى وآلائه ، فكان بالذمّ أحقّ .

وأنشد بعض الأدباء لعلىّ بن عباس الرومىّ ، رحمه الله :

لا تَبذلُ العرْفَ حينَ تَبذُلُهُ كمشترِى الحمد أو كمعتاضِهْ

بل تَفعلُ العُرفَ حين تَفعلُه لجوهرِ العُرف لا لأعرَاضِهْ

وعلى من أَسْعد بجاهه ثلاثة حقوق ، يستكثر بها الشكر ، و يستمدّ بها المزيد من الأجر : أحدُها : أن يستسهل المعونة مسرورا ، ولا يستثقلَها كارها ، فيكون بنعم الله تعالى متبرِّما ، ولإحسانه متسخِّطا ؛ فقد رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ عَظمت نعمة الله تعالى عليه ، عَظُمت مُؤْنة الناس عليه » . فمن لم يحتمل تلك المؤنة ، عرَّض تلك النعمة للزوال .

والثانى : مجانبة الاستطالة ، وترك الامتنان ، فإنهما من لؤم الطبع ، وضيق الصدر ، وفيهما هدم الصنيع و إحباط الشكر . وقد قيل للحكيم اليونانىّ : من أضيقُ الناس طريقا ، وأقلهم صديقا ؟ قال : من عاشر الناس بعبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه .

والثالث : ألّا يقرُن بمشكور سعيه تقريعا بذنب ، ولا توبيخا على هَفْوة ، فلا يفى مَضَض التوبيخ ، بإدراك النُّجْح ، و يصير الشكر وَجْدا[1] ، والحمد عيبا ؛ ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أقيلوا ذوى الهيئات[2] عَثَراتهم » . وقال النابغة الجَعْدىّ :

ألمْ تعلَما أن الملامةَ نفعُها قليلٌ إذا ما الشىءُ ولّى فأدبَرا

وأما الإسعاف فى النوائب ، فلأن الأيام غادرة ، و النوازل عائرة[3] ، والحوادث عارضة ،

(١) وجدا : غضبا . (٢) أى أهل المروءات والخصال الحميدة . والذين يلزمون سمتا حسنا .
(٣) عائرة : مهلكة . وفى المخطوطة عاثرة ، وفى منهاج اليقين : غائرة . ولعلها تحريف .

والنوائب راكضة ؛ فلا يَعْذِر فيها إلا عليم ، ولا يستنقذه منها إلا سليم . وقد قال عدىّ ابن حاتم :

كفى زاجرًا للمرء أيامُ دَهْرِه تروحُ له بالواعظاتِ وتَغتــدِى

فإذا وجدَ الكريم مصابا بحوادث دهره ، حثه الكرم ، وشكر النعم ، على الإسعاف فيها بما استطاع سبيلا إليه ، ووجدَ قدرة عليه . رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرٌ من الخير معطيه ، وشرٌّ من الشر فاعله » . وقيل لبعض الحكماء : هلْ شىء خيرٌ من الذهب والفضة ؟ قال : مُعطيهما .

والإسعاف فى النوائب نوعان : واجبٌ ، وتبرّع . فأما الواجب فما اختص بثلاثة أصناف ، وهم : الأهل ، والإخوان ، والجيران .

أما الأهل فلمماسة الرحم ، وتعاطف النسب ، وقد قيل : لم يسُدْ من احتاج أهله إلى غيره . وقال حسان بن ثابت :

و إنَّ امرَأً نالَ المُنَى لم ينَلْ به قريبا ولا ذا حاجة لزهيــدُ
و إن امرأ عادَى الرجالَ على الغنى ولم يسأل اللهَ الغِنَى لحسودُ

وأما الإخوان فلمُسْتحكم الوُدّ ، ومتأكّد العهد . وسُئل الأحنف بن قيس عن المروءة ؟ فقال : صدق اللسان ، ومؤاساة الإخوان ، وذكر الله تعالى فى كل مكان . وقال بعض حُكماء الفرس : صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة ، ونَفسَه عند النكبة ، ويحفظك عند المغيب . ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل : هما صديقان ، فقال : مابال أحدهما فقير ، والآخرِ غنىٌّ[1] .

وأما الجار فلدنوّ داره ، واتصال مَزاره ؛ قال على كرم الله وجهه : ليس حسن الجوار كفّ الأذى ، بل الصبر على الأذى . وقال بعض الحكماء : من أجار جارَه ، أعانه الله وأجاره . وقال بعض البلغاء : مَن أحسن إلى جاره ، فقد دَلَّ على حسن نِجَاره . وقال بعض الشعراء :

وللجار حقٌّ فاحترز من أذاته وما خيرُ جارٍ لم يزل لك مُؤذيا

(١) كان حقه أن يقول : مابال أحدهما فقيرا ، والآخر غنيا ، بالنصب على الحال . ولعلهما بالرفع خبران عن مبتدأين محذوفين ، أى هو فقير ، وهو غنى ، والجملة فى محل نصب على الحال .

فيجب فى حقوق المروءة ، وشروط الكرم فى هؤلاء الثلاثة ، تحمل أثقالهم ، وإسعافهم فى نوائبهم ، ولا فسحة لذى مروءة عند ظهور المُكْنة ، أن يكلَهم إلى غيره ، أو يلجئهم إلى سُؤاله ، وليكن السائل عنهم كرمُ نفسه ، فإنهم عِيال كرمه ، وأضياف مُروءته ، فكما أنه لا يحسن أن يُلْجِئ عياله وأضيافه إلى الطلَب والرغبة ، فهكذا من عاله كرمه ، وأضافته مروءته . وقال بعض الشعراء :

حقٌّ على السيد المرجوّ نائلُهُ ... والمستجارُ به فى العُربِ والعَجَمِ

ألّا يُنيل الأقاصى صَوْبَ راحته ... حتى يَخُصَّ به الأدنى من الخَدَمِ

إن الفراتَ إذا جاشت غواربُهُ ... رَوَّى السواحلَ ثم امتدّ فى الأُمَمِ

وأما التبرع ففيمن عدا هؤلاء الثلاثة ، من البُعَداء الذين لا يُدْلُون بنسب ، ولا يتعلّقون بسبب ، فإن تبرع بفضل الكرم ، وفائض المروءة ، فنهض فى حوادثهم ، وتكفل بنوائبهم ، فقد زاد على شروط المروءة ، وتجاوزها إلى شروط الرياسة . وقيل لبعض الحكماء : أى شىء من أفعال الناس يشبه أفعال الإله ؟ قال : الإحسان إلى الناس .

وإن كفَّ تشاغلا بما لزِم فلا لوم ، مالم يلجأ إليه مضطر ، لأن القيام بالكل مُعْوِز ، والتكفُّل بالجميع متعذّر ، فهذا حكم المُؤَازرة .

وأما المياسرة فنوعان : أحدهما : العفو عن الهفوات . والثانى : المسامحة فى الحقوق .

فأما العفو عن الهفوات ، فلأنه لا مَبْرأ من سَهو وزَلل ، ولا سليم من نقص أو خَلَل ، ومن رام سليما من هفوة ، والتمس بريئا من نبوة ، فقد تعدّى على الدهر بشَطَطه ، وخادع نفسه بغلطه ، وكان من وجود بغيته بعيدا ، وصار باقتراحه فَرْدا وحيدا . وقد قالت الحكماء : لا صديق لمن أراد صديقا لا عيب فيه . وقيل لأنوشِرْوان : هل من أحد لا عيب فيه ؟ قال : من لا موتَ له . وإذا كان الدهر لا يوجده ماطلب ، ولا ينيله ما أحب ، وكان الوحيد فى الناس مرفوضا قصيًّا ، والمنقطع عنهم وحشيا ، لزمه مساعدة زمانه فى القضاء ، ومياسرة إخوانه فى الصفح والإغضاء . رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنّ الله تعالى أمرنى بمداراة الناس ، كما أمرنى بأداء الفرائض » . وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لا تجتمع إلا فى كريم : حُسْنُ المحضَر ، واحتمال الزلّة ، وقلة المَلال . وقال ابن الرومىّ :

فعُذركَ مبسوطٌ لذنبٍ مقدَّمٍ ووُدُّك مقبولٌ بأهلٍ ومرْحَبِ
ولو بلغتنى عنك أذْنى أقمتُها لدىّ مُقامَ الكاشحِ المتكذبِ
فلستُ بتقليب اللسان مُصارِمًا خليلاً إذا ما القلبُ لم يتقلبِ

وإذا كان الإغضاء حتما ، والصفح كرما ، تَرَتَّب بحَسَب الهفوة ، وتنَزَّلَ بقدر الذنب . والهفوات نوعان : صغائر وكبائر . فالصغائر مغفورة ، والنفوس بها معذورة ، لأن الناس مع أطوارهم المختلفة ، وأخلاقهم المتفاضلة ، لايسلمون منها ، فكان الوجد فيها مُطَّرَحا ، والعتب مستقبَحا . وقد قال بعض العلماء : من هجر أخاه من غير ذنب ، كان كمن زرع زرعا ، ثم حصده فى غير أوانه . وقال أبوالعتاهية :

وشر الأخلاءِ مَنْ لم يزلْ يعاتِبُ طَوْرًا وطورا يَذُمّْ
يريك النصيحةَ عند اللقاء ويَبْريك فى السرِّ برىَ القَلَمْ

وأما الكبائر فنوعان : أن يهفوَ بها خاطيا ، ويَزِلّ بها ساهيا ، فالحَرَج فيهما مرفوع ، والعتب عليها موضوع ؛ لأن هفوة الخاطئ هَدَر ، ولومه هَذَر . وقال بعض الحكماء : لاتقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه . وقال الأحنف بن قيس : حقّ الصديق أن تحمل له ثلاثا : ظلمَ الغَضَب ، وظلمَ الدالَّة ، وظلمَ الهفوة . وحَكَى ابن عَوْن أن غلاما هاشميا عَرْبد على قوم ، فأراد عمه أن يسىء به ، فقال : ياعم ، إنى قد أسأت وليس معى عقلى ، فلا تُسِئْ بى ومعك عقلك . وقال أبونُواس :

لمْ أؤاخِذْك إذ جنيتَ لأنِّى واثق منك بالإخاء الصحيحِ
فجميلُ العدوِّ غيرُ جميلٍ وقبيح الصديق غيرُ قبيحِ

فإن تشبَّه خطؤه بالعمد ، وسهوه بالقصد ، تَثَبَّتَ ، ولم يَلمْ بالتوهُّم ، فيكونَ ملوما ، ولا يلومَ بالظن ، فيصير مذموما ؛ ولذلك قيل : التثبت نصف العفو . وقال بعض الحكماء : لايفسدْك الظن على صديق أصلحك اليقينُ له . وقال بعض شعراء هُذَيل :

فبعضُ الأمر تصلحهُ ببعضٍ فإنَّ الغثَّ يحمله السمينُ
ولاتعْجَلْ بظنك قبل خُبْرٍ فعند الخُبْر تنقطعُ الظنونُ

تَرى بين الرجالِ العينُ فضْلاً ... وفيما أضمروا الفضلُ المبينُ
كلون الماء مشتبهًا وليستْ ... تخبِّرُ عن مذاقته العيونُ

والثانى : أن يعتمد ما اجترم من كبائره ، ويقصد ما اجترح من سيئاته . ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال :

فالحال الأولى : أن يكون موتورا ، قد قابل على وَترة ، وكافأ على مساءة ، فاللائمة على من وَتَره عائدة ، وإلى البادئ بها راجعة ؛ لأن المكافئ أعذر ، وإن كان الصفح أجمل ؛ ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «إياكم والمشارّة ، فإنها تميت الغُرّة ، وتحيى الغِرّة» . وقال بعض الحكماء : مَنْ فعل ماشاء ، لقى مالم يشأ . وقال بعض الأدباء : من نالته إساءتُك، همته مساءتُك . وقال بعض البلغاء : من أُولِع بقبح المعاملة ، أُوجِع بقبح المقابلة . وقال صالح ابن عبد القُدوس :

إذا وَتَرتَ أمرا فاحذَرْ عداوتَهُ ... مَنْ يزرع الشوكَ لايحصدْ به عِنبَا
إن العـدوَّ وإن أبدَى مسالمةً ... إذا رأى منك يوما فُرْصَةً وَثَبا

والإغضاء عن هذا أوجب ، وإن لم تكن المكافأة ذنبا ؛ لأنه قد رأى عُقْبَى إساءته ، فإن واصل الشرّ، واصلته المكافأة . وقد قيل : باعتزالك الشرّ يعتزلْك ، وبحسن النَّصَفة يكثُر الواصلون . وقال بعض الحكماء : من كنت السبب لبلائه، وجب عليك التلطف له ، فى علاجه من دائه . وقد قال أوس بن حَجَر :

إذا كنت لم تُعرِض عن الجهل والخنَا ... أصبتَ حليماً أو أصابكَ جاهـلُ

والحال الثانية : أن يكون عدوًّا قد استحكمت شَحْناؤه ، واستوعرت سَرّاؤه ، واستخشنت ضَرّاؤه ، فهو يتربَّص بدوائر السَّوْء انتهازَ فُرَصِه ، ويتجرع لِمهانة العَجز مَرارة غُصَصِه ، فإذا ظَفِر بنائبة ساعدها ، وإذا شاهد نعمة عاندها ، فالبعد منه حَذَرا أسلم ، والكف عنه مُتاركة أغنم ، فإنه لايُسلَم من عواقب شرّه ، ولا يُفلَت من غوائل مكره . وقد قالت الحكماء : لاتعَرّضَنّ لعدوّك فى دَولته ، فإذا زالت كُفيت شرّه . وقال لقمان لابنه : يابنىّ ، كذب من قال : إن الشرّ بالشرّ يُطفأ ، فإن كان صادقا فليوقد نارين ، ولينظرْ : هل تُطفِئ إحداها

الأخرى ؟ وإنما يُطفئُ الخيرُ الشرَّ ، كما يطفئ الماء النار . وقال جعفر بن محمد : كفاك من الله نصرا ، أن ترَى عدوّك يعصِى الله فيك . وقال بعض الحكماء : بالسيرة العادلة يُقْهَر المعادِى . وقال البحترىّ :

وَأُقْسِمُ لاأَجزِيكَ بالشرِّ مثلَهُ   كَفَى بالذى جازيتَنى لكَ جازِيا

والحال الثالثة : أن يكون لئيم الطبع ، خبيث الأصل ، قد أغراه لؤم الطبع ، على سوء الاعتقاد ، وبعثه خبث الأصل على إيثار الفساد ، فهو لا يستقبح الشرّ ، ولا يكفُّ عن المكروه . فهذه الحال أعظم ؛ لأن الأضرار بها أعَمّ ، ولا سلامة من مثله إلّا بالبعد والانقباض ، ولا خلاص منه إلا بالصفح والإعراض ؛ فإنه كالسبُع الضارى فى سوارح الغنم ، وكالنار المتأججة فى يابس الحطب ، لا يقربَهُا إلّا تالف ، ولا يدنو منها إلّا هالك .

رَوَى مكحول عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «الناس كشجرة ذات جَنًى ، ويوشِك أن يعودوا كشجرة ذات شَوك ، إن ناقدْتهم ناقدوك ، وإن هرَبتَ منهم طلبوك ، وإن تركتهم لم يتركوك . قيل : يارسول الله ، وكيف المخرج ؟ قال : أقرِضهم من عِرْضِكَ ليوم فاقتك » . وقال عبد الله بن العباس : العاقل الكريم ، صديق كل أحد إلّا من ضرّه ، والجاهل اللئيم عدوّ كل أحد إلّا من نفعه . وقال : شرّ مافى الكريم أن يمنعك خيره ، وخير مافى اللئيم أن يكف عنك شرّه ؟ وقال بعض البلغاء : أعداؤك : داؤك ، وفى البعد عنهم شفاؤك . وقال بعض البلغاء : شرف الكريم ، تغافلُهُ عن اللئيم .

ووصَّى بعض الحكماء ابنه . فقال : يابنىّ ، إذا سلم الناس منك ، فلا عليك ألّا تسلم منهم ؛ فإنه قلما اجتمعت هاتان النعمتان . وقال عبد المسيح بن عمرو بن بُقيلة :

الخيرُ والشرُّ مقرونان فى قَرَنَ   فالخيرُ مُستَتْبَع والشرُّ محذورُ

والحال الرابعة : أن يكون صديقا قد استحدث نَبْوة وتغيرا ، أو أخا قد استجدّ جَفوة وتَنكرا ، فأبدى صفحة عُقوقه ، واطّرَح لازم حقوقه ، وعَدَل عن برّ الإخاء ، إلى جفوة الأعداء . فهذا قد يعرِض فى المودّات المستقيمة ، كما تعرِض الأمراض فى الأجسام السليمة ، فإن عُولجت أقلعت ، وإن أهملت أسقمت ، ثم أتلفت . ولذلك قالت الحكماء : دواء المودة كثرة التعاهد . وقال كشاجم :

أقِلْ ذا الوُدِّ عَثْرته وقِفْهُ   على سَنَن الطريق المستقيمهْ
ولا تُسْرِع بمَعْتبة إليــهِ   فقد يهفو ونيته سَلِيمهْ

ومن الناس من يرى أن متاركة الإخوان إذا نفروا أصلح ، واطراحَهم إذا فسدوا أولى ، كأعضاء الجسد : إذا فسدت كان قطعها أسلم ، فإن شحّ بها سرتْ إلى نفسه ، وكالثوب إذا خَلُق ، كان اطراحه بالجديد له أجمل . وقد قال بعض الحكماء : رَغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس ، وزهدك فيمن يرغب فيك صِغَر همة . وقد قال بزُرُجَمهْر : من تغير عليك فى مودته ، فدعه حيث كان قبل مَعرفته . وقال نصر بن أحمد الخُبْزَأَرْزِىّ :

صِلْ مَن دنا وتناسَ من بعُدا   لا تُكْرِهَنَّ على الهوَى أَحَدَا
قد أكثرتْ حوَّاء إذ ولدتْ   فإذا جفا ولدٌ فخُذْ وَلَدَا

وهذا مذهب من قل وفاؤه ، وضعُف إخاؤه ، وساءت طرائقه ، وضاقت خلائقه ، ولم يكن فيه فضل الاحتمال ، ولا صبْر على الإدلال ، فقابل على الجفوة ، وعاقب على الهفوة ، واطَّرح سالف الحقوق ، وقابل العقوق بالعقوق ، فلا بالفضل أخذ ، ولا إلى العفو أخلد ، وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه فترديه ، وأن جسمه قد يَسقَم عليه فيؤلمه ويؤذيه ، وهما أخصّ به ، وأحنَى عليه ، من صديق قد تميز بذاته ، وانفصل بأدواته ، فيريد من غيره لنفسه ، مالا يجدُهُ من نفسه لنفسه . هذا عينُ المحال ، ومَحْض الجهل ، مع أن من لم يحتمل بقِى فردا ، وانقلب الصديق فصار عدوا ، وعداوة من كان صديقا ، أعظم من عداوة من لم يزل عَدُوًّا . ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أوصانى ربى بسبع : الإخلاصِ فى السرّ والعلانية ، وأن أعفوَ عمن ظلمنى ، وأعطىَ من حَرَمنى ، وأصلَ من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عِبرة » . وقال لقمان لابنه : يابُنىّ ، لا تترك صديقك الأول ، فلا يطمئنّ إليك الثانى . يابُنىّ ، اتخذ ألفَ صديق ، والألف قليل ، ولا تتخذ عدوًّا واحدا ، والواحد كثير . وقيل للمهلَّب بن أبى صُفْرة : ماتقول فى العفو والعقوبة ؟ قال : هما بمنزلة الجود والبخل ، فتمسك بأيِّهما شئت . وأنشد ثعلب :

إذا أنتَ لم تستقبل الأمرَ لم تجد   بكفيك فى إدباره متعلَّقا

إذا أنت لم تترك أخاك وَزَلَّةٍ إذا زَلَّهـا أوشكتما أنْ تفرَّقا

فإذا كان الأمر على ماوَصَفْت ، فمن حقوق الصفح ، الـكشفُ عن سبب الهفوة ، ليعرف الداء فيعالجه ، فإن من لم يعرف الداء ، لم يقف على الدواء . كما قد قال المتنبى :

فإنَّ الجرحَ يَنْغَرُ بعد حينٍ إذا كان البناء على فسادِ(١)

و إذا كان ذلك كذلك ، فلايخلو حال السبب ، من أن يكون لِمَلَل أو زَلَل ، فإن كان لِمَلل ، فمودّات المَلول ظلُّ الغمام ، وحُلْم النِّيام . وقد قيل فى منثور الحكم : لاتأمننْ لملولٍ و إن تحلى بالصِّلة ، وعلاجه أن يُترك على مَلَله ، فيمل ُّ الجفاء ، كما ملَّ الإخاء .

و إن كان لزَلَل لُوحظت أسبابه ، فإن كان لها مَدْخل فى التأويل ، وشُبهة تئول إلى جميل ، حمله على أجمل تأويل ، وصرفه إلى أحسن جهة . كالذى حُـكِى عن خالد بن صفوان ، أنه مرّ به صديقان له ، فعرّج عليه أحدهما ، وطواه الآخر . فقيل له فى ذلك ، فقال : نعَم ، عرج علينا هذا بفضله ، وطوانا ذلك بثقته بنا .

وأنشد بعض أهل الأدب ، لمحمد بن داود الأصفهانى :

وتزعم للواشينَ أنِّىَ فاسدٌ عليك ، وأنى لستُ فيما عَهِدْتَنِى
ومافسدتْ لى يعلمُ اللهُ نيـةٌ عليكَ ولـكن خُنْتَنى فاتهمتنى
غدرتَ بعهدى عامداً وأخَفْتِنِى فخفتَ ولو آمنتنى لأمِنْتَنِى

و إن لم يكن لزلَلِه فى التأويل مَدْخَل ، نظر حاله بعد زلله ؛ فإن ظهر ندمه ، و بان خجَله ، فالندم تَوْبة ، والخَجَل إنابة ، ولاذنب لتائب ، ولا لوم على مُنيب ، ولا يكلَّف عُذرا عما سلف ، فيُلجأ إلى ذل التحريف ، أوخجل التعنيف . ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إياكم والمعاذر ، فإن أكثرها مفاجر » . وقال علىّ رضى الله عنه : كَفَى بما يُعْتَذَرُمنه تهْمة . وقال مسلم بن قُتيبة ، لرجل اعتذر إليه : لايَدْعُوَنَّك أمر قد تخلصتَ منه ، إلى الدخول فى أمر لعلك لاتخلصُ منه . وقال بعض الحـكماء : شفيع المذنب إقرارُه ، وتوبته اعتذاره . وقال بعض البلغاء : من لم يقبل التوبة ، عظمتْ خطيئته ، ومن لم يحسن إلى التائب ، قبحت إساءته . وقال بعض الحـكماء : الـكريم مَن أوْسَعَ المغفرة ، إذا ضاقت بالذنب المَعْذِرة .

---

(١) ينغر : يفسد . أو يسيل دمه . وفى بعض النسخ : ينفر : أى يورم بعد البرء .

وقال بعض الشعراء :

العذرُ يلحقهُ التحريفُ والكذبُ ... وليسَ فى غير مايرضيكَ لى أربُ
وقد أسأتُ فبالنُّعْمَى التى سلفتْ ... إلّا مَننْتَ بعفو ماله سَبَبُ

و إن تَعجَّل العُذر قبل توبته ، وقدم التنصُّل قبل إنابته ، فالعذر توبة ، والتنصل إنابة ، فلا يكشِف عن باطن عُذره ، ولا يُعَنَّف بظاهر غدره ، فيكونَ لئيم الظفَر ، سَيِّئَ المكافأة . وقد قيل : مَنْ غلبته الحِدّة ، فلا تغترِر بمودّته . وقال بعض الحكماء : شافع لمذنب خضوعه إلى عُذره . وقال بعض الشعراء :

اقبَلْ مَعاذيرَ من يأتيكَ معتذرًا ... إن برَّ عندكَ فيما قالَ أو فَجَرَا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهرُه ... وقد أجَلَّك من يَعْصيك مُستَتِرا

و إن تركَ نفسه فى زلله ، ولم يتداركه بعُذْره وتنصُّلِه ، ولا محاه بتوبته وإنابته ، راعيت حاله فى المتاركة ، فستجده لاينفكُّ فيها من أمور ثلاثة :

أحدها : أن يكون قد كفَّ عن سَيِّئ عمله ، وأقلعَ عن سالف زَلَله ، فالكف إحدى التوبتين ، والإقلاع أحد العُذْرين ، فكن أنت المعتذر عنه بصفحك ، والمتنصِّل له بفضلك . فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : المحسِن على المسىء أمير .

والثانى : أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله ، غير تارك ولا متجاوز ، فوقوف المرض أحد البُرْءين ، وكفه عن الزيادة إحدى الحُسْنَيين ، وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه . فعوِّل به على صلاح شطره الآخر ، وإياك وإرجاءه ، فإن الإرجاء يفسد شطر صلاحه ، والتلافىَ يُصلح شطر فساده ، فإن من سَقِم من جسمه مالم يُعالجه ، سَرَى السَّقَم إلى صحته ، وإن عالجه سرت الصحة إلى سَقَمه .

والثالث : أن يتجاوز مع الأوقات ، فيزيد فيه على مرور الأيام . فهذا هو الداء العُضال ، فإن أمكن استدراكه ، وتأتى استصلاحُه ، وذلك باستنزاله عنه إن علا ، وبإرغابه إن دنا ، وبعتابه إن ساوَى ، وإلّا فآخرُ الداء العَياء الكىّ . ومن بَلَغتْ به الأعذار إلى غايتها ، فلا لائمة عليه ، والمقيم على شقاقه باغ مصروع . وقد قيل : من سلَّ سيف البغى ، أغمدَه فى رأسه . فهذا شرط .

وأما المسامحة فى الحقوق ، فلأن الاستيفاء مُوحِش ، والاستقصاء منفِّر . ومن أراد كل حقّه من النفوس المستصعبة ، بشحّ أوطمع ، لم يصل إليه إلا بالمنافرة والمشاقة ، ولم يقدر عليه إلا بالمخاشنة والمشاحّة ، لما استقرّ فى الطباع من مَقْت من شاقّها ونافرها ، و بغض من شاحَّها ونازعها ، كما استقرّ حُب من ياسرها وسامحها ، فكان أليق لأمور المروءة ، استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة ، وتألفها بالمقاربة والمساهلة . قال بعض الحكماء : من عاشر إخوانه بالمسامحة ، دامت له مودّاتهم . وقال بعض الأدباء : إذا أخذتَ عفوَ القلوب زكا رَيْعك ، وإن استقصَيت أكْدَيت .

والمسامحة نوعان : فى عقود ، وحقوق .

فأما العقود : فهو أن يكون فيها سهل المناجزة ، قليل المحاجزة ، مأمون الغَيبة ، بعيدا من المكر والخديعة . رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أجْمِلوا فى طلب الدنيا ، فإنّ كلاً مُيسَّرٌ لما كُتب له منها » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلكم على شىء يحبه الله تعالى ورسوله ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : التغابُن للضعيف » . وحَكى ابنُ عون : أن عمر ابن عبد الله اشترى للحسَن البصرىّ إزارا بستة دراهمَ ونصف ، فأعطى التاجر سبعة دراهم ، فقال : ثمنه ستة دراهم ونصف . فقال: إنى اشتريته لرجل لايقاسم أخاه درهما . ومن الناس من يرى أن المساهلة فى العقود عجز ، وأن الاستقصاء فيها حَزْم ، حتى إنه لينافس فى الحقير ، وإن جاد بالجليل الكثير ، كالذى حكى عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس فى درهم ، وهو يجود بما يجود به . فقيل له فى ذلك ، فقال : ذلك مالى أجود به ، وهذا عقلى بخلت به . وهذا إنما يسوغ من أهل المروءة فى دفع مايخادعهم به الأدنياء ، ويُغابنهم به الأشحاء ، وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر . فأما ثُمَّا كسة الاستنزال والاستسماح ، فكَلّا ، لأنه مناف للكرم ، ومناف للمروءة .

وأما الحقوق فتتنوّع المسامحة فيها نوعين : أحدهما : فى الأحوال ، والثانى : فى الأموال .

فأما المسامحة فى الأحوال ، فهى اطراح المنازعة فى الرُّتب ، وترك المنافسة فى التقدم ، فإن مُشاحَّة النفوس فيها أعظم ، والعناد عليها أكثر ، فإن سامح فيها ولم ينافس ، كان مع أخذه أفضل الأخلاق ، واستعماله لأحسن الآداب ، أوقع فى النفوس من أفضاله برغائب الأموال ،

ثم هو أزيد فى رتبته ، وأبلغ فى تقدّمه ، وإن شاحّ فيها ونازع ، كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق ، واستعماله لأهجن الآداب ، أنكى فى النفوس من حد السيف وطعن السنان ، ثم هو أخفض للمرتبة ، وأمنع من التقدم .

حُكِىَ أن فتًى من بنى هاشم تخطَّى رقاب الناس عند ابن أبى داود فقال : يا بُنىّ ، إن الآداب مِيراث الأشراف ، ولست أرى عندك من سَلَفك إرثا .

وأما المسامحة فى الأموال ، فتتنوّع ثلاثة أنواع : مسامحة إسقاطٍ لعَدَم ، ومسامحة تخفيفٍ لعجز ، ومسامحة إنكار لعُسرة ، وهى مع اختلاف أسبابها تفضُّلٌ مأثورٌ ، وتألف مشكور . وإذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده ، وينفذ فيه تصرّفه ، كان أولى أن يجود بما خرج عن يده ، فطاب نفسا بفراقه . وقد تصل المسامحة فى الحقوق إلى من لايقبل البرّ ، ويأبى الصلة ، فيكون أحسن موقعا ، وأزكى محلا ، وربما كانت المسامحة فيها آمن من ردّ السائل ، ومنع المجتدِى ، لأن السائل كما اجترأ على سؤالك ، فسيجترئ على سؤال غيرك إن رددته ، وليس كل من صار أسيرَ حقك ، ورهينَ دينك، يجدُ بدًّا من مسامحتك ومياسرتك ، ثم لك مع ذلك حسن الثناء ، وجزيل الأجْر . وقال محمود الورّاق رحمه الله :

المرء بعد الموتِ أُحدوثةٌ ... يفنَى وتبقَى منــه آثارُهُ
فأحسنُ الحالات حالُ امرئ ... تطيبُ بعد الموت أخبارُهُ

فهذه حال المُياسرة .

وأما الإفضال فنوعان : إفضالُ اصطناع ، وإفضال استكفاف ودفاع .

فأما إفضال الاصطناع فنوعان : أحدهما : ما أسداه جودا فى شكور . والثانى : ما تألف به نَبْوةَ نَفُور ، وكلاهما من شروط المروءة ، لما فيهما من ظهور الاصطناع ، وتكاثر الأشياع والأتباع ، ومن قلت صنائعه فى الشاكرين ، وأعرض عن تألّف النافرين ، كان فردا مهجورا ، وتابعا محقورا ، ولامروءة لمتروك مُطَّرح ، ولا قَدْر لمحقور مهتضَم . وقال عمر بن عبد العزيز : ماطاوعنى الناس على شىء أردته من الحقّ ، حتى بسطت لهم طَرَفا من الدنيا . وقال بعض الحكماء : أقلّ مايجب للمنعم بحقّ نعمته ، ألّا يتوصل بها إلى معصيته .

وأنشدت لبعض الأعراب :

من جمعَ المالَ ولم يجُد بِهِ ⁂ وجَمَّعَ المالَ لعام جَدْبِهِ

هانَ على الناسِ هوانَ كَلْبِهِ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ :

يبقَى الثناء وتذهبُ الأموالُ ⁂ ولكلِّ دهر دَوْلَة ورجالُ

مانالَ محمدةَ الرجال وشُكرَهم ⁂ إلا الجوادُ بمالِه المفضالُ

لاترض من رجل حَلاوةَ قولِهِ ⁂ حتى يُصدِّقَ مايقولُ فِعالُ

فإن ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله ، فقد عَدِم من آلة المكارم عمادها ، وفقد من شروط المروءة سِنادها ، فليؤاسِ بنفسه مؤاساة المسعِف ، ولْيُسْعِد بها إسعاد المتألِّف . قال المتنبِّى :

فلْيُسْعِدِ النطقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ(١)

وإن كان لايراها وإن أجهدها ، إلا تبعا للمفضِلين ، قليلة بين المكثرين ، فإن الناس لايساوُون بين المعطِى والمانع ، ولا يُقنعهم القول ، دون الفعل ، ولا يغنيهمُ الكلام ، عن المال ، ويرَوْنه كالصَّدَى : إن ردّ صوتا ، لم يُجْدِ نفعا ، كما قال الشاعر :

يجودُ بالوعدِ ولكنَّه ⁂ يَدْهُن من قارورةٍ فارغَهْ

فكل ماخرج عندهم عن المال ، كان فارغا ، وكل ماعدا الإفضال به ، كان هيِّنا . وقد قدّمنا من القول فى شروط الإفضال ما أقنع .

وأما إفضال الاستكفاف ، فلأن ذا الفضل لايعدَم حاسد نعمة ، ومعاند فضيلة ، يعتريه الجهل بإظهار عناده ، ويبعثه اللؤم على البذاء بسفهه ، فإن غفل عن استكفاف السفهاء ، وأعرض عن استدفاع أهل البَذاء ، صار عِرْضه هَدَفا للمثالب ، وحاله عُرْضة للنوائب ، وإذا استكف السفيه ، واستدفع البذىّ ، صان عِرضه ، وحمى نعمته . وقد رُوِى عن النبىّ صلى الله

---

(١) من قول المتنبى وهو بمصر فى الأمير فاتك ، وصدر البيت :

لاخيلَ عندَكَ تُهديها ولا مالُ

عليه وسلم ، أنه قال : « ماوَقَى به المرء عِرضَه ، فهو صدقة » . وقالت عائشة رضى الله عنها : ذُبُّوا بأموالكم ، عن أحسابكم . وامتدح رجل الزُّهْرىّ ، فأعطاه قميصه ، فقال له رجل : أتعطى على كلام الشيطان ؟ فقال : من ابتغى الخيرَ ، اتقى الشر ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أراد بِرّ الوالدَين فليعطِ الشعراء » . وهذا صحيح ؛ لأن الشعر ساتر ، يُسْتر به ماضمن من مدح أوهجاء ، ومن أجل ذلك قيل : لاتوءاخِ شاعرا ، فإنه يمدحك بثمن ، ويهجوك مَجَّانا .

ولاستكفاف السفهاء بالإفضال شرطان : أحدهما : أن يخفيه ، حتى لاتنتشر فيه مطامع السفهاء ، فيتوصلوا إلى اجتذابه بسببه ، و إلى ماله بثَلْبه . والثانى : أن يتطلب له فى المجاملة وجها ، و يجعل فى الإفضال عليه سببا ، لئلا يرى أنه على السفه واستدامة البَذاء .

واعلم أنك ماحييت ، ملحوظ المحاسن ، محفوظ المساوِى ، ثم من بعد ذلك حديث منتشر ، لايراقبك صديق ، ولايحامى عنك شقيق ، فكن أحسن حديث ينشَر ، يكن سعيُك فى الناس مشكورا ، وأجرك عندالله مذخُورا . فقد رَوَى زياد بن الجراح ، عن عمرو بن ميمون : أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابَك قبل هرَمِك ، وصحتَك قبل سَقَمِك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغَك قبل شُغْلك ، وحياتَك قبل مَوْتِك » .

فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة ، و إن كان كل كتابنا هذا من شروطها ، وما اتصل بحقوقها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثامن : فى آداب منثورة

[مقدمة] اعلم أن الآداب مع اختلافها بتنقل الأحوال ، وتغير العادات ، لايمكن استيعابها ، ولا يُقدَر على حصرها . و إنما يذكر كل إنسان مابلغه الوُسْع من آداب زمانه ، واستحسن بالعُرْف من عادات دهره ، ولو أمكن ذلك ، لكان الأوّلُ قد أغنى الثانىَ عنها ، والمتقدِّم قد كفَى المتأخر تكلفها ، و إنما حظ الأخير ، أن يتعانى حفظ الشارد ، وجمع المفترق ، ثم يعرِض ما تقدم على حُكم زمانه ، وعادات وقته ، فيثبت ما كان موافقا ، وينفى ما كان مخالفا ، ثم يستمد خاطره فى استنباط زيادة ، واستخراج فائدة ، فإن أسعف بشىء فاز بدرْكه ، وحَظِى

بفضيلته ، ثم يُعَبِّر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام الوقت ، وعُرْف أهله ، فإن لأهل كل وقت فى الكلام عادة تُؤْلَف ، وعبارة تُعْرَف ، ليكون أوقع فى النفوس ، وأسبق إلى الأفهام ، ثم يُرتب ذلك على أوائله ومقدماته ، ويثبته على أصوله وقواعده حَسْب مايقتضيه الجنس ؛ فإن لكل نوع من العلوم طريقة ، هى أوضح مسلكا ، وأسهل مأخذا ، فهى خمسة شروط ، هى حظ الأخير فيما يعانيه .

وكذلك القول فى كل تصنيف مستحدَث ، ولولا ذلك لكان تعاطى ما تقدم به الأوَّل عناء ضائعا ، وتكلُّفا مستهجَنا . ونرجو الله أن يُمدّنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط ، وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق ، حتى نسلَم من ذم التكليف ، ونبرأ من عيوب التقصير ، وإن كان اليسير مغفورا ، والخاطئ معذورا . فقد قيل : من صَنَّف كتابا فقد استهدَف ، فإن أحسن فقد استعطف ، وإن أساء فقد استقذَف ، وقد مضت أبواب تضمنت فصولا ، رأيت اتباعها بما لا أحب الإخلال به .

[أدب المأكل والمشرب] فمن ذلك حال الإنسان فى مأكله ومشربه ؛ فإن الداعى إلى ذلك شيئان : حاجة ماسَّة ، وشهوة باعثة . فأما الحاجة فتدعو إلى ماسدّ الجُوع ، وسكَّن الظمأ . وهذا مندوب إليه عقلا وشرعا ، لما فيه من حفظ النفس ، وحِراسة الجسد . ولذلك ورد الشرع بالنهى عن الوصال بين صوم اليومين ، لأنه يُضْعِف الجسد ، ويميت النفس ، ويُعْجِز عن العبادة ، وكل ذلك يمنع منه الشرع ، ويدفع عنه العقل . وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة ، حظّ من برّ ، ولا نصيب من زهد . لأن ماحرَمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف ، أكثر ثوابا ، وأعظم أجرا ، إذ ليس فى ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات ، وإتيان القرب . ومن أخسر نفسه ربحا موفورا ، أوحرَمها أجرا مذخورا ، كان زهده فى الخير أقوى من رغبته ، ولم يبق عليه من هذا التكليف ، إلا الشهوة بريائه وسمعته .

وأما الشهوة فتتنوّع نوعين : شهوةً فى الإكثار والزيادة ، وشهوة فى تناول الألوان اللذيذة . فأما النوع الأول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة ، والإكثار على مقدار الكفاية ، فهو ممنوع منه فى العقل والشرع ، لأن تناول مازاد على الكفاية ، نَهَمٌ مَعرّ ، وشَرَه مَضرّ . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والبِطْنة ، فإنها مَفسدة للدين ، مورثة للسُّقم ، مَكْسَلَة عن العبادة » . وقال على رضى الله عنه : إن كنت بَطِنا ، فعُدَّ نفسَك زَمِنا .

وقال بعض البلغاء : أقلل طعاما ، تحمد مَناما . وقال بعض الأدباء : الرَّغَب لؤم ، والنهَم شؤم . وقال بعض الحكماء : أكبر الدواء : تقْدير الغذاء . وقال بعض الشعراء :

فكم من لُقمة منعتْ أخاها ... بلذة ساعةٍ أكلاتِ دَهْرِ
وكم من طالب يسعَى لأمرٍ ... وفيه هلاكُه لو كان يدرِى

وقال آخر :

كم دخلتْ أكلةٌ حَشَا شَرِهٍ ... فأخرجت روحَهُ من الجَسَدِ
لابارَكَ اللهُ فى الطعام إذا ... كان هلاكُ النفوسِ فى المِعَدِ

وربّ أكلة هاضت الآكل ، وحَرَمته مآكل. رَوَى أبو يزيدَ المدنىّ، عن عبدالرحمن ابن المرقَّع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] : « إن اللهَ لم يخلق وعاءً مُلئَ شرًّا مِنْ بطن ، فإن كان لابد فاعلا ، فاجعلوا ثُلُثا للطعام ، وثلثا للشراب ، وثلثا للريح » .

وأما النوع الثانى ، وهو شهوة الأشياء اللذيذة ، ومنازعة النفوس إلى طلب الأنواع الشهية ؛ فمذاهب الناس في تمكين النفس منها مختلفة ، فمنهم من يرَى أنّ صَرْف النفس عنها أولى ، وقهرَها عن اتباع شهواتها أحرى ، ليذِلّ له قيادها ، ويَهونَ عليه عِنادُها ، لأن تمكينها وماتهوَى، بَطَر يطغِى ، وأشَرٌ يُرْدِى ، لأن شهواتها غير متناهية ، فإذا أعطاها المراد من شهوات وقتها ، تعدَّتها إلى شهواتٍ قد استحدثتها ، فيصيرُ الإنسان أسيرَ شهوات لاتنقضِى ، وعَبْدَ هوًى لاينتهى . ومن كان بهذه الحال لم يُرْجَ له صلاح ، ولم يُوجد فيه فضل .

وأُنشدت لأبى الفتح البُستى :

ياخادمَ الجسم كم تَشقَى بخدمته ... لتطلبَ الرِّبْح مما فيه خُسْرانُ
أقبلْ عَلَى النفسِ واستكملْ فضائلَها ... فأنتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

وللحذَر من هذه الحال، ماحُكِىَ أن أبا حَزْم رحمه الله كان يمرّ على الفاكهة فيشتهيها ، فيقول : موعدُك الجنة . وقال آخرون : تمكين النفس من لَذَّاتها أَوْلَى ، وإعطاؤها ما اشتهتْ

---

(١) لفظ الحديث المشهور : ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لامحالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه . رواه أحمد وابن ماجه والترمذى ، عن المقدام بن معديكرب قال الحاكم : صحيح . وانظر المناوى على الجامع .

من المباحات أحرى ، لما فيه من ارتياح النفس بنَيل شهواتها ، ونشاطِها بإدراك لذاتها ، فتنحسِر عنها ذِلّة المقهور ، و بلادة المجبور ، ولا تقصُرْ عن دَرْك ، ولا تعصِى فى نَهضــة ، ولا تَــكِلّ عن استعانة .

وقال آخرون : بل توسُّطُ الأمرين أوْلَى ، لأن فى إعطائها كلَّ شهواتها بلادة ، والنفس البليدة عاجزة ، وفى منعها عن البعض كفٌّ لها عن السلاطة ، وفى تمكينها من البعض حَسْمٌ لها عن البلادة . وهذا لعمرى أشبه المذاهب بالسلام ، لأن التوسُّط فى الأمور أحمد . و إذ قد مضَى الـكلامُ فى المأكول والمشروب ، فينبغى أن يُتْبع بذكر الملبوس .

[أدب الملبوس] اعلم أنّ الحاجة و إن كانت فى المأكول والمشروب أدعى ، فهى إلى الملبوس ماسة ، و بها إليه فاقة ، لما فى الملبوس من حفظ الجسد ، ودفع الأذى ، وستر العورة ، وحصول الزينة . قال الله تعالى : « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يُوَارِى سَوْآتِكم ورِيشًا ، ولباسُ التقوى ذلك خير » . فمعنى قوله أنزلنا عليكم لباسا : أى خلقنا لكم ماتلبسون من الثياب يوارى سَوْآتِكم ، أى يستر عوْراتكم ، وسُمِّيت العَورة سَوْءَة ، لأنه يسوء صاحبها انكشافُها من جسده . وقوله : « وريشا » فيه أربعة تأويلات :

أحدها : المال . وهو قول مجاهد .

والثانى : أنه اللباس والعيش والنِّعَم . وهو قول ابن عباس ، رضى الله عنهما .

والثالث : أنه المعاش ، وهو قول مَعْبد الجُهنى .

والرابع : أنه الجمال . وهو قول عبد الرحمن بن زَيد .

وقوله : « ولِباسُ التقوى » فيه ستة تأويلات :

أحدها : أن لباس التقوى ، هو الإيمان . وهو قول قتادة والسُّدّىّ . والثانى : أنه العمل الصالح . وهو قول ابن عباس ، رضى الله عنهما . والثــالث : أنه السَّمْتُ الحَسَن ، وهو قول عثمان بن عفان رضى الله عنه . والرابع : هو خشية الله تعالى ، وهو قول عُرْوة بن الزُّبير . والخامس : أنه الحياء . وهذا قول مَعْبد الجُهَنى . والسادس : هو ستر العورة . وهــذا قول عبد الرحمن بن زَيد .

وقوله « ذلك خير » : فيه تأويلان : أحدهما : أن ذلك راجع إلى جميع ماتقدم من قوله : « قد أنزلنا عليكم لباسا يوارِى سَوآتِكم ورِيشا ولباسُ التقوَى » ثم قال : ذلك خير ، أى ذلك الذى ذكرته خير كله .

والثانى : أن ذلك راجع إلى لباس التقوى ، ومعنى الكلام : أن لباس التقوى خير من الرِّياش واللباس . وهذا قول قتادة والسُّدّىّ . فلما وصف الله تعالى حال اللباس ، وأخرجه مُخْرَجَ الامتنان ، عَلِم أنه معونة منه ، لشدة الحاجة إليه . و إذا كان كذلك ، ففى اللباس ثلاثة أشياء : أحدها : دفع الأذى . والثانى : سَتر العَوْرة . والثالث : الجمال والزينة .

فأما دفع الأذى به فواجب بالعقل ، لأن العقل يُوجب دفعَ المضارّ ، واجتلاب المنافع . وقد قال الله تعالى : « والله جعل لكم مما خَلقَ ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ ، وسرابيل تقيكم بأسكم » . فأخبر بحالها ، ولم يأمر بها ، اكتفاء بما يقتضيه العقل ، واستغناء بما يبعث عليه الطبع ؛ ويَعْنى بالظلال : الشجر ، و بالأكنان : جمعَ كِنّ ، وهو الموضع الذى يُستكن فيه . ويَعْنى بقوله : « سَرابيل تقيكم الحرّ » ثياب القطن والكَتان والصوف . و بقوله : « وسرَابيل تقيكم بأسكم » الدروع التى تقى البأس ، وهو الحرب . فإن قيل : كيف قال : تقيكم الحرّ ، ولم يذكر البرد . وقال : « جعل لكم من الجبال أكنانا » ولم يذكر السَّهل ، فعن ذلك جوابان :

أحدهما : أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام ، فذكر لهم الجبال ، وكانوا أصحاب حَرٍّ دون برد ، فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم . وهذا قول عطاء .

والجواب الثانى : أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر ، إذ كان معلوما أن السرابيل التى تقى الحرّ أيضا تقى البرد ، ومَن اتخذَ من الجبال أكنانا اتخذ من السَّهل . وهذا قول الجمهور .

وأما سَتر العورة فقد اختلف الناس فيه : هل وجب بالعقل أو بالشرع ؟ فقالت طائفة : وجب سَترها بالعقل ، لما فى ظهورها من القبح ، وما كان قبيحا فالعقل مانع منه . ألا ترى أن آدمَ وحواءَ لما أكلا من الشجرة التى نُهيا عنها ، بدت لهما سَوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، تنبها بعقولهما لستر ما رأياه مستقبَحا من سوآتهما ، لأنهما لم يكونا قد كُلِّفا ستر ما لم يبدُ لهما ، ولا كُلِّفاه بعد أن بدت لهما ، وقبل سترها . وقالت طائفة أخرى : بل ستر العورة واجب بالشرع ، لأنه بعض الجسد ، الذى لايوجب العقل ستر باقيه ؛ و إنما اختصت العورة بحكم شرعىّ ، فوجب أن يكون مايلزم من سترها حكما شرعيا .

وقد كانت قريش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وُفور العقل ، وصحة الألباب ، يطوفون بالبيت عُراة ، ويحرّمون على نفوسهم اللحم والوَدَك ، ويرون ذلك أبلغ فى القُرْبة ، وإنما القُرَب : ما استُحْسِنت فى العقل ، حتى أنزل الله تعالى : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسْرِفوا ، إنه لايحبُّ المسرفين » . يعنى بقوله : « خذوا زينتكم » الثياب التى تستر عوْراتكم ، وكلوا واشربوا ماحرّمتموه على أنفسكم من اللحم والوَدَك . وفى قوله تعالى : « ولا تسْرِفوا » تأويلان :

أحدهما : لاتسرفوا فى التحريم . وهذا قول السُّدّىّ .

والثانى : لاتأكلوا حراما ، فإنه إسراف . وهذا قول ابن زيد . فأوجب بهذه الآية سَتر العورة ، بعد أن لم يكن العقل موجبا له ، فدلّ ذلك على أن سترها وجب بالشرع ، دون العقل .

وأما الجمال والزينة : فهو مستحسَن بالعُرف والعادة ، من غير أن يوجبه عقل أو شرع . وفى هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير . والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين : أحدهما : فى صفة الملبوس وكيفيته . والثانى : فى جنسه وقيمته . فأما صفته فمعتبرة بالعُرف من وجهين : أحدهما : عُرف البلاد ؛ فإن لأهل المشرق زِيا مألوفا ، ولأهل المغرب زِيا مألوفا ، وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات فى اللباس مختلفة . والثانى : عرف الأجناس ؛ فإن للأجناد زِيا مألوفا ، وللتجار زِيا مألوفا ، وكذلك لمن سواهما من الأجناس المختلفة عادات فى اللباس . وإنما اختلفت عادات الناس فى اللباس من هذين الوجهين ، ليكون اختلافهم سِمَةً يتميزون بها ، وعلامة لايخفَوْن معها ، فإن عَدَل أحد عن عُرف بلده وجنسه ، كان ذلك منه خُرْقا وَحُمْقا ، ولذلك قيل : العُرْى الفادح : خير من الزىّ الفاضح .

وأما جنس الملبوس وقيمته ، فمعتبر من وجهين : أحدهما بالمُكْنة من اليسار والإعسار ، فإن للموسر فى الزّى قَدْرا ، وللمعسر دونه . والثانى : بالمنزلة والحال ؛ فإن لذى المنزلة الرفيعة فى الزىّ قدرا ، وللمنخفض عنه دونه ، ليُتفاضلَ فيه على حسب تفاضل أحوالهم ، فيصيروا به متميزين ، فإن عَدَل الموسر إلى زىّ المعسِر ، كان شُحًّا وبخلا ، وإن عدل الرفيع إلى زىّ الدنىء ، كان مَهانة وذُلّا ، وإن عدل المعسِر إلى زىّ الموسِر ، كان تبذيرا وسَرَفا ، وإن عدل

الدنىء إلى زِىّ الرفيع ، كان جهلا وحُمْقا ؛ ولزوم العُرف المعهود ، واعتبار الحد المقصود : أدل على العقل ، وأمنع من الذم . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إيا كم لِبْسَتين : لِبسة مشهورة ، ولِبسة محقورة . وقال بعض الحكماء : الْبَس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء ، ولا يَعيبه عليك الحكماء . وقال بعض الشعراء :

إن العيونَ رمتكَ إذ فاجأتَها ... وعليكَ من شَهْرِ الثياب لباسُ

أما الطعامُ فكل لنفسك ماتَشا ... واجعل لباسَك مااشتهاه الناسُ

واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدلَ الحال فى مراعاة لِباسه ، من غير إكثارٍ ولا اطِّراح ، فإن اطِّراح مراعاتها ، وترك تفقُّدها ، مَهانة وذلّ ، وكثرة مراعاتها ، وصرف الهمة إلى العناية لها ، دناءة ونقص ؛ وربما توهَّم بعضُ من خلا من فضل ، وعَرِى عن تمييز ، أن ذلك هو المروءة الكاملة ، والسيرة الفاضلة ، لما يرى من تميّزه بذلك عن الأكثرين ، وخروجه عن جملة العوامّ المسترذَلين ؛ وخفى عليه أنه إذا تعدّى طَورَه ، وتجاوز قدرَه ، كان أقبحَ لذكره ، وأبعث على ذمه ، فكان كما قال المتنبى :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسنُ بِزّتِهِ ... وهلْ يَروق دَفيناً جَودَةُ الكَفَنِ

وحكَى المبرِّدُ أن رجلا من قريش ، كان إذا اتسع لبس أرثّ ثيابه ، وإذا ضاق لبس أحسنها . فقيل له فى ذلك ، فقال : إذا اتسعت تزينت بالجود ، وإذا ضِقْت فبالهيئة . وقد أتى ابنُ الرومى بأبلغَ من هذا المعنى فى شعره ، فقال :

وما الحَلْىُ إلّا زينـةٌ لنقيصةٍ ... يُتَمِّمُ من حسن إذا الحسن قَصَّرا

فأما إذا كان الجمـالُ مُوَفَّرًا ... كحسنك لم يحتج إلى أن يُزَوَّرَا

ولذلك قالت الحكماء : ليست العزة ، فى حسن البِزّة . وقال بعض الشعراء :

وترى سفيه القوم يَدْنُس عِرْضه ... سَفَهًا وَيَمسح نعلَه وشِرَاكَها

وإذا اشتد كلَفُه بمراعاة لباسه ، قطعه ذلك عن مراعاة نفسه ، وصار الملبوس عنده أنفس ، وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل فى منثور الحكم : الْبَسْ من الثياب مايخدمُك ولا يستخدِمك. وقال خالد بن صفوان لإياس بن معاوية : أراك لا تبالى مالبست ؟ فقال : أَلْبَسُ ثوبا أقِى به نفسى :

أحب إلىّ من ثوب أقيه بنفسى . فكما أنه لا يكون شديد الكلف بها ، فكذلك لا يكون شديد الاطِّراح لها . فقد حُكِى عن عائشة : «أن رجلا جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه رَثَّ الهيئة ، فقال : ما مالُكَ ؟ قال : من كل المال قد آتانىَ الله . فقال : إن الله تعالى يُحِبّ إذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر إلى أثرها عليه» . وقد قيل : المُروءة الظاهرة ، فى الثياب الطاهرة .

[تأديب الخدم] وهكذا القول فى غِلمانه وحَشَمه : إن اشتد كَلَفُه بهم، صار عليهم قَيِّماً ، ولهم خادما ؛ وإن اطرحهم قلّ رشادهم ، وظهر فسادهم ، فصاروا سببا لمقته ، وطريقا إلى ذمه ، لكن يكفُّهم عن سَيّئ الأخلاق ، ويأخذهم بأحسن الآداب ، ليكونوا كما قال فيهم الشاعر :

سَهْل الفِناء إذا مررت ببابه طَلْق اليدين مؤدّبُ الخُدّامِ

وليكن فى تفقد أحوالهم ، على ما يحفظ تجمّلَه ، ويصون مُبتذلَه . فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ادَّهِنوا ، يَذهبِ البؤس عنكم ، والبسوا، تظهرْ نعمة الله عليكم ، وأحسنوا إلى مماليككم، فإنه أكبت لعدوّكم ». وليتوسط فيهم ما بين حالتى اللين والخشونة، فإنه إن لان هان عليهم ، وإن خَشُن مقتوه ، وكان على خطَر منهم . حكى أن المُوبَذ سمع ضحك الخُدام فى مجلس أنوشِرْوان ، فقال : أما تمنع هؤلاء الغلمان ؟ فقال أنو شروان : إنما بهم يَهابنا أعداؤنا . وقال أبو تمام الطائىّ :

حَشَم الصديق عيُونهم بحَّاثةٌ لصديقه عن صدقِهِ ونفاقِهِ
فلْينظُرَنّ المرء مَن غِلمانُه فهمُ خلائفُه على أخلاقِهِ

[الراحة والنوم] واعلم أن للنفس حالتين: حالة استراحة، إن حرَمْتها إياها كلت ، وحالة تصرُّف إن أرحتها فيها تخلّت . فالأوْلى بالإنسان تقدير حاليه : حال نومه ودَعته ، وحال تصرفه ويقظته ؛ فإن لها قدرا محدودا ، وزمانا مخصوصا ، يضر بالنفس مجاوزة أحدهما ، وتغير زمانهما . فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نَوْمةُ الصُّبْحة مَعْجزة مَنفخَة مَكْسلة مَوْرَمَة ، مَفْشَلة مَنْساة للحاجة » . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: النوم ثلاثة :

نومُ خُرق ، وهى الصُّبْحة ، ونوم خُلق ، وهى القائلة ، ونوم حُمق وهو العَشِىّ . وقد رَوَى محمد بن يزداد ، عن ميمون بن مِهران ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نوم الضحى خُرْق ، والقيلُولة خُلُق ، ونوم العشىّ حُمق » . وقيل فى منثور الحكم : من لَزِم الرُّقاد ، عَدِم المراد . فإذا أعطَى النفس حقها من النوم والدعة ، واستوفى حقه بالتصرّف واليقظة ، خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها ، وسلم بالرياضة من بَلادتها وفسادها. وحُكى أن عبد الملك بن عمرَ بن عبد العزيز دخل على أبيه ، فوجده نائما ، فقال : يا أبت ، أتنام والناس بالباب ؟ فقال يابُنىّ ، نفسى مَطيتى ، وأكره أن أُتعبَها ، فلا تقومَ بى .

وينبغى أن يقسِم حالة تصرُّفه ويقظته ، على المهِم من حاجاته ، فإن حاجة الإنسان لازمة ، والزمان يقصّر عن استيعاب المهمّ ، فكيف به إن تجاوز إلى ماليس بمهمّ ، هل يكون إلّا :

كتاركةٍ بيضَهـــا بالعَرَاء وَمُلْبِسَةٍ بيضَ أُخرَى جَناحَا

[محاسبة النفس] ثم عليه أن يتصفح فى ليله ، ماصدر من أفعال نهاره ، فإن الليل أخطر للخاطر ، وأجمع للفكر ، فإن كان محمودا أمضاه ، وأتبعه بما شاكله وضاهاه ، وإن كان مذموما استدركه إن أمكن ، وانتهى عن مثله فى المستقبل ؛ فإنه إذا فعل ذلك وجدَ أفعاله لاتنفك من أربعة أحوال :

إما أن يكون قد أصاب فيها الغرضَ المقصود بها . أو يكون قد أخطأ فيهـا ، فوضعها فى غير موضعها ، أو يكون قصَّر فيهـا ، فنقصت عن حدودها . أو يكون قد زاد فيها ، حتى تجاوزت محدودها . وهذا التصفح إنما هو استظهار بعد تقديم الفكَر قبل الفعل ، ليعلم به مواقع الإصابة ، وينتهز به استدراك الخطأ . وقد قيل : مَن كثر اعتباره ، قلّ عِثاره . وكما يتصفح أحوال نفسه ، فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره ؛ فربما كان استدراكه الصواب منها ، أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى ، وخلوّ الخاطر من حسن الظن ، فإن ظفِر بصواب وجده من غيره ، أوأعجبه جميل من فعله ، زيّن نفسه بالعمل به ، فإن السعيد من تصفح أفعال غيره ، فاقتدى بأحسنها ، وانتهى عن سَيِّئِها . وقد رَوَى زيد بن خالدٍ الجُهَنىّ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السعيد من وُعِظ بغيره » . وقال الشاعر :

إن السعيدَ له من غيره عِظةٌ وفى التجارب تحكيمٌ ومعتبرُ

وأنشدنى بعضُ أهل العلم ، لطاهر بن الحسين :

إذا أعجبتكَ خِصال امرئٍ فكنْهُ يكنْ منكَ مايُعجبكْ

فليسَ على المجدِ والمكرُماتِ إذا جئتها حاجبٌ يحْجُبكْ

[الروية قبل العمل] فأما مايرومه من أعماله ، ويؤثر الإقدام عليه من مطالبه ، فيجب أن يقدّم الفكرَ فيه قبل دخوله ، فإن كان الرجاء فيه أغلب من الإياس منه ، وحُمدت العاقبة فيه ، سَلَكه من أسهل مطالبه ، وألطف جهاته ، و بقدر شرفه يكون الإقدام ، وإن كان الإياس أغلب عليه من الرجاء ، مع شدة التغرير ، ودناءة الأمر المطلوب ، فليحذَر أن يكون له متعرِّضا . فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا هممت بأمر ففكر فى عاقبته ، فإن كان رشدا فأمضه ، و إن كان غيا فانته عنه » . وقالت الحكماء : طلب مالا يُدْرَك عجز . وقال بعض الشعراء :

فإياكَ والأمرَ الذى إن توسعتْ مَوارده ضاقت عليك المصادرُ

فماحَسَن أن يعذِر المرء نفسَهُ وليس له من سائر الناس عاذرُ

وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خُلُقا ، وفى كل وقت من أوقات دهره عملا ، فإن تخلق فى كِبره بأخلاق الصِّغَر ، وتعاطى أفعال الفكاهة والبَطَر ، استصغره من هو أصغَر ، وحقَّره من هو أقلّ وأحقر ، وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر :

وكلُّ بازٍ يَمسُّهُ هرَم تخرَا على رأسِهِ العصافيرُ

[خاتمة]

فكن أيها العاقل مُقبلا على شانك ، راضيا عن زمانك ، سَلْما لأهل دهرك ، جاريا على عادة عصرك ، منقادا لمن قدّمه الناس عليك ، متحننا على من قدمك الناس عليه ، ولا تباينْهمْ بالعُزلة عنهم فيمقتوك ، ولا تجاهِرْهم بالمخالفة لهم فيعادوك ، فإنه لاعيش لممقوت ، ولا راحة لمعادًى . وأنشد بعض أهل الأدب لبعضهم :

إذا اجتمعَ الناس فى واحدٍ   وخالفَهم فى الرّضا واحدُ
فقــد دلَّ إجماعهمْ دونه   على عقلهِ أنه فاســـدُ

واجعلْ نُصْح نفسك غنيمة عقلك ، ولا تُداهنها بإخفاء عيبك ، وإظهار عُذرك ، فيصير عدُوُّك أحظى منك فى زجر نفسه ، بإنكارك ومجاهرتك من نفسك ، التى هى أخص بك ، لإغرائك لها بأعذارك ومساءتك ، فحسبُك سُوءا رجل ينفع عدوّه ، ويضر نفسه . وقال بعض الحكماء : أصلِحْ نفسك لنفسك ، يكن الناس تبعا لك . وقال بعض البلغاء : مَن أصلح نفسه ، أرغم أنف أعاديه ، ومن أعمل جِدّه بلغ كنهَ أمانيه . وقال بعض الأدباء : من عرف عابه ، فلا يلم من عابه . وأنشدنى أبو ثابتٍ النحوىّ لبعض الشعراء :

ومَصروفةٍ عيناه عن عيب نفسهِ   ولو بان عيبٌ من أخيه لأبصَرَا
ولو كان ذا الإنسانُ يُنْصِف نفسَه   لأمسكَ عن عيب الصديق وقصَّرَا

فهذِّب أيها الإنسان نفسك ، بافتكار عيوبك ، وانفعها كنفعك لعدوّك ، فإن من لم يكن له من نفسه واعظ ، لم تنفعه المواعظ .

أعاننا الله وإياك على القول بالعمل ، وعلى النصح بالقبول ، وحسبُنا الله وكَفى .

تم طبعه مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برياسة الشيخ أحمد سعد على
بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

القاهرة فى ٢١ ربيع ثان ١٣٧٥ هـ — ٦ ديسمبر ١٩٥٥ م
[١٩٥٥/٣٠٠٠/١٢/٥٢]

ملاحظ المطبعة   مدير المطبعة
محمد أمين عمران   رستم مصطفى الحلبى